صفحات من تاريخ
الحروب الصليبية

إمارة طرابلس الصليبية

في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري



نهى فتحي الجوهري

دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

هذا الكتاب

إمارة طرابلس هي إحدى الإمارات الصليبية المهمة إلى جانب إمارتيْ الرَّها وأنطاكية ومملكة بيت المقدس، ومن ثَم فإن دراستها تعيد فتح صفحات مطوية من تاريخ الحروب الصليبية.

وهذا الكتاب يتناول إمارة طرابلس في القرن الثالث عشر الميلادي -السابع الهجري- من الناحية السياسية والحربية والاقتصادية والتجارية والاجتماعية. وكان من أهم ما خرجت به الدراسة، أن الصليبيين لم يكونوا أصحاب رسالة حضارية، وإنما كانوا دعاة حرب وقتال ليس أكثر، حتى بين بعضهم وبعض؛ ولهذا فقد سقطت الإمارة آخر الأمر في أيدي المسلمين ولم تعد إلى النفوذ الصليبي بعد ذلك.

إنه كتاب لا يستغني عنه باحث في تاريخ العصور الوسطى أو قارئ مهتم بتاريخ الصراع بين الشرق والغرب، فاحرص على اقتنائه.





© دار العالم العربي
19 شارع امتداد رمسيس ـ القاهرة
تليفاكس: 22616130
e-mail :af_madkour@yahoo.com
تجهيزات فنية: الإســـراء ـ تليفون: 33143632
رقم الإيداع: 2585 / 2008
الترقيم الدولي: 5-21-6276-977-978

الطبعة الأولى: المحرم 1429 هـ ـ يناير 2008 م .

إمارة طرابلس

■ صفحات من تاريخ الحروب الصليبية ■

إمارة طرابلس الصليبية

فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى

نهى فتحى الجوهرى

تقديم

د. محمد مؤنس عوض




بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى من قضيت عمرى كله فى الثناء عليهم

وما وفيتهم حقهم..

إلى أبى وأمى وباقى أفراد أسرتى

جزاهم الله كل خير.

الفهرس

تقديم

يُسعدنى ويشرفنى أن أقدم أطروحة الماجستير بعنوان: إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى، وهى فى تخصص تاريخ العصور الوسطى، وأعدَّتها تلميذتى النجيبة "نهى الجوهرى" التى تخرجت في كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، وتحديدًا من قسم التاريخ بها، وقد دَرَّستُ لها، عندما كانت بالفرقة الثالثة، مادة العلاقات ببلاد الشرق والغرب فى العصور الوسطى، كما تتلمذتْ على يدىَّ خلال مرحلة دبلوم الدراسات العليا بالقسم المذكور.

إن الدراسة التى أقدمها على جانب كبير من الأهمية، نظرًا للدور المحورى الذى لعبته إمارة طرابلس الصليبية، وهى آخر الإمارات التى تمكن المسلمون، فى عصر المماليك، من إسقاطها عام 1289 م، فى عصر السلطان المنصور قلاوون.

ويُلاحظ أن الباحثة اعتمدت على عدد كبير من المصادر والمراجع الأجنبية والأوربية، وسعت ما وسعها السعى نحو تحليل الإشارات المصدرية، وكذلك المرجعية، من أجل التوصل إلى نتائج علمية محددة، وقد بذلتُ مع الطالبة ما استطعت من جهد منذ أن اقترحتُ عليها الموضوع، وأشرفت عليه طوال أربعة أعوام كاملة بالاشتراك مع أ.د. "إسحاق عبيد" خبير التاريخ البيزنطى والعلاقات اللاتينية ـ البيزنطية فى العصور الوسطى.

وهكذا، فإن الدراسة المذكورة تمثل إسهامًا علميًا مهمًا يضاف إلى الدراسات التاريخية السابقة فى صورة مؤلفات أ.د. "السيد عبد العزيز سالـم"، أ.د. "عبد العزيز عبد الدايم"، أ.د. "عمر عبد السلام تدمرى"، أ.د. "سليمان الخرابشة"، والمستشرق الفرنسى الشهير "جان ريتشارد" Jean Richard .

وقد ناقش الأطروحة المذكورة عالمان فاضلان من أساتذة العصور الوسطى وهما أ.د. "إسحاق عبيد"، أ.د. "علية الجنزورى"، ولقيت الرسالة من الثناء ما هى جديرة به، وحصلت صاحبتها على تقدير ممتاز.

وأود لفت نظر القارئ العربى فى كل مكان إلى ميلاد مجموعة بحثية من خيرة أبناء مصر، من شباب المؤرخين، من أبناء سمنار العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وهم: نهى الجوهرى، صفاء عثمان، هنادى محمود، هدى الويسى، إيمان كامل، شيماء كامل، محمود كامل، ياسر كامل، وأحمد عبد الله، وقد أشرفت عليهم جميعًا وستتوالى أطروحاتهم فى الصدور بإذن الله تعالى كى تسد ثغرات فى المكتبة العربية هى فى أمس الحاجة إليها.

إننى فى ختام هذا التقديم أتمنى للباحثة الواعدة نهى الجوهرى أن تواصل طريقها العلمى فى أطروحتها للدكتوراه، وأن تأخذ نفسها بالصبر والجد وعدم التعجل، والحرص على التأنى فى جمع المادة العلمية ـ مثلما فعلت ذلك فى دراساتها عن طرابلس ـ من أجل أن تحتل مكانها الجدير بها، والجديرة به بين مصر والوطن العربى، فى مجال تاريخ الحروب الصليبية فى حقبة العصور الوسطى، والله تعالى ولى التوفيق.

أ. د. محمد مؤنس عوض
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس
20/ 8/ 2007 م

تقديم

هناك الكثيرون ممن يرون أن التاريخ لا يعيد نفسه، بيد أن الأحداث الحالية تثبت خلاف ذلك، فما أشبه اليوم بالبارحة، فبالأمس فى عصر الحروب الصليبية اتخذ الغرب الأوروبى من الدافع الدينى ستارا له للسيطرة على الشرق الأدنى، بينما اليوم اتخذ الغرب ذاته، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، من محاربة الإرهاب والإصلاح ستارا له، لمد نفوذه على البلدان الإسلامية بأسرها، حقا نحن لا نشهد نفس الأحداث ولكننا نشهد نفس الروح الصليبية المتعصبة الغاشمة، ومن هنا جاءت أهمية دراسة التاريخ، خاصة فترة الحروب الصليبية، على اعتبار أن الأحداث الحالية ما هى إلا استكمال للمشروع الصليبى، لذلك اتجه كثير من الباحثين فى دراسة تلك الفترة التى امتدت على مدى قرنين من الزمان، هما القرنان: (12و13م/ 6و7هـ)، وعلى الرغم من ذلك فإن تلك الفترة ما زالت فى حاجة ماسة للدراسة والتناول، ومحاولة منى للإسهام- ولو بقدر بسيط- فى دراسة تلك الفترة فقد اتجهت لدراسة موضوع إمارة طرابلس الصليبية فى القرن (13م/ 7هـ)، ليكون محور دراستى فى عالم الحروب الصليبية .

فمن المعروف أن الصليبيين أثناء الحملة الصليبية الأولى، وبعدها بسنوات معدودة، تمكنوا من إقامة مملكتهم فى بيت المقدس وإماراتهم الثلاث: الرها فى أعالى الفرات، وأنطاكية فى شمالى بلاد الشام، وأخيرًا طرابلس على الساحل الشامى،

ومن ثَمَّ فقد أدى كل منها دورا محوريا مهما فى تاريخ الحروب الصليبية، خاصة إمارة طرابلس، نظرًا لكونها أطول الإمارات الصليبية عمرا باعتبارها آخرهن سقوطًا فى أيدى المسلمين، وكذلك لكونها من أبرز مراكز الثقل الصليبى فى القرن (3م/ 7هـ) - محور الدراسة - على وجه الخصوص، إذ سنلاحظ أن المسرح الجغرافى لبلاد الشام قد تغير بشكل ملحوظ مع نهايات القرن (12م/ 6هـ)، عقب معركة حطين واسترداد المسلمين لبيت المقدس وغالبية مدن الساحل وما أعقبها من فعاليات الحملة الصليبية الثالثة، حيث استقر الوضع للصليبيين فى بلاد الشام مع بدايات القرن التالى، على شريط ساحلى ضيق شمل مملكة بيت المقدس بعكا وإمارة طرابلس وبعض المدن الصغيرة الأخرى، هذا بالإضافة إلى إمارة أنطاكية التى تخلت عن دورها الفاعل فى تاريخ الحروب الصليبية، لتصبح مجرد مفعول بها ليس أكثر، وذلك جراء ما عصف بها من صراعات وحروب أهلية أدت بها إلى الانهيار، ومن ثَمَّ كانت إمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس الشريكين الأساسيين فى معظم الأحداث التى ألمت بالصليبيين خلال ذلك القرن ، **ومن هنا كان اتجاه الطالبة نحو دراسة هذه الإمارة.**

كذلك هناك دافع آخر شجع الباحثة على الخوض فى دراسة هذا الموضوع، ويتمثل فى خلو المكتبة العربية من دراسة مستقلة بذاتها تتناول إمارة طرابلس الصليبية خلال القرن (13م/ 7هـ) ، إذ إن معظم الدراسات التى كتبت عن الإمارة لم تركز على دراستها فى حد ذاتها بقدر ما ركزت على دراسة تاريخ مدينة طرابلس الشام بوجه عام، حيث تناول أ. د. "السيد عبد العزيز سالم"، تاريخ طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى بدءا من الفتح الإسلامى لها وانتهاء بالفتح العثمانى، أى أنه تناولها على مدار تسعة قرون تقريبًا، والأمر نفسه يمكن ذكره بالنسبة لدراسات أ. د"عمر عبد السلام تدمرى" رغم كونه من أكثر الباحثين العرب تخصصًا فى دراسة تاريخ طرابلس، إلا أنه للأسف لم يخصص لها دراسة مستقلة فى الفترة محور

الدراسة، بينما اقتصرت دراستا أ. د "عبد العزيز عبد الدايم" والباحث الفرنسى "جان ريتشارد" على دراسة الإمارة فى القرن (12م/ 6هـ) وبالتحديد فى عهد الأسرة الطولوشية فحسب.

أما عن أهم المشكلات والمصاعب التى واجهت الدراسة فتتمثل فى ضعف المادة العلمية التى قدمتها لنا مصادر البحث، على الرغم من كثرتها وتوافرها، ويرجع ذلك لكون معظمها معلومات مكررة اختصت بإبراز الأحداث السياسية والعسكرية فحسب، فى حين ندر الاهتمام بالجوانب الأخرى سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية، أو حتى الخاصة بنظم الحكم والإدارة، مما أعطانا للأسف صورة عامة تفتقد بقدر كبير إلى أهم الملامح المميزة لإمارة طرابلس الصليبية خلال القرن "13م/ 7هـ".

زدْ على ذلك أن المسرح الذى شهد الأحداث التى تعاقبت على الإمارة، قد تم تدمير الغالبية العظمى منه، وبشكل خاص مدينة طرابلس، عقب استرداد المسلمين لها فى عام (1289م/ 688هـ) وتتجلى أهمية تلك الآثار التى دمرت فى أنها كان من شأنها أن توضح لنا، إلى حد كبير، طبيعة الحياة الاقتصادية والاجتماعية التى عاشتها الإمارة آنذاك، مما كان بمقدوره أن يعوضنا بعض الشيء عن نقص المادة العلمية.

بالإضافة إلى أن هناك بعض الأحداث المحورية فى تاريخ الإمارة، كاسترداد المسلمين لمدينة طرابلس، وبعض ملحقاتها لم يصلنا ما كُتب عنها فى عدد من مصنفات المؤرخين المعاصرين، بل والذين ربما يكونون قد شاركوا بأنفسهم فى الفتح كمصنف" زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة" للمؤرخ "بيبرس الدوادارى" الذى حققته أ. د. "زبيدة محمد عطا"، حيث جاءت النسخة مثقوبة أثناء سنة (1289م/ 668هـ)، ونفس الأمر بالنسبة للمؤرخ "محيى الدين بن عبد الظاهر" فى مصنفه

"تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور"، الذى حققه د. "مراد كامل"، حيث جاءت نسخته مثقوبة هى الأخرى أثناء حوادث سنتي: (1288- 1289م/ 687- 688هـ)، وللأسف فإن فقدان تلك الأجزاء حجب عنا ما كان من الممكن أن يفيد موضوع الدراسة.

وقد تم تقسيم البحث إلى خمسة فصول تسبقها دراسة لأهم مصادر البحث، والمدخل الذى يعرض الإطار الجغرافى للإمارة ونشأتها وتطورها على مدى القرن (12م/ 6هـ)، وتعقبها الخاتمة والملاحق والخرائط وقائمة المصادر والمراجع. ويدرس الفصل الأول التطور السياسى لإمارة طرابلس الصليبية أثناء القرن (13م/ 7هـ)، من خلال استعراض سياسات وتوجهات أمراء طرابلس المتعاقبين على حكمها بدءًا من بوهمند الرابع وانتهاء بحفيده بوهمند السابع، مع عرض لأهم عوامل النخر الداخلية، كالحروب الأهلية المتوالية فى الإمارة، والتى تعد القاسم الأكبر فى تلك العوامل، والتى أدت بدورها فى النهاية إلى انهيار وسقوط الإمارة .

أما الفصل الثانى، فيتناول النشاط الاقتصادى للإمارة، بدءًا من النشاط الزراعى والرعوى، وكذلك النشاط الصناعى، مرورًا بحرفة الصيد، وانتهاءً بالنشاط التجارى، سواء كانت تلك التجارة داخلية أو خارجية، بينما يتناول الفصل الثالث الأوضاع الاجتماعية للإمارة من خلال دراستنا للبناء الاجتماعى الطرابلسى بفئاته المختلفة، كذلك يقوم بإلقاء الضوء على أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لهذا المجتمع .

أما الفصل الرابع، فيتعرض لدراسة نظم الحكم والإدارة التى طبقت فى إمارة طرابلس خلال القرن (13م/ 7هـ) من خلال تناولنا للإدارة المركزية للإمارة، وكذلك النظم القضائية والدستورية فيها، بالإضافة لتناولنا لنظمها الإقطاعية والمالية ووضع الكنيسة فيها،وأخيرًا دور الهيئات الدينية العسكرية بها. فى حين يتناول الفصل الخامس دراسة الأحداث التاريخية التى أحاطت بسقوط إمارة

طرابلس من خلال استعراضنا لأهم عوامل الضعف الداخلية التى مرت بها، كذلك علاقة الإمارة بالدولة المملوكية فى عهدى كل من الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون، حتى نصل لمرحلة سقوط الإمارة ذاتها فى عام (1289م/ 688 هـ) والعوامل التى ساعدت فى ذلك، وكذلك الأسباب التى أدت لتأخر سقوطها فى أيدى القوى الإسلامية، انتهاء بتأثير سقوط الإمارة ونتائجه على الكيان الصليبى بوجه عام.

وفى النهاية، لا يسعنى إلا التقدم بوافر الشكر وخالص التقدير لأستاذىّ الفاضلين: أ. د. إسحاق عبيد وأ. د. محمد مؤنس عوض اللذين أخذا بيدى وأنا أخطو خطواتى الأولى فى درب الدراسات العليا، فلسيادتهما منى وافر الشكر وعظيم الامتنان، لما بذلاه معى من جهد ووقت طوال سنوات الدراسة، جزاهما الله تعالى عنى خير جزاء.

كما أتقدم بالشكر وجزيل الثناء لكافة أساتذتى وزملائى بقسم التاريخ وإلى كل من مد لى يد المساعدة ولم يتسع المقام لذكره.

وأخيرًا، أتقدم بالشكر للقائمين على مكتبات كلية الآداب جامعة عين شمس، وجامعة القاهرة، والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية، والمعهد الألمانى للآثار، ودير الآباء الدومنيكان، ودير الفرنسيسكان، والجمعية التاريخية، والجامعة الأمريكية بالقاهرة.

وبعد.. تلك هى محاولتى المتواضعة، فإن أصبت فمن الله تعالى، وإن كانت الأخرى فمن نفسى وحسبى محاولة الاجتهاد، وأسأل الله أن يكون فى هذه الدراسة بعض النفع .

والله ولى التوفيق.



التعريف بالمصادر

يتناول هذا العرض التعريف بمصادر تاريخ إمارة طرابلس الصليبية خلال القرن13م/ 7هـ، سواء كانت تلك المصادر عربية أو أجنبية، ككتب الحوليات والرحالة الجغرافيين، كما يتناول أهم الرؤى الحديثة لتاريخها من خلال المؤلفات العربية والأجنبية على حد سواء.

ويأتى فى مقدمة تلك المصادر كتاب " مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب " لصاحبه ابن واصل[1] (ت691هـ/ 1291م) الذى يعد أهم مصدر عربى تناول تاريخ البيت الأيوبى، وترجع أهمية هذا المصدر من بين المصادر العديدة التى تناولت تاريخ الدولة الأي

وبية التي سبقته أو لحقته، إلى كون صاحبه ابن واصل شاهد عيان على الدولة الأيوبية من بعد وفاة صلاح الدين وحتى بدايات العهد المملوكى، كذلك لكونه من أكثر المصادر التى تناولت تاريخ تلك الدولة بشكل مفصل ودقيق، لذلك اعتمد على مُؤلفه هذا الكثير من المؤرخين المسلمين من بعده، مثل: بيبرس

(1) هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل الحموى، ولد فى مدينة حماة عام 1208م/ 604هـ، وكان معروفا بميله للعلم، فدرس المنطق والهندسة وأصول الدين والفقه الإسلامى والتاريخ حتى صار مدرسًا بحماة بل وقاضيا لقضائها، عنه انظر:
ابن واصل، مفرج الكروب، جـ1، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة 1957م، ص4- ص5، جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبى على بلاد الشام، ط. الإسكندرية1984م، ص25- ص26، يسرى عبد الغنى عبد الله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثانى عشر الهجرى، ط.بيروت 1991م، ص185.

الدواداري، واليونيني البعلبكي، والعيني، وابن تغرى بردى، وغيرهم، وقد أمدنا ابن واصل فى تاريخه هذا بمعلومات وفيرة عن انقسامات البيت الأيوبى وأثر ذلك فى الصراع الإسلامي - الصليبى، وبالتالى فقد أتانا بإشارات عديدة عن طبيعة العلاقات بين ملوك وأمراء البيت الأيوبى وأمراء طرابلس، وبخاصة حول علاقة الظاهر غازى حاكم حلب والأمير بوهمند الرابع أمير طرابلس وأنطاكية.

كما يعد كتابا:"الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر" و"تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور" للقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر[1] (ت 692 هـ/ 1293م)، من أهم المصادر التى أفادتنا فى دراسة موضوع البحث، لكونها من أهم المصادر التى تناولت سياسة الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون تجاه القوى الصليبية فى بلاد الشام بما فى ذلك صليبىّ طرابلس، وتأتى أهمية مؤلفات ابن عبد الظاهر لكونه شاهد عيان على تلك الأحداث بل لكونه ضلعا وشريكا أساسيا فى كثير من أحداث تلك الفترة، خاصة أن عمله كصاحب ديوان الإنشاء لكلا السلطانين جعله ينشئ بنفسه وبأسلوبه العديد من المعاهدات التى أبرمت بينهما من ناحية وبين صليبىّ بلاد الشام بوجه عام وصليبىّ إمارة طرابلس على وجه الخصوص من ناحية أخرى، وبالتالى فقد أتاحت وظيفته هذه معرفة الأحداث والمشاركة فيها وتدوينها أولاً بأول .

(1) هو ناصر الدين شافع بن على بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكنانى المصرى ، ولد فى مصر عام 1252م/ 649هـ وهو ابن شقيقة القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، عمل مساعدًا له فى بدايات حياته بديوان الإنشاء ولابنه فتح الدين بن عبد الظاهر من بعده إلى أن تولى هو نفسه ديوان الإنشاء حتى عام 1281- 1282م/ 680هـ. وقد ترك عمله وهو فى هذه السن المبكرة من عمره على إثر سهم أصاب عينيه فى معركة حمص أواخر أكتوبر 1281م/ رجب 680هـ أصابه بالعمى، ولمزيد من التفاصيل عنه انظر: شافع بن على، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط. الرياض1976م، ص14- ص17، الكتبى، فوات الوفيات والذيل عليها، جـ2، تحقيق إحسان عباس، بيروت1974م، ص93-95 .

والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة لكتابىّ:"حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" و"الفضل المأثور فى سيرة الملك المنصور" لشافع بن على[1] (ت730هـ/ 1330م)، الذى كان هو الآخر صاحب ديوان الإنشاء للمنصور قلاوون كخاله القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وعلى الرغم من أنه قد يرى البعض أن تاريخه ما هو إلا تكرار لما أورده ابن عبد الظاهر فى مؤلفاته، خاصة أن كتابه عن الظاهر بيبرس [illegible] إلا اخ[illegible] لكتاب خاله "الروض الزاهر" إلا أن ما يميزه أنه أورد لنا فى تاريخه الكثير من التفاصيل التى أغفل عنها خاله ابن عبد الظاهر: كتعاون مسلمى طرابلس مع الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وإمدادهما بالمعلومات عن أحوال الإمارة، وتحركات الصليبيين ، كذلك أحداث سقوط إمارة طرابلس التى جاءت ناقصة فى نسخة ابن عبد الظاهر.

وأفادت الدراسة أيضا من كتابى: "تقويم البلدان" و"المختصر فى أخبار البشر" لأبى الفداء[2] (ت732هـ/ 1332م)، فالكتاب الأول كما هو معروف معجم

(1) هو القاضى محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامى السعدى، ولد بالقاهرة فى سنة 1223م/ 620هـ وقد عمل فى بداية حياته كاتبا فى ديوان إنشاء الملك المظفر سيف الدين قطز ومن بعد الظاهر بيبرس حتى استطاع أن يحوز ثقة الأخير فأقره كاتب سره فكان أول من تولى منصب صاحب ديوان الإنشاء، وقد ظل فى منصبه بديوان الإنشاء حتى بدايات حكم المنصور قلاوون، عنه انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط. الرياض 1976م، (مقدمة المحقق) ص5- ص7، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط.القاهرة1961 م، ص2- ص12.

(2) هو السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن جمال الدين محمود ابن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولد بدمشق سنه1273م/ 672هـ بعد أن اتخذها أهله مستقرًا لهم على إثر فرارهم من زحف المغول بعد أن احتلوا إمارة جده حلب، وكان لنشأته فى بيت حاكم أثره الواضح على نشأته العسكرية، حيث كان رجلا عسكريا من طراز فريد ، فقد أخذ يتدرج فى المناصب العسكرية فى خدمة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن عينه فى سنه فى سنة 1310م/ 710هـ حاكما على حماة، وانتهى الأمر به كسلطان لمملكة حماة تحت لقب الملك المؤيد وكنائب عن دولة المماليك فى سنة1320م/ 720هـ حتى وفاته، عنه انظر: أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ط. جدة ب.ت، ص197، صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ط. بيروت 1978م، ص13- ص38.

للبلدان، حيث أمدنا بمعلومات قيمة عن المدن الشامية، إلا أن أهمية أبو الفداء بالنسبة لدراستنا تظهر بشكل أكثر جلاء فى كتابه الآخر "المختصر فى أخبار البشر"- الذى يتناول تاريخ البشر من بداية الخلق حتى البعثة المحمدية مع عرض لتاريخ العالم الإسلامى حتى عام729هـ/ 1329م- وبخاصة أنه كان شاهد عيان على كثير من أحداث الصراع الإسلامى – الصليبى، لا سيما أنه رجل عسكرى قد شارك بنفسه فى كثير من تلك المواجهات والتى تعد أهمها أحداث فتح المرقب وتحرير طرابلس عام 1289م/ 688هـ انتهاء بفتح عكا .

ويأتى فى مثل هذا السياق كتاب ابن أبى الفضائل(ت672هـ/ 1273م) "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد"، ومؤلفات بيبرس الدواداري(ت 725هـ/ 1325م) " زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة " الجزء التاسع، و"مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة702هـ/ 1302م" و"التحفة الملوكية فى الدولة التركية"، وكذلك ابن أيبك الدوادارى (ت 732هـ/ 1331م) فى مؤلفه : " الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ".

أما عن كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين فيعد أهمها كتاب"سفر نامة" للرحالة الفارسى ناصر خسرو[1] (ت453هـ/ 1061م) الذى أمدنا بوصف قيم لجغرافية منطقة طرابلس، وبخاصة مدينة طرابلس، فضلاً عن إلقائه الضوء على أوضاعها الاقتصادية لا سيما فى وصفه لنا لأهم مزروعاتها المتنوعة وصناعاتها، كصناعة الورق الذى اعتبره يمتاز عن الورق السمرقندى ذاته فى إشارة لا تخلو من

(1) ولد فى بلدة من أعمال بلخ بإقليم خراسان فى عام 1003م/ 394هـ سافر فى مستهل رحلاته إلى بلاد الحجاز لتأدية فريضة الحج ثم قام بعد ذلك برحلات طويلة فى المشرق الإسلامى، وكان يُعنى بالاتصال بالشعوب التى يمر بها ويتفهم مظاهر الحضارة التى يشاهدها، عنه انظر :
زكى محمد حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ط.القاهرة 1945م، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص239، السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ط. بيروت1981 م، ص216- ص 218..

الأهمية، كذلك رواج حركة التجارة بها، كما ألقى الضوء أيضا على تركيبتها السكانية حيث أشار إلى أن سكانها المسلمين كانوا من أصحاب المذهب الشيعى .

ونفس الأمر يمكن قوله بالنسبة لكتاب: " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" للإدريسى[1] (ت. ق6هـ/ 12م) ، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى عرضه المتميز والدقيق لجغرافية منطقة طرابلس، إذ كان هو أول من أشار إلى الجزر المواجهة لسواحلها، والواقع، أن عرضه لها لم يخلُ من اللمحات الاقتصادية وبخاصة بالنسبة لنشاطها الزراعى وكذلك أهم مصادر المياه التى اعتمدت عليها المنطقة، كما أمدنا الإدريسى بعرض مستفيض لرواج حركة التجارة بها لا سيما ميناء طرابلس .

أما فيما يتعلق بالمصادر الصليبية فيعد من أهمها كتاب وليم الصورى William of Tyre[2]: "أعمال الفرنج فيما وراء البحار" A History of Deeds Done Beyond the Sea على الرغم من كونه غير معاصر لفترة الدراسة إلا أن أهميته تتمثل فى رؤية وليم الصورى بعيدة المدى لأوضاع الصليبيين المتهالكة فى

(1) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى الحسينى المعروف بالشريف الإدريسى، ولد فى مدينة سبتة المغربية سنة1100م/ 493هـ حيث درس فى جامعة قرطبة، وقد أظهر الإدريسى اهتماما واضحا بعلم الجغرافيا، لذلك طاف بالعديد من البلدان حتى يطلع على جغرافية العالم المعروف آنذاك بأكبر قدر ممكن. وكانت أولى رحلاته بطبيعة الحال إلى بلاد الأندلس ومنها اتجه لشمالى إفريقيا حتى وصل آسيا الصغرى كما زار بعض البلدان الأوروبية هى الأخرى، وبلغ من صدى شهرته آنذاك أن دعاه الملك روجار الثانى Roger II ملك صقلية إلى بلاطه حتى يستفيد بعلمه ومعرفته، عنه انظر: أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص161، محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام، ط. القاهرة 1995م، ص17.

(2) وليم الصورى (1130- 1186م/ 524- 582هـ): كان رئيس أساقفة مدينة صور، ولا يعرف شىء عن أصوله فلقد تجاهل وليم نفسه ذكر نسبه وبذلك ظل نسبه مجهولا، وكان واسع الاطلاع متقنا للغة الفرنسية التى كانت لغة البلاط فى مملكة بيت المقدس، واللغة اليونانية التى يتحدث بها الكثير من سكان الشرق، واللغة اللاتينية لغة الكنيسة والمدارس، فضلاً عن إتقانه للغة العربية بحكم وجوده وسط حيز إسلامى لا يتحدث إلا بها، كما كان ملما بعض الشيء باللغة العبرية والفارسية، عنه انظر:

William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond The sea, vol. 1, Trans. by Babcock and Kerry, New York 1943, pp. 409.

بلاد الشام من قبل نصر حطين1187م/ 573هـ واسترداد صلاح الدين لمملكة بيت المقدس وغالبية مدن الساحل، وحتى طوال القرن 13م/7هـ إلى أن تم طردهم نهائيًا من بلاد الشام فى عام1291م/ 690هـ، كما أفادنا كتابه أيضًا فى إيضاح كثير من ملامح الحياة الاجتماعية بالإمارة لا سيما الخاصة بعناصر الموارنة وطبيعة علاقتهم بالصليبيين .

واستكمالاً لما بدأه وليم الصورى أتبع المؤرخون الصليبيون تاريخه بعدة تذيلات، كُتبتْ جميعها باللغة الفرنسية القديمة مثل: تاريخ هرقل Estoire de Eracles، ومآثر القبارصة Les Gestes des Chiprois، وتتمة تاريخ وليم الصورى المنسوب خطأ إلى روتلان ، حيث جاءت هذه المؤلفات جميعها لتكمل تاريخ وليم الصورى الذى توقف بوفاته قبل موقعة حطين بأعوام قليلة، وقد دونت تلك المصادر كذلك لتاريخ الصليبيين فى بلاد الشام على مدى القرن 13م/ 7هـ، وإن كان اهتمامها قد تركز فى المقام الأول على أحوال الصليبيين فى مملكة بيت المقدس بعكا ، إلا أنها مع ذلك أمدتنا بكثير من المعلومات عن أوضاعهم فى إمارة طرابلس أيضا، لا سيما الحروب الأهلية التى نشبت بين صليبييها كصراع بوهمند الرابع مع تابعه رينوار حاكم نيفين، وكذلك الحروب الأهلية التى دارت بين أمراء طرابلس وبين أسرة أمبرياتشى حكام جبيل التى أدت إلى سقوط الإمارة فى النهاية.

كما اعتمدت الدراسة على ما أورده جاك دى فيترى[1] Jacques de Vitry (ت 1240م/ 638هـ) سواء فى تاريخه لمملكة بيت المقدس The History of Jerusalem أو فى خطابه للبابا هونوريوس الثالث Honorius III (1216-

(1)ولد جاك دى فيترى فى عام1180م/576هـ وقد نشأ نشأة دينية ساعدته على تقلد العديد من المناصب الدينية، حيث عين أسقفا لعكا فى عام1216م/ 613هـ ثم عين بطريركا لبيت المقدس إلا أنه لفظ أنفاسه الأخيرة فى مايو1240م/ شوال 638هـ قبل أن يتسلم بنفسه مقاليد منصبه الجديد ، لمزيد من التفاصيل عنه انظر:
محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ط.الإسكندرية 1985م، ص29- 30.

1227م/ 613- 624هـ)، وقد كان أول عهد جاك دى فيترى بالشرق كداعية للحملة الصليبية الخامسة على مصر إلى أن أستقر فى عكا بعد تعيينه أسقفا لها فى عام 1217م/ 614هـ، وهناك أخذ يدون تاريخه الذى ترجع أهميته لكونه نقدا لاذعا للمجتمع الصليبى من شاهد عيان من أنفسهم ، وقد أظهر جاك دى فيترى بجلاء الخلل الواقع فى صفوف الصليبيين خلال القرن13م/ 7هـ ، كما لم يقتصر تاريخه لمملكة بيت المقدس على النقد فحسب، بل شمل أيضا بعض الإشارات للطبيعة الجغرافية والاقتصادية لإمارة طرابلس، وكذلك تركيبتها السكانية وأهم الملامح الاجتماعية، رغم ما يؤخذ على بعض آرائه من تحيز وعنصرية ، زد على ذلك أن خطابه قد أمدنا بمعلومة على قدر كبير من الأهمية ألا وهى: أن اللغة السائدة فى الإمارة كانت اللغة العربية، لدرجة أنه احتاج لمترجم يرافقه فى مدينة طرابلس يعينه على التعامل مع تجارها المسلمين وأهلها، مما يؤكد لنا أن الصليبيين قد يكونون انتصروا عسكريا بتكوينهم لدويلاتهم فى بلاد الشام لكنهم انهزموا حضاريًّا على أرض الواقع .

أما فيما يتعلق بالمصادر الصليبية الخاصة بالرحالة الأوربيين، فيعد أهمها ما دونه لنا الرحالة الألمانى بورشارد[1] Burchard فى رحلته للأراضى المقدسة، والتى تطرق فيها لنواحى عديدة من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى بلاد الشام، خلال فترة من أعصب فترات تواجد الصليبيين فى الشرق ألا وهى الفترة التى سبقت طردهم من بلاد الشام ، ومن هنا جاءت أهمية هذا الرحالة خاصة أن ما دونه فى رحلته من معلومات كان يمتاز بصحته ودقته دون أدنى تحيز أو تعصب،

(1) بورشارد: رحالة ألمانى يرجع موطنه على الأرجح إلى بلدة ستراسبورج أو بلدة ماجديبورج Magdeburg، عاش فى القرن13م/ 7هـ حيث كان راهبًا فى جماعة الدومنيكان، وقد زار الأرض المقدسة وعاش فيها، وبالتحديد بجبل صهيون، ما يقرب من عشرة أعوام لذلك اقترن اسمه باسم هذا الجبل فعرف ببورشارد من جبل صهيون، عنه انظر:
بورشارد من جبل صهيون، وصف الأرض المقدسة، ت: سعيد عبد الله البيشاوى، ط.القاهرة1995م، ص10 – ص230 ..

وقد أمدتنا رحلته بوصف دقيق لموقع إمارة طرابلس وحدودها، كما احتوت رحلته أيضًا على معلومات قيمة عن أوضاعها الاقتصادية، لا سيما الخاصة بالرعى والزراعة، وحتى أشهر مصنوعاتها كالنبيذ والمنسوجات، كذلك تركيبتها السكانية وأوضاع فئاتها الاجتماعية فى الإمارة.

ولا نغفل حظ الموضوع من الدراسات السابقة من المراجع الحديثة، فقد سبقت الدراسة العديد من الدراسات التى تناولت تاريخ منطقة طرابلس ونذكر منها دراسة الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم: "طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامي"، التى استطاع من خلالها أن يوضح لنا الملامح الأساسية للإمارة ، وإن كان تناوله لها فيه اختصار إلى حد ما نظرا لكون كتابه هذا قد تناول تاريخ طرابلس الشام على مدى تسعة قرون.

كذلك اعتمدت الدراسة على رسالة الباحث عبد العزيز عبد الدايم: "إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى"، والتى تعد دراسة سابقة فى تناول تاريخ الإمارة بالنسبة للدراسات العربية ، كذلك دراسات المؤرخ الطرابلسى عمر عبد السلام تدمرى : "الحياة الثقافية فى طرابلس الشام خلال العصور الوسطي" و"تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور" و"موقف النصارى فى ساحل دمشق من الصراع الإسلامى – الفرنجى"، الذى يعد أكثر المؤرخين العرب تخصصا فى دراسة تاريخ منطقة طرابلس.

وأفادت الباحثة أيضًا من الدراسات العديدة للأستاذ الدكتور محمد مؤنس عوض فى مجال العلاقات بين الشرق والغرب، والتى تعد أهمها بالنسبة لدراستنا: "أضواء على تاريخ موارنة لبنان" ، إذ أوضحت لنا هذه الدراسة الدور الحقيقى لعناصر الموارنة فى المجتمع الطرابلسى خلال فترة الدراسة.

وبالنسبة للمراجع الأجنبية الحديثة، فقد كان من أهمها دراسات المؤرخ الفرنسى جان ريتشارد Jean Richard وهى:

1. "An Account of the Battle of Hattin reefing to the Frankish Mercenaries in Oriental Moslem State", S, T.XXXII.
2. "The Political and Ecclesiastical Organizations of the Crusades states", in Setton, History of the Crusades, vol. V, New York 1983.
3. "Feudal Regime", in Setton, History of the Crusades, vol.V, New York 1983.

وإن كانت دراسته La Cómte de Tripolis Sous la dynastie Toulousaine التى تناول فيها الإمارة فى عهد الأسرة الطولوشية أهم دراسة أجنبية أفادتنا فى مجال الدراسة.

كما أفادت الدراسة أيضا من دراسات المؤرخ اليهودى يوشع براور Joshua Prawer وهى:

1. The Crusader's Kingdom; European Colonialism in middle Ages, New York 1972.
2. The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973.
3. Crusader institutions, Oxford 1980.
4. "The Burgesses ", in Setton, History of the Crusades, vol.V. New York 1983.

والتى أمدتنا بمعلومات عديدة للكيان الصليبى من الداخل، لا سيما الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ونظم الحكم والإدارة فى المناطق التى خضعت للصليبيين ومنها بطبيعة الحال إمارة طرابلس.

كان ذلك تعريفا بأهم مصادر دراسة إمارة طرابلس الصليبية خلال القرن 13م/ 7هـ التى تم الاعتماد عليها والاستفادة منها فى ثنايا البحث، أما فيما يتعلق بالإطار الجغرافى للإمارة ونشأتها وتطورها خلال القرن 12م/ 6هـ، فهذا ما سوف يتناوله الفصل التالى.

المدخـل

الإطار الجغرافى لإمارة طرابلس الصليبية

ونشأتها وتطورها فى القرن 12 م/ 6 هـ

نتناول فى العرض التالى الإطار الجغرافى لإمارة طرابلس الصليبية ونشأتها وتطورها فى القرن 12م/ 6هـ لكى يكون مدخلا لدراستها فى القرن 13م/ 7هـ.

وبداية فمن المعروف أن النطاق الجغرافى للعالم الإسلامى فى البحر المتوسط خلال فترة العصور الوسطى اشتمل على مدينتين أطلق عليهما اسم " طرابلس "[1] وقعت إحداهما فى بلاد الشام لذلك اشتق اسمها من تلك المنطقة وأطلق عليها " طرابلس الشام "، بينما وقعت الأخرى فى الجزء الغربى من ذلك النطاق لذلك عرفت " بطرابلس الغرب ".

لكن من الواضح أن هناك عددًا من المؤرخين والرحالة والجغرافيين صَعُبَ عليهم أثناء الوصف الجغرافى لكلا المدينتين التفريق بينهما، خاصة أن كلتيهما تقع على سواحل البحر المتوسط، لذلك فإن عددًا منهم أضاف ألف مهموزة لطرابلس الشام فى بدايتها لتكتب " أطرابلس "[2] وذلك تمييزًا لها عن طرابلس

(1) طرابلس : بسكون الطاء وفتح الراء المهملتين ثم ألف وياء موحدة ولام مضمومتين وسين مهملة فى الآخر. انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ1، ط. بيروت1979م، ص216، أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس1840م، ص252– ص253، البغدادى، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، جـ1، ط. بيروت1954م، ص91، القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ4، ط. القاهرة 2004م، ص142.

(2) المقدسى البيشارى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق دى جوية، ط. ليدن 1906م، ص154 ، البكرى، كتاب المسالك والممالك، جـ1، تحقيق أدريان فان ليوفن واندرى فيرى، ط. تونس1992 م، ص461، الإدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جـ1، ط. القاهرة 1977م، ص372، ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" ممالك مصر والشام والحجاز واليمن"، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط. القاهرة1984م، ص131.

الغرب، إلا أن غالبيتهم دونوهـا باسـم " طرابلـس" دون إضافـة هـذه الألف المهمـوزة [1].

كما اختلف المؤرخون والباحثون أيضا فى أصل كلمة طرابلس التى سميت بها المدينة، فمنهم من رأى أن كلمة طرابلس من أصل إغريقى يُقصد بها "الثلاث مدن"، وأنه تم إطلاق ذلك الاسم على مدينة طرابلس لنشأتها فى الأساس من ثلاثة أحياء مسـورة هى: أحياء الصوريين والصيداويين والأرواديين، الذين كانوا أول من عمروها[2]، لكن هناك بعض الباحثين الذين رأوا أن اسم طرابلس أطلق على تلك المدينة نسبة إلى جبل تربل Tur Bil– أى جبل الله – الواقع شرقى مدينة طرابلس، ثم إنه مع تداول ذلك الاسم باللغة الإغريقية أضيفت إليه اللاحقة الإغريقية(S) لينطق تريبولس Tripolis[3].

وكلا الرأيين صحيح إلى حد كبير، إلا أننى أميل إلى الرأى الأخير لكونه أكثر منطقية، فمن المعروف أن الطبيعة البشرية غالبًا ما تربط بين أسماء الأماكن وبين أهم المعالم الجغرافية التى تميز تلك الأماكن، وهو ما حدث بالنسبة لطرابلس الشام حيث ربط قاطنوها بين اسم الجبل المجاور لها وهو جبل تربل وبين اسم مدينتهم، ومن ثم فقد أطلقوا عليها اسم طـرابلس نسبة إلى ذلك الجبل.

ومدينة طرابلس الشام– وهى محور دراستنا– وقعت إلى الشمال من مدينة

---

(1) أنـكر ياقوت الحموى على المتنبى إسقاطه لهذه الألف المهموزة فى قوله:- قصرت كل مصر عن طرابلس انظر: معجم البلدان، جـ1، ص 216، المشترك وضعًا والمفترق صعقًا، تحقيق وستنفيلد، ط. بيروت 1986م، ص35.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، جـ2، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق 1962م، ص104، القلقشندى، المصدر السابق، جـ4، ص142، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ط. القاهرة1963م، جـ4، ص322.

(3) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ط. الإسكندرية، ب.ت، ص6– ص7.

بيروت عاصمة دولة لبنان على بعد يقدر بنحو 85 كم عند رأس داخل فى البحر المتوسط، بحيث يحيط البحر بأغلبها باستثناء الجهة الشرقية منها المطلة على اليابسة، التى شيد عليها سور حجرى منيع[1]، ولقد أنشئت هذه المدينة على الأغلب فى القرن السابع قبل الميلاد على يد الفينيقيين، حيث استطاعت مدينة طرابلس، من خلال موقعها الجغرافى المتميز على المدخل الجنوبى لسهل عكار وبمرفئها الطبيعى وبمجموعة الجزر الصغيرة التى تحميها من جهة البحر، أن تلعب دورًا غاية فى الأهمية على الساحة الشامية عبر فترات تاريخها المختلفة، وبخاصة بعد الفتح الإسلامى لها فى عهد خلافة عثمان بن عفان، حيث باتت طرابلس القاعدة البحرية الرئيسية للأسطول الإسلامي[2]، ومع تعاقب القرون شهدت تلك المدينة اختلاف الدول الإسلامية عليها إلى أن تمكن قضاتها من بنى عمار من تولى الحكم فيها وأسسوا لهم فيها إمارة مستقلة لما يقرب من أربعين عاما إلى أن أسقطها الصليبيون فى عام1109م/ 503هـ.

هذه كانت لمحة يسيرة عن مدينة طرابلس الشام باعتبارها كانت عاصمة لإمارة طرابلس الصليبية، والتى انتسب إليها اسم الإمارة ذاتها، أما عن موقع إمارة طرابلس الصليبية فهو يعد من أفضل مناطق الاستقرار الصليبية فى بلاد الشام، ويرجع ذلك لعدة عوامل يمكن إجمالها فى الآتى:

أولاً: أن حدود الإمارة الجغرافية تكاد تكون حدودًا طبيعية بأكملها، فالبحر المتوسط يحدها من الناحية الغربية من نهر بانياس شمالاً، حيث قلعتى مرقية

(1) ناصر خسرو علوى، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، ط. القاهرة1945م، ص13، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ2، ص104، أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ط. القاهرة، ب.ت، جـ4، ص23، حسن سيد أحمد أبو العنين، دراسات فى جغرافية لبنان، ط. بيروت1968م، ص21، Morre.(W.G)., The Penguin Encyclopedia of places, London 1978, p.794..

(2) على محمود فهمى، التنظيم البحرى الإسلامى فى شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادى، ت: قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة 1997م، ص 64.

والمرقب، وتمتد الإمارة عبر سواحله لتشمل أنطرطوس (أو طرطوس) وطرابلس ثم أنفة أو(نفين) والبترون وجبيل، لتنتهى حدودها جنوبًا عند نهر المعاملتين لتبدأ من ثم حدود مدينة بيروت[1]، ولنا أن ندرك مدى مناعة هذا الحد إذا ما عرفنا أن الغلبة البحرية آنذاك سواء كانت عسكرية أو تجارية كانت تميل إلى جانب الغرب الأوروبى عن العالم الإسلامى، وأنه قلما استخدمت القوة العسكرية البحرية من قبل الدول الإسلامية فى صراعها سواء مع الدويلات الصليبية أو مع حملات الغرب الأوروبى، وربما يكون هذا هو العامل الذى دفع الصليبيين فى بلاد الشام لعدم الاكتراث بأساطيلهم البحرية وإهمالها إلى حد كبير اعتمادًا منهم على أساطيل الجمهوريات الإيطالية ودول الغرب الأوروبى فى الدفاع عنهم والتجارة معهم، ومن هنا فإن البحر المتوسط لم يكن يمثل لإمارة طرابلس مصدرًا لأى قلق أو متاعب، بل على العكس من ذلك فلقد كان حداً آمنا إلى حد كبير[2].

أما عن حدها الشرقى فيتمثل فى سلسلة من الجبال التى تبدأ بجبال النصيرية فى الشمال، وهى جبال منخفضة بعض الشيء إلا أنها وعرة المسلك، ورغم ذلك فقد استوطنتها فرقة الإسماعيلية النزارية وشيدوا لهم فيها سبع قلاع عرفت بقلاع الدعوة، وتمتد هذه الجبال عبر المساحة الواقعة بين النهر الكبير الشمالى والنهر الكبير

(1) Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol.XII, London 1896, P.15, Jone Polaner, Description of the Holy land, in P.P.T.S., Trans. By Aubrey Stewart, vol.XI, London 1894, P.33.

طنوس يوسف الشدياق، أخبار الأعيان فى جبل لبنان، ط. بيروت 1954م، جـ1، ص5.

(2) أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص 23، المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط. بيروت1997م، جـ2، ص211، إبراهيم إبراهيم عنانى، البحرية الإسلامية فى مواجهة الصليبيين فى مصر والشام، ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية، حصاد (3)، ط.القاهرة1995م، ص340، عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور، ط. طرابلس 1984م، ج1، ص475.

الجنوبى بمحاذاة نهر العاصى الواقع إلى الشرق منها[1]، وكان يطلق على تلك الجبال أسماء المناطق التى تمر بها بخلاف اسم النصيرية الذى عرفت به، فعلى سبيل المثال عرفت هـذه الجبال فى الشمال بجبال اللاذقية، بينما أطلق عليها فى المناطق الواقعة بمحاذاة حمص جنوبًا اسم جبال بهراء، ثم تبدأ بعد ذلك جبال لبنان الغربية وهى أكثر ارتفاعا من جبال النصيرية إلا أنها جبال شديدة الانحدار، فهى عمودية أكثر منها أفقية، كما تكثر فيها الالتواءت والـتصدعات والصخور الكلسية، لكن على الرغم من ذلك توفرت فيها الأراضى ذات التربة الخصبة التى تصلح للزراعة مما أغرى البعض باللجوء إليها واستيطانها، كالموارنة والدروز وبعض النساك والزهاد بالإضافة إلى بعض السكان المجاورين للجبال[2].

وتبدأ جبال لبنان هذه من النهر الكبير الجنوبى عند جبال عكار شمالاً لتمتد على طول الحدود الشرقية للإمارة لتستمر إلى الجنوب منها حيث تقترب الجبال من ساحل البحر بشكل ملحوظ فلا تترك إلا شريطًا ضيقاً للعبور، لدرجة أن الرحالة الألمانى بورشارد Burchard الذى زار بلاد الشام فى عام 1280م/ 679هـ لاحظ على حد قوله أن (الجبل فى بعض الأماكن ينحدر مباشرة نحـو البحر بحيث لا يتيح طريقا للـمرور، إلا أنه بـوجه عـام لا يبعـد عـن الـبحر بأكثر من فرسخين- حيث يقدر الفرسخ بما يزيد قليلاً عن خمسة كيلو مترات ونصف- إلا عند اقترابه من مدينة طرابلس حيث تتسع المسافة إلى نحو ثلاثة فراسخ)[3]، وكان يطلق على

(1) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط. القاهرة 1973م، ط.القاهرة1973م، ص70، سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس فى العصر المملوكى، ط. عمان1993م، ص19، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 137.

(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ط.القاهرة2000م، ص228، الحميرى،الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت1980م، ص 508،

Joahnes Phocas, Trans. By Aubrey Stewart, in P.P.T.S., London 1896, pp.8.9, Poloner, p.33,

عزتلو إبراهيم بك الأسود، ذخائر لبنان، ط. بعبدا 1896م، ص 14- 15.

(3) Burchard of Mont Sion, p. 14.

تلك الجبال أسماء المناطق التى تمر بها أيضا فى إمارة طرابلس مثل جبل عكار وجبل تربل وجبل المنيطرة وجبل ظنيين وغيرها.

وفَصَلَ بين هاتين السلسلتين الجبليتين ممر يعرف بممر حمص، حيث يصل بين حمص وطرابلس عبر سهل البقيعة وسهل عكار الساحلى، ولقد كان لهذا الممر أهمية بالغة لدى صليبىّ إمارة طرابلس نظرًا لربطه مناطق الظهير الداخلية بالإمارة ومناطق الساحل، ومن ثَمَّ فلقد دافعوا عن ذلك الممر بحصون غاية فى المناعة والقوة كحصون الأكراد وعكار ورفنية وغيرها، تحسبًا من قيام المسلمين بالإغارة على أراضيهم عبر ذلك الممر[1].

وهكذا هيأت هذه الجبال لإمارة طرابلس حماية طبيعية من الناحيتين الجنوبية والشرقية، حيث كان من الصعب أن يخترق أى مهاجم تلك الجبال بأسلحته وآلات حصاره وخيوله ودوابه ومؤنه لمهاجمة إمارة طرابلس إلا عبر سهل البقيعة، الذى كان يمثل القسم الأعلى من وادى النهر الكبير الواقع فى شمال إمارة طرابلس .

وعلى ذلك فحدود إمارة طرابلس الشمالية، رغم اتخاذها من نهر بانياس حدًّا طبيعيا ليفصلها عن إمارة أنطاكية، إلا أن هذا الحد لم يكن منيعًا بالقدر الكافى لحماية الإمارة، خاصة عبر وادى النهر الكبير، لذلك تم تشييد عدة قلاع بهذه الناحية لحماية حدود الإمارة الشمالية لعل أهمها قلعتى المرقب ومرقبة[2]، ورغم مناعة تلك القلاع وخاصة قلعة المرقب إلا أننا سنلاحظ من خلال دراستنا للتاريخ

---

(1) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 136، عمر تدمرى، تاريخ طرابلس السياسى، جـ1، ص472– 473، فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ت: جورج حداد وعبد الكريم رافق، ط . بيروت 1958 م، جـ2، ص232،

Richard, La Comte de Tripolis, p.1.

(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص85، ص88، شافع بن على الكاتب،الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، ط. بيروت 1998م، ص143– 144.

السياسى والعسكرى لتلك الإمارة أن حديها الشمالى والشمالى الشرقى كانا من أقل حدودها حصانة ومنعة وهو ما استغلته القوات الإسلامية بطبيعة الحال فيما بعد فى شن هجماتها على إمارة طرابلس من هذه الناحية.

على أيه حال، كانت أراضى إمارة طرابلس تمتاز بشكل عام بطبيعتها السهلية، حيث امتدت السهول الساحلية عبر أراضيها من سهل مرقية شمالاً إلى سهل جونية جنوبًا، إلا أنه يمكننا القول إن أكبر سهول الإمارة هو سهل النهر الكبير وروافده، الذى ذكره كثير من الرحالة والمؤرخين بسهل عرقة نسبة إلى مدينة عرقة كبرى المدن الواقعة فى هذا السهل[1]. وتجرى عبر هذه السهول غالبية أنهار لبنان التى تبدأ بنهر بانياس والنهر الكبير الشمالى عند حدود الإمارة شمالاً لتشمل نهر السن والنهر الكبير الجنوبى ونهر عرقة والنهر البارد ونهر قاديشا ونهر الجوز ونهر إبراهيم لتنتهى حدودها جنوبًا مع مدينة بيروت بنهر المعاملتين[2]. وعلى هذا النحو فإن تلك الأنهار لم تقدم لإمارة طرابلس ما تحتاج إليه من ثروة مائية فحسب بل وفرت لها أيضًا قدرًا من الحماية الطبيعية عبر حدودها الشمالية والجنوبية.

بالإضافة إلى ذلك، احتوت الإمارة على مجموعة من الجزر كجزيرة أرواد الواقعة جنوب غرب مدينة أنطرطوس،وجزر النرجس والعمد والراهب وأرذقون المواجهة لساحل مدينة طرابلس، إلا أن أغلبها لم يكن ذا شأن يذكر، باستثناء جزيرة أرواد التى كان لها دور مهم فى تاريخ إمارة طرابلس نظرًا لكونها أكبر جزر الإمارة مساحة وبالتالى فلقد كانت أكثرها سكانًا وعمرانًا، حيث كانت من أهم

---

(1) Burchard of Mont Sion, p. 21.

مصطفى طلاس ومحمد وليد، قلعة الحصن" حصن الأكراد"، ط. دمشق1990م، ص49.

(2) Burchard of Mont Sion, p. 15.

الشدياق، أخبار الأعيان، جـ1، ص5، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية (السياسة، المياه، والعقيدة)، ط. القاهرة 2001م، ص 72.

مناطق تمركز الصليبيين فى بلاد الشام، خاصة إذا ما علمنا أنها كانت آخر قاعدة استردها المسلمون من أيدى الصليبيين[1].

ثانيًا: إنه مع إدراكنا لمدى مناعة إمارة طرابلس إلا أن هذا الأمر لم يكن أكثر ما يميزها، ولكن وقوعها فى قلب الكيان الصليبى، فى موقع يتوسط الدويلات الصليبية على ساحل البحر المتوسط أضاف لها مَنَعَةً وقوة تدعم مَنَعَتَها، حيث إنه كان من الصعب على المسلمين فى غضون القرن13م/ 7هـ إسقاط قلب هذا الكيان الصليبى قبل أطرافه، وهذا ما حدث بالفعل على أرض الواقع عندما أقدم المماليك على إسقاط إمارة طرابلس، فإذا بهم يسقطون إمارة أنطاكية أولاً، الواقعة شمال إمارة طرابلس الصليبية فى 18مايو1268م/ 4رمضان666هـ، حتى يخلو لهم السبيل فيما بعد للوصول إلى إمارة طرابلس ومهاجمتها، ولذلك كانت إمارة طرابلس أقل الإمارات الصليبية تعرضًا لهجمات المسلمين، كما أنها كانت آخرها سقوطًا[2].

ثالثاً: احتل موقع إمارة طرابلس أهمية واضحة على المستوى الاقتصادى وخاصة التجارى، حيث إنها بوقوعها عند منتصف الطريق الساحلى الشرقى للبحر المتوسط على طريق القوافل البحرية المارة بالساحل الشامى بموانئه المتعاقبة بانتظام من ميناء الإسكندرونة شمالاً إلى ميناء غزة جنوبا والعكس، جعلها متصلة بشكل أو بآخر

---

(1) أرواد: جزيرة صخرية جرداء مواجهة لساحل مدينة أنطرطوس، يبلغ طولها نحو800 متر، بينما يبلغ عرضها نحو 500 متر، عنها وعن غيرها من جزر إمارة طرابلس، انظر: الإدريسى، نزهة المشتاق، جـ 1، ص373، شيخ الربوة الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، تحقيق مهرن، ط. بطرسبرج1935م، ص142، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، تحقيق نجلاء عز الدين وقسطنطين زريق، ط. بيروت 1939م، جـ8، ص80، بطرس ضو، تاريخ الموارنة، جـ3، ط. بيروت 1970م، ص95 – 97، مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين فى استرجاع الأراضى المقدسة والحفاظ عليها، ت: الأب سليم رزق الله، ط. بيروت 1991م، ص239– ص240.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص309 – ص310، ابن أيبك، الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، ط. القاهرة1971م، ص128 – 129، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ8، ص299، محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ط.القاهرة 2000م، ص 338.

بدول حوض البحر المتوسط، وبخاصة دول الغـرب الأوروبى ومصر، كما أن وجود ممر حمص- طرابلس فى أراضيها جعـل تلك الإمارة بابًا لمنتجات وسلع الـظهير الشامى وبلاد الخليج العربى والشرق الأقصى على بلدان حوض البحر المتوسط والعـكس، لتصبح إمارة طرابلس بموقعها هذا همزة الوصل والوسيط التجارى بين الشرق والغرب، ولعل عبقرية موقعها هذا هو الذى جعلها تقوم بهذا الدور على أكمل وجه حتى وقتنا الحالى(1).

إلى هنا نكون قد استعرضنا الإطار الجغرافى لإمارة طرابلس الصليبية، لكن قبل أن ننهى حديثنا فى هذا الصدد كان لزامًا علينا أن نلقى الضوء على أهم مدن وقلاع الإمارة التى يمكننا تقسيمها إلى قسمين كالآتى :

أولاً: الأعمال الكبار، ويأتى فى مقدمتها مدينة جبيل، الواقعة على ساحل البحر المتوسط شمال بلدة جونية- الواقعة فى أقصى حدود الإمارة الجنوبية مع مملكة بيت المقدس- وبالتحديد فى منتصف المسافة بين مدينتى بيروت جنوبًا وطرابلس شمالاً حيث تبعد جبيل عن كل منهما بنحو20 ميلاً، وهى مدينة ذات مكانة مرموقة فى بلاد الشام منذ القدم، حيث كانت تعد أهم ميناء لدى الفينيقيين، ومن ثَمَّ جاءت أهميتها بالنسبة للصليبيين الذين وضعوا نصب أعينهم منذ مجيئهم لبلاد الشام تكوين مراكز ساحلية لهم على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، ليتم لهم الاتصال بالغرب الأوروبى، وبذلك باتت جبيل واحدة من تلك المراكز خاصة أنها لعبت دوراً فعالاً فى التبادل التجارى عبر مينائها مما أكسبها أهمية اقتصادية ملحوظة(2).

---

(1) عمر تدمرى، تاريخ طرابلس، جـ1، ص47، مصطفى طلاس ومحمد وليد، قلعة الحصن، ص49، نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ط. القاهرة1973م، ص151.

(2) ناصر خسرو، سفر نامة، ص14، ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ2، ص109- ص110، Fetellus, Description of the holy land, trans. by J. R. Macpherson, in P.P.T.S, vol.V, London 1896, p.52, Ludolph Von Suchems, Description of the Holy land, Trans. by Aubrey Stewart, in .P.P.T.S, vol.VII, London 1895, p.49.

وإلى الشمال من جبيل وعلى بعد11ميلاً، منها وجدت مدينة البترون التى احتلت مساحة صغيرة بعض الشيء على ساحل البحر المتوسط، إلا أنها على الرغم من ذلك امتازت بدورها الحيوى والفعال فى تاريخ إمارة طرابلس الصليبية نظرًا لنشاطها الاقتصادى المزدهر الذى عرفت به آنذاك، ولذلك كانت تعد البترون من الأعمال الكبار التابعة للإمارة، بيد أنها مع نهايات فترة الوجود الصليبى فى الإمارة، وخاصة عقب استرداد المماليك لها، أخذ دورها يضعف وينحدر إلى أن عدها المؤرخون والرحالة والجغرافيون العرب واحدة من الأعمال الصغار لطرابلس[1].

أما مدينة أنطرطوس فهى مدينة ساحلية وقعت شمالى مدينة طرابلس جنوب نهر السن على ساحل البحر المتوسط، حيث تتناثر أمامها عدة جزر لعل أهمها جزيرة أرواد التى تبعد عنها مسافة 5 كم، وهى مدينة ذات مكانة جليلة لدى المسيحيين، حيث يقال إن القديس بطرسSt. Peter [2] قد شيد فيها كنيسة صغيرة تمجيدًا للسيدة مريم العذراء، ولذلك باتت تلك الكنيسة مزارًا لكثير من الحجاج ومن ثَمَّ اكتسبت المدينة أهميتها الدينية[3].

---

(1) Jone Polaner, p.33, Burchard of Mont Sion, p. 15,

طنوس الشدياق، أخبار الأعيان، ص7.

(2) القديس بطرس: كان يدعى فى الأصل سمعان بن يونة، وقد جاءت تسميته ببطرس نظرا لكون السيد المسيح عليه السلام قد أطلق عليه اللقب الآرامى Kapho والذى يعنى الصخرة Peter أى بيتر، وقد كان فى الأصل صيادا للسمك فى بحيرة طبرية إلى أن التحق بركب السيد المسيح حتى صار رأس حوارييه، لذلك يعطيه العهد الجديد مكانة فريدة بين الحواريين إذ جاء فى نصوص إنجيل متى على لسان المسيح مخاطبا القديس بطرس" أنا أقول لك أيضا أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات"، عنه انظر: العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح16 من18 -20، إسحاق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، ط. القاهرة 1972م، ص172- ص 173، محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187 ميلادية)، ط. القاهرة 1992م، ص139- ص140 حاشية (42)،

Ency. Brita, "St. Peter ", vol.14, U.S.A.1976, PP. 153-157.

(3) William of Tyre, vol.2, p.448, Jacques de Vitry, History of Jerusalem, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S, vol.XI, London 1896, P.20-21, Burchard of Mont Sion, p.20.

ومن أهم قلاع الإمارة التى عُدَّت ضمن أعمالها الكبار قلعة الحصن أو حصن الأكراد، وهى قلعة غاية فى الحصانة حيث تتجلى فيها ضخامة البنيان وبراعة العمران، فلقد شيدت القلعة على قاعدة من الصخر البركانى على مساحة نحو3 هكتارات فوق تلة ترتفع عن سطح البحر بمقدار750 مترًا لتشرف بذلك على مساحات شاسعة، حيث يمكن رؤية منطقة حمص وبحيرتها الواسعة(قادس) على وادى نهر العاصى، والتى تبعد عن الحصن بنحو60 كم، كذلك يمكن رؤية ميناء طرابلس منها، والذى يبعد عنها بنحو140 كم، فضلاً عن أن الحصن ذاته كان يسيطر على مدخل سهل البقيعة المؤدى إلى ثغر حمص- طرابلس، ومن ثَمَّ يمكننا تصور أهمية هذه القلعة والدور التى لعبته فى تاريخ إمارة طرابلس[1].

كذلك حصن عكار الواقع بوسط جبال لبنان إلى الشمال الشرقى من مدينة طرابلس، حيث شكل هـذا الحصن واحدا من أهم خطوط الدفاع عـن المدينة، ونفس الأمر يمكن قوله بالنسبة لقلعة المرقب، تلك القلعة المنيعة الواقعة على قمة جبل شاهق الارتفاع، حيث كانت ترصد منها الأهلة لذلك سميت بالمرقب، وتقع المرقب شمال إمارة طرابلس حيث تبعد بمقدار فرسخ واحد عـن جنـوب مدينة بانياس، فى حين أنها تبعد 8 أميال عن شمال مدنية أنطرطوس، وترجع أهمية هذه القلعة، ليس لمنعتها وفاعلية دورها فى الدفاع عن إمارة طرابلس فحسب، بل لأهمية موقعها المتحكم فى المنطقة الشمالية الساحلية والداخلية[2].

(1) ابن جبير، رحلته، ص206 – ص208، ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ2، ص264، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص258 – ص259، ابن شاهين، زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، ط. باريس1894م، ص48، عبد الرحمن زكى، العمارة العسكرية فى العصور الوسطى، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، م(7) عام 1958م، ص128حاشية (3)، مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت: محمد وليد الجلاد، ط. دمشق 1984م، ص76.

(2) شيخ الربوة الدمشقى، نخبة الدهر، ص208– ص209، ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ5، ص 108، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت 1960م، ص261، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص254 – ص255، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص76، مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين، ص239، مولر، القلاع، ص71– ص72،

Burchard of Mont Sion, p.20-21.

وأخيرا هناك بلدة وقلعة نفين[1] أو أنفة الساحلية الواقعة جنوب مدينة طرابلس بنحو12 كم، وهى قلعة صغيرة إلى حد ما، لم تمثل أهمية مؤثرة فى حماية الإمارة رغم تحصيناتها القوية أو حتى كميناء تجارى، إلا أنها على الرغم من ذلك كانت تتمتع بأهمية اقتصادية كبيرة، حيث كانت هذه القلعة واحدة من أهم مراكز إنتاج النبيذ الفاخر فى بلاد الشام بوجه عام، ومن ثَمَّ جاء تقديرى لهذه البلدة باعتبارها واحدة من أعمال طرابلس الكبار، التى كانت ذات شأن عظيم فى تاريخ الإمارة مع العلم أنها فى القرون التالية لفترة الدراسة تلاشت أهميتها كليًّا لدرجة أن غالبية المؤرخين والجغرافيين والرحالة المعاصرين لم يردوا لها أى ذكر فيما بعد.

ثانيًا: الأعمال الصغار، وهى الأعمال التابعة لإمارة طرابلس، إلا أنها لم تكن بذات أهمية ما سبق ذكره من مدن وقلاع، وتتمثل تلك الأعمال فى مناطق الموارنة الذين استوطنوا أودية جبال لبنان الواقعة إلى جنوب مدينة طرابلس كأودية جبة المنيطرة وبشرى والحدث وأهدن ومناطق دير القمر والعاقورة وحصرون والقلمون[2]، كذلك مجموعة القلاع الصغيرة المنيعة المتناثرة فى نواح مختلفة من نواحى الإمارة كحصون الأكمة والطوفان وأعناز وأبى قبيس التى كانت تتبع حصن الأكراد، بالإضافة إلى قلعة مرقية الساحلية الواقعة شمال مدينة أنطرطوس مباشرة، وقلعتى صافيتا والحصن الأحمر الواقعتان على الطريق بين حصن الأكراد فى الجنوب الشرقى ومدينة أنطرطوس فى الشمال الغربى، وقلاع عرقة وحلبا

---

(1) الإدريسى، نزهة المشتاق، جـ1، ص372، ياقوت الحموى، المصدر السابق، جـ1، ص271، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ4، ص148، مارينو سانوتو، المصدر السابق، ص241،
Burchard of Mont Sion, p.16, Jone Polaner, p.33..

(2) ناصر خسرو، سفر نامة، ص13،
William of Tyre, Vol. II, p.459, Phocas, p.8,
أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1977م، ص 16، محمد مؤنس عوض، أضواء على تاريخ موارنة لبنان، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، ط. القاهرة 2003م، ص194- ص 196.

والقليعات شمال مدينة طرابلس، حيث عدت تلك القلاع خط الدفاع الأول عن المدينة، فضلا عن حصن صنجيل ذاته الذى شيده الصليبيون أمام أسوار مدينة طرابلس مباشرة[1].

زد على ذلك أن الإمارة ضمت بين جنباتها أعمال قلاع الدعوة لفرقة الإسماعيلية النزارية، وهى سبع قلاع: (الكهف والخوابى والقدموس والمنيقة والعليقة والرصافة ومصياف)، وتقع جميعها بجبال النصيرية شمال شرقى الإمارة، وهى قلاع على جانب كبير من المنعة والحصانة ساعدها فى ذلك وعورة جبال النصيرية فى حد ذاتها، مما هيأ لقاطنيها الاستقلالية الكافية عن السلطات الحاكمة[2].

على أية حال، كان من الطبيعى لهذا الموقع الإستراتيجى المنيع لمدينة طرابلس والأعمال التابعة لها أن يغرى قادة الحملة الصليبية الأولى وبخاصة ريموند الرابع كونت دى تولوز Raymond IV Count of Tolowe المعروف بالصنجيلى[3] منذ أن وقع بصره عليها أثناء زحفه ضمن الحملة الصليبية الأولى، من أنطاكية إلى بيت المقدس فى سنة 1197م/ 491هـ، ولقد ازدادت تلك الرغبة فى نفس ريموند بعد أن شن هجومًا على بعض أراضى طرابلس كبعرين ورفنية وحصن الأكراد وعرقة وأنطرطوس، إلا أن طموحه فى الاستيلاء على مدينة طرابلس بلغ ذروته عندما وافته رسله من طرابلس، بناء على طلب صاحبها فخر الملك بن عمار، لعقد صلح

---

(1) شيخ الربوة الدمشقى، نخبة الدهر، ص208،

William of Tyre, Vol. II, p.318.

(2) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص70، ابن الشحنة، تاريخ حلب، تحقيق كيكو أوتا، ط. طوكيو 1990م، ص253، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ4، ص146-147.

(3) عن ريموند الصنجيلى انظر:

Hill, Raymond of Saint Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Friendship, in Speculum, vol.26 No.2 (Apr., 1951), pp.265-276, Privat, Les Saint-Gilles et le Comte' de Tripoli, in Croisades et Etats Latins d'Orient, London 1992, pp.65-75.

فيما بينهما يخبرونه بمدى عظمة وثراء وازدهار هذه المدينة[1]، إلا أن جموع الصليبيين وقفت حائلاً أمام طموحات ريموند الصنجيلى حيث أصرت على الاستمرار فى الزحف دون توقف،وكيفما كان الأمر فلقد اضطر ريموند للنزول على رغبتهم والسير معهم إلى مدينة بيت المقدس حيث أسقطوها فى15يوليو1099م/ 23 شعبان 492هـ،لكن حلم ريموند الصنجيلى فى الاستيلاء على طرابلس وتكوين إمارة له فيها على غرار إمارتى الرها وأنطاكية كان لا يزال يراوده، إلا أن الفرصة لم تسنح له لحصار طرابلس إلا بعد أن أسقط مدينة أنطرطوس الواقعة إلى الشمال منها فى فبراير1102م/ ربيع آخر495هـ[2]، التى أصبحت مقرًا لإمارته ومركزًا لشن هجماته على مدينة طرابلس، ومن هنا بدأ حصار ريموند لطرابلس فى نفس العام، ورغم مساندة الموارنة الذين يقطنون جبال لبنان له[3]، إلا أنه لم يقوَ على إسقاط المدينة نظرًا لمنعتها وحصانتها التى كانت مضرب الأمثال، كذلك لإنهاك وضعف قوة ريموند العسكرية سواء فى العدد أو العدة، لذلك انسحب من طرابلس عائدًا إلى أنطرطوس مكتفيًا بما غنمه من صاحبها فخر الملك من مال وخيل[4].

إلا أن اعتداءاته عليها لم تتوقف خاصة على إثر دعم الجنوية له بحريًا فى حصاره

---

(1) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت: حسن حبشى، ط.القاهرة 1958م، ص157، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص81.

(2) Albert d'Alix, Histoiria Hierosolymitana, in R.H.C, vol.IV, Paris1879, p.583, Saewulf, Pilgrimage of Saewulf, Trans by Bishop of Clifton, P.P.T.S, vol.IV, London 1896, P.27,

عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة القاهرة1971م، ص39.

(3) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدوروز، ط. بيروت1908م، ص147، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ10، ط.بيروت1967م، ص128، اليونينى البعلبكى، ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، جـ3، ط. حيدر آباد الدكن1954م، ص93- ص94.

(4) ابن الأثير، المصدر نفسه، جـ10، ص128، سعيد عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى، ط. القاهرة1997م، جـ1، ص279.

لطرابلس، بيد أن محاولاته تلك فى إسقاط المدينة باءت جميعها بالفشل فما كان منه إلا أن اتجه جنوبا نحو جبيل حيث قام بمحاصرتها إلى أن أسقطها بمساعدة الأسطول الجنوى فى عام1104م/ 497هـ[1].

وهكذا أصبحت طرابلس بين شقىّ الرحى، محاصرة من الشمال والجنوب، بل لقد ازداد موقفها تأزمًا إثر شروع ريموند الصنجيلى فى تشييد حصن أمام طرابلس على تلة أبى سمرة التى كانت معروفة آنذاك بتلة الحجاج Mons Peregrinus حتى يزيد من إحكام سيطرته على المدينة، ولكن القدر لم يمهل ريموند الفرصة لكى يكمل ما بدأه فلقد لقى مصرعه فى أعقاب هجوم شنه عليه فخر الملك بـن عمار فى مارس 1105م/ ذى الحجة497هـ، حيث قام بتخريب الحصن الذى عرف بحصن صنجيل ثم إحراقه ولسوء حظ ريموند أنه لم يستطع أن ينجو بنفسه من ذلك الحريق[2].

لكن سرعان ما تولى وليم جوردان William Jourdain (1105–1108م/ 497–502هـ) ابن أخت ريموند قيادة العمليات الصليبية العسكرية ضد طرابلس، إذ أخذ يحاصرها برًّا وبحرًا لما زاد عن العامين، إلا أن تواصلَ الإمدادات على مدينة طرابلس وبخاصة من مدينة عرقة أضعفَ من فاعلية هذا الحصار، فما كان من وليم جوردان إلا أن حاصر مدينة عرقة حصارًا محكمًا دام لثلاثة أسابيع متواصلة قطع خلالها عن المدينة أى سبيل لوصول الإمدادات لها مما أسفر فى النهاية عن استيلائه عليها فى أبريل 1108م/ رمضان 502هـ[3].

(1) سبط بـن الجـوزى، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ط. حيدر آباد الدكن1951م، جـ8، ص8– ص9،

William of Tyre, Vol. II, p.476-477,

سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين (جبيل – لبنان)، ط. القاهرة 2002 م، ص23–28.

(2) Jacques de Vitry, p.79,

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ1، ص282.

(3) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص162،

Albert d'Alix, p.668.

وبينما الظروف مهيأة تمامًا على هذا النحو أمام جوردان للاستيلاء على طرابلس فإذا ببرتران أوف تولوز Bertrand Toulouse (11081113م/ 502-507هـ) ابن ريموند الصنجيلي، الذى تولى إمارة تولوز فى فرنسا بعد رحيل أبيه ضمن الحملة الصليبية الأولى، قد قدم على رأس أسطول من العناصر الجنوية حلفائه ومعه ما يقدر بأربعة آلاف فارس، عازمًا على تولى أملاك أبيه فى بلاد الشام، ومن الطبيعى أن جوردان ما كان ليرضي بمثل هذا الأمر الذى قد يفقده نفوذه فى منطقة طرابلس، لذلك احتدم النزاع بين كلا الطرفين لإثبات أحقية كل منهما فى تملك إرث ريموند الصنجيلى حتى كاد الأمر يصل إلى حد اللجوء لاستخدام السلاح العسكرى فيما بينهما، إلا أنهما تداركا الموقف فى الوقت المناسب بوصولهما إلى حل وسط يرضى كليهما، ينص على أن تقسم تلك الأملاك بحيث يكون لجوردان عرقة وأنطرطوس بحق الغزو، بينما يكون لبرتران جبيل وقلعة صنجيل بحق الإرث عن أبيه، كما تم الاتفاق على أن يعاون جوردان برتران فى إسقاط طرابلس، وإنه فى حالة ما إذا توفى أى منهما دون أن يترك ولدًا يرثه من بعده تنتقل أملاكه إلى الآخر، وبينما الأمر على هذا النحو فإذا بحادث يقع لجوردان يودى بحياته فى عام 1109م/ 493هـ لتنتقل أملاكه لبرتران، الذى كان من الواضح أنه المستفيد الوحيد من هذه الحادثة[1].

على أية حال، فقد استقرت الأوضاع سريعًا فى الجانب الصليبى، حيث تمكن برتران بمساعدة الأسطول الجنوى والملك بلدوين الأول Baldwin I ملك مملكة بيت المقدس (1100-1118م/ 494-512هـ)[2]، وتنكريد Tanchred أمير أنطاكية (1104-1112م/ 498-506هـ)، بالإضافة إلى موارنة جبل لبنان من محاصرة مدينة

(2) Fulcher of Chartres, A History of Expedition to Jerusalem, Trans by Rita Rian, Tennesse1969, pp.193-194, William of Tyre, Vol. I, p.453.

(2) عن بلدوين الأول انظر:

Fulcher of Chartres, p.148, William of Tyre, Vol. I, p.427,

هنادى السيد محمود، مملكة بيت المقدس فى عهد بلدوين الأول (494-512/ 1110-1118م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة عين شمس2006م.

طرابلس برًا وبحرًا لما يزيد عن ثلاثة أشهر، ورغم ما أبداه والى وحامية وأهالى مدينة طرابلس أول الأمر من قدرة على تحمل وطأة الحصار، إلا أنه مع طول أمد هذا الحصار الغاشم، فضلاً عن إعاقة الصليبيين وصول أى إمدادات للمدينة، تملك اليأس من أهالى طرابلس للنجاة من تلك الكارثة لدرجة أن والى مدينة طرابلس وحاميتها عرضوا على الصليبيين تسليم المدينة لهم على أن يسمحوا لهم ولأهالى طرابلس بالخروج منها بأمان، وبالفعل تم تسليم المدينة للصليبيين فى12 يوليو1109م/ 11ذى الحجة502هـ، لتصبح عاصمة لإمارة طرابلس التى كانت آخر الإمارات الصليبية التى أقيمت فى بلاد الشام[1].

ومنذ هذا الحين أخذ برتران على عاتقه مهمة الاستيلاء على باقى الأراضى التابعة لطرابلس، فاستولى على حصنى المنيطرة، وعكار، كما شارك فى إسقاط بيروت ليضمن لأملاكه الحماية والأمن من الناحية الجنوبية، بينما استولى تنكريد أمير أنطاكية على حصن الأكراد الذى تنازل عنه فيما بعد لبونز Pons (1112-1137م/ 506-531هـ) ابن برتران الذى خلف أباه فى فبراير 1112م/ شعبان505هـ. كما تنازل له أيضا عن صافيتا ومرقية، بينما تمكن بونز من إسقاط قلعة رفنية بنفسه فى عام 1115م/ 508هـ، والتى كانت تسيطر على مدخل سهل البقيعة، ولكى تكون سيطرة بونز على مدخل هذا السهل أكثر إحكامًا أسس فى العام التالى قلعة عرفت بقلعة بعرين عند سفح جبال النصيرية المشرفة على هذا السهل، كما استولى على حصن الطوفان ليفرض سيطرته على أكبر قدر ممكن من هذا السهل[2].

(1) ابن الأثير، الكامل، جـ10، ص475- ص476، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص111، أبو الفداء، المختصر، جـ2، ص224، النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ28، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمى محمد، ط. القاهرة1992م، ص264،

Fulcher of Chartres, pp.194 – 195,

إسحق أرملة السريانى، الحروب الصليبية فى الآثار السريانية، ط. بيروت1929م، ص30- ص31.

(2) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص165، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ8/ ق1، ص537

ومن الملاحظ أن إمارة طرابلس حينئذ كانت قد بلغت أقصى اتساع لها، لكن كما كان عهد بونز شاهدًا على هذا الإنجاز الكبير فقد شهد أيضًا بداية تراجع إمارة طرابلس، إلا أن هذا التراجع لا يعود فى ذلك التوقيت بالتحديد لضعف إمارة طرابلس أو لضعف حاكمها الأمير بونز- رغم ما عرف عنه بسياسته المتهورة، خاصة المتعلقة بسعيه الدءوب للاستقلال الكامل عن مملكة بيت المقدس- بقدر ما يعود لصحوة المسلمين من غفوتهم وانتعاش روح الجهاد فيهم من جديد، لا سيما منذ أن أخذت قوات دمشق وعسكر التركمان يوالون هجماتهم على أملاك بونز مما أجبره على التوقف عن تقدمه، بل إنها اضطرته إلى اتخاذ موقف الدفاع خاصة بعد أن تزايدت هجماتهم على مدينة طرابلس نفسها، إلى أن لقى بونز مصرعه دفاعا عن المدينة فى إحدى الهجمات التى شنها المسلمون عليها فى (مارس1137م/ رجب531هـ)، ومن الجدير بالإشارة أن هناك بعض موارنة طرابلس عاونوا المسلمين ضد صليبىّ الإمارة فى تلك الهجمات، مما يظهر لنا أن نصارى طرابلس لم يكونوا جميعًا موالين للصليبيين بشكل عام ضد المسلمين، بل على العكس فلقد اختلفت مواقفهم ما بين التأييد والدعم ومعاداتهم كشأن هذه الحادثة وفق المصلحة السياسية[1].

على أيه حال، فلقد كان من الطبيعى أن يخلف بونز فى حكمه للإمارة ابنه وولى عهده الأمير "ريموند الثاني" Raymond II (1137-1152م/ 532-547هـ)، لكن الأمر الذى لم يكن طبيعيًا بحق هو أن يتبع ريموند الثانى منذ بدايات حكمه سياسة أقرب ما تكون لكونها سياسة دفاعية تجاه جيرانه المسلمين على نقيض سياسة

(1) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص258- 262، ابن أيبك، الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة 1961م، ص518، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ6، ص449،

William of Tyre, Vol. II, p.82, Richard, La Comte de Tripolis, p.21..

أسلافه التوسعية، والأرجح أن ما دفعه لاتخاذ هذه السياسة ما شهده عهده من استفحال خطر القائد المسلم "عماد الدين زنكى" أتابك الموصل (1126-1146 م/ 521-541هـ)، الذى ركز نشاطه ضد الإمارات الصليبية بما فى ذلك إمارة طرابلس، حيث هاجمها فى عام (1137م/ 532هـ) من خلال حصاره لحصن بعرين الذى كان يعد واحدًا من أقوى قلاعها، مما أجبر ريموند الثانى للخروج من عاصمته طرابلس برفقة صهره ملك مملكة بيت المقدس "فولك الإنجوى" Foulk of Anjou (1131- 1144م/ 526- 539هـ) لرده عن الحصن. وهناك نشبت معركة حامية الوطيس بين الطرفين، أسفرت عن وقوع ريموند الثانى أسيرًا فى أيدى زنكى، وفرار الملك فولك إلى داخل حصن بعرين عام (١١٣٧م/ ٥٣١هـ)، وبينما الوضع على هذا النحو فإذا بالمسلمين يشددون حصارهم للحصن بمن فيه، ومع طول أمد الحصار وعدم وصول النجدات للملك فولك اضطر الأخير لعقد اتفاق مع زنكى يقضى بتسليمه الحصن ودفعه خمسين ألف دينار مقابل تأمين الملك على حياته وإطلاق سراح الأسرى بمن فيهم ريموند الثانى[1].

ومن المرجح أن هذه الحادثة جعلت ريموند الثانى يدرك عدم قدرته منفردا على حماية إمارته بالقدر الكافى، لذلك أوكل لفرسان الإسبتارية Hospitallers مهمة تأمين وحماية حدود الإمارة الشمالية الشرقية، على وجه التحديد، حيث منحهم فى عام (1142م/ 537هـ) حصن الأكراد ليكون مركزا لنشاطهم، ورغم ذلك فإن ريموند الثانى لم يقوَ ثانية على حماية أملاكه، إذ سُلب منه حصن العريمة هو الآخر، ولكن هذه المرة لم يكن على يد المسلمين وإنما على يد فرد من عائلته، فلقد جاء ضمن ركاب الحملة الصليبية الثانية (1147- 1149م/ 542-544هـ)[2] الأمير

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ1، تحقيق جمال الدين الشيال، ط.القاهرة 1953 م، ص73، أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص12، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ص79،
Runciman, A History of the Crusades, vol.II, London 1978, pp.203 -205.

(2) عن الحملة الصليبية الثانية انظر: =

"ألفونس جوردان" Alfonse ، ابن ريموند الصنجيلي ومعه ابنه "برتران"Bertran، الذى ما إن رأى طرابلس حتى راودته أطماعه للاستيلاء عليها، خاصة بعد وفاة أبيه، حيث شن هجومًا على قلعة العريمة انتهى بإسقاطه لها، ومن ثَمَّ أخذ منذ هذا الحين يستعد لمهاجمة باقى أراضى الإمارة، أما ريموند الثانى فلقد كان مقتنعا بأنه لن يقوى على مواجهة برتران، لذلك لم يجد بُدًّا من مراسلة نور الدين ابن عماد الدين زنكى (1146-1174م/ 541-569هـ)، لحثه على مهاجمة حصن العريمة واسترداده من أيدى برتران، فما كان من نور الدين إلا أن استغل هذه الفرصة وسارع بمهاجمة الحصن ونقب أسواره إلى أن تمكن من الاستيلاء عليه وأسر من فيه من الصليبيين وعلى رأسهم برتران[1].

وعقب هذه الحادثة قضت إمارة طرابلس فترة من الهدوء والسلم خلال الفترة المتبقية من عهد ريموند الثانى باستثناء بعض الخسائر فى سفن الإمارة التى دمرت من جراء هجمة بحرية شنها الأسطول المصرى فى عام (1151م/ 546هـ)، على سواحل بلاد الشام[2]، إلا أنه فى عام (1152م/ 547هـ) وقع خلاف بين ريموند

= ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص297- ص300، ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك، جـ9، ط. حيدر أباد الدكن1940م، ص130- ص131، ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طلمبات، ط.القاهرة1963م، ص88- ص89،

Anonymous Syriac Chronicle, Trans. by Tritton, J.R.A.S, 1933, part II, pp. 298-299, Odo of deul, De Profectione Ludovici VII in Orienten, ed V.G. Berry, New York 1948, pp.7-143,William of Tyre, Vol. II, pp.163-194,

عبد السلام محمد زيدان، الحملة الصليبية الثانية، رسالة ماجستير "غير منشورة" كلية الآداب - جامعة جنوب الوادى2000م،

Berry, "The Second Crusade", in Setton, History of the Crusades, vol. I, Pennsylvania 1958, pp.463-512, Constable, A Note on the Route of the Anglo-Flemish Crusaders of 1147, S, vol.28, no.3 (Jul., 1953), pp.525-526.

(1) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص300، أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمى أحمد، ط. القاهرة1956م، جـ ص143، النويرى، نهاية الأرب، جـ27، سعيد عاشور، ط. القاهرة 1985 م، ص153.

(2) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص315، أبو شامة، المصدر السابق، جـ1، ص202.

وزوجته "هوديرنا" ابنة الملك "بلدوين الثاني" Baldwin II ملك مملكة بيت المقدس (1118- 1131م/ 512- 526هـ)، وبعد فترة وجيزة من ذلك الخلاف وقبل أن يصل الزوجان لوفاق فيما بينهما لقى ريموند مصرعه على يد بعض أفراد جماعة الإسماعيلية النزارية(1)- خلال استعداده لمواجهة هجوم جديد شنه نور الدين محمود على أراضيه- ليخلفه ابنه الأمير "ريموند الثالث" Raymond III (1152-1187م/ 547- 583هـ) تحت وصاية أمه هوديرنا Hodierna(2).

ويعد ريموند الثالث هذا، وبحق، أبرز الشخصيات الصليبية التى شهدتها تلك الفترة الحرجة من تاريخ الوجود الصليبى فى بلاد الشام، فلقد بدأ حكمه، كما ذكرنا من قبل، تحت وصاية أمه، لكن ببراعته وحنكته السياسة صار وصيًّا على عرش مملكة بيت المقدس فى عهد "بلدوين الرابع" Baldwin IV و"بلدوين الخامس" Baldwin V (1174- 1186م/ 570- 582هـ)، وإن كان تنامى قوة المسلمين تحت قيادة نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبى لم يعطه الفرصة للقيام بدور أفضل مما قام به.

أما عن أوضاع إمارة طرابلس، فلقد أصابها فى بدايات عهده وبالتحديد فى

---

(1) عن اغتيال ريموند الثانى انظر: William of Tyre, Vol. II, p.214,

أسامة زكى زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرن الثانى عشر الميلادي/ السادس الهجري)، ط. إسكندرية1980م، ص225، برنارد لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، الحشيشية، ت: سهيل زكار، ط.بيروت1971م، ص126، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص276،

Baldwin, Raymond III of Tripolis and the fall of Jerusalem (1140-1187), Amsterdam 1969, p.9, Lewis, The Assassins, A radical sect in Islam, London, p.109, Runciman, a History of the crusades, vol.II, p.33, Stevenson, The Crusaders in the East, Beirut 1968,p.170..

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ1، ص504- ص505، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص156- ص157.

عام (1157م/ 552هـ) زلزال عنيف[1] حملها خسائر فادحة فى الأنفس والعمران من جراء الدمار الذى حل بمدن وحصون الإمارة، وما إن تمكن ريموند الثالث من النهوض من تلك الكبوة حتى واجه هجمات متتالية من قبل نور الدين على إمارته، إلى أن أسر فى النهاية فى معركة حارم عام (1163م/ 559هـ)[2]، وفى فترة الأسر هذه أخذ نور الدين يوالى هجماته من فترة لأخرى على إمارة طرابلس يستنزفها قدر الإمكان، بينما استغل ريموند الثالث فترة أسره، والتى استمرت أحد عشر عامًا، فى الاطلاع والمعرفة وتعلم اللغة العربية مما كان له أثر واضح على نضوج شخصيته، وذلك ما تبين من خلال سياسته التى اتبعها فيما بعد وخاصة مع جيرانه المسلمين الذين تبادلوا الأدوار مع الصليبيين فأصبحوا هم فى موضع القوة وبات الصليبيون فى مركز الضعف والوهن. ومن هذا المنطلق سعى ريموند الثالث لمهادنة المسلمين وتجنيب أملاكه ومملكة بيت المقدس - التى كانت تحت وصايته - والوجود الصليبى فى بلاد الشام بشكل عام الاصطدام مع المسلمين فى صراع كان من المؤكد أنه لن يكون فى صالح الصليبيين،إلا أن كثيرًا من قادة الصليبيين حديثى العهد ببلاد الشام لم يدركوا هذه الحقيقة، مما أدى بمملكة بيت المقدس إلى مواجهة مع صلاح الدين غير متكافئة فى

---

(1) عن زلزال 1157م/ 552هـ انظر:
ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص343 - ص344، ابن الأثير، الباهر، ص110، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ 8/ ق2، ص228، أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص31، محمد مؤنس عوض، الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1996م، ص81-84.

(2) عن معركة حارم وأسر الأمير ريموند الثالث انظر:
ابن الأثير، المصدر السابق، ص124، أبو شامة، الروضتين، جـ2، ص339- ص342، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ1، ص143- ص145،
Anonymous Syriac Chronicle, pp.303-304, Recueil des Historiens des Gaules et de la France, Tome Seizieme, Par Michel Jean Joseph Brial, Paris 1888, p.61, William of Tyre, Vol. II, pp.306-308, Jacques de Vitry, p.94,
محمد مؤنس عوض، فى الصراع الإسلامي- الصليبى السياسة الخارجية للدولة النورية (541-569 هـ/ 1146-1174م)، ص175-177، محمود سعيد عمران، "معركة حارم"، المؤرخ العربى، العدد (8) لعام 1977م، ص90- ص112..

معركة حطين فى عام (1187م/ 583هـ)[1] والتى كانت من أبرز ما أسفرت عنه استرداد المسلمين لمملكة بيت المقدس وغالبية مدن الساحل بما فى ذلك مدينة جبيل، ويبدو أن ريموند الثالث لم يقوَ على تحمل تلك الكارثة فتوفى عقب معركة حطين دون أن يترك وريثًا يتولى الحكم من بعده، لذلك ترك وصية طلب فيها من "بوهمند الثالث" أمير أنطاكية أن يولى ابنه الأكبر ريموند حكم إمارة طرابلس من بعده، بصفته أكثر الذكور قربًا له، ولكن وضع إمارة أنطاكية آنذاك كان حرجا للغاية، فقد كان صلاح الدين لا يزال يشكل خطرًا على الصليبيين، لذلك فضل بوهمند الثالث أن يرسل ابنه الأصغر بوهمند ليتولى حكم طرابلس بدلا من ابنه الأكبر، الذى كان فى أمس الحاجة له فى أنطاكية، وهكذا انتهى عهد الأسرة الطولوشية، وأصبحت إمارة طرابلس فى حوزة البيت النورماندى[2].

تلك صورة موجزة للإطار الجغرافى لإمارة طرابلس الصليبية مع عرض عام لنشأة الإمارة وتطورها خلال القرن الـ 12م/ 6هـ.

---

(1) عن معركة حطين انظر:
ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة 1964م، ص75- ص79، العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ط. القاهرة ب- ت، ص14- ص23، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ2، ص186- ص194، أحمد توفيق الطيبى، "وقعتا حطين والأراك نصران متوازيان على الغزاة الصليبيين فى المشرق والمغرب"، مجلة البحوث التاريخية، السنة (10)، يناير 1988م، ص51- ص64، جوزيف نسيم يوسف،"معركة حطين، خلفياتها ودلالاتها"، عالم الفكر، م(20)، ص235- ص251، سعيد عاشور، "حطين وقائع وعبر" مجلة العربى، العدد (344) يوليو 1987م، ص42-45.
Eracles, L'Estoire d'Eracles, Cmpereur et la conqueste de la terre d'outremer, in R.H.C, vol.I, pp.161-170, Baldwin, Raymond III of Tripolis, pp.96-135, Kedar, "The Battle of Hattin: Revised", in The Horns of Hattin, ed. by B.Z. Kedar, Jerusalem 1992, pp.190-207, Melville and Lyons, " Saladin's Hattin letter", in The Horns of Hattin, pp.208-212, Richard, An Account of the Battle of Hattin, pp.168-175, Stevenson, The Crusaders, pp.244-248..

(2) Eracles, pp.71-73,

السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص161،
Baldwin, Raymond III of Tripolis, p.138, Stevenson, The Crusaders, p.248.

■ الفصل الأول

التطور السياسى لإمارة طرابلس الصليبية

يتناول هذا الفصل بالدراسة التطور السياسى لإمارة طرابلس الصليبية فى القرن (13م/ 7هـ)، ويتعرض للعديد من الزوايا، مثل: مشكلة الوراثة فى أنطاكية، وقيام حرب أهلية فى إمارة طرابلس فى فترة حكم بوهمند الرابع، وكيف اتخذ بوهمند الخامس سياسة السلم منهجا لحكمه، ويتعرض الفصل لزاوية على جانب من الأهمية كان لها تأثير بالغ فى تاريخ إمارتى طرابلس وأنطاكية، ألا وهى تحالف بوهمند السادس مع مغول فارس ضد المسلمين، كما يظهر هذا الفصل كيف أن تتابع الحروب الأهلية خلال فترتى حكم بوهمند السادس وابنه بوهمند السابع، ثم حدوث مشكلة الوراثة فى إمارة طرابلس عقب وفاة بوهمند السابع قد أنهكا إمارة طرابلس وأضعفاها مما جعلها عرضة للهجوم الخارجي.

ويتطلب الأمر التعرض أولا بصورة موجزة لوضع بلاد الشام ومصر عقب وفاة صلاح الدين، فلقد كان من المنطقى لحركة الجهاد الإسلامي - التى تولاها عميد البيت الأيوبى الناصر صلاح الدين- أن تستمر من بعده، لكن الواقع كان على خلاف ذلك، فقد دب الصراع بين الأيوبيين بعضهم البعض، مما أسفر عن انقسام البيت الأيوبى وانهيار وحدة مصر والشام[1]، ومن الطبيعى، وحال

(1) عن انقسامات البيت الأيوبى انظر:
أبو شامة، الروضتين، جـ2، ص226- ص229، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ1، ص378- ص379، أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص90- ص92، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص717- ص722، محمد مؤنس عوض، العلاقات، ص278،
Gibb, The Ayubids, in Setton, A History of the Crusades, vol.II, Wisconsin 1969.pp.693 -713.

المسلمين كذلك، أن يستغل الصليبيون صراعاتهم تلك لاستعادة الأراضى التى استردها صلاح الدين منهم، ولكن لم تُتِحْ لهم الفرصة إلا الاستيلاء على قدر بسيط من أملاكهم السابقة مثل مدينة جبيل، التى فرضوا عليها سلطانهم من جديد فى (ديسمبر1197م/ صفر594هـ)[1]، وذلك لانشغالهم بتنظيم هيكلهم السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى أضير من جراء نصر حطين والحملة الصليبية الثالثة،كذلك انشغل الصليبيون بصراعاتهم الداخلية، ولعل أهم تلك الصراعات حينذاك حرب الوراثة فى أنطاكية،وهكذا انشغلت جبهتا الصراع الإسلامي- الصليبى بصراعاتهما الداخلية، وقلما وجدت مواجهات عسكرية حاسمة بين الطرفين[2].

وفى خضم هذه الأحداث شهدت إمارة طرابلس تغيرات سياسية وإدارية بالغة الأهمية فى أواخر القرن (12م/ 6هـ)، وذلك بانتقال حكم الإمارة من أيدى البيت الطولوشى إلى حوزة البيت النورماندى تحت حكم بوهمند الرابع Bohemond VI (1187-1233م/ 583-630هـ)، الذى استطاع رغم صغر سنه وقلة خبرته فى شئون الحكم أن يعبر بإمارة طرابلس تلك الفترة العصيبة فى سلام، دون التعرض لتهديد حقيقى من قبل صلاح الدين الأيوبى، الذى وجَّه اهتمامه آنذاك نحو مهاجمة إمارة أنطاكية،وما أعقب ذلك من فاعليات الحملة الصليبية الثالثة، وهكذا حل الهدوء والاستقرار إلى حد ما بالإمارة، خاصة بعد أن عقد بوهمند الثالث اتفاقية سلام مع صلاح الدين فى بيروت فى30 أكتوبر 1192م/ 21 شوال588هـ تشمل إمارتى طرابلس وأنطاكية. وكانت مدة الهدنة عشر سنوات[3]،

(1) أبو شامة، الروضتين، جـ2، ص288، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ2، ص81، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ6، ص120- ص121،

Cahen, La Syrie du Nord a L'Epoque des Croisades, Paris 1940, p.590.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص 727- 728.

(3) أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص84 ,Eracles, PP.71-72.

السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص161،

Hardwicke, "The Crusader States (1192-1143)" in Setton, A History of the Crusades. VOL.II, P. 524

ولعل هـذه الاتفاقية كانت من أولى الإشارات التى أظهرت بداية ارتباط إمارتى أنطاكية وطرابلس ببعضهما.

بيد أن هذا الهدوء لم يُكتبْ له أن يدوم طويلاً، فلقد أُسر بوهمند الثالث أمير أنطاكية من قبل ملك أرمينيا ليو الثانى Leo II فى أكتوبر 1193م/ رمضان589هـ حيث لم يكن هناك مفرا أمامه للنجاة من أغلال ذلك الأسر إلا بالنزول على رغبة الملك ليو بتزويج ابنه الأكبر "ريموند" Raymond من "أليس" Alice ابنة شقيق ليو مقابل إطلاق سراحه، وبالفعل تم ذلك الزواج لكنه سرعان ما انتهى على إثر وفـاة ريمونـد حتـى قبـل أن يـرى مـولد ابنه الذى سُمى ريمونـد روبين Raymond Robin، وكان لهذا الطفل الحق الشرعى فى ولاية حكم أنطاكية عقب وفاة جده بوهمند الثالث بموجب اتفاق عقد بين الأخير وبين ليو الثانى، نصَّ على أن يرث ريموند أمه وأبيه فى كل من أنطاكية وأرمينيا[1].

ومن المتصور أن أمرا كهذا لم يكن ليرضَى به بوهمند أمير طرابلس، فلقد كان يطمع فى تولى حكـم أنطاكية، مسقِط رأسه، خلفًا لأبيه، وبما أنه كان على يقين من أنه بقوته وحده سيـقف عاجزًا أمام مطامع ليو الثـانى فى أنطاكية، فقد لجأ بوهمند إلى كسب أعوان يناصرونه ويؤيدونه فى صراعه القادم ضد ليو تمثلوا فى البيازنة الذين تصالح معهم فى26أغسطس 1199م/ 2ذوالقعـدة 595هـ مـقابـل منحهـم له 800 بيزنت[2]، والعـفو عن مواطنيهـم الذين أحدثوا بعض أعمال الشغب فى

(1) سهير محمد مليجى على، المرأة الصليبية فى بلاد الشام 1098- 1268م، رسالة دكتوراه "غير منشورة"، كلية البنات، جامعة عين شمس2002م، ص135- 136، محمد المقدم، الاغتيالات فى بلاد الشام والجزيرة، ص198- ص199،

Cahen, La Syrie du Nord, P.P 586-591, King, the Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931, P.173.

(2) البيزنت Bezant : عملة ذهبية بيزنطية عرفت باسم السوليدس Solidus، تم سكّها لأول مرة فى عهد الإمبراطور أنستاسيوس Anastasius فى عام 498هـ وقد راج استخدام تلك العملة فى =

طرابلس[1]. وعلى نفس هذا النهج تصالح مع هيئة الإسبتارية الذين سدد لهم فى عام 1198م/ 594هـ، بقية ديون ريموند الثالث، كما منحهم ملكية حصن مرقية فى عام 1199م/ 595هـ، واتبع نفس السياسة لكسب مساندة الجنوية، كما أنه لم يتوانَ عن استغلال عداء هيئة الداوية والظاهر غازى حاكم حلب للملك ليو الأرمينى، فتحالف معهما ضـده، ولعل أهم عون كسبه بوهمند الرابع كان من أنطاكية ذاتها، من خلال دعـم قومونها ونبلائها له، الذين خشوا من ازدياد النفوذ الأرمينى فى إمارتهم. لذلك فما إن توفى بوهمند الثالث فى عام 1201م/ 597هـ، حتى سارعوا باستدعاء بوهمند أمير طرابلس وأقسموا له يمين الولاء، حيث أصبح بوهمند أميرًا فعليًّا على إمارة أنطاكية ولُقب ببوهمند الرابع، وهكذا ولأول مرة خلال فترة الحروب الصليبية اتحدت إمارتا طرابلس وأنطاكية تحت قيادة واحدة، بينما كان الملك ليو فى انتظار أية فرصة تواتيه لينتقم من بوهمند ويخضع إمارة أنطاكية له من جديد، حتى يُنصِّب ريموند روبين أميرًا عليها، ومن هنا اشتعلت الحرب بين ليو وبوهمند[2].

= التجارة الدولية، وبشكل واضح خلال الفترة الواقعة بين القرنين 10،13م/ 4،7هـ لدرجة أن هناك بعض الباحثين من وصف البيزنت بأنه دولار العصور الوسطى، عنه انظر:

رأفت النبراوى، النقود الصليبية فى مصر والشام، ط. القاهرة 2001م، ص33، حاشية (2)، ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ت: عبد العزيز جاويد، ط. القاهرة 1997م، ص211، محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل كومنين، ط. الإسكندرية 1985م، الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دى برين على مصر 1218-1221م/ 615-618هـ ط. الإسـكندرية 1985م، محمد مؤنس عـوض، عـالم الحروب الصليبية، ص135 حاشيـة (106).

(1) Rohricht, ed., Regesta Regni Hirosolymitani, in nsbruk, 1893 -1904, no 758, p.203, Cahen, la Syria du Nord, pp 592 – 593,

انظر نص الوثيقة فى القسم الخاص بالملاحق.

(2) Sempad, La Connetable, Chroniqe, in R.H.C, vol.1, p.632, Bouchier, A short history of Antioch, Oxford 1921, pp.264 – 265, Grousset, Histoire des Croisades et du Royame franc de Jerusalem, vol.3, Paris 1936, pp.246-247.

وبينا كان الوضع على هذا النحو فى إمارة أنطاكية إذ بإمارة طرابلس تتعرض لسلسلة من الكوارث الطبيعية المختلفة، كانت أولها زلزالاً عنيفًا ضربها فى عامى 1201– 1202م/ 597– 598هـ إلا أن زلزال 1202م/ 598هـ، كان له تأثير أفدح على إمارة طرابلس، خاصة أنه حدث فى الساعات الأولى من الصباح، مما أودى بحياة الكثير من سكانها، فلقد انهار عدد كبير من بيوت مدينة طرابلس وغالبية سكانها كانوا آمنين فى منازلهم، وكذلك كان الحال فى مدينتى أنطرطوس وعرقة، وإن كان حال الأخيرة أكثر سوءًا، كما أصيبت غالبية القلاع التى كانت تحمى إمارة طرابلس، كحصن الأكراد وقلعة صافيتا وحصن عكار وقلعة المرقب[1].

وكنتيجة لفداحة هذه الكارثة، لم يتمكن سكان الإمارة من دفن جثث موتاهم بالسرعة الكافية، مما أسفر عن انتشار مرض الطاعون فى مَنْ تبقى ممن نجا من أهلها، فأدى ذلك لهلاك نحو ثلث من نجوا، ومما زاد الأمر سوءًا نقص الإمدادات الغذائية، فلقد نفقت أعداد كبيرة من الثروة الحيوانية، التى اشتهرت بها إمارة طرابلس من جراء انتشار حشرة مميتة بين مواشيها، كما سبق أن انتشر وباء بين محاصيلها الزراعية قبل ما يقرب الشهر من زلزال1202م/ 598هـ أفضى إلى دمار قدرٍ هائل من مواردها الغذائية، خاصة الحبوب التى اعتمدت عليها غالبية سكان إمارة طرابلس فى غذائهم[2].

(1) عبد اللطيف البغدادى، كتاب "الإفادة والاعتبار فى الأمور والمشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر"، ط.القاهرة 1286م، ص59–60، ابن كثير، البداية والنهاية فى التاريخ، جـ13، القاهرة1935 م، ص27،

Geoffrey of Donjon, in Mayer, "Two unpublished letter about the earthquake of 1202", in Medieval and middle eastern studies, in Honor of Aziz surial Atia, ed by Sami Hanna, Leiden 1972,pp.306 -308, Les Gestes des Chiprois, ed, R.H.C. Doc Arm, t.II, Paris 1906, P.663, Philip de Plessis, "Two unpublished letter ", in Mayer, pp. 308 - 309;

محمد مؤنس أحمد عوض، الزلازل فى بلاد الشام، ص116– ص 117.

(2) Geoffrey of Donjon, pp. 306 308; Philip de Plessis, pp. 308 – 310,

محمد مؤنس، المرجع السابق، ص 117– ص 119.

ومما لا شك فيه، أن وضع طرابلس آنذاك كان يحتم على بوهمند الرابع التواجد بها بشكل دائم، حتى يهدئ من روع مواطنيها ويوفر لهم احتياجاتهم الغذائية الأساسية يعيد لطرابلس الحياة التى كانت عليها من قبل، وعلى الرغم من أن المصادر وخاصة الصليبية منها، لم توضح لنا الإجراءات والخطوات التى اتخذها بوهمند داخل إمارته لإزالة آثار تلك الكوارث، إلا أنَّ صمت المصادر هذه قد يكون هو الدليل على استقرار الأمور فى إمارة طرابلس، فلو أن بوهمند الرابع لم يستطع السيطرة على زمام الأمور فى طرابلس وترك الإمارة فريسة للخراب والطاعون والمجاعة لما سكتت المصادر عن هذا الأمر.

على أية حال اتجه ذلك الأمير الصليبى إلى مهاجمة الأملاك الإسلامية، طمعا فى الحصول على الغنائم لتعويضه عن الأوضاع السابقة، لذا قام بالاشتراك مع إسبتارية حصن الأكراد والمرقب تارة والسباح لهم تارة أخرى بالإغارة على المدن الإسلامية المجاورة، ألا وهى مدن بعرين وحماة وحمص وجبلة واللاذقية، وذلك خلال الفترة الواقعة بين عامى 1202م/ 599هـ - 1204م/ 601هـ [1]، وترى الباحثة أن تلك الهجمات لم تكن تتخذ شكل الحرب المنظمة وإنما كانت مجرد غارات استهدفت السلب والنهب فى المقام الأول، خاصة أن إمارة طرابلس، كما ذكرت، كانت تعانى من نقص شديد فى الاحتياجات الغذائية.

على أية حال، كان من الضرورى أن يكون هناك ردٌّ رادع من قبل المسلمين على تعديات الصليبيين هذه، وبالفعل شن الملك العادل (1200- 1218م/ 596 - 615هـ) حملة على إمارة طرابلس فى عام 1206م/ 603هـ قام خلالها بمهاجمة حصنى الأكراد والقليعات، وخرب الأخير ثم حاصر حصن صنجيل واستولى على ما فيه. وواصل

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ3، ص141- ص167.

المسير إلى مدينة طرابلس نفسها، وخلال حصاره لها شن عدة هجمات على ضواحيها وقراها وقطع المياه عن المدينة مما جعل الأخيرة تتكبد خسائر جديدة فادحة[1].

ومن وجهة نظر الباحثة أن حملة الملك العادل تلك لم تكن تهدف إلى الاستيلاء على طرابلس بقدر ما يمكننا أن نعتبرها حملة تأديبية استهدفت معاقبة صليبيّ طرابلس، لتعديهم على المدن الإسلامية المجاورة لهم، وكذلك لتعدى بعض القبارصة على بعض التجار المسلمين فى مدينة طرابلس، فضلا عن استهدافه استنزاف أكبر قدر ممكن من ثروات الإمارة وخلخلة الأمن بها وإضعافها.

وأمام فداحة الخسائر التى تعرضت لها طرابلس من جراء تلك الحملة كان طبيعيا أن يسعى بوهمند الرابع لطلب الصلح من الملك العادل، ومن المعروف أن العادل كان يسعى لمسالمة الصليبيين، وذلك لعدم إثارة غضب الغرب الأوربى، مما قد يسفر عن حملة صليبية جديدة[2]، لهذا وافق العادل على عقد الصلح مع بوهمند الرابع، وقد تم ذلك فى27يوليو 1207م/ آخر ذى الحجة 603هـ، وجُدد ذلك الصلح فى سنة1210م/ 607هـ[3].

ويواجهنا هنا سؤال يطرح نفسه ألا وهو: ما الذى دفع بوهمند الرابع للتعاون مع إسبتارية حصن الأكراد فى مهاجمة المدن الإسلامية السابقة وعدم القيام بهذا العمل وحده أو حتى بالاشتراك مع الداوية حلفائه؟ ويبدو أن دافع بوهمند من وراء ذلك كان التأكد من كسب مساندة الإسبتارية له، أو على أقل تقدير، حيادها

(1) ابن العديم الحلبى، "زبدة الحلب من تاريخ حلب"، جـ2، ط. بيروت1966م، ص448، ابن أيبك الدواداري، "الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب"، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط. القاهرة 1972م، ص160، الحنبلى، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوى، ط. القاهرة 1996م، ص211.

(2) محمد مؤنس عوض، العلاقات، ص 278، محمود الحويرى، "العادل الأيوبى صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية"، ط. القاهرة1980م، ص75- ص77.

(3) ابن الأثير، الكامل، جـ12، ص274، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ 3، ص173، عمر عبد السلام، "تاريخ طرابلس السياسى"، جـ1، ص544 – 546.

سواء فى صراعه مع ليو الثانى ملك أرمينيا أو فى صراعه مع رينوار الثانى Renoar II حاكم نيفين وأحد أكبر أتباعه[1]، الذى قام بثورة إقطاعية ضده فى نهاية عام1204 م/ جمادى الأولى601هـ، أثناء تواجد بوهمند فى إمارة أنطاكية، ويرجع سبب هذا الصراع لزواج رينوار هذا من إيزابيلا Isabella وريثة حصن عكار دون موافقة سيده بوهمند، وقد كانت القوانين الإقطاعية تقضى بضرورة موافقة السيد الإقطاعى أولاً على مثل هذا الزواج[2].

وطبقا للقانون الإقطاعى كان على رينوار أن يمثل أمام المحكمة العليا لطرابلس للفصل فى هذا التمرد، لكن من الواضح أن رينوار كان على يقين من ضعف موقفه القانونى، لذا لم يمثل أمام المحكمة مما أثبت إدانته، وأصبح لبوهمند الحق فى الاستيلاء على إقطاعياته، لكن على أية حال فمن المؤكد أن رينوار ما كان ليقدم على مثل تلك الخطوة إلا بعد يقينه من دعم خصوم بوهمند الرابع له، وعلى رأسهم بالطبع ليو الثانى ملك أرمينيا والملك عمورى الثاني Amalric II ملك مملكة بيت المقدس (1197- 1205م/ 593 - 601هـ) وبعض البارونات، الذين وجدوا أن الخطر سيداهمهم لو تمكن بوهمند حقا من توحيد طرابلس وأنطاكية تحت سلطانه[3].

ومن الجلى البين، أن بوهمند لم يكن أقل حيطة وذكاء من رينوار، حيث سار على نفس دربه، فأخذ يوطد علاقته بأسرة امبرياتشى حكام جبيل فتزوج من بليزانس Pleasance شقيقة جاى الأول أمبرياكو Guy Ambrico حاكم جبيل(1199-2141

(1) منى فريد مصطفى، "حماة فى العصر الأيوبى"، رسالة ماجستير "غير منشورة" فى الآداب، كلية البنات، جامعة عين شمس1995م، ص99،

Cahen, La Syrie du Nord, p.589 Grousset, Histoire des Croisades, vol 3, p.620.

(2) Eracles, p.314, Hardwicke, the Crusader States, in Setton, vol.II, p.534.

(3) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (1711- 1268م/ 567- 666هـ)، ط. الأسكندرية 1989م، ص242،

Runciman, A History of the Crusades, vol III, p.98.

م/ 596-638هـ) كما زوج أخته هى الأخرى لجاى نفسه، وعلى إثر ذلك أخذ بوهمند فى تنفيذ قرار المحكمة بمصادرة إقطاعات رينوار، مما أدى لتطور الموقف فإذا برينوار يهاجم إقليم طرابلس لشهور عدة دون أن يلقى مقاومة فعالة من قبل بوهمند، مما شجعه فى النهاية على مهاجمة مدينة طرابلس ذاتها، وكان على بوهمند حينئذ التصدى لهذا التعـدى السافر. وبالفعل التقى الطرفان فى مارس1205 م/ رجب601هـ، لكن من الواضح أن بوهـمند لم يكن مستعدًا لهذا اللقاء بالقدر الكافى، لذا انتهت المعركة بهزيمته وانسحابه، كما لقى صهره هـيو Huge شقيق جاى حاكم جبيل حتفه، وهكذا بات نجاح رينوار وشيكا بالفعل فى تمرده، لولا فقدانه أهم عون له ألا وهو الملك عمورى الثانى، الذى مات بعد أقـل من شهر واحد من تلك المعـركة السابقة، حيث تولى جان أيبلين Jean d'Iblin حاكم بيروت، الوصاية على المملكة، وقد كان جان هذا رغم صلة القرابة التى تربطه برينوار على عداء دفين معـه، فما إن تولى أمر الوصاية على المملكة حتى قام بقطع المعونة التى سبق أن قدمها الملك عمورى الثانى له[1].

وهكذا بات على بوهمند، قبل أن يقحم نفسه فى معركة جديدة مع رينوار، أن يعيد تقييم موقفه العسكرى، وبالفعل وجد بوهمند أن قدرته العسكرية ليست مهيأة لمعركة جديدة، لذا أخذ يبحث عن سند له يدعم جبهته، ولم يجد مناصرًا له أفضل من الجنوية الذين أمدوه بثلاث سفن بحرية وأربعمائة مقاتل وثلاثة آلاف بيزنت، مقابل منحهم امتياز جديد فى طرابلس فى يوليه 1205م/ محرم 602هـ[2]، عندئذ

---

(1) Les Gestes des Chiprois, P.663, .

موضى عبد الله السرحان، "بيروت تحت الحكم الصليبى وعلاقتها بالمسلمين" (504-690هـ/ 1110-1291م)، ط. الرياض2001م، ص207- ص208.

(2) Eracles, p.315, Rohricht, Regesta, no.807, pp.215 – 216.

ميشيل بالار، الجمهوريات البحرية الإيطالية والتجارية فى الشام- فلسطين من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر الميلادى، ضمن كتاب الصراع الإسلامي – الفرنجى على فلسطين فى القرون الوسطى، ط. بيروت1994م، ص191، انظر نص المنحة فى القسم الخاص بالملاحق.

شعر بوهمند بقوة جبهته، فقام فى شتاء هذا العام بالاشتراك مع الأسطول الجنوى وقوات جان أبلين، الوصى على المملكة، بحصار رينوار فى إقطاعيته نيفين، وقد انتهى ذلك الحصار باستيلاء بوهمند على نيفين وحصن عكار وأسر رينوار، لكن بعد أن فقد بوهمند أحد عينيه مما كان السبب فى إطلاق لقب الأعور عليه(1).

وهكذا التقط بوهمند الرابع أنفاسه بعد أن استقرت له الأمور فى إمارة طرابلس، ومن ثَمَّ أخذ يستعد من جديد لمواجهة آخر وأخطر أعدائه ألا وهو ليو الثانى ملك أرمينيا، المطالب بحق ريموند روبين فى حكم أنطاكية، ودون الخوض فى تفاصيل ذلك الصراع الذى دار بين كلا الطرفين لفترة استمرت ما يقرب من عشرين عاما، كان علينا أن نوضح أهم انعكاسات هذا الصراع على إمارة طرابلس ذاتها باعتبارها طرفا فى هذا الصراع، وإن كانت طرفا غير رسمى، لا ناقة لها فيه ولا جمل(2).

ولتكن بداية حديثنا عما جنته طرابلس من جراء هذا الصراع، فمما لا شك فيه أن ذلك الصراع الذى استمر بين بوهمند الرابع من طرف، وريموند روبين وليو الثانى من طرف آخر، قد حمل كلا الطرفين أعباء عسكرية ومالية جسيمة، ومن البديهى أن يكون اعتماد بوهمند فى صراعه هذا على إمكانيات إمارة طرابلس التى رغم الصعاب التى تعرضت لها من قبل إلا أنها تمكنت سريعا - لما لها من اقتصاد قوى ومتماسك - من استعادة استقرارها وازدهارها من جديد، خاصة أن بوهمند الرابع ما كان ليعتمد على إمكانيات أنطاكية اعتمادًا مطلقًا، وسيادته عليها لم تكن سيادة كاملة أو مستمرة، كما أن اقتصاد أنطاكية خلال فترة الصراع كان اقتصادً متهالكًا

---

(1) Les Gestes des Chiprois, p.663, Richard, Les Comets de Tripoli et tours Vassaux souse La dynasties antioche'nienn. P.215 .

(2) عن حرب الوراثة فى أنطاكية انظر:
ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ1، ص405- ص406،
Botchier, A short history, P.265, Hardwicke, The Crusader States, PP. 528-540 , King, The Knights Hospitallers, PP. 173 – 195 .

ومنهارًا[1]، وهكذا أصبحت طرابلس الداعم الرئيسى لبوهمند الرابع فى ذلك الصراع، وللأسف فإن المصادر المعاصرة لفترة الـدراسة ركزت اهتمامها على سرد أحداث حرب الوراثة فى أنطاكية دون توضيح أثر ذلك الصراع على طرابلس، أو حتى سبل الدعم التى قدمتها إلى حاكمها بوهمند الرابع فى صراعه هذا.

ومن الجدير بالذكر، أن جبيل هى الأخرى قد تحمَّلت بعض عواقب ذلك الصراع، فبينما كان حاكمها جاى أمبرياكو متغيبـا عنهـا لمشاركته بقواته فى الحملة الصليبية الخامسة على مصر (1218- 1221م/ 615- 618هـ)[2]، فإذا بريموند روبين فى عام 1218م/ 615هـ، يشن هجوما شرسا عليها، وذلك لكونها أقوى وأخلص حلفاء بوهمند الرابع وكثيرا ما ساندته فى صراعه ضد ريموند روبين نفسه، لذلك استمر فى هجومه عليها إلى أن تدخلت هـيئة الإسبتـاريـة لـتنقـذ جبيل وتمـنع ريمـونـد مـن الاستـيلاء عـليهـا، وردًّا لصنيـع الإسبتارية هذا منحهم بوهمند الرابع الكثير من الهبات والمنح إكراما وعرفانًا بجميلهم هذا[3].

لكن، ألم يكن بالأحرى على ريموند روبين أن يشن هجومه على مدينة طرابلس معقل بوهمند الرابع بدلاً من مهاجمته جبيل التى لم تشكل تهديدا عليه كما كانت طرابلس؟ لكن من المرجح أن تغيب جاى أمبرياكو بقواته عن جبيل قد أغرى ريموند روبين بالهجوم عليها اعتقادًا منه أن هجومه هذا قد يحقق مأربه منه ويستولى على جبيل،على العكس من مدينة طرابلس، وبخاصة أن بوهمند الرابع لم يشترك فى تلك الحملة الصليبية التى شنت على مصر، وبالتالى كان بوهمند هو نفسه من سيتولى

---

(1) Bouchier, A short history, p. 267

(2) عن الحملة الصليبية الخامسة انظر:
Oliver of Paderborn, The Capture of Damietta, Trans by John. J. Gavigan, Philadelphia 1948, pp.74-115,
محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دى برين على مصر 1218-1221م/ 615-618هـ.

(3) Oliver of Paderborn, P.63,
سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص107.

الدفاع عن أملاكه مما يقلل من احتمالات نجاح ريموند روبين فى هجومه على طرابلس.

كما لا يمكن أن نتجاهل أن انشغال بوهمند الرابع بصراعه هذا على أنطاكية قد دفعه فى كثير من الأحيان لتراخى قبضته عن النواحى الداخلية فى إمارة طرابلس، خاصة على أتباعه، وخير دليل على ذلك استغلال رينوار حاكم نيفين عدم تواجد بوهمند لإعلان عصيانه عليه وقيام حرب أهلية بالإمارة، والواقع أن أمرًا كهذا ما كان ليحدث لو أعار بوهمند الرابع إمارته بعض الاهتمام والتواجد آنذاك.

أما عن أهم عواقب ذلك الصراع الذى جناه بوهمند الرابع على نفسه، وبالتالى تحملت إمارة طرابلس تبعاته، فكان إعلان البابا هونوريوس الثالث Honorius III (1216-1227م/ 613-624هـ) الحرمان الكنسى Excommunication ضده ردًّا على انتقامه من الإسبتارية لمناصرتهم الدائمة لأعدائه ريموند روبين وليو الثانى، ولمحاولاتهم المستميتة فى الدفاع عن أنطاكية ومنعه من الاستيلاء عليها، على الرغم من محاولات بوهمند السابقة للتقرب إليهم وكسب مساندتهم، فما كان منه إلا أن جرَّدهم من كل ما يملكونه فى أنطاكية وطرابلس، ومن الطبيعى أن البابوية التى تتبعها رسميا تلك الهيئة لم تكن لترضى بمثل هذا الأمر، ولذلك قام البابا أنوسنت الثالث Innocent III (1198- 1216م/ 597-613هـ) بإصدار قرار ضده بالحرمان الكنسى، كما سمح البابا لهيئة الإسبتارية بمقاومة بوهمند الرابع حتى ولو بحد السيف، بل لقد أعطاهم الحق أيضا فى انتزاع أنطاكية ذاتها من أيدى بوهمند، الذى لم يعترف به البابا كأميرًا على أنطاكية حتى ذلك الحين[1].

---

(1) Oliver of Paderborn, p.53,

السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص167.

Bouchier, A Short history, P.266, King, The Knights Hospitallers, PP.197 – 198.

ومـع مرور الوقت شعر بوهمند بأن عمـره قد شـارف على الانتهـاء وأنه قد يلقى ربه وهو محروم من عفو الكنيسة، لذا سعى بوهمند لتقليص هوة الخلاف بينه وبين البابوية قدر المستطاع، فتصالح مع الإسبتارية فى 26أكتوبر 1231م/ 28ذى الحجة 628هـ، وبالتالى لم يعد هناك داع لغضب البابوية على بوهمند فما كان من البابا جريجورى التاسعGregory IX (1227- 1241م/ 624- 638هـ) إلا أن عفى عن بوهمند ورفع قرار الحرمان الكنسى الذى صدر ضده واعترف به أميرا على أنطاكية فى10أبريل 1233م/ 28جمادى ثاني630هـ، ولكن اعترافه هذا جاء متأخرا بعض الشيء فلقد كان بوهمند الرابع قد فارق الحياة قبل أيام قليلة من هذا الاعتراف[1].

أما على الصعيد الصليبى بشكل عام، فلقد كان ذلك الصراع واحدا من العوامل الرئيسية التى أسفرت عن انهيار الوجود الصليبى بأكمله فى نهاية ذلك القرن، فبعـد نصر حطين واسترداد صلاح الدين الكثير من الأراضى التى اغتصبها الصليبيون، كان على الأخيرين أن يوحدوا صفوفهم وأن يتفقوا على كلمة واحدة،لكن هذا الصراع أضاع أية فرصة لتوحيدهم ولم شـملهم، بل على العكس فلقد كان هذا الصراع سببا فى زيادة تفككهـم وضعف قوتهم، حيث انقسم الصليبيون على أنفسهم ما بين مؤيد ومعارض لكل طرف من طرفى الصراع، وأخذوا يمدون كلا الطرفين بالمساعدات العسكرية والمالية بدلاً من أن يوجهوا قوتهم تلك إلى عدوهم الحقيقى آنذاك وهم المسلمون بلا شك، وهكذا بات هذا الصراع ينخر فى عضد الصليبيين ويضعـفهم أكثر فأكثر ويزيد من هوة خلافاتهم وانقساماتهم[2]

(1) Hardwicke, The Crusader States, P.547, Runciman, A History of the Crusades, vol III, P .547 .

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص784،

Stevenson, The Crusader in the East, PP.299 – 300 .

وهكذا، وبعد صراع دام ما يقرب من عشرين عاما، استطاع بوهمند الرابع أن يوحد عرش إمارتى طرابلس وأنطاكية تحت سلطانه وبشكل نهائى فى عام 1219م/ 616هـ ، وإن كان انتصاره هذا يعد مكسبًا زهيدًا أمام ما بذل فى ذلك الصراع من أنفس وأموال وعتاد، وليت بوهمند استفاد مما جنت يداه باستيلائه على إمارة أنطاكية بل إن مما زاد الأمر سوءًا أن جهوده جميعها فى هذا الصدد ضاعت هباء بإهماله لأنطاكية وتفضيله الإقامة فى إمارته الأخرى طرابلس الأغنى والأكثر استقرارًا، مما جعلها مرتعًا للاضطرابات والفوضى وبالتالى بات نفعها أقل من ضررها بالنسبة لبوهمند الرابع وذريته من بعده(1).

على أية حال، خرج بوهمند من ذلك الصراع وقد أنهكته المعارك والصراعات، ومن ثَمَّ فقد أصبح أكثر ميلا للسلام سواء مع جيرانه المسلمين أو مع بنى جنسه من الصليبيين، فبالنسبة للمسلمين فلقد كانت سياسته، وبشكل عام منذ توليه حكم إمارة طرابلس، تجنح دائما للسلم قدر المستطاع ولم تكن بينه وبين جيرانه مواجهات مؤثرة إلا على إثر اغتيال طائفة الإسماعيلية المعروفة بالباطنية أو الحشاشين لريموند Raymond أكبر أبناء بوهمند الرابع فى كاتدرائية أنطرطوس عام1213م/ 610هـ(2)، ويبدو أن الأصابع الخفية وراء تلك الحادثة كانت للإسبتارية، الذين اتجهت الأنظار إليهم على اعتبار أن الحشاشين كانوا يدفعون لهم الجزية، كما أن الإسبتارية ـ كما ذكرت من قبل ـ كانوا معادين لبوهمند الرابع، وعلى الرغم من ذلك فلقد آثر بوهمند أن ينتقم من الأداة التى قتلت ولده وهم الحشاشون

---

(1) Bouchier, A Short history, P.233, Hardwick, The Crusader States, P.550.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، جـ2، ص452، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ3، ص219، الذهبى، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، جـ1، تحقيق بشار عواد وآخرون، ط. بيروت1988م، ص8، سمباط، التاريخ المعزو إلى القائد سمباط المعروف بتاريخ سمباط، ضمن الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، جـ36، ت: سهيل زكار، ط. دمشق1995م، ص323، محمد المقدم، الاغتيالات فى بلاد الشام والجزيرة، ص 204.

على ألا يسعى للنيل ممن حرضهم على ما فعلوه وبخاصة أنه لم يكن لديه أى دليل يؤكد شكه فيهم[1].

وبالفعل اتجه بوهمند بقواته وبقوات حلفائه الداوية إلى قلاع الإسماعيلية فى العام التالى وهاجم حصن الخوابى، مما دفع الحشاشين للاستنجاد بالظاهر غازى، فما كان منه إلا أن سارع بإرسال فرقة عسكرية تساعدهم فى صد هجوم الصليبيين عنهم، لكن من الواضح أن عزم بوهمند على الاستناد من تلك الطائفة كان أقوى من محاولات المسلمين لرده عنهم، لذلك أسرع المعظم حاكم دمشق بالخروج بقواته لمهاجمة طرابلس ونهب كل ما يمكن نهبه من ضِياع، على أمل أن يدفع هذا بوهمند للرحيل عن قلعة الخوابى، ومما زاد من صعوبة الأمر، على بوهمند الرابع، إرسال الظاهر بقوة جديدة للدفاع عن الخوابى، فآثر بوهمند حينئذ الانسحاب، خاصة عندما أحس أنه لا جدوى من الهجوم الذى شنه على القلعة، لكن من الواضح أن هذه الحادثة قد أثرت بشكل فعال فى العلاقات الودية التى كانت قائمة بين بوهمند الرابع والظاهر غازى. على أية حال فبخلاف هذه الحادثة لم تكن هناك أية منازعات بين بوهمند الرابع وبين جيرانه المسلمين خلال الفترة الباقية من حكمه إلا بعض المناوشات القليلة التى لم تؤثر على طبيعة العلاقات فيما بينهم[2]، مما دل على أن كلا من الطرفين أدرك أهمية عدم التوسع فى العداء مع الطرف الآخر.

أما عن سياسة بوهمند الرابع مع إخوانه الصليبيين، فكما ذكرت من قبل كانت هى الأخرى تميل للسلم، فنجده بشكل عام قد حافظ على علاقات ودية مع غالبية الأطراف الصليبية فى بلاد الشام باستثناء الإسبتارية، الذين رغم محاولاته للتقرب

(1) Runciman, A History of the Crusades, vol.III, p.138.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، جـ2، ص452، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ3، ص224، أسامة زكى زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص236.

إليهم ساندوا أعداءه فلذلك كان انتقامه منهم عنيفا، أما عن باقى الأطراف فكما ذكرت كانت علاقاته بهم طيبة خاصة مع الداوية[1].

أما عن الحملات التى شنها بعض ملوك أوروبا فى فترة حكمه على الأراضى الإسلامية، فقد كانت مشاركته فى تلك الحملات تتوقف على مدى استفادته الشخصية منها، ولعل ذلك يظهر بجلاء فى الحملة التى شنها الملك أندرو الثاني Andrew II ملك المجر وهيو Huge الأول ملك قبرص وليوبولد السادس Leopold VI دوق النمسا فى عام1217م/ 614هـ على قلعة جبل الطور، والتى أحكموا حصارهم عليها وكادوا يسقطونها لولا تراخى بوهمند الرابع ومناداته بالانسحاب، مما دفع قادة الحملة للتخلى عن حصارهم لها[2].

ويبدو أن الذى دفع بوهمند لذلك التصرف هى مطامعه الشخصية، فإسقاط تلك القلعة لن يعود عليه بالفائدة، لكن استغلال وجود تلك القوى الصليبية لاسترداد إمارة أنطاكية بالطبع سيخدم مصالحه،ولعل ما يؤكد ذلك زواج بوهمند الرابع من ميلسند Melisende شقيقة الملك هيو فى10يناير 1218م/ 10شوال614 هـ، ومن الواضح أن ذلك الزواج ما كان إلا زواجًا سياسيًّا يهدف إلى خدمة مصالح بوهمند الرابع، إلا أنه لسوء حظه لم تأته الرياح بما يشتهيه، فلقد توفى الملك هيو فجأة بعد الزفاف وبالتالى لم يستطع بوهمند الاستفادة من زيجته هذه[3].

أما عن الحملة الصليبية الخامسة التى شنها الملك حنا دى برين John de Birenne (1218-1221م/ 615- 618هـ) على مصر، فقد اقتصرت مشاركة بوهمند الرابع فيها - لو اعتبرنا أن ما قام به يعد مشاركة - على مساندة هيئة الداوية فى صد

(1) Ernoul, Ernoul's Account of Palestine, Trans .C.R. Condor, P.P.T.S, vol. VI -2, London 1896, P.423, King, The Knights Hospitallers,p.213 .

(2) Eracles, p.322,

حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص306 – ص308.

(3) Eracles, p.313, Ernoul, p.412, Les Gestes des Chiprois, p.670, Runciman, A History of the Crusades, vol.III, p.148 .

هجوم الملك المعظم حاكم دمشق عن قلعة عثليث إحدى معاقل هيئة الداوية لكى يصرف أنظار الصليبيين عن مصر، وقد كان بوهمند يهدف من وراء تلك المساعدة أن يحظى برضا المندوب البابوى بيلاجيوس Plagius (1210-1225م/ 607-622 هـ)، الذى كان قد أصدر قرارًا بالحرمان الكنسى ضده من قبل[1].

أما عن آخر الحملات الصليبية التى جرت أحداثها فى فترة حكم بوهمند الرابع، ألا وهى حملة الإمبراطور فريدريك الثانى Frideridh II (1225-1250م/ 622-648هـ) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فقد كان بوهمند يأمل أن يشارك فريدريك فيها باعتباره حليفًا له، لكن من الواضح أن فردريك كان ينظر للأمور على خلاف ذلك، إذ كانت نظرته لبوهمند لا تزيد عن كونه أحد تابعيه، ولعل ذلك يظهر من خلال طلب الإمبراطور من بوهمند الرابع أن يقسم له يمين الولاء والتبعية وذلك فى قبرص أثناء استقبال الأخير له[2]، لذلك وقبل أن يضطر بوهمند لِقَسَمِ ذلك اليمين ادعى المرض فجأة ولاذ بالفرار إلى حصن نفين حيث زال عنه المرض بمجرد وصوله إليه[3].

لكن على أية حال، لم يكن فريدريك الثانى لينسى لبوهمند الرابع موقفه هذا، لذلك أوقع عليه العقاب بأن أقصى أملاكه عن الاتفاقية التى عقدها مع الملك الكامل، وهى الاتفاقية التى عرفت باتفاقية يافا والتى وقعت فى عام 1229م/ 627هـ، كذلك أقصى أملاك الداوية والإسبتارية الواقعة فى نطاق أملاك بوهمند الرابع، مما جعلها معرضة هى الأخرى فى أى وقت لهجمات المسلمين، وهو ما حدث بالفعل. كما أن فريدريك الثانى أوصى نوابه فى عكا بعدم تقديم أى نوع من

(1) Eracles, p.323, Oliver of Paderborn, p.68,

حسين عطية، المرجع السابق، ص314.

(2) Eracles, p.332, Les Gestes des Chiprois, p .681

(3) Les Gestes des Chiprois, p. 682,

حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص331.

المساعدات لبوهمند الرابع بعد رحيله، وحتى لا يزداد الأمر سوءًا أكثر مما هو عليه، فلقد زار بوهمند فريدريك الثانى فى عكا وتودد إليه ومنح هيئة التيوتون، الألمانية الأصل، بعض المنح فى مدينة طرابلس على أمل أن يخفف من حدة الخلاف فيما بينهما[1].

وإذا كانت علاقة بوهمند بالصليبيين إلى حد ما طيبة، فقد كانت بالأرمن على العكس من ذلك، فكما نعلم، كانت علاقته بالملك ليو علاقة عدائية انتابتها الصراعات والحروب لما يقرب من عشرين عاما،ولكن بعد وفاة الأخير أخذت العلاقة فيما بين الطرفين منحى آخر،فبعد وفاة ليو حاول ريموند روبين أن يتولى الحكم من بعده، لكنه أخفق فى تحقيق مساعيه، ورغم فشله إلا أن بارونات كيليكيا Cilicia ظلوا متخوفين، وبخاصة أن وريثة ليو الثانى إيزابيلا لم تكن قد تزوجت بعد، ولذلك كانوا متخوفين ممن سيتزوجها وسيصبح ملكا عليهم، ومن ثم وضعوا شروطا لذلك الزوج المنتظر توافق سياستهم ومصالحهم، وكان أفضل من تنطبق عليه شروطهم فيليب بن بوهمند الرابع[2].

ولا عجب فى ذلك الاختيار، فقد كان عداؤهم المشترك لريموند روبين عاملا أساسيا فى تقارب الطرفين لبعضهما البعض، ومما زاد من فرص اختيارهم لفيليب لتلك الزيجة هو أنه لم يكن ولى عهد أبيه وبالتالى فإن احتمال توحيد عرش أنطاكية وأرمينيا، وما قد يسفر عن ذلك من صراعات كما حدث من قبل، لم يكن له وجود، كما اشترطوا على فيليب احترام الطقوس الدينية الأرمينية واحترام عاداتهم وتقاليدهم، وقد وافق فيليب على شروطهم دون أدنى اعتراض، وتَمَّ الزواج بالفعل فى يونيو 1222م/ جمادى أولى 619هـ، لكن سرعان ما مل فيليب من القيود التى فرضت عليه ومن ثَمَّ أخذ فى إظهار استهانته الواضحة لأتباعه من الأرمن

(1) Smith, The Feudal Nobility and the kingdom of Jerusalem (1174 – 1277), London 1973, p. 171 .

(2) إسحق أرملة السريانى، الحروب الصليبية، ص 213.

وأحاط نفسه بحاشية من الصليبيين حجبته عن رعيته ومعاونيه من الأرمن مما زاد من سخط الأخيرين عليه[1].

ونتيجة لذلك، قام قسطنطين رئيس عائلة هيثوم والوصى على إيزابيلا بالإطاحة بفيليب وأسره ثم قتله فى عام1224م/ 621هـ[2]، ورغم محاولة بوهمند الرابع الانتقام لابنه القتيل،إلا أنه لم يستطع القيام بأى عمل انتقامى ضد أرمينيا، ويرجع ذلك لما ذكرنا من قبل عن اتفاقية يافا وما أسفرت عنه بالنسبة لأملاك بوهمند، فلقد ركزت الدويلات الإسلامية نشاطها ضد أملاك الأخير التى كانت بالنسبة لهم الساحة الوحيدة المتاحة أمامهم لمتابعة نشاطهم العسكرى، خاصة بعد أن تخلت حلب عن تحالفها معه وبالتالى لم يعد له حليف يسانده وقت الحاجة[3].

وهكذا وبعد أن تناولنا التطور السياسى لإمارة طرابلس الصليبية فى عهد بوهمند الرابع يتضح لنا بشكل جلى ملامح شخصية ذلك الأمير، فهو كما ظهر أمامنا حاكم قوى واثق بنفسه مدرك لقدراته التى يستخدمها خير استخدام لتحقيق أهدافه، كما أنه يدرك قدر قوة عدوه ولا يستهين بها، وقد دفعه ذلك فى كثير من الأحيان للّجوء إلى استخدام السياسة تارة والخديعة تارة أخرى إن أمكن، وذلك إن لم يستطع تحقيق مأربه عن طريق القوة العسكرية، ولذلك فكثيرا ما نجده يتجه للتحالفات مع القوى الأخرى لخدمة مصالحه العليا. وينبغى ألا يفهم من العبارات السابقة أى أعجاب بمثل تلك القيادات الصليبية التى هى جزء لا يتجزأ من المشروع الاستعمارى (أى الأستخرابى)، الذى عمل على النهب المنظم لثروات المنطقة.

(1) Sempad, p. 644,

إسحق أرملة السريانى، المرجع السابق، ص214، محمد المقدم، الاغتيالات فى بلاد الشام والجزيرة، ص204.

(2) Sempad, p.648, Runciman, A History of The Crusaders, vol.III, p.168

(3) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص334،
Stevenson, The Crusader in the East, p.p.300, 314 .

ومن الملفت للانتباه، أن تعليم بوهمند الرابع وثقافته ومعرفته بالقانون بشكل وثيق، حتى اعتبره كثير من الصليبيين واحدا من كبار المشرعين الصليبيين، فضلا عن خبرته الواسعة فى شئون الحكم التى اكتسبها على مدار فترة حكمه التى قاربت على نصف قرن، كان له تأثير قوى على شخصيته وصلابته، وبالتالى فقد كان من الطبيعى أن يراه كثير من المؤرخين والباحثين أقوى القادة الصليبيين آنذاك[1]. إلا أن ما يعيبه أنه يقدم مصلحته الشخصية على مصلحة الجماعة، وأقصد بذلك مصلحة الصليبيين جميعهم بشكل عام، والواقع أن بوهمند الرابع لم يكن الحاكم الصليبى الوحيد الذى كان ينهج مثل تلك السياسة، بل على العكس من ذلك، كان الحكام الصليبيون كافة حينئذ ينهجون نفس سياسته ولعل ذلك كان واحدا من أهم الأسباب التى أسفرت عن انهيار الوجود الصليبى بأكمله فى نهاية ذلك القرن[2]، وهكذا، وبعد فترة حكم دامت لما يقرب من ستة وأربعين عاما، فارق بوهمند الرابع الحياة فى عام1233م/ 635هـ، ليتولى ابنه الأكبر بوهمند الخامس الحكم من بعده[3].

والواقع أن بوهمند الخامس Bohemond V أمير طرابلس وأنطاكية (1233-1251م/ 631-649هـ) لم يكن على غرار أبيه حاكما قويا داهية، بل كان ضعيفا يميل للمهادنة والمسالمة أكثر من ميله لمواجهة الصعاب، لذلك فلا عجب أن يتبع سياسة مخالفة لسياسة أبيه، خاصة مع البابوية، ولعل تجربة أبيه المؤلمة معها هى التى دفعته لنيل ود وتعاطف البابوية، وكان سبيله إلى ذلك هو الانفصال عن زوجته الأولى أليس Alice، أخت الملك هيو ملك قبرص، بناء على أوامر البابوية، حيث كانت

(1) Philip de Navarre, Livre de forme deplaiat, in R.H.C, vol.I, p.570, Hardwicke, the Crusader States, p.549, Runciman, A History of Crusaders, p.190.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، ملامح على المجتمع الصليبى فى بلاد الشام، مجلة المستقبل العربى، عدد (8) عام1987م، ص39.

(3) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 169،
Runciman, A History of Crusaders, vol.III, p. 189.

صلة القرابة بينهما من الدرجة الرابعة وبالتالى كان زواجهما غير شرعى بناء على قوانين الكنيسة الكاثوليكية، وقد كان لذلك التصرف من قبل بوهمند الخامس تأثير واضح على سوء علاقته بحكام جبيل، لأنه كان فردا من أسرة أمبرياتشى، حيث كانت أمه بليزانس سيدة جبيل، وبالتالى فقد ساءت علاقة تلك الأسرة بقبرص من جراء ذلك الانفصال[1].

لكن بوهمند الخامس لم يكن يعنيه إلا كسب تعاطف البابوية معه، ومن ثَمَّ فقد سعى لإتمام زواجه من لوسى دى سينى Lucie de Segni ابنة شقيق البابا أنوسنت الثالث Innocent III[2]، حيث أخذت علاقته بالبابوية منذ ذلك الحين ومع مرور الوقت فى التحسن، إلى أن استطاع فى عام 1244م/ 642هـ الحصول من البابوية على تعهد يضمن له عدم إصدار قرار بالحرمان الكنسى ضده إلا عن طريق البابا نفسه[3].

أما عن علاقة طرابلس بالأرمن فلم يكن من اليسير على بوهمند الخامس أن ينسى ثأره لأخيه فيليب منهم، ومن ثَمَّ فقد سعى لنيل ثأره منهم قدر المستطاع، فلم يتوانَ عن تقديم أى مساعدات لجماعة الداوية- الذين كانوا على عداء كذلك مع الأسرة الحاكمة فى أرمينيا- فى صراعهم مع أرمينيا وإن لم يكتف بذلك فقط ، بل قاد هو نفسه قواته فى حملة على أراضى الأرمن مع حلفائه الداوية، إلا أن قسطنطين ملك أرمينيا كان أكثر حنكة ودهاء منه فبادر بالتصالح مع الداوية ومنحهم الكثير من الهبات مما دفع الداوية للتخلى عن بوهمند الخامس، ومن ثَمَّ فقد فشل تحالفهم وبالتالى فشلت حملتهم المزمعة حتى قبل أن تصل إلى حدود مملكة أرمينيا[4].

(1) سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص 114.
(2) Eracles, p.408, Runciman, The Crusader states 1243 – 1291, in Setton, A History of the Crusades, vol II, Pennsylvania, p.565 .
(3) Runciman, A History of the Crusades, vol .III, p. 191
(4) Eracles, p. 405, Grousset, Histoire des Croisades, vol 3, p.363, Hardwicke, The Crusader states, p.550, Runciman, The Crusader states, p.565 .

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل العداء هو سيد الموقف بين الطرفين، وإن لم يكن الأمر قد تطور لحد المواجهة العسكرية، إلى أن تدخل الملك لويس التاسع Louis IX (1214-1270م/ 611-669هـ)[1] لإنهاء الخلاف القائم فيما بينهما. وبالفعل تمكن الملك لويس من عقد هدنة بين الطرفين فى يونيو 1249م/ ربيع أول647هـ لمدة عامين[2].

وفيما يتعلق بعلاقة إمارة طرابلس بجيرانها المسلمين فلقد اتبع حاكمها بوهمند الخامس نفس السياسة التى اتبعها والده وجده من قبل معهم، ألا وهى مسالمتهم وحسن الجوار معهم، وإن شاب تلك العلاقة بعض الصراعات من جراء تعاون بوهمند الخامس مع إسبتارية حصن الأكراد فى الهجوم على حماة، لإجبار حاكمها على الاستمرار فى دفع الجزية التى كانوا قد فرضوها عليه من قبل، ولقد بدأ ذلك الصراع عندما رفض أمير حماة المظفر تقى الدين الثانى دفع الجزية للإسبتارية، فما كان منهم إلا أن شنوا هجوما على أراضى صاحب حماة فى بعرين وما حولها، وقد استمرت المناوشات بين قوات حماة وبين الصليبيين إلى أن تدخل

(1) عن الملك لويس التاسع انظر:

ابن خلدون، العبر، جـ5، ص359، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ1، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، ط. القاهرة1985م، ص357- ص359،

Jean de Joinville, The life of Saint Louis, Trans by Shaw, London 1976,

سامية عامر، الصليبيون فى شمال إفريقيا حملة لويس التاسع على تونس1270م/ 668-669هـ ط. القاهرة2002م، ص69- ص71، وتعد دراسات أ.د. جوزيف نسيم يوسف من أبرز الدراسات التى تناولت النشاط الحربى للملك لويس التاسع على الساحة الإسلامية - الصليبية وهى: هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ط. القاهرة ب. ت، العدوان الصليبى على مصر وهزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور، ط. الإسكندرية1967م، العدوان الصليبى على بلاد الشام، ط. الإسكندرية 1984م

(2) جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص 311، حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص 368 - ص 369.

الملك الكامل لإنهاء ذلك الصراع، وكان له ذلك بعد أن أقنع المظفر حاكم حماة بدفع الجزية لهيئة الإسبتارية[1].

وبخلاف ذلك فقد كانت علاقة بوهمند الخامس أمير طرابلس وأنطاكية مع جيرانه المسلمين علاقة ذات طابع سِلْميّ أملته الظروف السياسية، خاصة مع الملك العزيز حاكم حلب، ولقد دفعته تلك العلاقة الطيبة معه للتوسط لديه عن الداوية، عندما حاصرهم العزيز فى قلعتهم ببغراس[2] وضيق عليهم الحصار حتى كاد يسقط قلعتهم هذه، لولا تدخل بوهمند الخامس فعدل العزيز عن رأيه ووافق على عقد الهدنة مع الداوية[3].

ولكن أليس من الملفت للانتباه أن يتوسط بوهمند الخامس للداوية لدى العزيز على الرغم من تخليهم عنه من قبل أثناء حملته على أرمينيا، ألم يكن بالأحرى على بوهمند ألا يتدخل لصالحهم ليكون استيلاء العزيز على بغراس ثمنا لتخليهم عنه من قبل؟ ربما على الأرجح أن هدف بوهمند الخامس من وراء ذلك كان الحفاظ على قلعة بغراس نفسها التى كانت واحدة من أهم مراكز الدفاع عن مدينة أنطاكية – مع عدم إغفال أهمية القلاع الأخرى مثل: دربساك والقصير وحجر شغلن وغيرها –

---

(1) إسحق أرملة، الحروب الصليبية، ص221،

Eracles, pp.403 – 405.

(2) بغراس: حصن منيع يقع فوق مخروط صخرى ينحدر بشدة من جميع الجهات بجبل اللكام بين الشعاب الشرقية للسلسلة المعروفة حاليا باسم قيزيل ضاى والأمانوس، وترجع أهمية هذا الحصن إلى كونه مفتاح الطريق الواصل بين أنطاكية وكيليكيا، وقد قدرت المسافة بينه وبين أنطاكية بنحو4 فراسخ (أى ما يعادل12ميلا)، حيث يقع على يمين الطريق المتجه من حلب صوب أنطاكية، عنه انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص258- ص259، مولر، القلاع، ص58- ص59، وعن دور الحصن فى الصراع الإسلامي- الصليبى بوجه عام انظر:

على محمد على عودة الغامدى،"حصن بغراس ودوره الحربى فى عصر الحروب الصليبية"، ضمن ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية، حصاد(3)، ط. القاهرة 1996م، ص261- ص314.

(3) Cahen, La Syrie du Nord, p.650, Grousset, Histoire des Croisades, vol 3, p. 362 .

وبالطبع فإن وجود تلك القلعة فى أيد صليبية كالداوية، رغم خلاف بوهمند معهم، خير من وقوعها فى أيدى صديق مسلم كحاكم حلب.

وهكذا استمرت علاقة أمير طرابلس بالمسلمين علاقة طيبة مسالمة إلى أن شارك فى التحالف الصليبي - الإسلامى، ضد التحالف الإسلامى المصري - الخوارزمى، فى معركة غزة حيث لقى الصليبيون وحلفاؤهم فى يوم الاثنين 17أكتوبر 1244م/ 14جمادى الأولى642هـ، هزيمة نكراء على أيدى القوات المصرية الخوارزمية، حيث تكبد الصليبيون خسائر فادحة فى الأنفس والعتاد، وعلى الرغم من صغر القوة العسكرية التى أسهمت بها طرابلس فى تلك المعركة إلا أن معظمها كان من ضمن الخسائر التى ألحقت بالصليبيين، فلقد لقى حنا ووليم سيدا البترون وأبناء عمومة بوهمند الخامس مصرعهما فى تلك المعركة، بينما وقع حنا كونستابل طرابلس فى الأسر(1).

لكن ما السبب الذى دفع بوهمند الخامس لتغيير سياسته السلمية تجاه المسلمين إلى سياسة عدوانية؟ فى الواقع إننا لو لاحظنا حجم القوة التى أرسلها بوهمند الخامس من طرابلس للمشاركة فى تلك المعركة سنجد أن مشاركته فيها كانت على استحياء إلى حد كبير، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن مشاركته تلك لن تعود عليه بأى نفع يذكر، وهى السياسة ذاتها التى انتهجها أبوه وجده من قبل، كما أن عدم مشاركته كان سيقلل من شأنه فى أعين الصليبيين لتخاذله وعدم مساندته لهم، ومن ثَمَّ فقد فضل بوهمند الخامس أن يساهم فى تلك الحملة ولو بقدر بسيط حتى لا يعادى بنى جنسه من الصليبيين، وفى الوقت نفسه لا تكون خسائره فادحة لو كان هناك خسائر، كما أنه سيضمن عدم إثارة غضب المسلمين عليه إلى حد ما(2).

(1) Eracles, p.430, Grousset, Histoire des Croisades, vol 3, p.417, Hardwicke, The Crusader states, p. 550 .

(2) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص367– ص368.

وهكذا استطاع بوهمند الخامس بعلاقته السلمية الحفاظ على أراضى إمارته طرابلس دون التعرض لأى هجوم خارجى من قبل جيرانه المسلمين باستثناء غارة واحدة شنها حاكم حمص الملك المنصور فى أواخر عهد بوهمند الخامس، وللأسف فإن المصادر لم تمدنا بالسبب الذى دفع صاحب حمص للقيام بتلك الغارة ومدى تأثيرها على طرابلس، لكن من الواضح أن تلك الغارة لم تكن ذات فعالية أو تأثير، وخير دليل على ذلك أن غالبية المؤرخين والباحثين تجاهلوا تلك الغارة ولم يروا لها شأنًا يذكر[1].

ومما سبق نستطيع أن نتبين، أن أكثر اهتمام بوهمند الخامس تركز على إمارة طرابلس، فى حين بدا الأمر بالنسبة لإمارة أنطاكية وكأنها قد خرجت من مجريات الأحداث وأصبح دورها ثانويا، ويبدو أن ذلك كان قصد بوهمند الخامس بالفعل، فلقد أهمل شأن أنطاكية بشكل ملحوظ وكانت إقامته الدائمة فى طرابلس كما فعل أبوه من قبل وذلك لنفس الأسباب التى جعلته يتركها[2].

ومن أهم تلك الأسباب: حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى استمرت بأنطاكية منذ عهد بوهمند الرابع إلى أن أسقطها الظاهر بيبرس فى عام 1268م/ 666 هـ، فى حين أن طرابلس كانت على العكس من ذلك، فقد تمتعت بالاستقرار والازدهار، ومما لا شك فيه أن استقرار بوهمند الخامس فى طرابلس جعلها- كما أوضحنا من قبل- أكثر أمنا وأقل عرضة للهجمات الخارجية، مما أدى إلى انتعاش حركة التجارة بها وازدهارها اقتصاديا[3].

لكن علينا أن ندرك نقطة فى غاية الأهمية، ألا وهى أن استقرار أمراء البيت النورماندى فى طرابلس على حساب تراخى قبضتهم على أنطاكية وتركها فريسة

(1) عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس، جـ1، ص553 – ص 555.

(2) Grousset, Histoire des Croisades, vol 3, p.425. .

(3) Hardwicke, The Crusader states, p.550, Runciman, The Crusader states, p.566 .

للاضـطرابات والصراعات الداخلية لم يكن ذلك لصالح طرابلس فى نهاية الأمر، وذلك لكون الكيان الصليبى كيانا مرتبطا ببعضه البعض، خاصة من الناحية الجغرافية، وبالتالى فإن تعرض أنطاكية للخطر كما سيحدث فيما بعد من وقوعها فى أيدى المسلمين، كان واحدًا من أهم العوامل التى ستسفر عن إسقاط طرابلس فى أيدى المسلمين فى آخر الأمر، فلا يمكن أن نتجاهل أهمية دور أنطاكية الدفاعى والحامى عن إمارة طرابلس وهو ما ستثبته وقائع الأحداث فيما بعد.

وهكذا أنهى بوهمند الخامس عهده كأمير على طرابلس وأنطاكية بعد أن تولى أمرها لما يقرب من ثمانية عشر عاما، رغم ما ينتاب شخصيته من ضعف ورعونة إذا ما قارناه بوالده بوهمند الرابع الذى كان واحدا من أقوى الأمراء الصليبيين الذين تولوا حكم إمارة طرابلس، إلا أن بوهمند الخامس كان أقدر من أبيه فى الدفاع عن طرابلس والحفاظ على أمنها واستقرارها ومن ثَمَّ فقد كان من الطبيعى أن تكون أحوال طرابلس أفضل حالا فى عهده عن حالها فى عهد والده، مع ملاحظة أن الكيان الصليبى ككل كان آخذًا فى الانهيار.

وحينما وافت المنية بوهمند الخامس فى يناير1252م/ 649هـ، كان ولده ووريثه فى الـحكم بوهمند السادسBohemond IV (1251-1275م/ 649- 673هـ) لا يزال فى سن الصبا، حيث كان فى الخامسة عشرة من عمره، ومن ثَمَّ فقد تولت أمه لوسى الوصاية عليه[1]، ولقد بدأت تلك الأميرة حكمها بمواجهة سلسلة من الهجمات التى شنتها قبائل التركمان على إمارتيها أنطاكية وطرابلس، ولقد بلغت من شدة هجماتهم على إمارة أنطاكية أن خربوا إقليم أنطاكية بأكمله باستثناء مدينة أنطاكية ذاتها، وعلى الرغم من تمكنهم من الوصول إلى أسوارها إلا أنهم لـم يستطيعـوا الاستيلاء عليها، ولم تقـتصـر هجماتهم على أنطاكية فحسب وإنما شملت هجماتهم إمارة طرابلس كذلك، فقاموا بتخريب قرى كثيرة واقعة بجوار حصن الأكراد كما

(1) Jean de Joinville, The life of Saint Louis, Trans by Shaw, London 1976, pp. 295 .

أنهم أسروا العديد من أهل تلك القرى[1] مما عكس اتساع النطاق الجغرافى لعملياتهم الحربية.

ومن الملاحظ أن هذا الوضع الصعب الذى واجهته لوسى فى بدايات حكمها، كان أحد أهم الركائز التى اعتمد عليها بوهمند السادس فى رفع وصايتها عنه وتولى الحكم بنفسه، وبالفعل نجد أن بوهمند السادس قد سعى لنيل مساندة الملك لويس، الذى كان آنذاك فى عكا، ليساعده فى الحصول على إذن البابا إنوسنت الرابع Innocent IV (1243-1254م/ 641-652هـ) برفع وصاية أمه لوسى عنه والسماح له بتولى الحكم بنفسه. وقد كان موقف بوهمند السادس هذا سببًا فى كسب إعجاب الملك لويس بـه لشجاعته مما دفع الأخير لمنح بوهمند السادس لقب فارس أثناء وجوده فى عكا[2].

ليس هذا فحسب، بل لقد اقتنص الأمير بوهمند السادس هذه الفرصة حتى يعرض عـلى الملك لويس أيضا رغبته فى الذهاب إلى أنطاكية، التى فتكت بها الصراعات الـداخلية والتى تزايدت فى الفـترة التى تـولت أمه فيها الوصاية عليه، وأمام إلحاح الأمير وإصراره على هذا الأمر اقتنع الملك لويس بحجته، حيث أمر والدته بترك بوهمند يحقق ما يرغب فيه، وقد أعقب ذلك وصول قرار البابا إنوسنت الرابع بالموافقة على تولى بوهمند السادس حكم إمارتى طرابلس وأنطاكية بـنفسه ورفع وصاية أمه عنه لينهى دور لوسى فى حكم الإمارتين، وحينئذ رحل بوهـمند إلى أنطاكية واستطاع بقـدر الإمكان أن يقضى على الاضطرابات التى كانت بها ويعيد إليها قدرًا ما من الهدوء والسلام[3].

---

(1) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص 380 – ص381.
(2) Jean de Joinville, pp. 296 -297 .

جوزيف نسيم،العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص309،
Bouchier, A Short History of Antioch, pp. 267 –268.

(3) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص391.

غير أن مساندة لويس لبوهمند السادس لم تنتهِ عند هذا الحد، بل استمرت إلى أن تمكن من إنهاء الخلافات القائمة بين إمارتى طرابلس وأنطاكية من جهة وأرمينيا من جهة أخرى، وعقد الصلح بين كلا الطرفين، ومن هنا أخذت العلاقة بين بوهمند السادس أمير طرابلس وأنطاكية فى التحسن مع هيثوم الأول ملك أرمينيا إلى حد أن قام الأول بالزواج من ابنة هيثوم سبيلا Sybille فى سبتمبر 1254م/ شعبان651 هـ[1].

ومنذ ذلك الحين أصبح هيثوم ملك أرمينيا أكبر مساندى بوهمند السادس، وعلى الرغم من تلك البداية الطيبة لحكم الأخير، وما قد تشير إليه تلك المصالحات من أن الهدوء قد يحل إلى حد ما بالصليبيين خاصة فى شمال الشام، إلا أن الواقع كان على العكس من ذلك، فلقد شهدت الساحة الصليبية آنذاك حالة من التفكك والتمزق لم تشهدها من قبل، فلقد شب نزاع عنيف بين المستعمرات الإيطالية فى بلاد الشام، وبالتحديد بين البنادقة والبيازنة من جهة والجنوية من جهة أخرى، كان السبب الرئيسى فيه راجعا لمنافساتهم الضارية فى الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب التجارية[2]، مما عكس الوجه الحقيقى للحركة الصليبية كحركة استعمارية تهدف إلى نهب ثروات الشرق.

ولقد تمادى ذلك النزاع بين الطرفين إلى حد المواجهة العسكرية بينهما فيما عرف بحرب القديس ساباس St.Sabas فى عام1256م/ 654هـ، والتى أدت إلى انقسام جديد بين الصليبيين إلى جبهتين كل جبهة منهما تساند فريقًا ضد الآخر، وبالطبع

---

(1) Eracles, p.412, Runciman, The Crusader states, p. 567 .

(2) عن النزاع بين البنادقة والجنوية والبيازنة انظر:

مجهول، تتمة تاريخ وليم الصورى المنسوب خطأ إلى روثلان(1229م– 1261م)، ترجمة أسامة زكى زيد، ط.الاسكندرية1989م، ص233– ص238، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، جـ2، ص876– ص877،

John. E. Dotson, Fleet operation in the first Genoese–Venation war 1264– 1266, in Viator, Medieval and Renaissance Studies, vol. 30, 1999 .

كان بوهمند باعتباره من أبرز الشخصيات الصليبية آنذاك ضلعا فى ذلك الصراع، على الرغم من أنه حاول قدر الإمكان أن يكون طرفا محايدًا، إلا أنه شارك فى الصراع كطرف معاد للجنوية، ويرجع السبب فى ذلك لمساعدتهم هنرى أمبرياكو Henry (1252-1262م/ 650-661هـ) حاكم جبيل على إعلان استقلاله عن إمارة طرابلس فى أكتوبر1252م/ شعبان 650هـ، بالإضافة إلى رفضهم تولى هيو الثاني- ابن أخت بوهمند السادس بليزانس أرملة هنرى الأول ملك قبرص- حكم مملكة بيت المقدس تحت وصاية أخته[1].

وبينما كان هذا هو موقف بوهمند السادس من ذلك الصراع، كان من الطبيعى أن أسرة أمبرياتشى حاكمة جبيل، والتى كانت جنوية الأصل، تساند جنوة فى صراعها ضد البنادقة والبيازنة وتقدم لها المساعدات العسكرية، ومما زاد من هوة الخلاف بين جبيل وطرابلس أن بوهمند السادس أثناء تواجده فى عكا شاهد برتراند الثانى (ابن عم هنرى حاكم جبيل) ضمن جمع من الجنوية، وحينها أوقفه باعتباره تابعًا له وطلب منه أن ينضم إليه فى محاربة الجنوية، لكن برتراند أبى أن يحارب أهله من الجنوية وأصر على رفضه، مما أثار غضب بوهمند السادس عليه،وبينما الحال على هذا النحو، إذ بهنرى حاكم جبيل يعلن استقلاله عن بوهمند السادس لتشتعل الحرب الأهلية بدورها داخل إمارة طرابلس بين كلا الطرفين[2].

ولقد اشتعلت هذه الحرب على إثر استغلال أمبرياكو، وهو أحد أفراد أسرة أمبرياتشى، فرصة وجود اضطرابات داخلية فى إمارة طرابلس نتيجة محاباة لوسى والدة بوهمند السادس الإيطالية الأصل لأهلها وتعيينها لهم فى مناصب مرموقة فى الإمارة[3] مما أثار غضب بارونات طرابلس الصليبيين لدرجة أن حاكم

(1) مجهول، تتمة تاريخ وليم الصوري، ص234– ص237،
Eracles, p. 445 .
(2) Les Gestes des Chiprois, pp. 744 – 748,
سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص122.
(3) Les Gestes des Chiprois, p. 746, Runciman, The Crusader states, p.570 .

البترون يوحنا الأنطاكى John d'Antioche (ابن عم بوهمند) كان واحدًا من هـؤلاء البارونات الثائرين، ولقد قام هؤلاء البارونات بالتعاون مع أمبرياكو بمساعدة هيئة الإسبتارية بحصار بوهمند السادس فى طرابلس ذاتها، ولم يجد بوهمند وسيلة أمامه لرفع الحصار عنه إلا بالهجوم على هؤلاء الثائرين من داخل مدينة طرابلس، إلا أن تلك المحاولة من قِبَل بوهمند السادس باءت بالفشل ولم يتمكن بوهمند من رفع الحصار عن طرابلس، بل لقد أصيب هو نفسه على يد برتراند، وظل بوهمند محاصرًا فى مدينته على هذا النحو إلى أن تمكنت بعض قوات هيئة الداوية، الحليف القديم لطرابلس، من نجدته ورفع حصار هؤلاء الثائرين عن المدينة[1].

إلا أن بوهمند السادس أمير طرابلس وأنطاكية لم يهنأ له بال إلا بعد أن انتقم من برتراند أمبرياكو، فأخذ بوهمند يتتبع تحركاته وأثناء وجود برتراند فى إحدى إقطاعياته قام بعض أتباع بوهمند من المسلمين بالانقضاض عليه وقتله وقطعوا رأسه وبعثوا بها إلى بوهمند فى طرابلس وذلك وفقا لما قررته مآثر القبارصة[2].

وعلى الرغم من وحشية تلك الحادثة إلا أن أسرة أمبرياتشى لم تحاول إثارة المتاعب مع بوهمند السادس أمير طرابلس وأنطاكية، ورأت أن مصلحتها السياسية العليا تحتم عليها عدم تصعيد الموقف معه، وكـذلك كان الحال بالنسبة لبوهمند، وعلى الرغم من أن الهدوء كان سيد الموقف بين الطرفين، إلا أن الكراهية والعداء ظلت هى المشاعر التى يكنها كل طرف للآخر، وبات الطرفان فى انتظار الوقت المناسب ليقضى كل منهما على الآخر[3].

(1) سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص122- ص123، محمد المقدم، الاغتيالات فى بلاد الشام والجزيرة، ص205- ص206،

Grousset, Histoire des Croisade, vol .3, pp.554 – 555, King, The knight Hospitallers, pp. 254 – 255.

(2) Les Gestes des Chiprois, p. 750.

(3) حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص403،

Runciman, The Crusader states, p. 570.

وترى الباحثة أن أسرة أمبرياتشى ما كانت لتجرؤ على إعلان استقلالها عن إمارة طرابلس ومحاصرة بوهمند فى عاصمة إمارته طرابلس، إلا فى حالة أن يكونوا على يقين تام من أن قوة جبيل العسكرية تفوق قوة إمارة طرابلس. ومن هنا يتبين لنا أن قوات إمارة طرابلس العسكرية لم تكن من القوة حتى تستطيع إخضاع بعض أتباعها الإقطاعيين كأسرة أمبرياتشى حكام جبيل، ومن ثم فلقد كان أمرًا طبيعيًّا أن يكون ضعف إمارة طرابلس العسكرى على هذا النحو واحدًا من أهم العوامل الأساسية التى ستسفر فى نهاية الأمر عن سقوطها بأكملها.

وإن استقرت الأمور على هذا النحو مع جبيل فلقد كان الأمر على نحو آخر مع هيئة الإسبتارية، فلقد ظلت الأخيرة على عداء دفين بأمراء البيت النورماندى، حكام إمارتى طرابلس وأنطاكية، وعلى الجانب الآخر كان بوهمند السادس غير قادر على تناسى موقف الإسبتارية المؤيد لحكام جبيل فى عصيانهم له، إلا أن الملك هيثوم ملك أرمينيا لم يرضَ باستمرار ذلك العداء بين أقرب حليفين له، ومن ثَمَّ فقد سعى لإنهاء الصراعات القديمة التى كانت قائمة بين عائلة بوهمند السادس وبين هيئة الإسبتارية، ولقد توصل لعقد معاهدة تصالح بين الطرفين فى أبريل 1259م/ جمادى الأولى675 هـ[1].

وبينما كان وضع الصليبيين على هذا النحو من الضعف والتفكك من جراء النزاع القائم فى بلاد الشام بين الجمهوريات الإيطالية التجارية، وبينما كان المسلمون بشكل عام يشهدون هم الآخرون حالة من الوهن والتفتت، وعلى نحو خاص البيت الأيوبى فى مصر وبلاد الشام، الذى أنهك بسبب الصراعات الداخلية بين الأمراء والسلاطين الأيوبيين، فإذا بقوة جديدة آتية من آسيا الوسطى تظهر على مسرح الأحداث فى الشرق الإسلامى ألا وهى قوة المغول

(1) حسين عطية، المرجع السابق، ص392،
Grousset, Histoire des Croisades, vol .3, p.515 .

"التتار"[1]. وكان الملك هيثوم الأول ملك أرمينيا من أوائل حكام المنطقة الذين سعوا لمحالفة التتار قدر المستطاع، وبالفعل تم عقد تحالف فى 1253م/ 651هـ، بعد زيارة هيثوم إلى قراقورم عاصمة مملكة التتار، ولقد تعهد هيثوم للتتار بالمشاركة معهم بقواته فى حملتهم على ديار بكر وبلاد الشام لقاء منحه بعض المقاطعات، على أن تهدف تلك الحملة استعادة بيت المقدس[2].

ولم يكن هيثوم فى ذلك الاتفاق يتحدث عن مملكته فحسب، إنما كان يتحدث عن أراضى إمارتى أنطاكية وطرابلس، فقد كان بوهمند السادس قد أعطاه حق التحدث نيابة عنه مع قادة التتار بشأن التحالف معهم، وبلا شك أن الذى دفع بوهمند لعقد مثل ذلك التحالف مع التتار يقينه بأن الكلمة الأخيرة فى بلاد الشام ستكون للتتار الذين كانوا يعدون أقوى قوة عسكرية فى العالم كله آنذاك، وبالتأكيد لم يظن أنَّ هناك قوة إسلامية قد تظهر "كالمماليك" تقف فى مواجهة هذا الغزو

(1) المغول هم قبائل رعوية آسيوية نشأوا فى الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالى صحراء جوبى فى غرب وشمال الصين، ارتبط ظهورهم على مسرح الأحداث بتولى أحد قادتهم، والذى يدعى تيموجين، مهمة توحيد صفوفهم تحت سلطانه مع بدايات القرن الـ 13م/ 7هـ إلى أن توج ملكا عليهم فى عام 1206م/ 603هـ تحت لقب جنكيزخان الذى عد المؤسس الحقيقى للإمبراطورية المغولية،عنهم انظر:
ابن العميد، تاريخ الأيوبيين، ط. القاهرة ب. ت، ص7، الجوينى، تاريخ جهانكشاى، جـ1، ت: محمد التونجى، ط. القاهرة1985م، ص60، بيرتولد شبولير، المغول فى التاريخ، ت: يوسف شلب الشام، ط. دمشق 1989م، ص17، عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامى، ط. القاهرة 1997م، ص33، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، ط. القاهرة 1976م، ص29- ص30، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ط. القاهرة 1975م، ص57، كليفورد.ا. بوزورث، الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى دراسة فى التاريخ والأنساب، ت: حسين على اللبودى، ط. القاهرة 1995م، ص56.

(2) سعيد عاشور، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ط. بيروت 1977م، ص243- ص245، علاء محمود خليل، تحالف ملوك أرمينيا الصغرى وأنطاكية الصليبية مع المغول لاحتلال بلاد الشام وتصدى المماليك لهم، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى الفرنجى، جـ2، كلية الآداب جامعة اليرموك، ط. أربيد 2000م، ص848.

الهمجي وتوقف تقدمه، وبالتالى تهدم كل أحلام وطموحات بوهمند فى توسيع ممتلكاته على حساب أملاك المسلمين فى بلاد الشام[1].

وعلى الرغم من ذلك فلقد كان الصليبيون فى بلاد الشام يرفضون فكرة التحالف مع المغول باستثناء بوهمند السادس، ويرجع ذلك لتخوفهم البالغ من المغول لما أحدثوه من قبل من مذابح وتخريب لبعض البلدان الأوروبية عندما وصل إليها المد المغولى[2]، ولذلك فما إن علم الصليبيون بعزم التتار على غزو بلاد الشام حتى شرعوا فى ترميم مدنهم وتقوية دفاعاتهم تأهبا لأى هجوم من قبل التتار، ولهذا فقد كانوا ينظرون لتصرف بوهمند على أنه خيانة للمسيحية ولهم، وعلى هذا فقد صدر ضده الحرمان الكنسى من قبل كنيسة روما[3].

إلا أن بوهمند السادس لم يُعِرْ موقف الصليبيين أى اهتمام، واستمر فى محالفته للتتار وشاركهم فى حملتهم على بلاد الشام وصاحب القائد المغولى كتبغا فى الاستيلاء على دمشق، ولقد كافأ المغول بوهمند السادس على ما قام به فمنحوه مدينتى اللاذقية وجبلة وبعض الحصون الأخرى، وهكذا تمكن بوهمند السادس من ربط إمارتيه ببعضهما لأول مرة منذ استيلاء صلاح الدين على تلك المدينتين فيما بعد معركة حطين عام 1187م/ 583هـ[4].

(1) علاء محمود خليل، المرجع نفسه، ص849، حسين عطية، سفارات الأرمن إلى المغول وأثرها على العلاقات الأوربية المغولية، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية، ط. إسكندرية 2000 م، ص240.

(2) عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص35- ص48،
Chambers, The Devils Horsemen: The Mongol Invasion of Europe, London 1979, pp.98-107.

(3) مجهول، تتمة تاريخ وليم الصورى، ص241، خير المر، الفرنجة بين المغول والمماليك مواقف وعلاقات عشية معركة جالوت، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامي- الفرنجى، جـ2، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ط. أريد2000م، ص760- ص762.

(4) Les Gestes des Chiprois, p. 751,
علاء محمود، تحالف ملوك أرمينيا الصغرى وأنطاكية، ص849،
Grousset, Histoire des Croisade, vol.3, p.586, Stevenson, The Crusaders, p. 335..

وإلى هنا يكون قد انتهى دور بوهمند السادس فى تحالفه مع المغول، إلا أن طموحات المغول لم تنتهِ عند ذلك الحد، فلقد كانوا يخططون للاستيلاء على مصر عقب احتلالهم لبلاد الشام. وهكذا بات عليهم مواجهة المماليك الذين تولوا حكم مصر منذ فترة وجيزة، ولقد وقعت المواجهة بينهم فى معركة عين جالوت عام1260 م/ 15رمضان 656هـ[1]، وأوقع المماليك هزيمة نكراء بالمغول استطاعوا من خلالها هدم أسطورة المغول كأقوى قوة فى العالم آنذاك، ولقد استغل المماليك فرصة الانكسار الذى حل بالتتار فحملوا على كاهلهم مهمة طردهم من بلاد الشام وفى المقام الأول الانتقام من بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس وهيثوم الأول ملك أرمينيا لتحالفهما مع المغول ضد المسلمين فيما بعد[2].

وسرعان ما انتهى المماليك من مهمة تحرير بلاد الشام من المغول ليبدءوا القصاص من بوهمند وهيثوم، لقد تولى تلك المهمة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (1260- 1277م/ 658- 676هـ)، إلا أن ما يهمنا هنا هو ما حل ببوهمند السادس أمير طرابلس وأنطاكية، الذى كان يراه بيبرس ألد أعدائه الصليبيين، ولقد كان بيبرس ينتظر أية فرصة تسنح له ليوقع ببوهمند السادس الانتقام الذى يليق به. وكان أول ما قام به بيبرس إرسال الأمير قلاوون على رأس حملة لمهاجمة إمارة طرابلس فى عام 1266م/ 644هـ، ولقد تمكن قلاوون من إسقاط حصون حلبا

(1) عن معركة عين جالوت انظر:
الهمذانى، جامع التواريخ، م2، جـ1، ت: محمد صادق نشأت وآخرون، ط. القاهرة 1960م، ص 313-314، بيبرس الدواداري، التحفة الملوكية، ص44، أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص205، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ7، ص360- ص362، الصالحى، أعلام الورى، تحقيق عبد العظيم خطاب، ط. طرابلس 1971م، ص3، على السيد على، "الإسهام العسكرى المصرى فى موقعة عين جالوت "، ضمن كتاب أثر الإسلام فى مصر وأثر مصر فى الحضارة العربية الإسلامية، ط. القاهرة 1999م، ص365- ص417،
Thorau, "The Battle of Ayn Jalut: a Re-Examination", in Crusade and settlement, ed.by Peter W. Edbury, Cyrdiff 1985, pp.236-239 .

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص906،
Grousset, Histoire des Croisade, vol .3, p. 681 .

وعرقة والقليعات التابعة لإمارة طرابلس، ثم قام بيبرس نفسه بمهاجمة طرابلس فى 30 أبريل 1268م/ 15شعبان 666هـ، وأوقع الخراب بقراها وقطع إمدادات المياه عن المدينة مما أشاع الخوف فى قلوب إسبتارية حصن الأكراد وداوية صافيتا وأنطرطوس، فأسرعوا بطلب الأمان من بيبرس وعقد صلح معه، إلا أن بيبرس كان يهدف من ذلك كله جذب انتباه بوهمند السادس لما حل بإمارة طرابلس وتلاهيه عن أنطاكية التى كانت هدف بيبرس حينئذ[1].

وفى واقع الأمر، أن بوهمند السادس كان فى موقف لا يحسد عليه، فلقد كانت إمارة أنطاكية آنذاك فى أقصى حالات ضعفها وانهيارها من جراء الصراعات الداخلية التى ألمت بها، كذلك لما ألحقته بها هجمات التركمان المتواصلة على أراضيها من إنهاك تام لقواتها العسكرية وثرواتها الاقتصادية، زد على ذلك إهمال بوهمند السادس نفسه لشئونها واستقراره الدائم فى طرابلس وهروبه حتى من مواجهة الأمور المستجدة التى حلت بها كعهد أسلافه، كل تلك الأمور جعلت إمارة أنطاكية مهيأة تمامًا للسقوط فى أيدى المسلمين، فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن استغل تلك الفرصة وشن هجومًا محكمًا على مدينة أنطاكية انتهى باستيلائه عليها فى 18مايو1268م/ رمضان666هـ، ولم يتبقَ من إمارة أنطاكية الصليبية من أملاك إلا مدينة اللاذقية وحصن المرقب اللذين أصبحا بطبيعة الحال تابعين لإمارة طرابلس[2].

---

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص251- ص252، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص3، اليونينى، مرآة الزمان، جـ2، ص382، شافع بن على، حسن المناقب، ص127، بطرس ضو، تاريخ الموارنة، جـ 3، ص483،

Stevenson, The Crusaders, pp. 339-340.

(2) عن سقوط أنطاكية، انظر:

ابن عبد الظاهر،الروض الزاهر، ص307- ص313، اليونينى، مرآة الزمان، جـ2، ص382، شافع ابن على، حسن المناقب، ص127- ص128، الذهبى، دول الإسلام، جـ2، تحقيق شلتوت ومصطفى إبراهيم، ط.القاهرة1974م، ص188،

Eracles، pp. 456 – 457 ، les Gestes des Chiprois، p. 771;

محمد جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس فى مصر، ط. القاهرة1960م، ص 78،

King, The knights Hospitallers, p. 263.

ولقد كان سقوط أنطاكية على هذا النحو إيذانًا لإمارة طرابلس بأنها ستكون هى الهدف التالى للمماليك، وبخاصة أن بيبرس قد أكد ذلك لبوهمند السادس خلال رسالته التى بعث بها له عقب إسقاطه لأنطاكية، وبالفعل فلقد تركزت جهود بيبرس فيما بعد على أملاك بوهمند السادس فى طرابلس، ففى25يناير1271م/ 10 (جمادى الثانية) 669هـ شن بيبرس هجومًا جديدًا على مدينة طرابلس، ثم قام بعد أقل من شهر بالاستيلاء على قلعة صافينا، وفى 3 مارس/ 9 رجب من نفس ذلك العام شن بيبرس هجوماآخر على حصن الأكراد انتهى بتسليم الإسبتارية له ذلك الحصن فى 17أبريل/ 24 شعبان ونفس الأمر بالنسبة لحصن عكار الذى تسلمه بيبرس من الإسبتارية أيضا فى11مايو/ آخر شهر رمضان من نفس العام، وهكذا استطاع بيبرس أن يجرد مدينة طرابلس من أهم القلاع التى كانت تتولى مهمة الدفاع عنها ليُسهلَ له هذا مهمة إسقاط طرابلس فيما بعد[1].

وبالفعل أخذ بيبرس يستعد لمهاجمة مدينة طرابلس، لكنه تراجع عن ذلك الأمر سريعًا بعد أن جاءته الأنباء بوصول الأمير إدوارد Edward إلى عكا وكان بيبرس متخوفًا من أن يكون الأمير إدوارد هذا والقوة التى كانت بصحبته مقدمة لحملة صليبية جديدة، مما دفعه لأن يوافق على طلب بوهمند السادس أمير طرابلس فى عقد الهدنة معه لمدة عشر سنوات، إلا أن بيبرس لم يكن يثق فى عهد أقره شخص مثل بوهمند السادس، لذلك أخذ فى إعادة إعمار وتقوية حصنى الأكراد وعكار وإمدادهما بالقوات والأسلحة والمؤن تحسبًا لأى هجوم قد يشنه بوهمند السادس

(1) ابن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشية Blochet، ط.باريس1932م، ص185- ص191، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ2، ص113- ص119، ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص375- ص379، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، ط. القاهرة 2001م، جـ9، ص132- ص134، مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط. القاهرة 1993م، ص45، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص914، Grousset, Histoire des Croisade, vol .3, p. 657 .

عليها، وفى ذات الوقت لتعاون تلك القوات أى هجوم مملوكى يشن ضد إمارة طرابلس فيما بعد[1]، وهكذا شهدت إمارة طرابلس بعض الشيء حالة من الهدوء الحذر خلال الفترة المتبقية من حكم بوهمند السادس إلى أن مات فى11 مارس 1275 م/ 12رمضان 673هـ[2].

وإذا أردنا أن نُقيِّم وضع إمارة طرابلس فى عهد بوهمند السادس سنجد أنها قد استنزفت ووهنت إلى حد كبير من جراء السياسة غير الحكيمة التى اتبعها بوهمند السادس فى حكمه، إلا أننا علينا ألا نحمله منفردا عواقب كل ما حدث، خاصة فى صراعه مع المماليك، فعلى الرغم من فداحة الخطأ الذى وقع فيه بوهمند عندما تحالف مع المغول ضد المسلمين، وما أسفر عن ذلك من انتقام بيبرس منه والاستيلاء على الكثير من أملاكه، إلا أننا لابد أن نعى أن ذلك كان سيحدث سواء تحالف بوهمند مع المغول أو لم يتحالف، فقد كان الوجود الصليبى فى بلاد الشام فى حالة يرثى لها، وكان وجودهم يتوقف على التوقيت الذى يحدده المماليك فى مهاجمتهم لهم واستردادهم للأراضى الإسلامية منهم، وكان على إمارة طرابلس باعتبارها جزءًا من ذلك الوجود أن تلقى نفس النهاية التى سيلقاها الصليبيون جميعهم فى بلاد الشام، إلا أن تحالف بوهمند مع المغول قد عجل بمهاجمة المماليك لأملاك بوهمند السادس .

مات بوهمند السادس وعمره لم يتجاوز الأربعين عاما بعد، وكان ولده بوهمند السابع Bohemond IIV (1275-1287م/ 673-686هـ) ما زال قاصرا وابنته لوسي Lucia ما زالت طفلة فتولت سبيلا أرملة بوهمند السادس الوصاية على بوهمند

(1) زينب عبد المجيد، الإنجليز والحروب الصليبية فى الفترة من (1189-1291م)، ط. القاهرة 1996 م، ص212- ص215، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص914،
Stevenson , The Crusaders , p.343 .

(2) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، جـ3، ص516، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص176.

السابع[1]، ولقد كان الملك هيو ملك قبرص يطمح فى تَولِّى أمر الوصاية على بوهمند السابع بحكم صلة القرابة التى كانت تجمع بينهما، فلقد كان هيو ابن عم بوهمند السابع، إلا أنه لسوء حظه فشل فى فرض وصايته عليه، نظرًا لأن سبيلا لم تمكنه من تحقيق أطماعه تلك، فلقد قامت بإرسال ابنها بوهمند إلى بلاط خاله ليو الثالث ملك أرمينيا بعد أن أنهت مراسم وصايتها على ابنها، ولكن لم يكن هذا هو الدافع الرئيسى الذى جعل هيو يتراجع عن موقفه هذا، بل إن معارضة بعض نبلاء إمارة طرابلس بزعامة بارثلميو أسقف أنطرطوس- الذى كان مقربًا لسبيلا والدة الأمير القاصر- لتوليه أمر الوصاية على بوهمند السابع كان هو العامل الأساسى الذى أثناه عن موقفه هذا[2].

وجدير بالذكر أن ميل سبيلا الوصية على عرش إمارة طرابلس لبارثلميو أسقف أنطرطوس وسماحها له بالتدخل فى شئون حكم الإمارة كان أحد الأسباب الرئيسية التى جرَّتْ على الإمارة فيما بعد معارك طويلة بين الداوية و بين بوهمند السابع، نظرًا لأن هيئة الداوية كانت تعد من أكبر مؤيدى أسقف طرابلس بول أوف سينىٰ فى خلافاته على التنظيم الكنسى للإمارة مع ألد أعداء بارثلميو أسقف أنطرطوس مما كان له بدوره تأثير سلبى على العلاقة الودية التى كانت قائمة بين الداوية وبين أمراء طرابلس[3].

وما إن تولى بوهمند السابع الحكم بنفسه دون أية وصاية عليه فى عام1277م/ 675هـ حتى نشبت الخلافات بين طرابلس ومدينة جبيل من جديد، ويرجع سبب تلك الخلافات لرغبة جاى الثانى أمبرياكو حاكم جبيل فى تزويج أخيه جون John من وريثة إحدى الأسر الثرية فى طرابلس وهى أسرة أليمان Aleman، ولقد أبدى

---

(1) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص487.

(1) Les Gestes des Chiprois, p. 734.

(2) Grousset, Histoire des Croisade, vol .3, p. 684, Runciman, A History of the Crusades, vol .III, p. 356 .

بوهمند السابع ترحيبه بتلك الزيجة فى أول الأمر، إلا أنه سرعان ما غير رأيه بتحريض من بارثلميو Barthlemio أسقف أنطرطوس، الذى كانت تدفعه أطماعه هو الآخر فى ثروة تلك الأسرة، فلقد أقنع بوهمند السابع بتزويج تلك الفتاة من ابن أخته، فما كان من جاى إلا أن خطف تلك الفتاة وزوجها لأخيه جون[1].

وكان من الطبيعى ألا ينال هذا التصرف رضا بوهمند السابع، لذلك أسرع جاى حاكم جبيل بالاحتماء فى معقل الداوية خوفًا من أى رد فعل انتقامى ضده من قبل بوهمند، ورغم ذلك فلقد أصر بوهمند على الانتقام من جاى ومن هيئة الداوية التى آوته، فما كان من بوهمند إلا أن قام بتدمير كل معاقل الداوية فى طرابلس، وهكذا أخذت الأمور تسير من سيِّئ إلى أسوأ، خاصة أن الداوية أرادوا الثأر لأنفسهم لما حل بهم على يد بوهمند السابع، فقاموا بمظاهرة خارج أسوار طرابلس ثم أحرقوا قلعة البترون[2].

وما إن عادت الداوية إلى عكا حتى زحف بوهمند السابع إلى جبيل، ولقد علم جاى بتحرك بوهمند السابع ضده فآثر الخروج من مدينته ومواجهة بوهمند بعيدا عنها حتى لا تتعرض جبيل لأى هجوم من قبل قوات بوهمند، ولقد رافق جاى كتيبة من هيئة الداوية قد تركها معه لمؤازرته ضد بوهمند السابع، وعلى بُعد عدة أميال شمال البترون التقى الطرفان فى معركة شرسة عام 1278م/ 677هـ ولقد شارك فى تلك المعركة باليان حاكم صيدا فى صفوف جاى ضد بوهمند السابع حاكم طرابلس، مما دفع الأخير لإرسال أسطول مكون من خمس عشرة سفينة إلى صيدا لمهاجمتها، إلا أن كثرة الخسائر فى صفوف بوهمند أجبرته على عقد هدنة مع جبيل لمدة عام واحد[3].

---

(1) سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص134.

(2) ابن سباط، تاريخ ابن سباط، جـ1، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، ط. طرابلس 1993م، ص468،
Les Gestes des Chiprois, pp.746 -747, Grousset, Histoire des Croisade, vol.3, p. 686.

(3) Les Gestes des Chiprois, pp.748,
سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص135،
Grousset, Histoire des Croisade, vol .3, pp. 686 – 687.

وخلال ذلك العام أخذ الطرفان يستعدان لمواجهة جديدة فيما بينهما، حيث أخذ جاى حاكم جبيل فى شن هجومًا على طرابلس عقب انتهاء الهدنة التى كانت بينهما، وللمرة الثانية يلقى بوهمند السابع الهزيمة على يد تابعه جاى أمبرياكو فى16 يوليو1279م/ ربيع الأول 678هـ، ومن جديد تهادن الطرفان إلا أن العداء فيما بينهما كان قد وصل إلى أقصاه[1].

وكان بوهمند السابع قد عقد العزم على الانتقام من جاى أمبرياكو حاكم جبيل، الذى ألحق به عار الهزيمة من قبل، فى حين كانت انتصارات جاى المتوالية على قوات إمارة طرابلس قد شجعته للقيام بمحاولة الاستيلاء على طرابلس نفسها فيما بعد، وما إن انتهت مدة الهدنة التى كانت بينهما حتى تحرك جاى على رأس قواته وقوات حلفائه الداوية فى يناير1282م/ شوال 680هـ، نحو طرابلس بهدف الاستيلاء عليها، لكن سرعان ما شب الخلاف بين الداوية وجاى، وكان السبب فى ذلك الخلاف عدم وجود ثقة متبادلة بين الطرفين، ولكن جاى كان مصممًا على عزمه فى مهاجمة طرابلس، فلجأ إلى أحد أبراج الإسبتارية ليسانده عوضًا عن الداوية، إلا أن تلك الأنباء سرعان ما وصلت إلى مسامع بوهمند السابع الذى تحرك من فوره لمحاصرتهم فى ذلك البرج وظل محاصرًا لهم إلى أن تدخلت الداوية لرفع ذلك الحصار عنهم مقابل استسلامهم المشروط بالمحافظة على حياتهم، وما إن استسلموا حتى تراجع بوهمند عن وعده وقام بسمل أعين رفاق جاى من قادة الداوية، فى حين كان عقابه بجاى وأخويه جون وبلدوين وابن عمه وليم أشد قسوة، فلقد أخذهم إلى نيفين فى فبراير1280م/ ذى القعدة680هـ، وقام بدفنهم حتى أعناقهم ثم تركهم يموتون جوعًا، ولقد انتهز بوهمند السابع وجود اضطرابات فى جبيل عقب قتله لجاى أمبرياكو فشن هجومًا عليها، إلا أننا لا ندرى المصير الذى حل بجبيل فيما بعد من جراء ذلك الهجوم، غير أن بوهمند على الأرجح

(1) Runciman, A History of the Crusades, vol.III, pp. 378 -379 .

لم يوفق فى السيطرة على جبيل، والدليل على ذلك أن جبيل كان لها دور فعال فى الحرب الأهلية التى وقعت فى طرابلس عقب وفاة بوهمند السابع(1).

وهكذا تمكن بوهمند السابع من إخماد نيران الحرب الأهلية التى اشتعلت فى إمارته طرابلس، إلا أنه لم ينتبه إلى ما كان أكثر خطورة على ملكه من تلك الصراعات الداخلية ألا وهو خطر المماليك، على الرغم مما أصاب طرابلس فى نهاية عهد أبيه بوهمند السادس من تقلص لأملاكها على يد هؤلاء المماليك، ومن هنا يتبين لنا أن السياسة التى اتبعها بوهمند السابع لم تكن سياسة حكيمة تساير مجريات الأحداث من حولها، وإنما كانت سياسة منغلقة على نفسها، فبدلاً من أن يسعى بوهمند السابع لتقوية إمارته إذا به ينغمس فى حروب أهلية أضعفته وأضعفت إمارته أكثر من ذى قبل، وبالتالى فلقد زادت تلك الصراعات من فرص استيلاء المماليك على طرابلس، وعلى الرغم من انشغال الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون، خاصة فى بداية حكم المنصور قلاوون بالإضافة إلى استمرار صراعهم مع المغول، إلا أن المماليك بقيادة المنصور قلاوون استمروا على نفس الدرب الذى انتهجه بيبرس من قبل فى محاربته للصليبيين، وبخاصة تجاه إمارة طرابلس الصليبية، وكان أول ما قام به المنصور قلاوون ضد بوهمند السابع هو هجومه على حصن المرقب وإسقاطه فى عام1285م/ 684هـ، وعلى الرغم من أن ذلك الحصن لم يكن تابعًا رسميا لإمارة طرابلس إلا أنه كان ذا موقع إستراتيجى غاية فى الأهمية للدفاع عن إمارة طرابلس من ناحية الشمال(2).

(1) Les Gestes des Chiprois , pp.748 – 750, Grousset, Histoire des Croisade, vol .3, p 687, Irwin (R.),"Conquest of County of Tripoli ", in Crusade and Settlement, ed Peter Edbury, Cardiff 1982, p.247, Runciman, The Crusader states, pp.587 – 588 , A History of the Crusades, p. 379 .

(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص86 ، ابن حبيب، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، ط. القاهرة 1976 م، ص96، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، جـ9، ص 295.

ثم قام قلاوون بالاستيلاء على حصن مرقبة، ولقد شعر بوهمند حينئذ بمدى خطورة موقفه، فأسرع بطلب الصلح من السلطان المنصور قلاوون، وبالفعل تم توقيع الصلح فيما بعد ومن ثم عاد قلاوون إلى مصر[1].

ولقد أعطى ذلك الصلح الفرصة لبوهمند السابع ليلتقط أنفاسه قبل أن يتلقى آخر ضربة من المنصور قلاوون الذى شن هجومًا على اللاذقية فى مارس1287م/ 686هـ واستولى عليها، وكانت حجته فى ذلك سوء معاملة الصليبيين بها لبعض المسلمين، كما أن اللاذقية لم تدخل فى نطاق ذلك الصلح الذى وقعه مع بوهمند السابع، لأنها تتبع إمارة أنطاكية فى حين أن الصلح الذى وقعه مع بوهمند السابع كان يقتصر على إمارة طرابلس فحسب، ولقد كان سقوط اللاذقية فى أيدى المنصور قلاوون آخر حدث شهده بوهمند السابع قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة فى 19 أكتوبر 1287م/ 686هـ[2].

ولقد ازدادت الأمور فى إمارة طرابلس تعقيدًا بعد وفاة بوهمند السابع دون أن يترك وريثًا ذكرًا يتولى الحكم من بعده، وكانت الوريثة الشرعية له فى الحكم أخته لوسى المتزوجة من قائد الأسطول الصقلى وكانت تعيش معه فى أبوليا،إلا أن فكرة توليها حكم إمارة طرابلس قد قوبل برفض نبلاء وسكان طرابلس، خاصة أنهم لم ينسوا بعد ما أحدثته أسرتها ضد نبلاء طرابلس وحكام جبيل، لذلك راسلوا الأميرة سبيلا Sybille الأرمينية والدة بوهمند السابع فى أمر توليها حكم طرابلس فما كان منها إلا أن وافقت على توليها الحكم وأرسلت إلى صديقها القديم بارثلميو أسقف أنطرطوس ليتولى الحكم نيابة عنها، إلا أن ذلك التصرف لم يلقَ أى ترحيب من قبل نبلاء طرابلس فأعلنوا لها عن رفضهم لتولى بارثلميو الحكم نيابة عنها، إلا

(1) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، جـ 9، ص272، سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص137- ص 138.

(2) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص151- ص152، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص22.

أنها أصرت على رأيها، فما كان من نبلاء طرابلس إلا أن أعلنوا خلع الأسرة الحاكمة عن عرش إمارة طرابلس، وإنشاء قومون يتولى شئون الحكم فى طرابلس، ولقد تولى بارثلميو أمبرياكو حاكم جبيل رئاسة هذا القومون[1].

وفى الوقت نفسه، كانت لوسى أخت بوهمند السابع قد رحلت إلى عكا ثم صحبها حلفاء عائلتها الإسبتاريون إلى مدينة نفين، ومن هناك أرسلت بيانًا إلى القومون تطالب فيه بحقها فى تولى الحكم ، لكن القومون أبى ذلك، وتحسبا لأى رد فعل من قبلها فلقد وضع القومون نفسه تحت حماية جنوة، التى دعمتهم بخمسة سفن تحت قيادة الأميرال بنتيتو زكريا Benito Zakaria الذى سعى لنيل أكبر قدر ممكن من الامتيازات لمدينته جنوة مما أثار مخاوف مواطنى طرابلس[2]، خاصة بعد أن أظهر بارثلميو أمبرياكو رغبته فى تملك طرابلس، لذلك أسرع القومون وسكان طرابلس بمطالبة الأميرة لوسى بالعودة إلى طرابلس وتولى حكمها. ورغم مساندة جميع الهيئات الدينية العسكرية لها إلا أنها لم تقدم على توليها الحكم إلا بعد أن أطلعت بنتيتو زكريا على الأمر كله فما كان منه إلا أن وافق على توليها الحكم لكن بعد أن تعهدت له على تأكيد امتيازات جنوة والقومون فى طرابلس[3].

ولقد أثار ذلك التصرف حنق الهيئات الدينية العسكرية وبرثلميو أمبرياكو، الذى راسل المنصور قلاوون داعيًا إياه للتدخل فى شئون طرابلس ومحذرًا له مما قد يحل بملكه من خسائر تجارية فى حال ما إذا استولى الجنوية على زمام الأمور فى

(1) Les Gestes des Chiprois, pp.794 – 795,
سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص139 – ص140، عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس، ص 579.

(2) Les Gestes des Chiprois, p.802,
عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب (علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من1100–1400م)، القاهرة 1983م، ص56.

(3) سامية عامر، المرجع السابق، ص139– ص140، عمر عبد السلام تدمرى، المرجع السابق، جـ1، ص579– ص580.

طرابلس، وكان من الطبيعى أن يلبى قلاوون تلك الدعوة لخرق الهدنة القائمة بينه وبين طرابلس حتى يتمكن فيما بعد من إسقاطها، وهو ما تحقق له بالفعل فى عام 1289م/ 688هـ[1].

وهكذا لو تتبعنا أحوال إمارة طرابلس منذ بداية القرن الـ 13م/ 7هـ، سنلاحظ أن تلك الإمارة كانت آخذة فى الضعف والانهيار بشكل تدريجى، خاصة منذ عهد الأمير بوهمند السادس، حيث توالت على الإمارة الحروب الأهلية الواحدة تلو الأخرى إلى أن أنهكت الإمارة تمامًا واستنزفت جميع إمكانياتها مما جعلها فى نهاية الأمر لقمة سائغة لمن يهاجمها.

كان ذلك عرضًا للتطور السياسى لإمارة طرابلس الصليبية خلال القرن 13م/ 7 هـ، أما الفصل التالى فيتناول النشاط الاقتصادى.

---

(1) Les Gestes des Chiprois , p.804,

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص926، عزمى عيد أبو عيان، مسيرة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى عهد المماليك، ط. عمان1995م، ص78.

▪ الفصل الثانى
النشاط الاقتصادى

يتناول هذا الفصل بالدراسة، النشاط الاقتصادى لإمارة طرابلس الصليبية فى القرن13م/ 7هـ، بدءًا من النشاط الزراعى والرعوى، وكذلك النشاط الصناعى، مرورًا بحرفة الصيد، وانتهاءً بالنشاط التجارى، سواء كانت تلك التجارة داخلية أو خارجية.

وفى مقتبل حديثنا عن اقتصاد إمارة طرابلس الصليبية علينا أن نعى أن النشاط الزراعى شغل مكانة رئيسية بين الأنشطة الاقتصادية السائدة فى الإمارة آنذاك، نظرًا لما اشتهرت به أراضى الإمارة من ثراء وتنوع فى إنتاجها الزراعى، والتى شهد لها بذلك الكثير من الرحالة والمؤرخين الذين عاصروها[1]، ويرجع الفضل فى ذلك إلى عوامل عدة يأتى فى مقدمتها ما توافر لتلك الإمارة من وفرة فى مواردها المائية، فهى على مستوى الساحة الصليبية تعد من أكثر الدويلات الصليبية غنى فى مصادرها المائية، فالماء هو أساس الحياة والوجود البشرى، وعلى هذا الأساس فإن وجود المجتمعات وبقاءها دائمًا ما يكون مرتبطًا بوجود مصادر المياه، وهذا ما أدركه الصليبيون، وبخاصة حكام إمارة طرابلس، فخلال فترة إخضاع وتأسيس الإمارة بذل حكامها أقصى جهدهم للسيطرة على مصادر المياه المختلفة الواقعة فى نطاق طرابلس، ولم يكتفوا بذلك فحسب، بل إنهم سعوا خلال استيلائهم على أنهار إمارة

(1) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص372– ص373،
Burchard of Mont Sion, p. 16, Jacques de Vitry, p.11 .

طرابلس -التى مثلت الغالبية العظمى من موارد الإمارة المائية- للسيطرة عليها من منابعها إلى مصباتها سيطرة كاملة محكمة قدر الإمكان، تضمن لهم عدم الخضوع لأى ضغط أو تهديد قد يتعرضون له من خارج حدود إمارتهم. وعلى هذا الأساس فإن المتأمل لخريطة إمارة طرابلس الصليبية سيجد أن أراضى تلك الإمارة قد احتوت ما يقرب من نصف أنهار لبنان: كالنهر الكبير الشمالى ونهر بانياس ونهر السن والنهر الكبير الجنوبى ونهر عرقة الذى ينبع من جبال عكار ويصب فى خليج عكار، كذلك نهر البارد الذى ينبع هو الآخر من جبال عكار وجبال المكمل[1].

هذا بالإضافة إلى نهر قاديشا[2]، أهم أنهار الإمارة على الإطلاق، نظرًا لكونه يمر فى مدينة طرابلس ذاتها، وينبع هذا النهر من إحدى مغارات جبال الأرز، حيث يندفع بانحدار سريع حتى يصل إلى مدينة طرابلس ويخترقها من الجنوب إلى الشمال بحيث يقسمها إلى قسمين: قسم شمالى شرقى يعرف باسم" تلة القبة"، وقسم جنوبى غربى أطلق عليه الصليبيون اسم" تلة الحجاج أو الزوار" Mons Peregrinus والذى يعرف الآن باسم " تلة أبى سمرا"[3].

وما إن يمر ذلك النهر بمدينة طرابلس حتى يطلق عليه مواطنوها اسم نهر " أبى على "، وهو الاسم الذى يعرف به هذا النهر إلى وقتنا الحالى، ومن المرجح أن اسم أبى على هذا قد أطلق عليه نسبة إلى" أبى على عمار بن عمار" أحد حكام أسرة بنى

---

(1) سامر مخيمر وخالد حجازى، أزمة المياه فى المنطقة العربية الحقائق والبدائل، ط. الكويت1996م، ص37، محمد مؤنس، الحروب الصليبية(السياسة، المياه، العقيدة)، ص71.

(2) قاديشا هى كلمة من أصل سريانى تعنى المقدس، ومن الواضح أن تلك الصفة ظلت مرتبطة بذلك النهر لدرجة أن كثيرًا من الرحالة والمؤرخين اعتبروه المقصود بـ (ينبوع الحدائق)الذى ذكر فى العهد القديم، نشيد الإنشاد: الإصحاح الرابع/ 15، انظر:

Burchard of Mont Sion, p. 16, Guide Book to Palestine, Trans. by J.H. Bernard, in. P.P.T.S, vol .V, London1894, p. 212 .

(3) سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص20، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص11.

عمار، الذين تولوا حكم طرابلس قبل استيلاء الصليبيين عليها، ويستمر النهر فى مجراه إلى أن يصب فى البحر المتوسط شرقى ميناء طرابلس، ولقد قدر طول ذلك النهر بـ 44.5كم، وهو بذلك يعد أطول أنهار إمارة طرابلس الصليبية وثالث أطول أنهار لبنان[1].

ويغذى ذلك النهر عدة ينابيع من مرتفعات الأرز والقرنة السوداء، أهمها: نبع رشعين وأهدن ونبع العيون بالإضافة إلى نهر كفتين الذى يصب فيه بالقرب من بلدة زغرتا، ومن الواضح أن تلك الروافد تثرى نهر أبى على بكميات كبيرة من المياه مما جعل كثيرًا من الرحالة الذين شاهدوه يتعجبون من غزارة مياهه خاصة بعد اجتيازه لمدينة طرابلس[2].

كما أثريت الإمارة بأنهار أخرى كنهر الجوز الذى يقع فى وادى الجوز وينبع فى الأساس من عين ماء غزيرة تتفجر من مغارة فوق كفر حلدا فى جبل المنيطرة قرب تنورين ويصب فى البحر المتوسط بالقرب من البترون، هذا بالإضافة إلى نهر إبراهيم، وهو نهر قصير إلى حد ما، بالمقارنة بنهر قاديشا ونهر الجوز وينبع هذا النهر من مغارة أفقا فى جبل المنيطرة ومن نبع العاقورة ويصب فى البحر المتوسط على بعد 5 كم جنوب جبيل[3]، ومن الجدير بالذكر أن مدينة جبيل اعتمدت فى رى أراضيها الواقعة خارج المدينة على مياه ذلك النهر، فى حين كان من الصعب على سكانها أن يعتمدوا فى شربهم على مياه نهر إبراهيم، نظرًا لبعده إلى حد ما عن مدينة جبيل، لذلك لجأوا إلى مياه الآبار الموجودة بالمدينة[4].

(1) عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس، ص40.

(2) Ludolph Van Suchems, p.47 .

(3) الإدريسى، نزهة المشتاق، جـ 1، ص372، سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص20، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص73.

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ1، ص96، الإدريسى، المصدر نفسه، جـ1، ص372.

وبخلاف هذه الأنهار وجدت مصادر أخرى للمياه فى طرابلس تمثلت فى عدد من النهيرات فى حصن الأكراد وحصن عكار وبعض الينابيع والعيون كالتى فى قلعة القلمون ومدينة طرابلس وغيرها، بالإضافة إلى البحيرة الوحيدة التى وجدت فى الإمارة ألا وهى بحيرة اليمونة الواقعة شرقى جبل المنيطرة[1].

وللاستفادة بأكبر قدر ممكن من مياه هذه الأنهار أقيمت على مجاريها العديد من الترع والقنوات، لكن من الواضح أن غالبيتها أقيمت قبل استيلاء الصليبيون على الإمارة، إلا أنهم أحسنوا استخدامها قدر المستطاع وجددوا ما تلف منها وقلَّتْ كفاءته، كما أنهم أقاموا مشاريع مائية جديدة لعل أشهرها قناة البرنس المتفرعة من نهر أبى على فى مدينة طرابلس[2]، ومن المرجح أن كلمة البرنس هذه قد أطلقت على تلك القناة نسبة إلى لقب أحد أمراء البيت النورماندى الذين تولوا حكم طرابلس فى القرن13م/ 7هـ، والذين لقبوا بلقب البرنس وهو اللقب الذى لم يحظَ به أى من حكام طرابلس سواهم .

كما أننا لا يمكن أن نتجاهل طبيعة الإمارة الجغرافية كعامل مؤثر فى إنتاجها الزراعى، فلقد امتازت الإمارة بتنوع تضاريسها واختلاف أنماطها المناخية إلى حد ما، حيث كانت المناطق الغربية منها مناطق ساحلية مطلة على البحر المتوسط، تمتد عبرها السهول الساحلية كسهول مرقية وعرقة وطرابلس والبترون وجبيل وجونية،بالإضافة إلى سهل اللاذقية شمالًا، الذى استولى عليه الأمير بوهمند السادس أمير طرابلس وأنطاكية خلال فترة الغزو المغولى لبلاد الشام، ولعل أكثر ما يميز تلك السهول بالإضافة لكونها ممهدة طبيعيًّا من الناحية الجغرافية لإقامة

---

(1) هنرى لامنس اليسوعى، تسريح الأبصار فى ما يحتويه لبنان من الآثار، ط . بيروت 1996م، ص61- ص63.

(2) ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص 235، على بهجت، قاموس الأمكنة والبقاع التى يرد ذكرها فى كتب الفتوح، ط . القاهرة 1906م، ص 28.

النشاط الزراعى بها، أن تربتها تمتاز بشكل عام بخصـوبتها وتجانسها على امتداد ساحـل الإمارة، ويرجع السبب فى ذلك لكون غالبية تلك السهول تقع عند مصبات الأنهار التى تجرى فى إمارة طرابلس، والتى سبق وأن ذكرناها، فعلى سبيل المثال نجد أن سهل عرقة يقع عند مصب النهر الكبير وروافده. ويعد سهل عرقة هذا من أكبر السهول الساحلية اتساعًا فى إمارة طرابلس، حيث يمتد على حد تقدير الرحالة الألمانى بورشارد 11فرسخًا طولا أى ما يقرب من61 كم ليصل باتساعه حتى مدينة أنطرطوس، بينما يبلغ عرضه 6 فراسخ أى ما يزيد قليلًا عن33 كم ليمتد باتساعه حتى حصن الأكراد، بينما يقع سهل عكار عند مصب نهرى عرقة والبارد، ويقع سهل طرابلس عند مصب نهر أبى على، وعلى هذا النحو باقى سهول الإمارة[1].

ومن الملاحظ فى هذه السهول بشكل عام أنها تقل اتساعًا كلما اتجهنا جنوبًا، لاقتراب سلسلة جبال لبنان من ساحل البحر المتوسط، لكن علينا أن ندرك بوجه عـام أنه رغـم تعـدد السهـول فى الإمارة فإن مساحتها لم تكن كبـيرة نظرًا لوجـود مناطق كثيرة فى الإمارة فقيرة لا تصلح للزراعة[2].

ومن الطبيعى أن تخضع تلك السهول جميعها لمناخ البحر المتوسط المعتدل وهو مناخ جاف حار صيفًا ممطر دافئ شتاءً، وعلى هذا فإنه ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن المصدر الأساسى لكل الموارد المائية التى وجدت فى إمارة طرابلس يرجع فى الأساس لمياه تلك الأمطار وما يصاحبها أحيانًا من تساقط الثلوج، حيث يبدأ تساقطها بدءا من شهر نوفمبر حتى نهاية شهر فبراير وإن كان تساقط الأمطار

(1) William of Tyre, vol. I, p. 318, Burchard of Mont Sion, p. 18 .

(2) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص137، مصطفى طلاس ومحمد وليد الجلاد، حصن الأكراد، ص49.

يستمر فيها بعد خلال شهـرى مارس وأبريل لكن بشكل متقطع[1]، أما فى فصل الصيف فيقل منسوب المياه فى تلك الأنهار بشكـل ملحوظ، وبينها تكون درجات الحرارة آخذة فى الارتفاع تبدأ الثلوج التى تكسو جبال لبنان[2] فى الذوبان حيث تنحدر عبر هذه الجبال، شأنها فى ذلك شأن الأمطار، حاملة فى معيتها فتات الصخور والمواد المعدنية والعضوية التى تجرفها من الجبال خلال طريقها لأنهار الإمارة، وبذلك ضمنت تلك الأمطار وثلوجها دوام خصوبة أراضى الإمارة وتوفير مصدر شبه دائم لمياه الأنهار فى إمارة طرابلس[3].

أما عن المناطق الشرقية للإمارة فهى تختلف فى ملامحها التضاريسية عن المناطق الساحلية، حيث تغلب عليها الطبيعة الجبلية التى تتشكل من جبال النصيرية شمالًا ثم تتبعها جنوبًا سلسلة جبال لبنان الغربية، وتلك الجبال كما أوضحنا من قبل تشكل حاجزًا أمنيًّا منيعًا للإمارة لما عرف عنها من وعورتها وكثرة التواءاتها بالإضافة لارتفاعاتها الشاهقة، خاصة سلسلة جبال لبنان، إلا أنها رغم ذلك امتازت بخصوبة تربتها، لذلك يغلب على معظم مساحتها أشجار الأرز والصنوبر والسنديان وغيرها الكثير، مما شجع هذا الأمر الكثير من مواطنى الإمارة لزراعة أراضيها السهلة الممهدة التى تصلح لممارسة النشاط الزراعى بها[4].

---

(1) أحمد عبد الله أحمد، التجارة فى الساحل الشامى فى القرنين12-13م/ 6-7هـ، رسالة ماجستير "غير منشورة"، كلية الآداب، جامعة عين شمس2006م، ص15- ص17.

(2) وعن الثلوج التى تكسوها جبال لبنان يقول المتنبي:

وجبال لبنان وكيف بقطعهـا ... وهـو الشـتاء وصيفـهن شتاء

لبس الثلوج بها على مسالكى ... فكأنها ببياضهـــا سوداء

النويرى، نهاية الأرب، جـ30، تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة، ط. القاهرة1990م، ص305.

(3) Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy land, Trans. By. Wilson, in. P.P.T.S, vol .VI, London 1895, p. 66, Phocas, p.9 .

(4) ابن جبير، رحلته، ص228، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص76،

Ernoul, p. 51 .

ومن الجدير بالذكر أنه وجد بين هاتين السلسلتين الجبليتين ممر يربط بين الساحل ومدنه الصليبية وبين مناطق الظهير الداخلية ومدنها ألا وهو ممر حمص – طرابلس، ويصل هذا الممر إلى سهل واسع يعرف باسم سهل البقيعة، ومن الواضح أن هذا السهل كان له أهمية كبيرة لدى صليبىّ إمارة طرابلس، فلقد ظهر ذلك واضحًا من خلال المحاولات العديدة والمستمرة من قبل حكام الإمارة لإخضاعه تحت سيطرتهم والدفاع عنه قدر المستطاع، لذلك اجتهدوا فى تشييد العديد من القلاع المنيعة التى تولت أمر الدفاع عنه ويأتى فى مقدمتها بالطبع حصن الأكراد[1] درة العمارة الصليبية.

ولا شك أن مساعيهم هذه تعود فى المقام الأول لإستراتيجية موقع هذا السهل باعتباره السبيل الوحيد لممر حمص الذى يربط إمارة طرابلس بمدن الظهير الداخلية، وبالتالى فإنه أول المناطق التى ستتحمل عبء مواجهة جيوش المسلمين فى حالة ما إذا اتخذوا من هذا الممر معبرًا لهم لمهاجمة طرابلس، بالإضافة إلى ما امتاز به هذا السهل من أهمية اقتصادية نظرًا لكبر حجمه واتساعه وخصوبة تربته فى ذات الوقت[2].

وهكذا توفرت لإمارة طرابلس التربة الخصبة الصالحة للزراعة، والمياه اللازمة لرى أراضيها سواء كانت مياه الأمطار أو مياه الأنهار، بالإضافة إلى المناخ المعتدل بشكل عام والتضاريس المتنوعة، مما هيأ لأراضيها فرصة ممارسة النشاط الزراعى عبرها ولم يعد ينقصها سوى تدخل أيدى الفلاحين أصحاب الخبرات المتوارثة عن أجدادهم وآبائهم لمتابعة عملية الزراعة، حيث كان فلاحو الشام، ومنهم بطبيعة

(1) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص164– ص167، أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ط . دمشق1960م، ص96.
(2) مجهول، أعمال الفرنجة، ص108– ص109.

الحال فلاحو الإمارة، يتبعون آنذاك ما يعرف بنظام الحقلين، حيث كان الفلاح يقسم أراضيه لقسمين[1]:

القسم الأول : يبدأ الفلاح فى زراعته فى فصل الخريف حيث يقوم بحرث أرضه الزراعية ثم بذر البذور وتغطيتها بالتراب ثم ريها، إما عن طريق مياه الأمطار أو بواسطة مياه الأنهار، إلى أن يبدأ النبات فى البروز عن سطح التربة ويستمر النبات فى النمو إلى أن يكتمل نضجه فى فصل الربيع ومن ثم تبدأ عملية الحصاد، وكانت المحاصيل التى تحصد فى هذا الموسم إما محاصيل شتوية أو نباتات بقولية، وبعد ذلك تقضى الأرض فترة من الراحة بلا زراعة حيث يقوم الفلاح بحرثها إلى أن يحل العام التالى.

وبالنسبة للقسم الثاني: فلقد كان الفلاح يحرثها وينقيها مما يعلق بها من حشائش وأعشاب إلى أن يحل فصل الربيع فيأخذ الفلاح فى بذر البذور بها ويستمر فى تتبع خطوات الدورة الزراعية السابقة إلى أن يحصد المحاصيل فى فصل الصيف وتنقسم هذه المحاصيل ما بين خضراوات ومحاصيل صيفية.

ومن الجدير بالذكر، أن لجوء الفلاح لتربية بعض الحيوانات المستأنسة كالثيران والحمير والبغال والجمال لتساعده فى أعمال الحقل من حرث ورى ونقل المحاصيل إلى الأجران وغيرها من الأعمال قد ساعده بطريق آخر فى الحفاظ على خصوبة أراضيه فلقد كانت فضلات هذه الحيوانات هى الوسيلة الوحيدة المعروفة آنذاك لتسميد و تخصيب الأراضى الزراعية[2].

(1) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ8، ط.القاهرة1931م، ص256، على السيد على، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ط.القاهرة1996م، ص173-ص174 ،

Rey, Les Colonies Franques de Syrie aux XII et XIII siecles, Paris 1883, p.240.

(2) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى فى بلاد الشام، ط. القاهرة 1999م، ص201،

Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973, p. 379.

وعلى هذا النحو نجد أن الفلاحين قد عمدوا إلى إعطاء أراضيهم الوقت الكافى لإراحتها واستعادة ما فقدته من عناصر خلال فترة زراعتها عن طريق تسميدها باستمرار بالسماد الحيوانى، وبذلك حافظوا لأراضيهم على خصوبتها مما ضمن لمحاصيلهم الجودة والتميز التى اشتهرت به طرابلس من قبل مقدم الصليبيين وحتى أثناء وجودهم فيها بها لدرجة أنها فى كثير من الأحيان كانت تشبه بدمشق درة بلاد الشام[1].

أما لو انتقلنا لعرض المحاصيل الزراعية التى كانت تزرع فى إمارة طرابلس فسنجد أن الحبوب كانت أكثر المحاصيل التى اهتم صليبيو الإمارة بتوافرها وزراعتها بشكل دائم، نظرًا لأن هذه المحاصيل كانت تعد الغذاء الأساسى لسكان الإمارة ، ومن ثم كثرت زراعة الحبوب فى الإمارة كالدخن والأرز والعدس والفول والسمسم والحبة السوداء والكسبرة وغيرها، إلا أن محاصيل القمح والشعير كانت الأوسع انتشارًا فى زراعتها فى أراضى الإمارة خاصة فى مناطق قلاع الدعوة التى يقطنها الإسماعيلية النزارية،وسهل البقيعة وعرقة وأنطرطوس وطرابلس[2] وعلى الرغم من ذلك فلم تكن الحبوب وبخاصة القمح تكفى حاجة مواطنى الإمارة فى أغلب الأحيان.

كما عُرفت إمارة طرابلس بزراعة قصب السكر خاصة فى الأراضى المحيطة بمدن عرقة وأنطرطوس وحلبا والمرقب وطرابلس[3]، ومن المعروف أن قصب السكر من المحاصيل التى تستلزم زراعته غزارة فى المياه، وتبدأ دورته الزراعية فى فصل

---

(1) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ2، ص104.

(2)ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص210– ص211، ص251، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص297– ص298، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص151،

Jacques de Vitry, p.11 .

(3) ناصر خسرو، سفر نامة، ص13، الإدريسى، نزهة المشتاق، جـ1، ص373، شيخ الربوة الدمشقى، نخبة الدهر، ص207، ابن شداد، المصدر السابق، ص104.

الربيع حيث يقطع القصب إلى عقل صغيرة تزرع فى أرض رطبة، ويستمر المحصول فى النمو لما يقرب من عام إلى أن يكتمل نموه فى شهر فبراير من العام التالى حيث تبدأ عملية حصاده، ومن اللافت للنظر أن الصليبيين وجهوا اهتمامًا بالغًا بهذا المحصول لدرجة أنهم أسقطوا عنه الكثير من الضرائب تشجيعًا لفلاحيهم على زراعته[1].

كما وجدت فى إمارة طرابلس زراعة أشجار الزيتون على نطاق واسع عبر سهولها الساحلية فى عرقة وأنطرطوس وعكار وصافيتا بالإضافة إلى الأراضى المحيطة بطرابلس وجبال كسروان وجبة بشرى وجبيل[2]، وزراعة أشجار الزيتون شأنها شأن زراعة باقى الأشجار، لا تحتاج إلى بذل جهد كبير بقدر ما تحتاج إلى عناية الفلاح بها من حرث الأرض المحيطة بها من وقت لآخر، وفى تقليم فروعها فى فترات تتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة أعوام، ويُعد شهر نوفمبر موسم قطف الزيتون، حيث يقوم الفلاحون بضرب أغصان الأشجار لتتساقط حباتها على الأرض، ومن ثم يبدأ الفلاحون فى جمعها فى سلال وأكياس لعصرها فى معاصر الزيتون فيما بعد[3].

واشتهرت الإمارة أيضًا بزراعة الكروم(العنب) أحد المحاصيل الصيفية، ومن الملاحظ أن زراعة هذا المحصول قد شهدت زيادة رقعتها الزراعية على نحو كبير خلال فترة الاحتلال الصليبى للإمارة عن الفترات الإسلامية التى سبقت ولحقت هذه الفترة، حيث انتشرت زراعة الكروم على طول امتداد الإمارة على ساحل البحر

(1) Rey, Les Colonies, p. 248 .

(2) الإدريسى، نزهة المشتاق، جـ1، ص372،

Burchard of Mont Sion, p. 18 .

(3) هنادى السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية، ص215،

Conder, the Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, p. 330 .

المتوسط ابتداء من المرقب شمالا وانتهاء بجبيل جنوبا كما انتشرت زراعته بكثرة فى جبال لبنان وسهل البقيعة[1].

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن الزراعات الثلاث السابقة، وهى زراعات قصب السكر والزيتون والكروم، كانت أكثر الزراعات التى نالت اهتمام صليبىّ الإمارة، نظرًا لما كانت تدره هذه المحاصيل من عائد تجارى ضخم، خاصة بعد أن تدخل هـذه المزروعات مرحلة التصنيع لتصبح سلعا قـابلة للبيع والشراء، لذلك فلا غرابة أن نجد غالبية أراضى إمارة طرابلس تزرع فيها هذه المحاصيل وعلى نطاق واسع[2].

ومن الزراعات الأخرى التى انتشرت فى أنحاء مختلفة من إمارة طرابلس الصليبية زراعة القطـن، إلا أن زراعـته وُجدت بكثافة فى سهل مدينة طرابلس نظرًا لحاجة هذا المحصول لتربة شديـدة الخـصوبة، وهـو ما توافـر بشكل واضح فى ذلك السهل، ولـقد أقـدم الصليبيون على زراعة هذا المحصول بكميات كبيرة لتفى بحاجة الاستهلاك المحلى وتفيض عنه من أجل التصدير إلى الخارج نظرًا لما كان يدره هذا المحصول من عائد مادى كبير[3].

كما شهدت إمارة طرابلس انتشارًا واسعًا لأشجار الفاكهة عبر أراضيها، مثل أشجار التين التى كثرت زراعتها فى سهول المرقب، وعكار، وطرابلس، وجبيل، والبقيعة، وأشجار الموالح كالبرتقال والنارنج والترنج والليمون والرمان التى

(1) الإدريسى، المصدر السابق، جـ1، ص372 – ص373، ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار، ص 132.

(2) مهجة السيد عبد العال محمود، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب المعاصرين للحركة الصليبية(487– 690هـ/ 1095– 1291)، رسالة ماجستير "غير منشورة" كلية الآداب – جامعة الإسكندرية1987م، ص4.

(3) ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص253.

تركزت زراعتها إلى حد ما فى الأراضى المحيطة بمدينة طرابلس[1]، كذلك وجدت بها زراعة أشجار الجوز واللوز والتفاح، خاصة فى مناطق جبال لبنان وجبال ظنيين[2]، ليس هذا فحسب بل وجدت فى الإمارة أصناف أخرى من الفاكهة كأشجار الخوخ والبرقوق والمشمش، إلا أن زراعتها كانت على نطاق ضيق بعض الشيء، كما عرفت إمارة طرابلس زراعة النخيل وأشجار الموز التى أطلق عليها الصليبيون اسم فاكهة الجنة، ومن الجدير بالذكر أنه من خلال وصف الرحالة بورشارد لهذه الفاكهة يتضح بجلاء أن الصليبيين لم تكن لديهم أدنى معرفة بهذه الفاكهة قبل مجيئهم إلى بلاد الشام[3].

كما حرص أهالى إمارة طرابلس على زراعة أشجار التوت فى أراضيهم، خاصة أن هذه الأشجار كانت ضلعا أساسيًّا فى تربية دودة القز التى انتشرت فى أنحاء عديدة من الإمارة، والتى قامت عليها بدورها صناعة الحرير[4]، وكانت تكثر زراعة تلك الأشجار فى بعض قرى عرقة وعكار والمرقب[5].

---

(1) ناصر خسرو، سفر نامة، ص13.

(2) القزوينى، آثار البلاد، ص208، الحميرى، كتاب الروض المعطار، ص508،

Phocas, p.9 .

(3) Burchard of Mont Sion, pp.100 – 101 .

(4) الحرير كما هو معروف مصدره دودة القز (أو دودة الحرير)، وقد كانت أول معرفة الإنسان بعملية نسج خيوطه من الشرنقة فى شمال الصين وبالتحديد فيما يعرف بتركستان الصينية، ونظرا لما عرف عن الحرير من نعومة ملمسه ومتانته بات محل إعجاب الملوك والأثرياء رجالا و نساءً لدرجة أنه مع مرور الوقت باتت تجارته خلال فترة العصور الوسطى واحدة من أروج التجارات على الساحة الدولية، بل إنها فى بعض الأحيان لم تقل شأنا عن تجارة التوابل حيث بات يخصص لتجارتها أسواق بعينها، بل طريق بعينه عُرف بطريق الحرير الذى يبدأ من الصين شرقا ليمر بها يعرف بمنغوليا، ثم حوض نهر تاريم الصحراوى وفجاج وممرات أفغانستان فبلاد فارس ليصل إلى بلاد الرافدين ومنها إلى بلاد الشام فالساحل، لمزيد من التفاصيل انظر:
على أبو عساف، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة (12)، العددان(39)،(40)، كانون الأول1991م، ص72– ص82، محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة1995م، ص321– ص322، حاشية (100)، أحمد عبد الله، التجارة فى الساحل، ص107– ص108.

(5) سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص 159.

أما الشجيرات العطرية كالريحان والنرجس والزنبق والقرنفل والياسمين والسيسبان والبنفسج، بالإضافة إلى الورود بأنواعها وألوانها المختلفة، فلم تخلُ الإمارة منها هى الأخرى وبخاصة مدينتى جبيل وطرابلس[1].

كذلك كان لزراعة الخضراوات، كالقلقاس والبازلاء والقرع والخيار والثوم والبصل وغيرها من الخضراوات العديدة والمتنوعة، نصيب فى إنتاج الإمارة الزراعى، لدرجة أنه كان مخصص لها أسواق لذاتها فى بعض مدنها كمدينة طرابلس وكذلك فى حصن الأكراد[2].

كما وجدت مساحات كبيرة من الغابات داخل نطاق الإمارة فى جبال النصيرية وجبال لبنان نبتت فيها أنواع عديدة من الأشجار دون أن يتدخل الإنسان فى زراعتها، كأشجار الأرز والصنوبر والبلوط والسنديان والعرعر والخروب والدرادار والسرو والصفصاف والشربين والجميز والدلب وغيرها، حتى أن الناظر لهذه الجبال سيجد أن اللون الأخضر هو اللون الغالب عليها[3].

فضلا عن ذلك فقد تعددت مناطق الرعى فى إمارة طرابلس نظرًا لكثرة مراعيها ومروجها الخضراء التى اشتهرت بها، خاصة فى سهلى عكار والبقيعة، لدرجة أن تلك المراعى لفتت انتباه غالبية المؤرخين الصليبيين، خاصة مؤرخى الحملة الصليبية الأولى، وكذلك الرحالة الذين زاروها أو حتى الذين مروا بها، نظرًا لاتساعها ووفرة أعشابها الدائمة الخضرة طوال العام[4].

---

(1) ناصر خسرو، المصدر السابق،ص12– ص13، ابن الشحنة،المصدر السابق،ص253،
Daniel, p.66, Conder, the Latin Kingdom, p.13 .

(2) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص207، Burchard of Mont Sion, p.102.

(3) Phocas, p.9, Ludolph Van Suchems, p.48 .

(4) مجهول، أعمال الفرنجة، ص12،ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار، ص132،
William of Tyre, vol. I, p. 318, Ludolph Van Suchems, p.47.

وهكذا، فعلى الرغم من كون إمارة طرابلس أصغر الإمارات الصليبية مساحة إلا أنها كانت من أوفرها حظًّا فى مزروعاتها وبساتينها ومراعيها وغاباتها، وعلى وجه الخصوص مدينة طرابلس التى استحقت وصف الرحالة بورشارد لها بأنها (الجنة على الأرض)، ورغم أن وصفه مبالغ فيه إلا أنه يعطينا صورة أقرب إلى الواقع لما كانت عليه طرابلس خلال القرن 13م/ 7هـ باعتباره شاهد عيان على هذا القرن[1].

وفى معرض حديثنا عن الزراعة فى إمارة طرابلس، كان علينا أن نعرض صورة دقيقة عن أوضاعها الزراعية خلال ذلك القرن، والحقيقة أن أوضاع إمارة طرابلس بوجه عام، وأوضاعها الزراعية على وجه الخصوص، كانت آخذة فى التردى بشكل تدريجى منذ وقوع معركة حطين وما ترتب على هذه الكارثة من أضرار لحقت بإمارة طرابلس بعد أن تقلصت مساحة أراضيها الزراعية على إثر استرداد المسلمين لمدينة جبيل فى عام1187م/ 583هـ، زد على ذلك أن الهجمات التى كان يشنها صلاح الدين الأيوبى على أراضى الإمارة كانت تهدف إلى استنزاف أكبر قدر ممكن من محاصيلها الزراعية، إلا أن إمارة طرابلس استطاعت أن تتفادى تلك الصعاب، وتمكنت من استعادة بعض أراضيها، ومنها مدينة جبيل، إلى تبعيتها من جديد بعد مرور عشرة أعوام من استرداد المسلمين لها[2].

ومع بدايات القرن13م/ 7هـ، وبالتحديد بين عامى 1201- 1202م/ 597-598 هـ تعرضت الإمارة لسلسلة من الكوارث الطبيعية التى بدأت بزلزال ضرب إمارة طرابلس فى عام1201م/ 597هـ ثم تبعه زلزال آخر فى العام التالى، ولقد كان لكل منهما تأثير فادح ، فلقد أوديا بحياة الكثير من سكانها، ومما زاد من سوء الموقف انتشار

(1) William of Tyre, vol. I, p. 318, p.16 .

(2) أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ2، ص288، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ3، ص26، النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ 28، ص442 – ص443.

مرض الطاعون عقب زلزال عام 1202م/ 598هـ بين من نجا من سكان الإمارة، مما ترتب عليه هلاك ما يقرب من ثلث سكانها. وبالتأكيد كان للفلاحين الذين كانوا متولين أمر توفير الإنتاج الغذائى للإمارة النصيب الأكبر من هذه الكوارث باعتبارهم يمثلون السواد الأعظم من سكانها، زد على ذلك أن هناك وباءً أصاب محاصيل الإمارة الزراعية وانتشر فيها على نطاق واسع، مما أسفر عن تدمير قدر هائل من المحاصيل الغذائية، وخاصة الحبوب التى كانت تمثل الغذاء الأساسى لسكان الإمارة، ولنا أن نتصور الحالة الزراعية التى كانت عليها إمارة طرابلس آنذاك ما بين نقص حاد فى القوى البشرية ووباء يدمر غالبية المحاصيل الزراعية[1].

كذلك لا نغفل ناحية بالغة التأثير على اضطراب الحالة الزراعية فى الإمارة، ألا وهى اشتعال الحروب الأهلية فيها بين الحين والآخر، وكانت أولى هذه الحروب تلك التى قامت بين بوهمند الرابع وبين تابعه رنوار حاكم نيفين من جراء عصيان الأخير لسيده فى عام1204م/ 601هـ، ورغم أن هذا الصراع لم يستمر لأكثر من عام واحد إلا أنه كبَّد الإمارة، وبخاصة مدن طرابلس ونيفين التى كانت مسرحًا لهذا الصراع خسائر بالغة أضرت بإنتاجه الزراعى من جراء العمليات العسكرية التى كانت تجرى فيها، كما أن العلاقات بين حكام طرابلس وحكام مدينة جبيل أخذت تسوء هى الأخرى بدءًا من عهد بوهمند الخامس ولفترة استمرت طوال حكم خلفائه، إلى أن تفاقمت الأوضاع إلى حد قيام الحروب الأهلية المتوالية فيما بينهم، والتى انتهت فى عام 1289م/ 688هـ بتحريض برثلميو أمبرياكو حاكم جبيل للمنصور قلاوون بمهاجمة طرابلس[2]، ودون الإفاضة فى مدى ما ألحقته تلك

(1) Geoffrey of Donjon, in Mayer, pp. 306 308; Philip de Plessis, in Mayer, pp. 308 - 310,

محمد مؤنس عوض، الزلازل فى بلاد الشام، ص117- ص 119.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ 13، ص313، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ8، ص321، سعدون عباس نصر الدين، رحيل الصليبيين عن الشرق فى العصور الوسطى، ط . بيروت 1995م، ص128– ص 129.

الحروب من تدمير للثروة الزراعية التى امتلكتها إمارة طرابلس، يكفينا أن نعرف أن تلك الحروب هى التى أسفرت فى النهاية عن سقوط إمارة طرابلس بأكملها فى أيدى دولة المماليك.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، كانت أراضى إمارة طرابلس الزراعية تتعرض كذلك من وقت لآخر لهجمات المسلمين، التى يمكننا تقسيمها على النحو التالى:

القسم الأول منها: هى الهجمات التى شنها المسلمون على الإمارة خلال فترة ما بعد صلاح الدين والفترة الأولى من حكم المماليك فى مصر والشام، وكانت هجمات المسلمين خلالها هجمات متفرقة ضعيفة إلى حد كبير، إلى أن تولى الظاهر بيبرس راية الجهاد ضد الصليبيين فيما بعد، حيث أخذت هجمات المسلمين منحى آخر.على أية حال لا يمكننا أن نعتبر أن تلك الهجمات كانت لترتقى لتتخذ شكل الهجوم المنظم على الإمارة، وإنما كانت مجرد غارات تأديبية كرد فعل لهجوم صليبييها المتكرر على أراضى المسلمين، ومن تلك الهجمات على سبيل المثال: الحملة التى شنها الملك العادل فى عام1206م/ 603هـ على ضواحى وقرى مدينة طرابلس.

أما القسم الثانى: فهى الحملات التى شنتها دولة المماليك على الإمارة خلال فترتى حكم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، وهى حملات منظمة استهدفت فى المقام الأول استنزاف موارد الإمارة وتدميرها اقتصاديا قبل تدميرها عسكريا وسياسيا، وحرمانها بشكل خاص من ثرواتها الزراعية إما بقطع أشجارها أو بالاستيلاء على محاصيلها أو حتى بحرقها إذا لزم الأمر كنوع من الحرب الاقتصادية، ثم باتت هجماتهم ترمى لتقليص حدود الإمارة[1] قدر الإمكان، إلى أن أسقطوها عام1289م/ 688هـ، فى عهد المنصور قلاوون، ولقد نتج عن هذا

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص251، 305، 365، المقريزى، السلوك، جـ2، ص49، اليونينى البعلبكى، ذيل مرآة الزمان، جـ2، ص382.

التحرك من قبل المسلمين نظام عُرف بنظام المناصفات[1]، حيث كانت بعض المدن والقلاع الصليبية التى تخشى بأس المماليك توافق على أن تقاسمها دولة المماليك ممتلكاتهم كما حدث لمدينة أنطرطوس وقلعة المرقب وحتى إمارة طرابلس نفسها[2]، وكان من شروط هذه الاتفاقيات مناصفة المسلمين للصليبيين فى محاصيلهم، ومن الملاحظ أن غالبية هذه الاتفاقيات عقدت فى عهد الظاهر بيبرس فى حين كان عهد المنصور قلاوون بالنسبة لإمارة طرابلس عهد سقوط واسترداد أراضيها.

وجدير بالذكر، أنه كلما استرد المسلمون جزءًا من إمارة طرابلس كحصن الأكراد أو المرقب، كان سكانها وأفراد حامياتها يتجهون للإقامة فى مدينة طرابلس[3]، ولا شك فى أنه مع تزايد أعداد الوافدين إليها كانت أحوالها الزراعية تزداد تأزمًا بدورها، نظرًا لمحدودية مساحة أراضيها الزراعية بل تقلصها، مقابل هذه الزيادة السكانية المستمرة وما ترتب عليها من زيادة احتياجاتها الغذائية .

وما دُمنا بصدد الحديث عن النشاط الزراعى فى الإمارة فلزامًا علينا أن نلقى الضوء على النشاط الرعوى فيها باعتباره أكثر الأنشطة الاقتصادية ارتباطا

(1) عن نظام بلاد المناصفات انظر: على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص41- ص55، " أضواء جديدة على العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية (بلاد المناصفات)"، الدارة، العدد(1)، السنة(18) شوال- ذو القعدة- ذو الحجة1414هـ ص167 - ص184.

(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص210- ص211، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ14، ص32- ص33، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، جـ3، ط. القاهرة 1973م، ص129،

Stevenson, The Crusaders in the East, p.340, Vermeulen (U.), " Le Traite d'Armistice entre le Sultan Baybars ET les Hospitaliers de Hisn Al-Akrad et Al-Marqab (4 Ramadan 665 A.H. – 29 May 1297" , in O.L.P., T.IXX, Ann'ee 1988, p.193 .

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ2، ص117، ص119، ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص86، بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص132ـ ص133، ص271، مختار الأخبار، ص45، ص84.

بالزراعة، فكما أوضحنا من قبل كان مزارعو الإمارة يقبلون على تربية الحيوانات، كالأبقار والإبل والخيول والبغال والحمير والأغنام والماعز، بالإضافة إلى بعض أنواع من الطيور المنزلية، كالإوز والبط والدجاج والحمام وغيرها، إلا أنه على الرغم من ذلك لم تكن تلك الحيوانات والطيور تشكل الثروة الحقيقية للإمارة، فقد كان البدو، وبخاصة القبائل التركمانية وبعض أهالى الإمارة، هم من تكفلوا برعاية وتوفير هذه الثروة، خاصة أن الإمارة تعددت فيها مناطق الرعى، كمناطق قلاع الدعوة وسهل طرابلس والمراعى المتوفرة فى سهلى عرقة وعكار التى كانت تربى فيها أعداد كبيرة من القطعان الحيوانية[1].

وبشكل عام يمكننا القول إن طرابلس كانت تملك آلاف الرءوس من الخيول والجمال والبقر والجاموس والأغنام، ويكفى أن أول شيء لفت انتباه الصليبيين فى حملتهم الصليبية الأولى فى منطقة طرابلس كان الأعداد الغفيرة للحيوانات التى كانت ترعى فيها آنذاك، ففى رواية للمؤرخ المجهول صاحب كتاب (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس) يذكر أن الصليبيين صادفوا فى سهل عرقة بعض الثيران والماشية والحمير والجمال، فكان عدد ما استولوا عليه منها ثلاثة آلاف رأس[2].

ومن المهم أن نشير إلى أن الصليبيين فى إمارة طرابلس ظلوا مراعين لهذه الثروة، ويعملون على إنمائها وزيادتها طوال فترة وجودهم فى الإمارة، ورغم ذلك كانت هذه القطعان تصاب من وقت لآخر ببعض الأوبئة والآفات التى تودى بحياة أعداد كبيرة منها، كتلك الآفة التى أصابت مواشى الإمارة فى عام1202م/ 598هـ، والتى كبدتها خسائر فادحة أثرت بالسلب فى ثروة الإمارة الحيوانية لمدى طويل، إلا

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص365، ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص253.
(2) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص112.

أن الإمارة استطاعت مع مرور الوقت أن تستعيد قدرتها الإنتاجية من الثروة الحيوانية، لدرجة أن الرحالة بورشارد شاهد بعينيه قطيعًا من الجمال فى سهل عكار بلغ عدة آلاف فى أحلك فترات تاريخها وهى الفترة التى سبقت سقوط طرابلس بنحو عشرة أعوام[1].

وبخلاف هذه الحيوانات المستأنسة، كان يوجد داخل نطاق الإمارة بعض الحيوانات البرية المتوحشة التى كانت تعيش فى غاباتها مثل الخنازير البرية والبقر الوحشى والثعالب والنمور والأسود وغيرها[2]، مما عكس تنوع الخليط الحيوانى الساكن لها.

كان هذا هو وضع النشاط الرعوى فى الإمارة، أما إذا انتقلنا إلى حرفة صيد الأسماك، فبداية علينا أن نستعرض أهم مصائد الأسماك التى توفرت فى الإمارة، فبخلاف المصائد البحرية والتى تمثلت فى النطاق الساحلى للإمارة الممتد على البحر المتوسط، كانت هناك مصائد أخرى عذبة شملت أنهار الإمارة التى سبق أن عرضناها من قبل، بالإضافة إلى بحيرة اليمونة وهى البحيرة الوحيدة التى وجدت فى الإمارة، وتقع إلى الشرق من جبل المنيطرة عند سفح جبل المكمل ويبلغ طولها ما يقدر بـ 2 كم وعرضها 1كم[3].

ومن الجدير بالذكر أن أهمية صيد الأسماك بالنسبة لإمارة طرابلس الصليبية لم يتمثل فى كونها جزءًا رئيسيًّا من غذاء سكانها فحسب، خاصة وقت الأزمات الاقتصادية التى حلت بطرابلس، كتلك التى أصابتها فى عام 1202م/ 598هـ، إثر تفشى الآفات والأوبئة فى محاصيلها الزراعية ومواشيها مما أدى لنقص مخزونها

(1) Burchard of Mont Sion, p. 18 .

(2) Ibid, p.102,

حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص209.

(3) هنرى لامنس، تسريح الأبصار، ص63.

الزراعى والحيوانى بشكل فادح، هذا فضلا عما ألحقته هجمات المسلمين على أراضى الإمارة من وقت لآخر من تأثير سلبى على إنتاجها الزراعى وحيث كان للأسماك دور فعال فى تعويض ضعف الإنتاج الزراعى فى الإمارة أمام تزايد كثافة السكان فيها، خاصة فى العقدين الأخيرين من استرداد المسلمين لها، نتيجة توافد أعداد كبيرة من سكان قلاع الإمارة إلى مدينة طرابلس بعد سقوط تلك القلاع فى أيدى المسلمين.

زد على ذلك أن حرفة صيد الأسماك وفرت لقطاع كبير من سكان الإمارة فرصة للعمل بهذه الحرفة، والمتاجرة بما رزقوا به من صيد، فلقد كان إنتاج الإمارة من الأسماك متعدد الأنواع، فمنها على سبيل المثال أسماك: المرجان والسلطان إبراهيم وموسى والأنشوجة والبورى والترسة والسردين والتونة وثعبان البحر وأسماك القرش وغيرها الكثير[1]، ولذلك كانت تخصص لهذه الأسماك فى كثير من الأحيان أسواق بذاتها يتداول فيها بيع وشراء الأسماك فى مدن الإمارة[2].

وليت المجتمع قدر للصيادين صنيعهم هذا فى توفير الأسماك لهم[3] دون عناء، بل على العكس، إذ نجد أن الناس ينظرون إليهم نظرة متدنية لأن صيد الأسماك فى نظرهم - على حد وصف الدمشقى - من الصنائع (المضرة بالأدمغة والأجسام) [4]، ولا شك أن فى هذه النظرة جورًا كبيرًا على صائدى الأسماك، إلا أنها مع ذلك تعكس لنا حال الصيادين، ليس فى إمارة طرابلس الصليبية فحسب، بل فى بلاد الشام بأسرها.

---

(1) محمد مؤنس عوض، "الأسماك فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية (بحوث ودراسات)، ط . القاهرة 2005م، ص112- ص113.

(2) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص207، حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص147.

(3) عن صيد الأسماك والمخاطر التى قد يتعرض لها الصيادون انظر:
محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص120.

(4) الدمشقى، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تحقيق محمود الأرناءوط، ط. بيروت 1999م، ص57.

ومـن الملاحظ، أن ما انطبق على الزراعة فى إمارة طرابلس انطبق كذلك على صيد الأسماك، فمع الزحف الإسلامى المملوكى على الدويلات الصليبية، ومع تقلص مساحة أراضيها، قـلَّت مساحة الأرض الـزراعية بهـا وكذلك المصائد السمكية، زد على ذلك أنه حتى المناطق التى بقيت لصليبيِّ إمارة طرابلس أخذت سيادتهم عليها تتناقص إثر دخول أغلبها ضمن بلاد المناصفات مع المسلمين كالمرقب وطرابلس وأنطرطوس، ومما لا شك فيه أن كل ما سبق كان له بالغ الأثر فى نقص الإنتاج السمكى للإمارة، فلقد كان من ضمن المناصفات المتفق عليها مناطق صيد الأسماك. وبمضى الوقت ازداد الأمر سوءًا، نتيجة سقوط غالبية المناطق السـاحليـة للإمارة فى أيـدى المسلمين، إذ نجد أن مناطق شمال الإمارة، كاللاذقــيـة والمرقب وأنطرطوس وصافيتا وغيرها سقطت بأكملها فى أيدى المسلمين ولم يبقَ من الإمارة سوى المنطـقة الممتدة من سهـل عرقة وعكار شمالًا حتى جبـيل جنوبا، وهكذا فإن ما يقرُب من نصف الأراضى الساحلية للإمارة قد فقدتها، إلا أن الأسماك برغم ذلك ظلت البديل الفعلى والملاذ الآمن الذى لجأ إليه أهالى إمارة طرابلس وقت أزماتهم الاقتصادية، لتعويض النقص الذى أصاب إنتاجهم الزراعى والحيوانى أمام التزايد السكانى المتواصل[1]، على اعتبار أن الأسماك ثروة طبيعية يصعب النيل منها، وظل الحال على هذا المنوال إلى أن سقطت الإمارة فى يد قلاوون.

أما عن الصناعات فى إمارة طرابلس الصليبية، فبداية لا بد لنا من أن نعرف أن الصناعة فى عصر الحروب الصليبية لم تكن صناعة متطورة إلى حد كبير، رغم أن العالم الإسلامى آنذاك كان من أكثر مناطق العالم التى شهدت تطـورًا تقـنيًا بمقـاييس العـصور الوسطى بطبيعة الحال فى صناعاته، ولعـل فى استخدام العرب

(1) محمد مؤنس عوض، الأسماك فى بلاد الشام، ص110.

لمواردهم المائية الجارية مصدرًا للطاقة اللازمة لتصنيع بعض السلع كصناعة السكر على سبيل المثال، خير دليل على هذا التطور[1].

ويلاحظ أن الصناعات كانت تمتاز بجودتها ودقتها خاصة فى إمارة طرابلس الصليبية التى اشتهرت بصناعات عديدة، لكن قبل أن نستعرض أهم هذه الصناعات علينا أولا أن نوضح أهم المواد الخام اللازمة لكثير منها والتى توفرت بالإمارة، فبخلاف المنتجات الزراعية المختلفة، كقصب السكر والكروم والقطن والحبوب والشجيرات العطرية والغابات بأشجارها العديدة التى استخدمت أخشابها فى الصناعات الخشبية وغيرها، وجدت أيضا منتجات حيوانية كالجلود والصوف والوبر والحرير الذى كانت تنتجه دودة القز والتى كانت تربى فى إمارة طرابلس على نطاق واسع، بالإضافة إلى اللحوم والألبان بمنتجاتها العديدة، زد على ذلك أنه توفرت بالإمارة أيضا خامات معدنية كثيرة، كالحديد والنحاس الذى جُلب من مناطق حلبا وعرقة وكذلك الرخام[2].

أما فيما يتعلق بالصناعات التى وجدت فى إمارة طرابلس فقد كان من أشهرها صناعة السكر، نظرًا لكثرة مزارع قصب السكر فى أراضيها المحيطة بمدن طرابلس وأنطرطوس وعرقة وحلبا والمرقب[3]، كما أسلفت الإشارة من قبل، وعلى هذا فقد كان من الطبيعى أن يكون إنتاجها من صناعة السكر كبيرًا هو الآخر، ومن اللافت

---

(1) Theoderich, Description of the Holy land(1127 A.D), Trans by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol.V, London 1896, p.64,

أحمد يوسف الحسن" التقانة فى فلسطين فى القرنين الثانى عشر و الثالث عشر للميلاد "، ضمن كتاب الصراع الإسلامى – الفرنجى على فلسطين فى القرون الوسطى، ط. بيروت1994م، ص531 – ص532.

(2) الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ط. القاهرة2004م، ص130، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص251، ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص252،

Rey, Les Colonies, p. 140.

(3) النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص283، ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص252.

للانتباه أن الصليبيين وجهوا اهتمامًا كبيرًا لهذه الصناعة لما كانت تدره عليهم من عائد مالى ضخم، خاصة أن الطلب عليها كان متزايدًا من دول الغرب الأوروبى على وجه الخصوص، حيث كانت تصدر إلى صقلية وإيطاليا كميات كبيرة من السكر الطرابلسى[1].

وصناعة السكر من الصناعات التى تحتاج لأعداد كبيرة من العمال المهرة نظرًا لتعدد مراحل صناعتها، وكانت أولى هذه المراحل تنظيف عيدان القصب وتقطيعها قطعًا صغيرة، ثم تليها مرحلة العصر، حيث كان يعصر قصب السكر مرتين: المرة الأولى بواسطة حجر يشبه الرحى، يُدار بواسطة طاقة المياه فيما يعرف بدواليب المياه، أو الأبقار لدفع هذا الحجر، والمرة الثانية بواسطة المكابس. ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الطبخ حيث كان يجمع عصير السكر فى غلايات من النحاس ويستمر فى الغليان إلى أن يصل إلى درجة معينة من التركيز حينئذ يوضع فى سلال رفيعة من سعف النخيل ليترك حتى يجف[2]، وإلى هنا تنتهى صناعة السكر إلا أنه كثيرًا ما كان يكرر مرة أو مرتين ليصبح غاية فى البياض والنقاء، وكان السكر، يتخذ أشكالا عديدة، فمنه ما كان فى صورة رقائق، ومنه ما كان فى شكل الحلوى[3]، وكانت تتم هذه الصناعة فى مبنى يسمى بالمعصرة أو دار القصب، التى كانت تقام عادة عند مجارى الأنهار نظرًا لحاجتها لطاقة المياه.

ومن الصناعات التى ذاع صيت إمارة طرابلس الصليبية بها صناعة النبيذ، نظرًا لما وجدته هذه الصناعة من اهتمام فاق الحد من قبل صليبىّ الإمارة بدءًا من مرحلة

---

(1) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص214، سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص161.

(2) النويرى، نهاية الأرب، جـ8، ص267– ص272،

Burchard of Mont Sion, pp.99-100, Thompson, Economic and Social of the Middle age(300-1300), vol.I, London 1959, p.359 .

(3) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص381، فيليب حتّى، لبنان فى التاريخ، ت: أنيس فريحة، ط. بيروت 1959م، ص414، نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية، ص243.

زراعة الكروم وصولًا إلى شكله النهائى فى صورة النبيذ، لذا امتاز النبيذ الطرابلسى بأنه من أجود وأفخر أنواع النبيذ المصنع فى الشرق اللاتينى، خاصة نبيذ نيـفين[1]، ولذلك وردت إشارات عنه فى كتب الرحالة الأوروبيين، كما أشار بعض المؤرخين لشهرة منطقة حصن الأكراد بإنتاجها من النبيذ المسكر الجيد المذاق[2]، ورغم أن إنتاج منطقة طرابلس قبل مجيء الصليبيين من النبيذ كان ضعيفا، إلا أنه ازداد بشكل كبير فى فترة الوجود الصليبى فى الإمارة، نتيجة توسع الصليبيين فى زراعة الكروم، وذلك ليفي بحاجتهم المستمرة منه باعتباره جزءًا من شعائرهم الدينية وحياتهم اليومية، بخلاف المسلمين الذين يحرم عليهم دينهم شرب الخمر، وعلى هذا فلقد كان من الطبيعى أن يقل إنتاج الإمارة من النبيذ بشكل واضح بعد طرد الصليبيين منها واسترداد المسلمين لها ليصبح الوضع كما كان عليه قبل مجيئهم[3].

ومن الجدير بالذكر أن إمارة طرابلس الصليبية كانت تصدر كميات هائلة من النبيذ إلى الغرب الأوروبى بواسطة التجار الإيطاليين، حيث كانت تجنى من جراء هذه التجارة مكاسب طائلة، لذلك نستطيع القول إن صناعة النبيذ كانت تعد أحد الموارد الثابتة للدخل فى الإمارة[4]، وتبقى زاوية يجب الانتباه إليها، ألا وهـى أن جميع العاملين بـهـذه الصناعة كانوا من المسيحيين الشـرقيين والصليبيين، حيث امتنع المسلمون عن العمل بهذه الصناعة تطبيقًا للشريعة الإسلامية.

ولعله من المهـم أن نوضح أن الكروم لم يكن قاصرًا على صناعة النبيذ فحسب، بل استخدم فى تصنيع بعض المنتجات الأخرى كالزبيب والدبس، وهى صناعات

---

(1) Burchard of Mont Sion, p. 16,

هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ت: أحمد محمد رضا، جـ1، ط.القاهرة 1985م، ص189.

(2) أبى سعيد المغربى، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربى، ط. بيروت1970م، ص 153.

(3) Burchard of Mont Sion, p. 101 .

(4) حاتم الطحاوى،الاقتصاد الصليبى، ص215، مهجة السيد، العلاقات الاقتصادية، ص5.

بسيطة، فالزبيب عبارة عن عنب تم تجفيفه فى ظروف معينة لعدة أيام قد تصل لثمانية أيام تقريبًا، أما الدبس فيصنع من عصير العنب الذى يوضع فى قِدْرٍ كبير على النار ويستمر فى الغليان حتى يصير مركزًا فيصبح حينئذ دبسًا[1].

كما وجدت فى إمارة طرابلس صناعة الزيوت بمختلف أنواعها، سواء كانت مستخرجة من الزيتون أو السمسم أو النخيل، وكانت معاصر الزيتون هى الأوسع انتشارًا فى إمارة طرابلس الصليبية نظرًا لوجود مزارع الزيتون على نطاق واسع فيها، وكانت هذه المعاصر تدار بواسطة الحيوانات أو بواسطة المعصرانى وهو المتولى أمر استخراج الزيت[2].

وتأتى أهمية صناعة الزيتون، ليس لاستخدامه كمادة غذائية أو فى أغراض دينية خاصة بالمسيحيين، كمسح أطفالهم بزيت الزيتون ساعة تعميدهم، نحسب، بل لكونه المادة الأساسية لصناعة الصابون، حيث يمزج زيت الزيتون بالجير مع مادة أخرى تسمى القلى وهى البديل عن الصودا الكاوية فى وقتنا الحالى فى أوان كبيرة فوق النار إلى أن يغلى، المزيج ويصير كالعجين، وحينئذ يفرغ على الحصير إلى أن يجف بعض الشىء فيقطع إلى قطع صغيرة ثم يترك حتى يصير جافًا وصلبًا وحينئذ يكون جاهزًا للاستعمال[3].

ولقد ازداد نطاق صناعة الصابون فى إمارة طرابلس الصليبية على نحو واسع خلال القرن 13م/ 7هـ، حيث تعددت المصابن فيها، خاصة فى مدن أنطرطوس وطرابلس، ونظرًا لجودة إنتاجها من هذه الصناعات فلقد كانت تصدر كميات كبيرة منه إلى الدول الإسلامية المجاورة لها بالإضافة إلى الدول الأوروبية[4].

---

(1) المقدسى البيشارى، أحسن التقاسيم، ص180، على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص175.
(2) أحمد يوسف، التقانة فى فلسطين، ص541، موضى عبد الله، بيروت تحت الحكم الصليبى، ص300.
(3) سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص163.
(4) عادل زيتون، الاقتصاد بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط . دمشق1980م Rey، ص17، Les Colonies, p. 222 .

كما عرفت الإمارة صناعة الورق، حيث وجدت بها معامل لإنتاج الورق منذ العهد الأموى، وتعتمد صناعة الورق على نبات يزرع بوفرة فى أراضى طرابلس يُسمى نبات القنب، والورق الطرابلسى يُعد من أجود أنواع الورق فى العالم الإسلامى آنذاك طبقًا لما رواه الرحالة الفارسى ناصر خسرو(1).

أما عن صناعة المنسوجات فى إمارة طرابلس فكان لها شأن آخر، فلقد امتازت الإمارة برقى وجودة منسوجاتها بمختلف أنواعها سواء كانت منسوجات قطنية أو كتانية أو صوفية أو حريرية، ومما يحسب للصليبيين أنهم حافظوا على ازدهار هذه الصناعة، وخاصة أن المواد الخام التى تحتاجها توفرت فى نواح عديدة من إمارة طرابلس، كالقطن والكتان والصوف فضلا عن خيوط الحرير التى تنتجها دودة القز، ولذلك راجت هذه الصناعة خاصة فى مدينة طرابلس التى كانت من أكثر المناطق التى وجدت بها المنسوجات القطنية، نظرًا لتركيز زراعة القطن فى سهلها(2)، وكذلك كان الحال بالنسبة للمنسوجات الكتانية، وإن كان إنتاجها منها أقل بعض الشيء من إنتاجها للمنسوجات القطنية ويرجع ذلك لعدم توافر المواد الخام الأساسية التى تقوم عليها هذه الصناعة بالقدر الكافى فى الإمارة، لذلك كان إنتاجها من المنسوجات الكتانية بسيط بعض الشىء، وكان غالبية إنتاج الإمارة من المنسوجات القطنية والكتانية يستهلك محليًّا نظرًا لتوافقهما مع التقاليد الإسلامية وملاءمتهما لمناخ بلاد الشام(3).

وبخلاف المنسوجات القطنية والكتانية، عرفت إمارة طرابلس صناعة المنسوجات الصوفية وكان إنتاجها منهما كبيرًا لما توفر لديها من موادها الأساسية

(1) سفر نامة، ص13.

(2) سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص158،

Rey, Ibid, p. 215 .

(3) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص 211.

من وبر وصوف، ورغم جودة هذه المنسوجات إلا أنها لم تصدر منها إلا القليل لدول الغرب الأوروبى حيث كانت المنسوجات الصوفية تصنع هناك بوفرة ولم يكونوا فى حاجة لاستيرادها من الشرق اللاتينى على نطاق واسع[1].

إلا أن أشهر منسوجات إمارة طرابلس ما كان يصنع من الحرير، فلقد كانت من أرقى وأفخر المنسوجات التى أنتجتها الإمارة خاصة فى القرن 13م/ 7هـ، نظرًا لحرص الصليبيين على تميز هذه المنسوجات وتطريزها بخيوط الذهب والفضة، كما حرصوا على زيادة إنتاجهم منها لدرجة أن المسلمين وجدوا فى مدينة طرابلس وحدها عقب فتحهم لها أربعة آلاف نول قزازة[2]، مما يعطينا صورة لمدى ضخامة إنتاج الإمارة من المنسوجات الحريرية، وكان غالبية إنتاجها منها يصدر إلى دول الغرب الأوروبى، الذين تكالبوا عليها خاصة المنسوجات الموشاة بخيوط الذهب والفضة، وعلى ذلك فمن المؤكد أن الذى دفع الصليبيين للاهتمام بهذه الصناعة هو العائد المادى الضخم الذى كان يعود عليهم من وراء تلك التجارة[3].

وأخيرًا وجد فى إمارة طرابلس نوع آخر من صناعة المنسوجات عُرف بالمخمل أو العبك، وهو نسيج سميك أشبه بالديباج، ولقد حاز شهرة واسعة فى الشرق والغرب على السواء، لتميز تلك المنسوجات ورقيها، لدرجة أن الملك لويس التاسع أثناء إقامته فى بلاد الشام (1250-1254م/ 648-652هـ)، طلب من تابعه جوانفيل، لدى زيارة الأخير لأنطرطوس، شراء مائة قطعة من العبك مختلفة الألوان لتوزيعها على بعض المؤسسات الدينية الفرنسية، ومن الجدير بالذكر أن مدينة أنطرطوس لم تكن وحدها المشهورة بإنتاجها للمخمل، بل اشتهرت مدينة

(1) مهجة السيد، العلاقات الاقتصادية، ص 143.

(2) بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص285، المقريزى، السلوك، ص211.

(3) حاتم الطحاوى، المرجع السابق، ص 212،

Rey, Les Colonies, pp. 215 -216.

طرابلس هى الأخرى بصناعته، إلا أن أنطرطوس فاقتها شهرة هى وغيرها من مدن الشرق اللاتيني[1].

وإلى جانب صناعة المنسوجات وجدت أيضا صناعة السجاد والبسط، إلا أن ما ورد إلينا عن هذه الصناعة محدود، فكل ما نعلمه هو أن هذه الصناعة تركزت تقريبًا داخل الإمارة فى مدينتى أنطرطوس وصافيتا، وأن إنتاجهما من السجاجيد والأبسطة كانت تزين به بيوت أثرياء الإمارة، بمعنى أنها تكاد تكون اقتصرت على الصليبيين الأثرياء والتجار فقط[2]، كما فرشت أيضا فى أماكن العبادة كالمساجد والكنائس، أما بيوت العامة فكانت تفرش فيها الحصر، ولذلك فمن المؤكد أن صناعة الحصر كانت أكثر انتشارًا من صناعة السجاد نظرًا لاتساع قاعدة الطلب عليها، ومما ساعد على رواج هذه الصناعة توافر موادها الأولية اللازمة، كسيقان نبات الكتان والقنب والحلفا وقصب السكر[3]. ومن الصناعات التى ارتبطت بصناعة المنسوجات: الصباغة، حيث كانت طرابلس واحدة من المصادر المهمة لمواد الصباغة، خاصة الأصباغ الأرجوانية اللون التى كانت تستخرج من نبات يسمى الجرانس، الذى اشتهرت به إمارة طرابلس، لكن الغريب فى الأمر أن هذه الصناعة اقتصر العمل فيها على اليهود بعينهم دون باقى فئات المجتمع التى وجدت فى الإمارة، وجدير بالذكر أن اليهود لم يحتكروا هذه المهنة فحسب، بل احتكروا أيضا حرفة دباغة الجلود وتحضير الفراء[4].

---

(1) الوهرانى، منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، ط.القاهرة 1998م، ص150،

Joinville, p. 314, Nante, Histoire du Lieban, p.73 .

(2) Rey, Les Colonies, pp. 221 .

(3) سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص164.

(4) Benjamin of Tudela, The Travels of Benjamin of Tudela, in Wright, Early Travels in Balestine, London 1848, pp.86 – 88.

حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص212، هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص190.

ومن الصناعات التى اهتم صليبيو الإمارة باستمرارها صناعة الحلى وأدوات الزينة، سواء كانت من الذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة، وبخاصة المشغولات الذهبية منها، كالأساور والخواتم والعقود والخلاخل والحلقان ودبابيس الرأس والعصائب المصنوعة من الذهب الخالص التى حرصت نساء الصليبيين، وبخاصة العرائس منهن، على التزين بها فى ليلة عرسهن[1]، ومما سبق يتضح لنا أن هذه المصنوعات لم يكن متاحًا للجميع شراؤها، نظرًا لأسعارها المبالغ فيها، وعلى ذلك يمكننا القول إنها تكاد تكون اقتصرت على أثرياء المجتمع الصليبى من الطبقة الحاكمة والتجار فقط .

ومن الصناعات التى وجدت فى منطقة طرابلس منذ قديم الزمن واستمرت خلال فترة الوجود الصليبى بها، صناعة الفخار، التى تمثلت أهميتها فى حاجة المجتمع الطرابلسى الملحة لمنتجاتها المختلفة من أكواب وأطباق وأوان وفازات ومحابر وغيرها من الأدوات المستخدمة فى الأغراض اليومية، وكان أكثر ما يميز هذه المنتجات دقتها، لا سيما المطلية منها بالميناء الزاهية الألوان والتى سميت بالقيشانى، ولعل من براعة وإبداع هذه المصنوعات أن نجد كثيرًا من بيوت الغرب الأوروبى قد حرصت على اقتنائها من إمارة طرابلس وغيرها من مستعمراتها فى الشرق اللاتيني[2].

كما شاع فى إمارة طرابلس الاستخدامات الخشبية وصناعاتها بمختلف أنواعها، ويرجع ذلك بطبيعة الحال لما توفر فى إمارة طرابلس من أشجار عديدة الأنواع كالأرز[3] والسرو والصنوبر والبلوط والصفصاف والسنديان وغيرها، التى كانت

(1) ابن جبير، رحلته، ص242،

William of Tyre, vol.II p.289 .

(2) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص213، على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص14.

(3) Anonymous Pilgrims I–VIII, Trans. Aubrey Stewart, in P.P.T.S, vol. VI , London 1894 , p. 35 ,

هنرى لامنس، تسريح الأبصار، ص 150 – 154.

مصدرًا للأخشاب التى استخدمت فى المبانى والأثاث والأدوات المنزلية، وبعض الآلات والأدوات التى استعملت فى أغراض البناء والصناعة والزراعة، بالإضافة لاستخدامها فى الأغراض العسكرية كالسلالم الحربية والأبراج الخشبية والمجانيق وغيرها، وأخيرًا استخدامها فى صناعة المراكب والقوارب التى انتشرت على نحو واسع فى مدينتى طرابلس وجبيل[1].

كما ازدهرت فى إمارة طرابلس صناعة الزجاج باستخداماته العديدة فى صناعة الأكواب والأوانى والأباريق والمحابر والفازات والشمعدانات والنوافذ وغيرها، ورغم أن الطريقة التى اتبعت فى صناعة الزجاج كانت بدائية إلى حد كبير، إلا أن إنتاجها منه كان راقيا ومتميزا خاصة بعد أن يتم تلوينه، لذلك حرص غالبية الصليبيين على تزيين كنائسهم ومنازلهم بالمنتجات الزجاجية المتعددة، خاصة المرصعة منها بالذهب، ولعل هذا هو الذى جعل من المنتجات الزجاجية واحدة من أهم صادرات الإمارة إلى الغرب الأوروبى[2].

كما عرفت الإمارة صناعات أخرى عديدة لكنها لم يكن لها حظ سابقاتها من الشهرة، كصناعة العطور بأنواعها المختلفة، والتى وجدت على نحو واسع فى مدينتى طرابلس وجبيل، لدرجة أنه كان يخصص لها أسواق خاصة بها فى كلتا المدينتين، وكذلك الصناعات المعدنية المختلفة سواء كانت من معدن النحاس، كالأوانى المنزلية والموازين والمكاييل، التى تركزت صناعاتها فى مدن عرقة وحلبا[3]، أو من معدن الحديد الذى صُنع منه العديد من الأدوات والآلات

(1) بيبرس الدواداري، التحفة المملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط . القاهرة 1987م، ص120، .Fetellus, p. 52

(2) حاتم الطحاوى، المرجع السابق، ص 213،

Rey, Les Colonies, p. 224 .

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص251، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص283.

الصناعية والزراعية والمنزلية بالإضافة لاستخدامه بشكل أكبر فى صنع الأسلحة، كالسيوف والنبال والحراب والدروع وغيرها، ونظرًا لتعدد استخدامات الحديد انتشرت حرفة الحدادة فى أرجاء عديدة من الإمارة [1].

كما وجدت فى الإمارة صناعة الرخام بلونه الأبيض والأخضر الموشى، وكانت أهم مراكز صناعته مدينة طرابلس، كما شهدت الإمارة انتشار المصنوعات الجلدية، خاصة الأحذية التى كانت ضرورية للاستهلاك المحلى، كما عرفت الإمارة صناعة الفراء الذى يؤتى به من الثعالب وحيوان ابن آوى، وإن كان هذا على نطاق ضيق [2]، وإن كنت أعتقد أن السبب فى هذا يرجع لعدم توافر تلك الحيوانات بشكل كبير، فينبغى ألا ننسى أنها حيوانات برية اقتصر وجودها تقريبًا على غابات الإمارة، ناهيك عن صعوبة صيد مثل تلك الحيوانات البالغة السرعة فى العدو مما أدى إلى ارتفاع أسعار ذلك الفراء إلى الحد الذى لا يسمح لعامة الرعية بشرائه.

كما انتشرت فى مختلف أنحاء إمارة طرابلس الصليبية مطاحن الغلال، نظرًا لحاجة السكان اليومية لتلك الحبوب فى غذائهم، فكما سبق أن أوضحنا، كانت الحبوب تعد الغذاء الأساسى لسكان الإمارة، ومن الضرورى ملاحظة أن هذه المطاحن اعتمدت فى تشغيلها على قوة المياه فى أغلب الأحيان، وإن وجدت أيضا بعض المطاحن التى تدار بقوة الهواء على عادة الصليبيين فى استخدامها [3].

وعلى هذا النحو يمكننا القول، أن إمارة طرابلس الصليبية كانت بما لها من ثراء

(1) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص 215.

(2) Burchard of Mont Sion, p.102.

سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص 165.

(3) الإدريسى، نزهة المشتاق، جـ 1، ص374.

زراعى، ورعوى، وصناعى، وبموقعها الإستراتيجى فى قلب الوجود الصليبى، وباتصالها بخطوط التجارة العالمية والداخلية فى بلاد الشام، تعد بالفعل واحدة من أهم المراكز التجارية فى بلاد الشام بأسرها، خاصة فى القرن13م/ 7هـ، الذى شهد أفول نجم بعض الدويلات الصليبية والتى كانت ذات شأن تجارى عظيم لعل أهمها إمارة أنطاكية الصليبية[1].

وعلى ضوء ما سبق ذكره نجد أن حركة التجارة فى الإمارة انقسمت لشقين: الشق الأول منها هو التجارة الداخلية، والشق الآخر هو التجارة الخارجية، وفيما يلى استعراض لأهم ملامح هذا النشاط التجاري:

(أ) **التجارة الداخلية:** شهدت إمارة طرابلس الصليبية فى القرن 13م/ 7هـ - وبخاصة عاصمتها مدينة طرابلس - حالة من الرواج التجارى يصعب أن نجد له مثيلا باستثناء بعض مدن الساحل كعكا وصيدا وصور وبيروت، كذلك بعض مدن الظهير الداخلية كدمشق وحلب، فلقد نشطت حركة التجارة الداخلية على نحو كبير فيما بين مدنها بعضها البعض خاصة عبر طريق طرابلس – اللاذقية، الذى يمر ببانياس والعليقة والرصان، وكذلك بينها وبين مدن الشام الداخلية، كدمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب، خاصة أن ميناء طرابلس كان يعد منفذ حمص وحماة على البحر المتوسط وكذلك اللاذقية بالنسبة لحلب[2].

وكانت إمارة طرابلس الصليبية تتبادل معهم أصنافا عدة من السلع، وإن كان الوارد إليها من تلك المناطق أكثر مما صدرته هى إليهم، نظرًا لأن غالبية السلع التى

(1) Bouchier, A Short history, p.266 .

(2) الإدريسى، نزهة المشتاق، جـ 1، ص375، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص352، محمد مؤنس عوض، الأسواق التجارية فى عهد الدولة النورية (541- 569هـ)، الدارة، العدد(3) السنة(16)، سنة1990م، ص 80.

كانوا يصدرونها إليها كانت من سلع الشرق الأقصى التى تصل لمدن الظهير الإسلامية عبر عدة طرق وهي[1]:

- طريق بحرى يأتى من الصين والهند حتى شمال الخليج العربى ثم يمر بغرب آسيا، حيث تنقل السلع بعد ذلك برًا إلى البصرة ثم إلى بغداد فدمشق .
- طريق بحرى آخر من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر: ثم يتجه شمالًا عبر سيناء إلى دمشق.
- طريق ثالث برى يأتى من وسط آسيا والهند، يتقابل مع القوافل الوافدة من الصين ليسيرا معًا حتى بخارى ومنها تتفرع قوافل التجارة إلى فرعين: أحدهما، وهو ما يعنينا، يتجه إلى البحر الأسود وموانيه ثم القسطنطينية وأوروبا وتخرج منه فروع جانبية إلى حلب وساحل البحر المتوسط .

كما كانت تصل إلى مدن الظهير سلع عديدة عبر طريق القاهرة – دمشق، والذى كان يبدأ من القاهرة ثم يمر بمدن: بلبيس، العريش، رفح، غزة، الرملة، اللجون، طبرية وينتهى عند دمشق[2]. وهكذا سنجد أن طرق القوافل هذه كانت ينتهى بها المطاف عند دمشق أو حلب، ولو عرفنا أن كلا المدينتين كانتا متصلتين ببعضهما عبر

(1) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين، ص101- ص103، سعيد عبد الفتاح عاشور، " الحرير وتجارته فى العصور الوسطي"، ضمن أبحاث الندوة العامية بالقاهرة (العلاقات الثقافية بين مصر وبلاد طرق الحرير)، كلية الآثار – جامعة القاهرة 1990م، ص 36 – ص 40، نعيم زكى، طرق التجارة، ص124، ص154،

Goitein, From the Mediterranean to India: Documents on the Trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries, Speculum, vol. 29, No.2, Part 1(Apr., 1954), pp. 181-197 .

(2) لمزيد من التفاصيل عن طريق القاهرة – دمشق، انظر:

على السيد على، طريق القوافل القاهرة – دمشق فى عصر الحرب الصليبية، ندوات طرق التجارة العالمية عبر العالم العربى على مر عصور التاريخ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، حصاد (8)، القاهرة 2000م، ص 455 – ص 483.

طريق تجارى داخلى يمر بمدن حماة وحمص لأدركنا كيف كانت منتجات الشرق الأقصى ومصر تجد لها طريقًا إلى موانئ الساحل الشامى، والتى كان لإمارة طرابلس الصليبية نصيب وافر منها، حيث كانت الإمارة تستورد منهم الأقمشة والملابس الشرقية زاهية الألوان والمرصعة بالجواهر والمشغولات الذهبية، ومواد الصباغة كالنيلة، وبعض مساحيق التجميل، والعطور، والحلى، وبعض الآنية الكنسية المرصعة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والعاج، وغيرها من التحف المعدنية الأخرى التى زين بها الصليبيون بيوتهم وكنائسهم، كما حرص الصليبيون على اقتناء المشغولات الخشبية المطعمة بالصدف والعاج من دول الظهير الإسلامية، والمصنوعات الزجاجية المرصعة هى الأخرى بالذهب والميناء وكذلك الخزف والبورسلين، بالإضافة إلى الشموع التى تفوح منها الروائح العطرة المستخدمة فى كنائس الإمارة، وكذلك بعض أنواع الأسلحة كالرماح والأقواس وإن كان هذا على نطاق ضيق بعض الشىء، وبعض المواد الأولية كالقطن والصوف، كما كان من ضمن السلع التى صدرتها الدويلات الإسلامية فى بلاد الشام إلى الإمارة الرقيق الأسود، خاصة الجوارى التى جلبت من بلاد الحبشة عبر ميناء جدة ومنة إلى بلاد الشام، هذا بخلاف الحلوى الشامية وبعض المنتجات الزراعية، كالبطيخ والكمثرى والأجاص والخوخ والمشمش، الذى عرف فى أوروبا باسم تمر دمشق، والفستق والحمص والباقلاء والحبوب خاصة القمح الذى كان إنتاج الإمارة منه لا يكفى حاجة مواطنيها فى أغلب الأحيان[1].

أما عن سلع الشرق الأقصى فتأتى فى مقدمتها بلا استثناء التوابل بأنواعها العديدة، كالفلفل والبهارات، وحب الهال، وجوزة الطيب، والقرنفل، والزنجبيل،

(1) أبو بكر الزهرى، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، ط القاهرة، د.ت ص70. والقزوينى، آثار البلاد، ص183. وعفاف سيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص171–174،
Rey, Les Colonies, p. 191, pp. 230 – 234. .

والقرفة، وغيرها نظرًا لضرورتها لدى صليبيّ الشام ودول الغرب الأوربى فى الأغراض الطبية آنذاك، وفى صنع النبيذ وحفظ الأطعمة كالأسماك واللحوم، خاصة مع طول فترة الصيام عندهم، بالإضافة لتأثير هذه التوابل فى تحسين مذاق الطعام[1]، وبخلاف التوابل كانت هناك البخور والعطور بأنواعها العديدة، كالمسك، والعنبر، وعود السند، وخشب الصندل، والمصطكى، وألبان الجاوى، بالإضافة إلى المنسوجات الحريرية الباهظة الثمن، وزيت الكافور، وأخشاب الأبنوس والخيزران، والذهب، والفضة، والأحجار الكريمة من اللؤلؤ، والماس، والياقوت، والعقيق، والفيروز، واللازورد، والمرجان، والمرمر، والعاج، وفراء الصين الناعم سواء من فراء النمور، أو الثعالب، أو القطط الوحشية، أو حتى السناجب، وريش النعام والطاووس، وبعض مواد الصباغة كالنيلة، والأرجوان، والقرمز[2].

أما عن صادرات إمارة طرابلس الصليبية إلى البلدان الإسلامية الداخلية، والتى لم يكن للمسلمين غنى عنها، فكان منها الأخشاب التى اشتهرت بها غابات الإمارة، والتى امتازت بجودة أنواعها وعدم تعرضها للتلف خاصة أخشاب الأرز والعرعر، وكذلك الخامات المعدنية من نحاس وحديد، الذى وجد على نطاق كبير فى جبال لبنان، والحناء والعصفر والزيتون والزيت المستخرج منه وكذلك الصابون الطرابلسى، فضلا عن بعض أنواع الفاكهة كالنارنج والترنج، كما كان من صادرات الإمارة أيضًا الرخام بألوانه الرائعة والمزخرفة، والأقمشة خاصة الحريرية منها والورق، هذا بخلاف المنتجات الأوروبية التى كانت تأتى بها الأساطيل التجارية[3].

---

(1) نعيم زكى، طرق التجارة، ص191- ص192.

(2) ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص253،

Ohler.(N.,), The Medieval traveler, Trans by Caroline Hillier, Freiburg 1986, p.61 .

(3) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص177- 178، على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص58 – ص59، نعيم زكى، طرق التجارة، ص195، ص202- ص 204،

ومن اللافت للانتباه فى هذه الصادرات أنها كانت قليلة بالمقارنة بنظيراتها من السلع الإسلامية، وربما يرجع السبب فى هذا لكون غالبية إنتاج الإمارة وجهته فى المقام الأول لتصديره إلى الغرب الأوروبى، بالإضافة إلى أن الدويلات الإسلامية الداخلية كان لديها من الثراء والتفوق الزراعى والصناعى فى إنتاجها ما يكفيها عن واردات الإمارة، لذلك كانت غالبية وارداتها من الإمارة مواد خام كالأخشاب والمعادن والأقمشة الخام وغيرها[1].

(ب) التجارة الخارجية: وأمام هذا الزخم من السلع فى أسواق وموانئ إمارة طرابلس الصليبية، وحرص الإمارة على توجيه صادراتها للغرب الأوروبى، كان من الطبيعى أن تتهافت على موانئ الإمارة أساطيل الغرب الأوروبى، وفى مقدمتها أساطيل الجمهوريات الإيطالية بالطبع[2] مثل: جنوة وبيزا والبندقية، وكان ذلك من خلال قافلتين تجاريتين كبيرتين أولاهما: تشرع فى التحرك بدءا من شهر فبراير وتظل فى الشرق معظم فصل الربيع حتى تعود فى شهر مايو، أما القافلة الثانية فكانت تبدأ فى الرحيل إلى الشرق من شهر أغسطس وتعود إلى أوطانها فى شهر ديسمبر[3]، وكانت تلك القوافل تحمل على متن سفنها، بخلاف الحجاج، أشهر سلع ومنتجات الغرب الأوروبى آنذاك ألا وهى المنسوجات والملابس الصوفية،

Rey, Les Colonies, pp.204- 209 .

(1) ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص253.

(2) من العقود التى وصلتنا عن استئجار السفن التجارية إلى موانئ إمارة طرابلس، انظر:

Byrne, Genoese shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries, Cambridge 1930, pp.85 – 88,

نقلًا عن ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتينى من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، ت: بشير السباعى، ط.القاهرة2003م، ص312– ص314.

(3) هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص191– ص192،

John La Monte & Henery, The World of the middle Ages a reorientation of Medieval History, New York 1949, p.364 .

التى اشتهرت بها شامبايان Champagne والفلاندر ومدن شمال فرنسا وبال Bale وأفيسون Avignon الإيطالية، خاصة الجوخ البندقى والمناديل الحريرية المطرزة، والملابس المصنوعة من الجلد، والعطور ومواد الزينة والتجميل والمساحيق والفراء والمرجان والذهب والفضة والنحاس والقصدير والزئبق وبعض أنواع الأسلحة كالمجانيق، بالإضافة إلى الرقيق سواء كانوا عبيدًا أو جوارى، إلى جانب القمح والزعفران[1].

ومن الجدير بالذكر أن هذه القوافل التجارية كانت فى كثير من الأحيان تمر بموانئ مصر قبل مرورها بموانئ الساحل الشامى، فكانت تحمل على متن سفنها أهم السلع التى عرفت بها مصر آنذاك ثم ترحل عقب ذلك إلى الموانئ الصليبية على الساحل الشامى، حيث كانت تنقل إلى موانئ إمارة طرابلس الصليبية، بخلاف بضائع المدن الصليبية الأخرى، الكثير من منتجات مصر، التى كان من أهمها القمح والزمرد، ومواد الصباغة كالنيلة والقرمز والزعفران بالإضافة إلى الشب، والأسماك المملحة والبلسان الذى كان له بالغ الأهمية بالنسبة للصليبيين والغرب الأوروبي، نظرًا لضرورته فى طقوس التعميد لديهم، كما كان من أشهر السلع المصرية المصدرة للإمارة: الصمغ، والأوانى الفخارية، والحلى، بالإضافة إلى أنواع الأقمشة والمنسوجات العديدة الراقية الصنع، التى لا مجال لدينا لحصرها الآن نظرًا لتنوعها بشكل كبير[2].

أما عن السلع التى صدرتها إمارة طرابلس للغرب الأوروبى عبر هذه القوافل،

(1) آ.أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ت:عبد الهادى عبلة، ط. دمشق 1985م، ص246، على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص57– ص58، موريس لومبار، الإسلام فى مجده الأول، ت: محمد وليد الجلاد، ط . الدار البيضاء 1990م، ص346، هنرى بيرين، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ت:عطية القوصى، ط . القاهرة 1996م، ص 139.

(2) على السيد على، طريق القوافل القاهرة – دمشق، ص479– ص481.

فبخلاف سلع الشرق الأقصى والمدن الإسلامية الداخلية التى سبق أن عرضناها من قبل، كانت هناك السلع الخاصة بالإمـارة ذاتـها، والتى كان فى مقدمتها النبيذ، وبخاصة نبيذ نيفين الذى امتاز بجودة مذاقه وتفوقه على سائر أنواع النبيذ التى أنتجتها المستعمرات الصليبية فى الشرق، ولذلك كانت صادرات طرابلس منه إلى أوروبا كبيرة خاصة إذا ما علمنا أنه على متن إحدى السفن الجنوية بلغت كمية النبيذ الطرابلسى وحده عشرة أطنان من النبيذ، مع ملاحظة أن هذا الأمر كان بعد انتهاء السيادة الصليبية على الإمارة، فما بالنا بالكميات التى كانت تصدرها الإمارة خلال فترة الوجود الصليبى بها[1].

كما كان من أهم صادراتها المنسوجات بأنواعها العديدة، والتى كان من أشهرها المنسوجات الحريرية والمخملية التى استمرت فى تصنيعها وتصديرها حتى آخر لحظة من الوجود الصليبى فى الإمارة، كذلك كانت تصدر الإمارة قدرًا كبيرًا من المواد الأولية الخام، كالحرير والقطن والصوف، كما كانت تصدر زيت الزيتون ومادة القلى أو البلس المستخدمة فى صنع الصابون بالإضافة للصابون الطـرابلسى ذاته، كما صدرت الأخشاب بأنواعـها المختـلفة، والجلود، ومنتجاتها الخزفية والزجاجية التى كانت تحفًا بذاتها، حرص الغرب الأوروبى على اقتنائها، بالإضافة إلى السكر وبعض أنواع الفاكهة، كالتين والرمان والتفاح والموالح كالبرتقال... إلخ[2].

والواقع، أن ازدهار إمارة طرابلس الصليبية لم يكن وليد الغزو الصليبى لها، بل إن الإمارة، وخاصة مدينة طرابلس، اشتهرت بأسواقها وسلعها قبل مقدم الصليبيين إليها، ولعل فى وصف ناصر خسرو لها بأنه (رأى فيها، ما رآه فى بلاد

---

(1) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص 215.

(2) ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص253، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص172– ص176، هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص189– ص191،

La Monte & Henery, The World of the middle Ages, p.364.

العجم من الأطعمة والفواكه، بل أحسن منه مائة مرة) دليلًا على ما كانت عليه الإمارة من ازدهار وثراء خلال الفترة الإسلامية[1].

إلا أنه ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن الدافع الاقتصادى كان الدافع الأساسى الذى أغرى الصليبيين بمهاجمة بلاد الشام وإقامة كياناتهم الصليبية عبر أراضيها، حيث أرض الميعاد التى تفيض لبنًا وعسلًا، على حد قول البابا أوربان الثانى، وعلى ذلك علينا أن ندرك أنه إذا كانت إمارة طرابلس قد اشتهرت بأسواقها ورواج تجارتها إبان الفترة الإسلامية، فإن الحال ظل على ما هو عليه خلال فترة الاحتلال الصليبى لها، وإن ازداد ازدهارًا بما يحقق مصالح الصليبيين العليا فى استغلال موارد المنطقة لصالحهم، فعلى ضوء ما سبق ذكره، وطبقًا لوصف العديد من الرحالة العرب والأجانب الذين زاروا الإمارة، من مدى ازدهار حركة التجارة بها لوجدنا أنه من المنطقى، إذا ما تصورنا الوضع الذى كانت عليه مدن وموانئ الإمارة وعلى وجه الخصوص مدينة طرابلس العاصمة، أن شوارعها وأسواقها خاصة القريبة من الميناء ازدحمت بالمتاجر والفنادق والحوانيت التى اكتظت بدورها بمختلف السلع المحلية والسلع المستوردة من الشرق والغرب، فهى (الوارد والصادر إليها كثير.... مقصود إليها بالأمتعة وضروب الأموال وصنوف التجارات)[2]، لذلك كثرت بالإمارة الأسواق، فكان منها ما هو دائم يُعقد مرة واحدة فى الأسبوع كأسواق الحبوب، اللحوم، السمك، زيت الزيتون، الصابون، الحرير الخام والملابس والمنسوجات، الفاكهة، الخضراوات، السمانيين، ومنها الأسواق التى تباع فيها منتجات الإمارة الأخرى

---

(1) سفر نامة، ص13.

(2) الإدريسى، نزهه المشتاق، جـ1، ص372- ص373، الحميرى،الروض المعطار، ص390، ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص253.

كالخمور والسكر والزجاج بالإضافة إلى السلع الشرقية كالتوابل والأحجار الكريمة وغيرها[1].

كما وُجدت بالإمارة أسواق موسمية كان يعقدها التجار الإيطاليون خلال فترة توافد السفن الأوروبية على سواحل الإمارة إلا أن هذه الأسواق أخذت فى التحول شيئا فشيئا خلال القرن 13م/ 7هـ إلى أسواق دائمة، حيث حرص التجار الإيطاليون، الذين تواجدوا بشكل شبه دائم فى قوموناتهم بالإمارة، على توفير وبيع السلع الواردة إليهم من الغرب الأوروبى ومن الشرق الأقصى والإسلامى طوال العام، ولذلك لم يكن هناك داع لعقد هذه الأسواق الموسمية فى الإمارة[2].

ومن الجدير بالذكر، أن أسواق الإمارة شهدت- كغيرها من الأسواق الصليبية ونظيرتها الإسلامية- أشكالا مختلفة للتجار، فمنهم تاجر التجزئة الذى يتعامل مع غالبية الرعية، فى حين يتعامل هو مع نوع آخر من التجار ألا وهو تاجر الجملة، كما كان هناك التاجر الأكبر المتولى أمر تصدير واستيراد السلع والبضائع من خارج الإمارة[3].

ولقد عمد هؤلاء التجار إلى استخدام عدة موازين ومكاييل فى معاملاتهم التجارية مثل المودى Modius، وهو مقياس رومانى الأصل خصص للحبوب، كذلك استخدموا الصاع والقسط والأوقية والرطل، بالإضافة إلى المقاييس والموازين التى استخدمها التجار الإيطاليون فى أسواقهم كالقنطار والطن والرطل والذراع لقياس القماش، والمثقال لوزن المسك[4].

---

(1) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص147، سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص 166.

(2) عبد الحافظ عبد الخالق يوسف، الأسواق فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام فى الفترة من495/ 687 هـ - 1099/ 1291 م، رسالة ماجستير "غير منشورة"، كلية الآداب- جامعة الزقازيق1989م، ص 6، هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص192.

(3) الدمشقى، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص64- ص70.

(4) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص151- ص152.

كما كان من الطبيعى وجود الصرافين فى المناطق المحيطة بأسواق الإمارة لاستبدال وتغيير النقود للتجار والحجاج المسيحيين، حيث كان الصراف يقدر قيمة العملة المراد استبدالها كمعدن ثم يحولها إلى ما يساويها من عملات الإمارة المحلية، كما كان من أعمال الصرافة تقديم القروض، ليس للتجار أو لعامة الرعية فحسب، بل للأمراء والسلطات الحاكمة ذاتها، كذلك نقل الأموال من إمارة طرابلس والشرق اللاتينى إلى غرب أوروبا والعكس، وكان الصيارفة من الشوام أو اللاتين أو اليهود أو حتى التجار الإيطاليين، إلا أن هيئة الداوية كانت أكثر من مارس أعمال الصرافة فى الإمارة خلال القرن13م/ 7هـ، ولعل فى هذا ما يوضح لنا ما كانت عليه هذه الهيئة من ثراء وقوة نفوذ آنذاك فى الإمارة[1].

ونظرًا لما أصاب بعض العمليات التجارية من وسائل غش وتزوير فى أسواق الإمارة، فلقد أوجب ذلك وجود نظام رقابى صارم على الأسواق لتجنب أعمال الغش هذه، وكان الفيكونت Viscount وهو من يمثل الأمير فى كل مدينة من مدن الإمارة هو المتولى هذا الأمر ويساعده المحتسب Mathessep ورجال الشرطة، وكانت مهمة الفيكونت تتمثل فى الإشراف العام على الأسواق، والموازين والمكاييل المستخدمة فى عمليات البيع والشراء، والإشراف على الحرفيين والصناع، وفض المنازعات وإقرار الأمن فى المدينة بأسرها، وجباية الضرائب وإرسالها إلى بيت مال الإمارة[2].

أما بشأن المنازعات التجارية التى كانت تنشب بين التجار فى الإمارة، فكانت محكمة السوق تتكفل بالفصل فيها، كما تولت هذه المحكمة أمر تسجيل عقود البيع بعد إثبات صحتها، كذلك مراقبة الأسعار وجمع الضرائب من الأسواق

(1) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ت : فليب صابر، ط.القاهرة 1972م، ص171، نعيم زكى، طرق التجارة، ص340،

The World of the Middle Ages, pp.366-367. La Monte &Henery, .

(2) عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص 161،

Runcinan, A History of the Crusades, vol. II, p 168 .

وتسجيلها فى دفاتر خاصة بها. أما القومونات الإيطالية فى الإمارة فقد كانت لها محاكمها الخاصة ، كذلك أسواق الداوية والإسبتارية[1].

وكما سبق أن أوضحنا أن الإمارة حرصت على رواج حركة التجارة فيها وجذب أساطيل الجمهوريات الإيطالية إلى موانيها بمنحهم العديد من الامتيازات التجارية والإعفاءات الجمركية والضريبية، كالمنحة التى أعطيت للجنوية لإعفائهم من الرسوم الجمركية والضرائب فى موانئ إمارة طرابلس[2]، كذلك منحهم فى أبريل1189م/ ربيع أول585هـ، محاكم خاصة بهم فى موانئ جبيل واللاذقية[3]، ونفس الأمر بالنسبة لمدينة طرابلس فى يوليو1205م/ محرم 602هـ، إلا أن هذه المنحة شملت أيضا إعطاءهم شارعا وحماما وكنيسة وحق البيع فى المدينة وذلك مقابل مساعدة السيد هنرى المالطى والجنوية للأمير بوهمند الرابع فى صراعه مع تابعه رينوار حاكم نيفين وإمداده بسفينتين حربيتين وثلاثمائة مقاتل بالإضافة إلى ثلاثة ألاف بيزنت[4]، زد على ذلك أن مدينة جبيل التابعة لإمارة طرابلس كانت تعد بأكملها مستعمرة جنوية تحت حكم أسرة أمبرياتشى .

وبالنسبة للبيازنة فلقد منحوا فى يناير1194م/ ربيع آخر590هـ، ثلث عائد ميناء طرابلس وإعفاء من الضرائب ومحكمة خاصة بهم فى مدينة طرابلس فى مقابل800

(1) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص154،

Smith, The Feudal Nobility, p.87 .

(2) كان برتران بن ريموند(1108-1113م/ 502-507هـ) قد وعد الجنوية بمنحهم ثلث مدينة طرابلس مقابل معاونتهم له فى إسقاطها، إلا أنه سرعان ما تنكر لهم ورفض الوفاء بوعده بعد أن استولى على المدينة، ورغم أن الجنوية امتلكوا جبيل التابعة لإمارة طرابلس وسلموها لأسرة أمبرياتشى نيابة عنهم إلا أنهم ظلوا مطالبين بحقوقهم فى مدينة طرابلس إلى أن منح بوهمند الرابع فى عام1203م/ 600هـ لسفيرى جنوة لامبرتو فوتارى وبلمستو لير كارى لمواطنيهم الجنوية الحق فى مزاولة التجارة والإعفاء التام من الرسوم الجمركية، انظر:

Jacques de Vitry, p.20,

هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص328.

(3) Regesta, No.695, pp.181-182 .

(4) Regesta, No.807, pp.215-216.

بيزنت، ولقد تأكدت هذه المنحة من خلال وثيقتين فيما بعد فى عهد بوهمند الرابع حررت فى 26أغسطس1199م/ 2ذى القعدة 595هـ، وفى عهد بوهـمند الخامس فى مارس1233م/ جمادى الأولى 630هـ[1].

أما بشأن البنادقة فنظرا لتأخر وضعف المشاركة العسكرية البندقية لصليبىّ إمارة طرابلس سواء كان هذا أثناء إسقاطهم للإمارة أو فيما بعد، فلقد كان لهذا أثر واضح على تأخر الامتيازات التى منحـها إياهـم حكام الإمـارة، كما أنها كانت امتيازات قليلة وبسيطة بالمقارنة بما ناله الجنوية والبيازنة، ولعل الامتيازات الوحيدة التى نالها البنادقة فى إمارة طرابلس خلال القرن13م/ 7هـ، هى حقهم فى إقامة محاكم خاصة بهم فى الإمارة فى عام1267م/ 666هـ ومنحهم مستودعًا وحمامًا وفرنًا فى عام 1279 م/ 678هـ[2].

كما حصل الأمالفيون[3]على بعض المنح البسيطة فى الإمارة، كسوق تجارى

(1)Regesta, no.718, p.192; no.758, p.202; no.1041-1042, p.272.

انظر نص المنحة فى القسم الخاص بالملاحق.

(2) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص110، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص141.

(3) أمالفى Amalfi مدينة إيطالية تقع فى سهل كامبانيا Campania ضمن مقاطعة سالرنو Salerno على بعد 17ميلا جنوب غرب مدينة سالرنو على الساحل الشمالى لخليج سالرنوGulf of Salerno، وهى مدينة عرفت بنشاطها التجارى الواضح الذي بدأ بها مع أواسط القرن السادس الميلادى عندما أخذت فى مشاركة المدن الإيطالية التجارية الأخرى، كبيزا وجنوة والبندقية، فى التجارة مع الشرق سواء مع بيزنطة أو مصر أو حتى بلاد الشام وصقلية، إلا أنها مع الربع الأخير من القرن 12م/ 6هـ أخذ دورها كقوة تجارية فى التدهور إلى أن صارت موضعا للمنافسة بين بيزا وجنوة، لمزيد من التفاصيل عن هذه المدينة انظر:

William of Tyre, vol.II, p.242,

أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط، ت: أحمد عيسى، ط. القاهرة1960م، محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص66 حاشية(55)، هايد، تاريخ التجارة، جـ2، ص72،

Ency. Amer, "Amalfi ", vol.I, U.S.A.1970, P.651, Citarello, " The Relations of Amalfi with the Arab world before the crusades", Speculum,vol.42,No.2(Apr.,1967),pp.299-312, Patterns in Medieval Trade The Commerce of Amalfi Before the Crusades, The Journal of Economic History, vol.28, No.4(Dec.,1968), pp.531-555 .

وعدد من المنازل فى مدينة طرابلس، كذلك ثلاثة حوانيت ومقبرة فى مدينة اللاذقية[1]، كما حظى تجار مونبلييه على تخفيض بمقدر الثلث على الرسوم المفروضة على المبيعات والمشتريات والمرور، بالإضافة إلى حى ودار لقنصلهم فى مدينة طرابلس[2].

ومن الملاحظ فى هذه الامتيازات، أنها جاءت متأخرة بعض الشىء عن المنح التى نالتها تلك الجاليات الإيطالية فى المدن الصليبية الأخرى، حيث إن أغلبها تم الحصول عليها خلال العقد الأخير من القرن 6هـ/ 12م والنصف الأول من القرن 7هـ/ 13م،كما أنها كانت أقل مما نالته تلك الجاليات من امتيازات فى باقى المدن الصليبية، وفى رأيى أن هذا الأمر يرجع لعاملين أساسيين:

أولا: موقع إمارة طرابلس الإستراتيجى فى وسط الساحل الشامى والمدن الصليبية على طريق القوافل البحرية، جعلها تضمن توافر القوافل التجارية لموانيها خاصة أن هذه الموانئ لم تكن منفذًا لمنتجات وبضائع الإمارة فحسب، بل ومدن الظهير الإسلامى وبلاد الشرق الأقصى أيضًا، والتى كانت الأساطيل التجارية تتلهف لشراء أكبر قدر ممكن منها .

ثانيًا: المناعة الطبيعية التى حظيت بها الإمارة وقوة دفاعاتها وتحصيناتها، جعلتاها من أكثر الكيانات الصليبية أمنًا وأقلها عرضة للخطر الإسلامى، مما ترتب عليه عدم حاجتها لدعم أساطيل الجمهوريات الإيطالية، وبالتالى لم يكن هناك جدوى من منحهم امتيازات دون عائد حقيقى يعود على الإمارة من وراء ذلك، لكن مع صحوة المارد المسلم من غفوته وتنامى خطره على الوجود الصليبى أجمعه، خاصة عقب معركة حطين وتهيؤ صلاح الدين الأيوبى للانقضاض على

(1) هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص160،

Rey, Les Colonies, p.69 .

(2) Regesta, no.718, p.192 .

إمارة طرابلس، أدركت الأخيرة حاجتها للعون الحقيقى الذى لم تجده بطبيعة الحال إلا من قبل أساطيل الجمهوريات الإيطالية، وفى مقابل تلك المساعدات وكمحاولة من إمارة طرابلس لتـزايد النشاط التجارى بها كانت تلك المنح التجارية والقضائية التى منحتها إياهم[1].

وعلى ذلك فقد كان من الطبيعى أن تشهد إمارة طرابلس مع بداية القرن 13م/ 7 هـ، رواج حركة التجارة بها من جديد بعد إنهاء هجمات المسلمين عليها بوفاة صلاح الدين الأيوبى وانشغال البيت الأيوبى بصراعاته الداخلية، وعلى الرغم من أنها تأثرت بعض الشىء بما حلَّ بالإمارة من أزمات اقتصادية جراء الكوارث الطبيعية التى أصابت سكانها ومحاصيلها الزراعية ومواشيها وعمائرها فى عامي 1201–1202م/ 597– 598هـ، بالإضافة لما كبدته غارات المسلمين ليها، والحروب الأهلية، من خسائر جسيمة لاقتصادها،إلا أنه بإمكاننا الجزم بأن النشاط التجاري، الذى كان يعد أهم نشاط اقتصادى فى الإمارة، سرعان ما استعاد عافيته من خلال حرص المسلمين والصليبيين على بقاء الصلات بين الجانبين[2].

وذلك ما حدث بالفعل طوال النصف الأول من القرن 13م/ 7هـ، لكن مع بداية النصف الثانى من هذا القرن انتابت حركة التجارة العالمية حالة من الخلل والفوضى نتيجة ما ارتبط بالغزو المغولى للبلدان الآسيوية من اضطرابات وتمزقات أصابت طرق التجارة التى تربط الشرق الأقصى ببلاد الشام ومصر. وبطبيعة الحال كان من المؤكد أن يكون لهذه الفوضى أثرها الواضح على ضعف حركة التجارة فى إمارة طرابلس، خاصة مع اكتساح المغول لبلاد الشام وما واكب تلك الأحداث من نشوب حرب عند سواحل بلاد الشام بين البندقية وجنوة وبيزا فى الفترة الواقعة

---

(1) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص142، فايد حماد محمد، العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى، ط. الإسكندرية1980م، ص96.
(2) رحلة ابن جبير، ص229.

بين عامى 1254-1256م / 652 -654هـ، وهى الحرب التى عرفت بحرب القديس ساباس St. Sabas والتى تصاعدت مع مرور الوقت إلى أن باتت حربًا أهلية جذبت إليها كافة الأطراف الصليبية فى بلاد الشام بما فى ذلك إمارة طرابلس الصليبية[1].

وما إن انتهت تلك الحرب التى أنهكت الوجود الصليبى بكافة جوانبه، وبخاصة الجانب التجارى منه، وهو ما يتضح بشكل جلى من خلال الإحصائية التى عرضها ميشيل بالار فى دراسته عن الجمهوريات البحرية الإيطالية فى بلاد الشام، والتى بينت تناقص الاستثمارات الجنوية التجارية فى الشرق اللاتينى بشكل حاد خلال فترة حرب القديس ساباس، فإذا بقبائل التركمان تشن هجومًا مكثفًا على إمارة أنطاكية، والتى وصلت فى بعض هجماتها لنواحى إمارة طرابلس، وبطبيعة الحال كانت نتيجة الفوضى التى سببتها هجماتهم تلك أن التجار المسلمين لم يعدْ أحدهم يأمن على نفسه خلال مروره عبر إقليم أنطاكية إلى طرابلس مما تسبب فى نقص عدد التجار المسلمين الذين كانت تعج بهم موانئ طرابلس، وبالطبع كان لذلك تأثيره السلبى على اقتصاد إمارة طرابلس، فلم تعد السفن الإيطالية تأتى إلى موانئها دون أن يضمن التجار الأوروبيون الرواج لسلعهم، وقبل أن تنهض الإمارة من تلك الكبوة، إذ بدولة المماليك فى مصر والشام توجه ضرباتها الواحدة تلو الأخرى لإمارة طرابلس- وغيرها من الدويلات الصليبية- مما أطاح بشكل شبه نهائى بالنشاط التجارى بالإمارة، على الرغم من أن الإمارة غدت فى عام1287 م/ 686هـ، مستعمرة جنوية، إلا أن هذا الأمر لم يكن له أدنى تأثير على استعادة

---

(1) سعيد عاشور، الحرير وتجارته، ص40، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص148- ص 153، ص178،

Dotson, Fleet operations in the first Genoese - Venetian war 1264 – 1266, in Viator: Medieval and Renaissance studies, V.30, 1999 .

الإمارة لما كانت عليه من قبل من ازدهار ورخاء اقتصادى[1]، وفى27أبريل1289م/ 4ربيع آخر688هـ، وجهت دولة المماليك ضربتها الأخيرة للإمارة والتى أنهت من خلالها على ما عرف فى التاريخ بإمارة طرابلس الصليبية.

وعلى هذا فقد كان من الطبيعى، عشية زوال الدويلات الصليبية فى بلاد الشام، أن تصاب حركة التجارة بينها وبين الغرب الأوروبى بالشلل والتوقف فترة ليست بالقصيرة، خاصة بعد أن دمر المماليك غالبية موانئ الساحل الشامى بما فى ذلك موانئ إمارة طرابلس، تحسبًا لمحاولات الصليبيين استردادها ثانية، وهو ما حدث بالفعل، إلا أنه مع مرور الوقت وبعد أن أخذت مدن الساحل فى العمران من جديد عادت حركة التجارة إليها.

وقبل أن ننهى دراستنا لاقتصاد إمارة طرابلس فى القرن13م/ 7هـ، علينا أن نعى أنه على الرغم من تفوق إمارة طرابلس اقتصاديًّا وما كانت عليه من ازدهار ورخاء فى بداية ذلك القرن، إلا أنه بتأثير من الأحداث السياسية والعسكرية التى مرت بها الإمارة، وخاصة خلال العقدين الأخيرين من وجودها فى بلاد الشام بعد أن تقلصت مساحة أراضيها الزراعية ومراعيها بشكل ملحوظ من جراء العمليات العسكرية المملوكية التى استهدفتها، ومع السياسة التهجيرية التى اتبعها كل من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون مع سكان المدن والقلاع التابعة للإمارة التى استولوا عليها، كان من الطبيعى ألا يكفى إنتاجها الزراعى والحيوانى عدد سكانها المتزايد، ومن ثَمَّ حدوث أزمة غذائية بين سكانها والتى أثرت بدورها على إنتاج الإمارة الصناعى فتناقص هو الآخر رغم أن هناك عددًا من الصناعات ظلت مزدهرة بها حتى اللحظة الأخيرة من عمر الإمارة، كصناعة النبيذ والحرير، ومع ضعف إنتاج الإمارة الزراعى والصناعى والحروب الأهلية التى أنهكت الإمارة،

(1) مشيل بالار، الجمهوريات البحرية الإيطالية والتجارية فى الشام – فلسطين، ص192، هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص359- ص360.

وما حلَّ بدورها كوسيط تجارى من جراء ما أصاب خطوط التجارة العالمية من اضطرابات على إثر تحرك الجيوش المغولية من أواسط آسيا واحتلالها لغالبية بلاد الشام، وما واكب ذلك من قيام حروب بين المدن الإيطالية التجارية على سواحل الشرق اللاتينى، وكذلك ما ألحقته هجمات التركمان على إمارتى أنطاكية وطرابلس من خسائر مادية، وضعف حركة التجار المسلمين لإمارة طرابلس كان من المؤكد أن يؤثر هذا كله بالسلب على حركة التجارة فى الإمارة، ووفقا لذلك كان من البديهى أن يتقهقر هذا الاقتصاد وينحدر إلى ما وصل إليه فى نهاية هذا القرن من ضعف ووهن وعدم القدرة على مسايرة الأحداث العصيبة التى مرت بها الإمارة والوفاء بمتطلبات مواطنيها الغذائية، الأمر الذى جعل من اقتصاد الإمارة أحد العوامل التى ساهمت بدورها فى إسقاطها فى نهاية المطاف، وكل ذلك يعنى أن ضرب اقتصاد إمارة طرابلس كان بمثابة المقدمة الحقيقية لانهيار كيانها السياسى والعسكرى.

كان ذلك عرض لأهم الأوضاع الاقتصادية لإمارة طرابلس الصليبية خلال القرن13م/ 7هـ، أما الفصل التالى فيتناول الحياة الاجتماعية.

▪ الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

يتناول هذا الفصل بالدراسة: الأوضاع الاجتماعية لإمارة طرابلس الصليبية من خلال دراستنا للبناء الاجتماعى الطرابلسى بفئاته المختلفة، كذلك إلقاء الضوء على أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لهذا المجتمع .

ولا مراء، أن البناء الاجتماعى لمنطقة طرابلس شهد حراكًا واضحًا منذ مقدم الصليبيين إلى بلاد الشام، إذ كانت أولى الثمار التى جنوها باحتلالهم لإمارة طرابلس أن باتت لهم الغلبة الكاملة على الإمارة باعتبارهم النخبة المستعمرة الحاكمة، رغم النقص العددى الواضح فى صفوفهم، مع العلم أن عصر الحروب الصليبية وخاصة خلال القرن12م/ 6هـ، شهد وفود أعداد غفيرة من الصليبيين إلى بلاد الشام إلا أنهم ظلوا على الرغم من ذلك يعانون فى الشرق على الدوام من نقص واضح فى العنصر البشرى، ولعل السبب الرئيسى فى هذه المعاناة يعود لكون الغالبية العظمى ممن وفد من هؤلاء الصليبيين فضلوا العودة إلى أوطانهم فى الغرب بدلًا من الإقامة فى مستعمراتهم التى أقاموها فى بلاد الشام بعد أن شعروا أنهم قد أدوا ما عليهم من واجب مقدس، ووفقًا لهذا سنجد أن صليبىّ الإمارة لم يكونوا سوى قلة قليلة من التركيبة السكانية للمجتمع الطرابلسى[1]، وليتهم حافظوا على قوام عددهم المتدنى، بل الأسوأ من هذا أن

(1) على السيد على، المجتمع المسيحى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير "غير منشورة"، كلية الآداب – جامعة القاهرة 1969م، ص1، يوشع براور، عالم الصليبيين، ت: قاسم عبده قاسم وخليفه، ط.القاهرة1999م، ص94– ص96.

أعدادهم أخذت فى التناقص بشكل واضح خلال القرن 13م/7هـ حيث كان الرافد الأساسى لتدعيمهم البشرى من الغرب الأوروبى آخذًا فى النضوب بعد أن تهاوت الروح الصليبية بين الأوروبيين من جراء الإخفاقات المتتالية لحملاتهم الصليبية على الشرق، كما كان للحروب التي خاضها صليبيو الإمارة سواء مع جيرانهم المسلمين أو فيما بينهم، بالإضافة لسوء الرعاية الصحية آنذاك وانتشار بعض الأمراض بينهم، خاصة الأمراض الوبائية كمرض الطاعون الذى انتشر بين سكان الإمارة عقب زلزال1202م/ 598هـ، أثره الواضح فى زيادة نسبة الوفيات بينهم وتناقص أعدادهم[1].

وكما هو معروف أن الصليبيين كانوا من قوميات أوروبية متباينة، إلا أن العنصر الفرنسى كان هو العنصر الغالب على صليبىّ الإمارة، لذلك لم يكن هناك عائق أمامهم للتأقلم على العيش سويًا فى أحياء خاصة بهم فى مدن وقلاع الإمارة، كالحى الصليبى فى مدينة طرابلس الواقع بظاهر المدينة القديمة عند نهر أبى على (قاديشا)[2]، أما مناطق الإمارة الريفية فلقد تجنب الصليبيون العيش فيها بشكل عام، مفضلين عليها الحياة فى المدن، ومن البديهى أن الذى دفع الصليبيين للعيش فى أحياء خاصة بهم، يرجع أولا لضعف وجودهم العددى فى الإمارة، ثانيا لوجودهم بين حيز مُعادٍ لهم من السكان المحليين الذين كان أغلبهم من المسلمين.

ولعل من اللافت للانتباه أن صليبىّ الإمارة برغم قلة أعدادهم إلا أنهم فيما

(1) Geffory of Donjon, pp. 306 – 307,Philip de Plessies, pp. 308 – 309,

محمد مؤنس أحمد عوض، الزلازل فى بلاد الشام، ص17، وعن الأوبئة والأمراض التى انتشرت بين الصليبيين بوجه عام انظر: إبراهيم خميس، الأوبئة والأمراض التى تفشت بين الصليبيين فى الشرق الأدنى الإسلامى وأثرها (1098–1291م/ 491–690هـ)، ضمن كتاب بحوث فى تاريخ العصور الوسطى مهداة للأستاذ محمود سعيد عمران، ط. الإسكندرية 2004 م، ص 69 – 75 0.

(2) عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس، ص 587، يوشع براور، عالم الصليبيين، ص96.

بينهم تباينوا فى أوضاعهم الاجتماعية، فلقد كانت الصفوة منهم ذوو الأصول النبيلة يمثلون قمة الهرم الطبقى فى الإمارة باعتبارهم النخبة المستعمرة الحاكمة، أى الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الطرابلسى المتمثلة فى أمراء البيت النورماندى حكام الإمارة، وتابعيهم من كبار النبلاء والبارونات الذين تولوا حكم المقاطعات التابعة للإمارة، كأسرة أمبرياتشى حكام جبيل على سبيل المثال، وتليهم طبقة الفرسان باعتبارهم أفصالًا تابعين إقطاعيًا لسادتهم أمراء وبارونات الإمارة كما كانوا جزءًا رئيسيًا من حاشيتهم، هذا بخلاف كونهم يشكلون الحاميات العسكرية لمدن وقلاع الإمارة، وبوجه عام يمكننا القول إن هذه الطبقة كانت هى المالكة الفعلية لإمارة طرابلس بموجب قانون الغزو Law of Conquest، وعلى هذا فلقد كان لأفراد هذه الطبقة اليد العليا على المؤسسات القضائية والشئون المالية بالإضافة إلى سيطرتهم على أراضى الإمارة ومقاليد الحكم فيها، هذا بخلاف كونهم القوة العسكرية الرئيسية للإمارة[1].

ومن الضرورى ملاحظة أن علاقة هذه الطبقة برعاياها من المجتمع الطرابلسى وخاصة السكان الأصليين منهم، اقتصرت على كونها علاقة حاكم بمحكوم ليس إلا، نظرًا لأن صليبيّ تلك الطبقة عمدوا إلى خلق حواجز تحجبهم عن رعاياهم، فرغم تأثرهم إلى حد ما بالحضارة الإسلامية لدرجة أن عددًا منهم أجاد اللغة العربية، كالأمير ريموند الثالث، إلا أنهم تجنبوا الاختلاط بالسكان الشرقيين، ولذلك اقتصرت علاقاتهم الاجتماعية، وخاصة علاقات المصاهرة فيما بينهم وبين نظرائهم من الطبقات الأرستقراطية الأخرى سواء كانوا من الصليبيين أو حتى من الأرمن والقبارصة، كما شاهدنا فى زيجات جاى حاكم جبيل من أليس Alice شقيقة

---

(1) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، ط. بيروت 1981م، ص 98، جان ريتشارد، تكوين مملكة بيت القدس اللاتينية وبنيتها، ضمن كتاب الصراع الإسلامى الفرنجى على فلسطين فى القرون الوسطى، ط. بيروت1994م، ص 154، سعيد عاشور، ملامح المجتمع الصليبى، ص31،
Prawer, The Latin Kingdom, pp. 64 – 65 .

بوهمند الرابع، وزواج فيليب ابن بوهمند الرابع من إيزابيل وريثة عرش مملكة أرمينيا، وغيرها من الزيجات التى ربطت تلك الأسر بعضها ببعض، وفى الوقت ذاته دعمت مصالحهم السياسية[1]، وبذلك يمكننا القول إن تلك الطبقة من الصليبيين، رغم وجودها فى الشرق، إلا أنها استطاعت إلى حد كبير الحفاظ على هويتها ونمط حياتها الغربى الذى توارثوه جيلا بعد جيل[2].

ومن الحقائق ذات الدلالة الواضحة أن صليبىّ تلك الطبقة رغم ذلك افتقروا إلى حد كبير إلى العلاقات الطيبة والاتحاد، حيث شهدت تلك الطبقة، خلال غالبية القرن13م/ 7هـ، حالة من التفكك والصراعات الداخلية فيما بينهم، بدءًا من عصيان رينوار حاكم نيفين للأمير بوهمند الرابع وانتهاء بالصراعات الدامية بين حكام جبيل وأمراء طرابلس، مما أسفر فى نهاية الأمر عن فقدان أفراد تلك الطبقة لمشاعر الإخلاص والولاء التى كان من المفترض أن تجمعهم ببعض، لذلك لا يدهش المرء أن يعلم أن بارثلميو أمبرياكو Barthelemy Ambriaco حاكم جبيل (1287-1288م/ 686-687هـ)، هو من دعا بنفسه المنصور قلاوون لمهاجمة طرابلس على أمل أن يخدم هذا مصالحه الخاصة[3].

أما فيما يتعلق بباقى جموع الصليبيين الذين لم يكونوا من أصل نبيل فلقد تشكلت منهم معظم الطبقة البرجوازية فى الإمارة، حيث امتاز أفراد هذه الطبقة بكونهم أحرار من أية تبعية إقطاعية لأى حاكم أو نبيل، إلا أنهم فى مقابل هذا لم يكن لهم نفوذ مؤثر فى شئون الحكم، لكن برغم ذلك كان يحق لهم امتلاك بعض الممتلكات فى الإمارة سواء كانت منازل أو أراض زراعية أو محلات تجارية أو دور صناعة، مع

(1) Eracles, P. 314, Sempad, P. 247, Hardwicke, The Crusader states, p. 534.

(2) Prawer, The Latin Kingdom, pp. 64 – 65.

(3) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص321،
Les Gestes des Chiprois, pp. 803 – 804.

حقهم فى التصرف فى تلك الممتلكات مقابل مبلغ من المال يدفعه المالك للسيد الإقطاعى، التى تقع تلك الأملاك تحت نفوذه[1].

وبإلقاء نظرة على أوضاع هؤلاء الصليبيين فى المجتمع الطرابلسى سنلاحظ تباينًا واضحًا بين أفراد تلك الطبقة ذاتها، فلقد كان بعض منهم، ممن اشتغلوا بأعمال التجارة والصناعة، من الثراء بحيث باتوا ينافسون فعْليًا طبقة النبلاء فى إمارة طرابلس، بل لقد بلغ الثراء ببعض منهم إلى حد تقديم مساعدات ضخمة للسلطات الحاكمة نفسها، بينما اتجه جانب آخر من صليبىّ هذه الطبقة للالتحاق بالفرق العسكرية المصاحبة للسيد الإقطاعى، وكان هؤلاء يُعرفون بالسرجندارية، أى المحاربين المشاة من الصليبيين[2]، وعمل البعض منهم بالوظائف الإدارية المختلفة فى الإمارة كجباة ضرائب ومشرفى أسواق وموظفى جمارك وغيرها من الأعمال الإدارية، كما اتجه بعضهم إلى دراسة العلوم والطب والتاريخ، كالمؤرخ الصليبى وليم الطرابلسى الذى كان أسقفًا لطرابلس عام1250م/ 648هـ، وكذلك الفيلسوف فيليب الطرابلسى الذى ترجم إلى اللاتينية كتاب"سر الأسرار" المنسوب خطأ إلى أرسطو[3]، وفى أسفل تلك الطبقة من صليبىّ الإمارة عمل قِطاعٌ كبير منهم ببعض الأعمال الحضرية، كصناعة الخمور والجزارة والنجارة والفلاحة وغيرها من الأعمال البسيطة[4].

---

(1) سعيد عاشور، ملامح المجتمع الصليبى، ص 31،
Runciman, A History of the Crusades, vol.III, p.361, Prawer, The Latin Kingdom, p.80. .

(2) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص50– ص51، على السيد على، المجتمع المسيحى، ص15،
La Monte, Feudal monarchy, p. 160, .Prawer "The Burgesses", in Setton, vol. V, pp. 167 – 168, Smith, The Feudal nobility , p .82 .

(3) عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس، ص479، فيليب حتّى، لبنان فى التاريخ، ص390، نجيب العقيقى، المستشرقون، جـ1، ط. القاهرة1964م، ص139،
Richard, Le Comte de Tripoli, p.55 .

(4) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص 163 ، جان ريتشارد، تكوين مملكة بيت القدس، ص 158.

ومن الجدير بالذكر، أن غالبية هؤلاء الصليبيين عند مقدمهم إلى الإمارة عمدوا إلى الاختلاط بالسكان الوطنيين والزواج بكثير ممن يعتنقون المسيحية منهم، نظرًا للنقص الحاد فى أعداد النساء بين جموعهم، ولقد نتج عن هذا الزواج جيل جديد من الصليبيين عُرفوا بالأفراخ أو البولان Pullan، والبولان هؤلاء هم الأبناء الذين وُلدوا لأب صليبى وأم شرقية، وبمُضى الوقت أخذ البولان هؤلاء يحلون تدريجيًا محل آبائهم وأجدادهم الصليبيين فى المجتمع الطرابلسى إلى أن أصبحوا خلال القرن 13م/ 7هـ يشكلون غالبية الوجود الصليبى فى إمارة طرابلس، ومن الطبيعى أن هؤلاء البولان نتيجة تعايشهم مع السكان المحليين لسنوات عدة تشبهوا بهم فى نواحٍ عديدة من أنماط الحياة حتى فى إتقانهم للغة العربية إلى جانب لغتهم الأساسية، اللغة الفرنسية القديمة، لدرجة أنه جرت مقارنتهم فى كثير من الأحيان بمسيحىّ الإمارة الشرقيين[1].

ومن الضرورى ملاحظة أن ظاهرة التمشرق[2] التى كانت السمة البارزة للبولان لم تكن أمرًا مستحدثًا على القرن 13م/ 7هـ وإنما كانت ظاهرة لمسها الصليبيون منذ السنوات الأولى لاستقرارهم فى بلاد الشام، حيث يؤكد لنا "فوشيه الشارترى" هذه الظاهرة بقوله: " إننا نحن الغربيين قد أصبحنا الآن شرقيين، فالذى كان رومانيًا أو فرنجيا قد صار فى هذه الأرض من أهل الجليل أو فلسطين.... لقد نسينا بالفعل الأماكن التى شهدت مولدنا، فقد أصبح أمر هذه الأماكن مجهولًا لنا أو لا يرد ذكرها على أى لسان "[3]، وبالتالى إذا ما تتبعنا آثار هذه الظاهرة على حياة الصليبيين بشكل عام، وليس البولان فحسب، سنجد أنه

---

(1) Jacques de Vitry, pp 64-65 .

(2) عن ظاهرة التمشرق بين الصليبيين انظر:
محمد مؤنس عوض، العلاقات، ص377- ص379، الحروب الصليبية (السياسة، المياه، والعقيدة)، ص 51.

(3) Fulcher of Chartres, p. 271 .

كان من الطبيعى لتلك الحياة التى نشأ عليها البولان أن تفتر عصبيتهم الصليبية تدريجيًا لدرجة أنهم فضلوا مسالمة أعدائهم من المسلمين على مواجهتهم وقتالهم، ولعل هذا الأمر كان السبب الأساسى لمعاداتهم الصليبيين الوافدين إلى بلاد الشام حديثًا، حيث كانت البربرية والعصبية الدينية هى أكثر ما يميز هؤلاء الصليبيين الجدد، وبالتالى فلقد كانوا يسعون دائما لإثارة الصراعات مع المسلمين وهو الأمر الذى انتبه إليه المؤرخ العربى "أسامة بن منقذ" منذ حوالى منتصف القرن 12م/ 6هـ بقوله: "إن كل ما هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين"[1].

وينبغى ألا نغفل هنا عن ملاحظة أن "جاك دى فيترى" قد حمل هؤلاء البولان السبب الرئيسى فى إفشال المشروع الصليبى بشكل عام وليس فى إمارة طرابلس فحسب، تصورًا منه أن ما أصاب تلك الفئة من الصليبيين من انحلال وفساد هو الذى أدى إلى ضعف المجتمع الصليبى بأجمعه (فالجميع ينحط نحو الدمار والاضطراب)[2].

ورغم أن جاك دى فيترى قد أصاب كثيرًا فى انتقاده لهؤلاء البولان إلا أننى أرى أنه قد جانبه الصواب إلى حد كبير عندما قصر هذا الأمر على فئة بعينها من الصليبيين ولم يشملهم جميعًا، فالواقع أن هذا الوضع الذى حل بالبولان لم يصبهم هم فحسب، وإنما كان هذا حال غالبية المجتمع الصليبى فى بلاد الشام، وهو ما أقره الرحالة "بور شارد" بقوله: "رجالنا اللاتين هم الأسوأ من جميع أهل الأرض"[3]. ووفقًا لهذا ففى تصورى أن موقف دى فيترى هذا من البولان إن نَمَّ على شيء فإنما ينمُّ على نظرته التعصبية لهؤلاء البولان لا لشىء سوى لكونهم ذوى أصول شرقية[4].

(1) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 164.

(2) Jacques de Vitry, p. 61 .

(3) Burchard of Mont Sion, p. 102 .

(4) عن منهج جاك دى فيترى فى الكتابة التاريخية، انظر:

وبخلاف ما سبق ذكره من عناصر الصليبيين، كان لزامًا علينا أن نلقى الضوء على عنصر آخر منهم كان له دوره المؤثر فى تاريخ الإمارة ألا وهو الجاليات أو القوميونات الإيطالية من الجنوية والبنادقة والبيازنة، فالواقع أنه لولا أساطيل تلك القوميونات، وخاصة أسطول القوميون الجنوى، لما تمكن صليبيو الإمارة من الاستيلاء عليها والاحتفاظ بها طوال هذه المدة، نظرًا لما كانت تقدمه هذه الأساطيل من دعم عسكرى ضرورى لصليبيّ الإمارة سواء بالإمدادات والمؤن والأموال أو حتى بالعتاد والجنود[1]، كما لا ننسى أن هذه الجاليات بأساطيلها كانت الرابط الأساسى بين المجتمع الصليبى فى الإمارة وبين أصولهم فى الغرب الأوروبى، كما كان لتلك الجاليات أيضا دور بارز فى نقل الحجاج الصليبيين إلى الشرق، كذلك فى انتعاش حركة التجارة بالإمارة مما كان له الأثر الواضح على ثراء وغنى الإمارة[2].

وكان من المنطقى أمام تلك الخدمات التى قدمتها تلك الجاليات أن يكافئها حكام الإمارة فى المقابل ببعض المنح والامتيازات التى تركزت بشكل ملحوظ خلال القرن 13م/7هـ، أى فى الفترة التى واكبت تقريبًا تولى أمراء البيت النورماندى حكم الإمارة، ومن الملاحظ فى هذه الامتيازات أن معظم مطالب الجاليات الإيطالية فيها كانت تتركز على حصولهم على أحياء خاصة بهم فى مدن الإمارة، تشمل كافة مرافق الخدمات الرئيسية كالطواحين والحمامات والأفران والمستودعات وحتى الكنائس والمحاكم وكذلك الحوانيت والأسواق

عبد اللطيف عبد الهادى السيد، " دراسة نقدية لمنهج الكتابة التاريخية عند جاك دى فيترى"، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، كتاب تكريمى للأستاذ الدكتور إسحق عبيد، تحرير محمد مؤنس عوض، سنة2003م، ص165– ص191.

(1) Anonymous pilgrims, p.29. Eracles, p.315, Rohricht, Regesta, no 807,pp. 215-216, هايد، تاريخ التجارة، جـ 1، ص152–157.

(2) Jacques de Vitry, p. 57, Burchard, A Short History, p .266, Rey, Les Colonies, p.265 .

التجارية الخاصة بهم، والتى يباشرون فيها أعمال الصرافة والبيع والشراء طبقا لموازينهم ومقاييسهم التى تعودوا عليها فى مدنهم الأصلية، فضلًا عن حصولهم على فنادق وبيوت سكنية مستقلة بهم[1].

مما يعنى أن تلك الأحياء لم تكن مجرد أماكن يأوى إليها أفراد تلك القومونات خلال مواسم التجارة وإنما باتت بمثابة جزء من أوطانهم الأصلية داخل مدن الإمارة المختلفة، أى أنها بمعنى آخر باتت كدولة داخل إمارة طرابلس، يتمتع أفرادها بالاستقلال السياسى الكامل حيث لم يكن لحكام الإمارة عليهم بسلطان، ومن ثم فلقد كان ولاؤهم الوحيد لمدنهم الأصلية فحسب، والتى مثلها فى تلك الأحياء الفيكونت Viscount أو القنصل، ولعل فى رفع علم القومون فوق قصر الفيكونت خير دليل على مدى تفاخر هذه الجاليات باستقلالها من أية تبعية للإمارة[2]، وكل ذلك يعنى أن الكيان الصليبى بصفة عامة وفى طرابلس نفسها كان يعانى من التجزؤ والانفصال بين عناصره التى لم يؤلف بينهم إلا المشروع الصليبى ذاته، كمشروع نهب منظم لثروات الشرق.

وعلى هذا فلقد كان أمرًا منطقيا أن نجد تزايدًا واضحًا فى أفراد هذه الجاليات التى لم يكن كافة أفرادها يعملون بالتجارة فحسب، إنما عمل كثير منهم أيضا بالحرف والصناعات ومع هذا لم يتجاوز عدد أفراد الجالية الواحدة منهم بضعة مئات وعلى الرغم من ذلك كانوا يمثلون قوة اقتصادية وعسكرية لا يستهان بها فى إمارة طرابلس[3].

---

(1) Anonymous pilgrims, p. 29 ,

على السيد على، المجتمع المسيحى، ص21، كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ت: أحمد الشيخ، ط. القاهرة 1995م، ص249،

Prawer, Crusader institutions, Oxford 1980, p. 220; Rey, Les Colonies, p. 192 .

(2) Jacques de Vitry, p. 57,

حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص102، يوشع براور، عالم الصليبيين، ص160.

(3) Jacques de Vitry , p. 66,

إلا أنه من الملاحظ فى غالبية أفراد هذه الجاليات أنهم عرفوا بالجشع وحب الثراء بحيث لم يكن يعنيهم شيء سوى مصالحهم التجارية فحسب، حيث عاش الإيطاليون فى تلك الأحياء على مبدأ اتخذوه من البنادقة منهجًا لحياتهم ألا وهو "لنكن أولًا بنادقة ولنكن بعد ذلك مسيحيين"[1]. ولقد اتبعت كل القومونات الإيطالية ذلك المبدأ طبقًا لانتماءاتهم حيث باتت الرغبة فى الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب التجارية هى الشغل الشاغل لهذه القوميونات مما ترتب عليه تضارب مصالحهم التجارية مع بعضهم البعض، الأمر الذى أدى لنشوب صراعات متوالية بين هذه القوميونات التى تطورت بدورها إلى حد المواجهات العسكرية بين هذه المدن التجارية فى أواسط القرن13م/ 7هـ، وليت الأمر اقتصر عند ذلك الحد فحسب، بل الأسوأ من هذا أن هذه الحرب كانت وبالًا على صليبىّ بلاد الشام أجمعهم، الذين لم يتحاشوا الانخراط فى هذا الصراع الدامى بما فى ذلك صليبىّ الإمارة، مما زاد من فرقة وإضعاف المجتمعات الصليبية بأكملها[2].

أما عن مدى اختلاط الجاليات الإيطالية بالفئات السكانية الأخرى فى الإمارة، فالواقع أن طول فترة بقاء بعض هؤلاء الإيطاليين فى الإمارة كان من شأنه حدوث اندماج واضح بينهم وبين السكان المحليين، خاصة المسيحيين الشرقيين، منهم ليس فى مجال البيع والشراء فحسب بل على المستوى الاجتماعى أيضًا، فمن قبيل هذا أن كثيرًا من هؤلاء الإيطاليين قد أقبلوا على الزواج من الصليبيين والمسيحيين

عبد الحافظ عبد الخالق، الأسواق فى المناطق الصليبية، ص 3،

Constable, Fundug, Fondaco and khan in the wake of Christian commerce and Crusade, in laiou and Mottahedeh(eds.), the Crusades from the prospective of Byzantium and Muslim word , Dumbarton Oaks 2001 , p.145 .

(1) فايد حماد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى، ص96.

(2) مجهول، تتمة تاريخ وليم الصورى، ص 233 – 238،

Jacques de Vitry, p. 67,

فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص96– ص100.

الشرقيين بصورة واضحة[1] حتى من الطبقة الأرستقراطية نفسها، على الرغم من أن "جروسيه" Grousset يؤكد أن هذه الزيجات لم تتم إلا مع الطبقة البرجوازية فقط فى الإمارة[2] إلا أن الواقع يؤكد لنا خلاف ذلك، فلقد أتتنا صفحات التاريخ بأمثلة عديدة جرت بين الطبقة الأرستقراطية وبين أفراد الجاليات الإيطالية، كزواج "بليبانوس" Plebanus الثرى البيزى من وريثة وليم دوريل حاكم البترون بعد أن دفع عشرة آلاف بيزنت للأمير ريموند الثالث باعتبار البترون تابعة إقطاعية له[3].

وإلى جانب هذا نجد أن هؤلاء الإيطاليين قد درجوا على مشاركة سكان الإمارة فى كثير من عاداتهم، سواء فى الملبس أو المأكل أو احتفالاتهم بالمناسبات السعيدة والأعياد وخلافها من الأمور التى ربطتهم بشكل ما بسكان الإمارة[4].

وعلى هذا النحو نجد أن المجتمع الصليبى فى إمارة طرابلس كان يعانى إلى حد كبير من ظاهرة التحزُّب والفرقة الواضحة بين أفراده دون مراعاة لكون طبيعة وجودهم غير الشرعى بين وسط معاد لهم كان من شأنه أن يفرض عليهم وحدة الصف والكلمة، لكن من الواضح أن الصليبيين لم يكن لديهم أدنى رغبة فى تحقيق هذا الأمر حتى فى أحلك فترات صراعاتهم مع المسلمين.

وإلى جانب هؤلاء الصليبيين شهدت مدن وقرى الإمارة انتشارًا واسعًا لفئة المسيحيين الشرقيين، على الرغم من أن تلك الفئة لم تكن تمثل الأكثرية العددية فى الإمارة، إلا أنها شهدت مع ذلك انقسامات طائفية عديدة فى صفوفها ما بين روم أرثوذكس (يونان Greek وسريان Syrians)، ويعاقبة Jaqu-bide، ونساطرة Nestorians، وموارنة Maronites، وإن كانت هناك طوائف مسيحية أخرى

(1) عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص243- ص244.
(2) Historia des Croisades, vol.3, p.316 .
(3) هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص327، يوشع براور، عالم الصليبيين، ص123.
(4) عفاف سيد صبرة، المرجع السابق، ص246- ص215، يوشع براور،المرجع السابق، ص123- ص 124.

بالإمارة إلا أنهم كانوا من القلة بحيث لم يكن لهم دور ملموس فى الإمارة، كالأرمن Armenites على سبيل المثال[1].

أما الروم الأرثوذكس[2]، فقد انتشروا بكثرة فى أرجاء عدة فى إمارة طرابلس حيث قطن بعضهم القرى الواقعة بالسفوح الجبلية والمناطق السهلية فى الإمارة، بينما قطن البعض الآخر مدن الإمارة الساحلية خاصة مدينتى جبيل وطرابلس[3]، وقد عانى أفراد هذه الطائفة على نحو واضح من اضطهاد الصليبيين لهم، حيث عمد الصليبيون إلى عزل بطاركتهم وأساقفتهم عن مناصبهم الدينية وتعيين رجال دين صليبيين بدلًا منهم كما أجبروهم على الخضوع لرجال دينهم، وأمام هذا التعسف من جانب الصليبيين تجاههم كان من الطبيعى أن ينشرح صدر الروم الأرثوذكس باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس وإعادته كرسى بطريركيتها لهم من جديد، الأمر الذى كان من شأنه زيادة معاداة الصليبيين لهم، نظرًا لأنهم باتوا محط شك دائم فى ولائهم وإخلاصهم لهم، لدرجة أن بعضًا من الصليبيين ظنوا أن هؤلاء الروم الأرثوذكس قدموا مساعدات سرية لصلاح الدين خلال حصاره لبيت المقدس[4]، لذلك اتجه الصليبيون لمنع كل من يجيدون فنون القتال من الروم

---

(1) Burchard of Mont Sion, p.16, Poloner, p.33 .

(2) هم كل من تبعوا الكنيسة البيزنطية وأقروا قرارات مجمع خلقدونية الكنسى سنة ٤٥١م، القائل بأن للمسيح طبيعتين: بشرية وإلهية لا اختلاط بينهما، وهم يعدون الأكثرية العددية بين الطوائف المسيحية المختلفة فى بلاد الشام، لمزيد من التفاصيل عنهم، انظر:
فيليب حتى، سورية ولبنان وفلسطين، ص142- ص142، على السيد على، المجتمع المسيحى، ص 36- ص37.

(3) عمر عبد السلام تدمرى، موقف النصارى فى ساحل دمشق من الصراع الإسلامى – الفرنجى، ضمن كتاب بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى – الفرنجى (491 – 690هـ)، جـ2، ط . أربد 2000م، ص507.

(4) Anonymous pilgrims, p. 28, Jacques de Vitry, p.67,
محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، ط . القاهرة 1979م، ص96، جوناثان فيلييس، " الشرق اللاتينى1098-1291م"، ضمن كتاب تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ت: قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة 2007م، ص172.

الأرثوذكس من امتلاك السلاح، مما يُظهر لنا مدى التخوف الذى كان عليه الصليبيون من محاولة تمرد هذه الطائفة ضدهم[1].

ورغم ذلك العداء الذى كان يُكنه كلا الطرفين لبعضهما البعض، إلا أنهما استطاعوا مع مرور الوقت أن يتعايشوا سويًا فى إمارة طرابلس، حيث اشتغل كثير من الروم الأرثوذكس بالزراعة والحرف والصناعات التى كانوا مهرة بها لدرجة أن بعضًا منهم استطاعوا أن يحققوا مكانة مرموقة فى الإمارة هيأتهم للانضمام لطبقة البرجوازية، حتى أنهم تصاهروا فى بعض الأحيان مع الصليبيين، لكن من الضرورى أن ندرك أن هذا الأمر كان على نطاق محدود، فالغالب على هذه الفئة أن أوضاعها الاقتصادية على وجه الخصوص كانت متردية بشكل عام، الأمر الذى كان من شأنه أن يزيد من سخط أفراد هذه الطائفة على الصليبيين، وبناء على هذا فلقد ظل العداء والكراهية بين الفريقين قائمين حتى اللحظة الأخيرة من تواجد الصليبيين فى الإمارة[2].

أما عن الطوائف المسيحية الأخرى فى الإمارة فلقد كان منهم من اتبع المذهب النسطورى[3]، الذى تمت إدانته رسميا فى مجمع إفسوس سنة431م، ولعن من خلاله صاحبه الأسقف نسطوريوس وكل من اتبعه، ووفقًا لهذا فلقد كان النساطرة يُعدون هراطقة فى نظر الصليبيين، ومن ثَمَّ فلقد عانوا شأنهم شأن الروم الأرثوذكس من ازدراء واحتقار الصليبيين لهم إلى حد كبير، وبالتالى فإن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية لم تكن أحسن حالا منهم، فلقد كانت غالبيتهم من

(1) Jacques de Vitry, p.67 .

(2) Jacques de Vitry, p.67, Burchard of Mont Sion, p.104 .

(3) المذهب النسطورى: ينسب إلى نسطوريوس أسقف القسطنطينية (٤٢٨-٤٣١م) صاحب التعاليم القائلة بأن المسيح لم يكن إلها فى حد ذاته بل هو إنسان اتَّحدَ به الطابع الإلهى فلم يغير شيئًا فى جوهره، وعلى هذا الأساس فإن أتباع هذا المذهب لا يعتقدون بألوهية المسيح وإن كانوا يرونه فوق الناس أجمعين، وبالتالى فإن السيدة مريم العذراء بدورها لم تكن أم، إله بل هى أم المسيح الإنسان الذى ولدته بشرًا ثم حل به فيما بعد الطابع الإلهى، عنه انظر: Jacques de Vitry, p.77, على السيد على، المجتمع المسيحى، ص45، فيليب حتّى، لبنان فى التاريخ، ص308– ص309.

الفلاحين أو من أرباب الحرف والصناعات، فى حين وجه بعض منهم اهتماما ملحوظًا بالمجالات العلمية فكان منهم الأطباء والصيادلة وحتى البياطرة[1].

أما يعاقبة[2] إمارة طرابلس، فلقد تواجدوا فى مناطق عديدة من الإمارة، خاصة فى مدن طرابلس وجبيل، إلا أنهم تركزوا بشكل كبير فى بلدة جونية[3]، لكن من الملاحظ أن بعضًا منهم على خلاف غالبية إخوانهم اليعاقبة فى المناطق الشرقية والجنوبية لبلاد الشام تبرءوا من مذهبهم اليعقوبى هذا وخضعوا لكنيسة روما، حسب قول المؤرخ اليعقوبى "ميشيل السرياني"[4]، ومما لا شك فيه أن أمرًا كهذا كان من شأنه أن يعزز من موقف هذه الطائفة لدى الصليبيين حيث تحسنت أوضاعهم الاجتماعية بشكل ملحوظ خلال فترة الحكم الصليبى للإمارة، خاصة أن غالبية أفراد هذه الطائفة تميزوا عن معظم فئات المجتمع الطرابلسى بتفوقهم العلمى، الذى ظهر واضحًا من خلال مدرستهم فى مدينة طرابلس لدراسة الطب، والتى وصل صدى شهرتها إلى أنحاء مختلفة من أوروبا آنذاك[5]، ويبدو اهتمام الصليبيين، وبخاصة الطبقة الأرستقراطية

---

(1) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 232،

Holmes, "life among the Europeans in Palestine and Syria in the twelfth and thirteenth centuries", in Setton, a History of the Crusades, vol.IV, Wisconsin 1977, p.26 .

(2) ينسب اليعاقبة إلى يعقوب البرادعى Jacobus Baradaeus مطران الرها (٥٤١– ٥٧٨م) القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة لها كل الصفات البشرية والإلهية، وقد اعتنق هذا المذهب كثير من نصارى المنطقة الواقعة بين سوريا وأرمينيا فى الشمال وحتى مصر والحبشة فى الجنوب، عنهم انظر:

Jacques de Vitry, p.72,

فيليب حتّى، سورية ولبنان وفلسطين، جـ2، ص137– ص138.

(3) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص225،

Richard, le Comte de Tripoli, p.86 .

(4) Michel le Syrien, vol. III , p.332,

على السيد على، المجتمع المسيحى، ص44،

Hitti, "The Impact of the Crusades on eastern Christianity", in Medieval and near eastern studies in honor of Aziz surial Atiya, ed. Sami A. Hanna, Leiden 1972, p.214 .

(5) على السيد على، المرجع السابق، ص43، عمر عبد السلام تدمرى، الحياة الثقافية فى طرابلس الشام خلال العصور الوسطى، ط. بيروت 1972م، ص66.

منهم، بتلك الفئة من المسيحيين الشرقيين واضحًا من خلال مظاهر التقدير والاحترام التى وجهوها لكثير من علمائهم، كالأسقف الطبيب ميشيل الحلبى، لكن علينا أن ننتبه إلى أن يعاقبة الإمارة لم يكونوا جميعهًا من العلماء والأطباء، بل كان كثير منهم يعمل بالتجارة والحرف وإن كان قليل منهم امتهن حرفة الزراعة أيضا[1].

ونأتى، فى ختام حديثنا عن المسيحيين الشرقيين فى إمارة طرابلس، لطائفة كان لها دور مؤثر وحيوى فى تاريخ الإمارة، طائفة سالمت وساندت الصليبيين وأعلنت ولاءها لهم منذ الوهلة الأولى التى قدموا فيها إلى بلاد الشام، ألا وهم طائفة الموارنة.

والموارنة هؤلاء هم سكان جبل لبنان، الذين اتخذوا من أوديته موطنًا لهم، كأودية الجبة أهدن وبشرى والمنيطرة وكذلك مناطق دير القمر والحدث بالإضافة لاستقرارهم فى مدن جبيل و البترون وعكار وطرابلس، كما تواجد الموارنة أيضا فى مناطق أخرى عديدة كحماة وشيزر وحمص ومعرة النعمان، إلا أن غالبية مناطق تمركزهم كانت ضمن حدود الإمارة بشكل عام[2]، والجدير بالذكر أنه نظرًا لوعورة جبل لبنان وصعوبة التنقل بين أجزائه بات هذا الجبل ملجأ آمنًا للموارنة حيث وفر لهم قدرًا كبيرًا من الاستقلالية والحكم الذاتى، وبرغم صعوبة الحياة على هذه الجبال إلا أن الموارنة مع ذلك كانوا من الكثرة العددية لدرجة أنهم شكلوا غالبية سكان الإمارة من المسيحيين الشرقيين[3].

---

(1) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص332 – 333،
Rey, Les Colonies, pp.178-181 .
(2) Phocas , p.8, William of Tyre, Vol. II, p.459 .
(3) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط.القاهرة 1977م، ص16، محمد مؤنس عوض، تاريخ موارنة لبنان، ص194– 196.
William of Tyre, Vol. II, p. 459, Jacques de Vitry, p.79,

وكما سبق أن ذكرت أن الموارنة ما إن علموا بوصول الصليبيين إلى بلاد الشام حتى كانوا الأسبق لمساعدتهم، حيث عملوا كأدلاء ومرشدين لهم فى ممرات الجبال اللبنانية والمناطق الشرقية لبلاد الشام خلال حملتهم الصليبية الأولى، كما اشتركوا عسكريا مع ريموند سان جيل فى إسقاط مدينة أنطرطوس وفى بعض محاولاته لإسقاط مدينة طرابلس[1].

ومن الضرورى أن ندرك أنه بمساعدة الموارنة للصليبيين فى إسقاط مدينة طرابلس وإقامة إمارتهم بها أخذت طائفة الموارنة منحى جديدًا من تاريخهم، فنظرًا لتعاونهم مع الصليبيين وحاجة الأخيرين لدعم بشرى لتعويض النقص العددى الواضح فى صفوفهم، لم يجد الصليبيون خيرًا من الموارنة ليعاونوهم فى ترسيخ قواعدهم فى الإمارة، كذلك لتحقيق نوع من التوازن العددى بينهم وبين المسلمين الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم من سكان الإمارة، ومن هذا المنطق أخذ الصليبيون فى ترغيب وتشجيع كثير من الموارنة للنزول من فوق جبال لبنان والعيش بجانبهم فى مدن الإمارة[2] مما يعكس لنا أن الصليبيين عزفوا على وتر الاختلافات الطائفية والمذهبية والعرقية بشكل كبير فى تعاملهم مع رعاياهم من الطوائف المسيحية الشرقية وفقا لمصالحهم.

وبمُضى الوقت أخذ بعض من الموارنة فى الاستقرار فعلًا فى مدن إمارة

يوسف دريان، نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان، ط. القاهرة 1916م، ص50، بطرس ضو، تاريخ الموارنة، جـ3، ص439، محمد مؤنس عوض، تاريخ موارنة لبنان، ص 198،

Hitti, The Impact of the Crusades, p.p.211, 215, Salibi, "The Maronites of Lebanon under the Frankish and Mamluk rule", REA, vol.IV, Ann'ee1957, p. 291 .

(1) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص141، بطرس ضو، المرجع السابق، جـ3، ص440،

Salibi, Ibid, p.291 .

(2) كاظم ياسين-العاملى، تاريخ علاقات الموارنة بجيرانهم من الفتح الإسلامى إلى الحرب الأهلية، ط بيروت 1994 م، ص 31.

طرابلس، حيث استعان بهم الصليبيون فى شغل العديد من الوظائف الإدارية، فى حين أُدرج عدد كبير منهم ضمن قوات الإمارة العسكرية كمشاة ورماة أسهم، خاصة أن الموارنة عُرفوا ببراعتهم فى القتال[1]، وبخلاف ذلك برز عدد آخر من الموارنة فى النواحى الصحية، حيث عمل بعضهم كأطباء وصيادلة فى المجتمع الطرابلسى وحتى داخل المعسكرات الصليبية، كما نشط الموارنة بشكل كبير فى النواحى الاقتصادية المختلفة، خاصة الزراعية والصناعية منها، إلى حد أن المؤرخ الفرنسى "راى" Rey اعتبر أن الموارنة كادوا يسيطرون على كافة موارد إمارة طرابلس[2]، وهكذا يمكن القول إن غالبية الطبقة البرجوازية فى إمارة طرابلس كانت تتألف من المسيحيين الشرقيين وبخاصة من الموارنة إلى جانب الصليبيين.

وعلى الرغم من العلاقة الودية بين الطرفين إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث صدام إذا اختلفت المصالح السياسية بينهما بعد ذلك، كما حدث عندما انتقم ريموند الثانى من موارنة جبال لبنان لتعاونهم مع قوات دمشق والتركمان فى الهجوم على الإمارة فى عام 1137 م/ 531 هـ، حيث أظهر ريموند الثانى قسوة واضحة فى انتقامه منهم، فلم يكتفِ بقتل أعداد كبيرة منهم بل سبى نساءهم وأطفالهم أيضا، وأنزلهم مقيدين بالأغلال إلى مدينة طرابلس، حيث أذاقهم هناك أمام سكان المدينة أنواعًا شتى من صنوف العذاب[3].

---

(1) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص 164،

William of Tyre, vol.II, p 459, Jacques de Vitry, p. 64,

يوسف دريان،أصل الطائفة المارونية، ص51، عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط.الإسكندرية1958م، ص114، بطرس ضو، تاريخ الموارنة، جـ3، ص439،

Hitti, The Impact of the Crusades, p.216, Salibi, The Maronites of Lebanon, p. 289, not (2), Rey, Les Colonies Franques, p.76 .

(2) Rey, Les Colonies, p.76 .

(3) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص 258، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، جـ8، ص79، الدويهى، تاريخ الأزمنة، تحقيق بطرس فهد، ط. بيروت1983م، ص127،

ورغم أن هذه الحادثة تركت آثارًا عميقة فى قلوب بعض الموارنة والصليبيين على السواء، إلا أنهم مع مرور الوقت تمكنوا من استرجاع العلاقات الطيبة فيما بينهم، خاصة بعد أن تبرأ عدد كبير من الموارنة من عقيدة الإرادة أو المشيئة الواحدة فى طبيعة المسيح ودخلوا فى طاعة كنيسة روما حيث اتبعوا المذهب الكاثوليكى على يد بطريرك أنطاكية اللاتينى "أماليرك" Amalric فى عام 1181م / 577 هـ[1].

ولعل خير دليل على الارتباط الوثيق بين هذه الطائفة وبين صليبيّ الإمارة ما شاهدناه من استبسال واضح من هؤلاء الموارنة فى الدفاع عن مدينة طرابلس ضد هجمات القوات المملوكية فى عامى1264م/ 663هـ و1268م/ 666هـ، حيث كان لموارنة جبل لبنان دور كبير فى الحد من فاعلية هجمات الظاهر بيبرس على مدينة طرابلس وإفشال مخططاته فى إسقاطها، مما رسخ قناعة لدى الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون بضرورة إخضاع هذه الطائفة أولًا حتى يتسنى لهما إسقاط الإمارة دون أى عائق، وبالفعل كانت أولى الخطوات لتحقيق هذا الأمر فى الحملة التى شنها عليهم الظاهر بيبرس فى عام 1268م/ 666هـ، التى نجح من خلالها فى تخريب قرى عـديدة للموارنة خاصة الواقعـة فى منطقة حدث الجبة حيث قُتل وأسر الكثير من أهلها، ثم أتى المنصـور قـلاوون ليكمل ما بدأه بيبـرس بمهاجمـة مناطق الموارنة ثانية فى وادى حيرون وحصرون وكفر صارون وجبة أهدن والحدث وغيرها من مناطق الموارنة فى عام 1283م/ 681هـ[2]، ورغم ما لحق بالموارنة من أضرار جسيمة من جراء هذه الهجمات إلا أنهم لم يتورعوا عن مساندة صليبيّ

William of Tyre, vol. II, pp.82-83, Richard, le Comte de Tripoli, p .21 .

(1)محمد مؤنس، تاريخ موارنة لبنان، ص210، محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية، ص80، يوسف دريان، أصل الطائفة المارونية، ص49، جوناثان فيليبس، الشرق اللاتينى، ص172،

Hitti, The Impact of the Crusades, p.215 .

(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص47، أحمد يوسف الشدياق، أخبار الأعيان فى جبل لبنان، ص251، كاظم ياسين العاملى، تاريخ علاقات الموارنة، ص35.

الإمارة من جديد فى مقاومة القوات المملوكية خلال فترة حصارهم لها فى عام 1289م/ 688هـ[1]، لهذا تركز اهتمام سلاطين المماليك فيما بعد عهد المنصور قلاوون على توجيه ضربات موجعة لهؤلاء الموارنة، ومن ثَمَّ أخذت هذه الطائفة من المسيحيين الشرقيين تعود لسابق عهدها قبل المرحلة الصليبية كجماعة من سكان الجبال الهاربين، وعلى هذا النحو يمكننا القول إن طائفة الموارنة كانت أكثر العناصر التى أضيرت من زوال الوجود الصليبى من الإمارة[2].

وبخلاف فئتى الصليبيين والمسيحيين الشرقيين بعناصرهما المختلفة، ضمت التركيبة السكانية لإمارة طرابلس كذلك عددًا من اليهود، والواقع أن عدد أفراد هذه الفئة فى الإمارة بوجه عام لم يتجاوز فى أحسن التقديرات بضعة مئات فحسب، حيث كان اليهود يعدون من أقل فئاتها السكانية عـددًا، ويـؤكد لنا الباحث الفرنسى "جان ريتشارد" أن غالبية يهود طرابلس كانوا من يهود جنوبى فرنسا[3]، وهو رأى فى اعتقادى قد جانبه الصواب، فوفقا لمعرفتنا بما اقترن بالحملة الصليبية الأولى، وخاصة فى حوض الراين، ما تبع ذلك خلال استيلائهم على المناطق التى احتلوها ببلاد الشام من أعمال قتل وسلب واضطهاد لليهود يؤكد لنا وجود عداء متبادل بين الصليبيين وبينهم، مما يعنى أن فكرة مجيء اليهود من فرنسا أو غيرها من البلدان الأوروبية كان أمرا غير منطقى، وما يؤكد ذلك تناقص أعدادهم بعض الشيء فى المناطق الصليبية، ومنها إمارة طرابلس، وفقًا لما أقره الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى، الذى لاحظ أن اليهود فى المناطق الإسلامية بالظهير الشامى، خاصة فى مدينة دمشق، كانوا أكثر عددًا بشكل ملحوظ عما كانوا عليه فى المناطق

---

(1) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، جـ8، ص85، الدويهى، تاريخ الأزمنة، ص148.

(2) محمد مؤنس عوض، أضواء على تاريخ موارنة لبنان، ص204،

Salibi, The Maronites of Lebanon, p.296 .

(3) Richard, Le Comte de Tripoli, p .86 .

الصليبية، كذلك كان الحال فى مدينة طرابلس والمناطق التابعة لها قبل مجىء الصليبيين وبالتحديد فى عهد إمارة بنى عمار[1].

وبطبيعة الحال لم يكن من السهل على اليهود أن يكون لهم دور مؤثر فى مجريات الأحداث بالإمارة بوجودهم العددى الضعيف هذا، إلا أنه نظرًا لبراعتهم فى بعض المجالات الاقتصادية، خاصة فى أعمال التجارة والصرافة، وكذلك لتفوقهم فى بعض الصناعات فلقد أتاح لهم الصليبيون لذلك ممارسة هذه الأنشطة فى الإمارة، لدرجة أنهم احتكروا عددًا منها كصناعة الأصباغ والدباغة وصناعة الزجاج وتحضير الفراء[2]، ومن الملاحظ فى هذه الصناعات أنها كانت من الصناعات التى تُدرُ عائدًا ماليًا كبيرا، لذلك كان المستوى الاقتصادى لليهود بشكل عام فى إمارة طرابلس مستوى لا بأس به من الثراء.

ومن الضرورى أن نلاحظ فى تناولنا ليهود إمارة طرابلس أنهم بطبيعتهم كانوا يلجأون دائمًا للتمركز فى مناطق قاصرة عليهم كما هو معروف بحارة اليهود أو الجيتو، وكان يترأسهم فى الغالب رئيس دينى منهم يتولى شئونهم الدينية والقضائية بالإضافة لكونه من ينوب عنهم فى علاقاتهم مع حكام الإمارة الصليبيين، وعلى هذا النحو فمن المرجح أن يكون لليهود أيضا معابدهم الخاصة بهم، وعلى وجه الخصوص فى مدينتى طرابلس وجبيل اللتين كانتا من أكبر مناطق تمركزهم فى الإمارة[3].

---

(1) Benjamin of Tudela, P.P 17-29,
محمد مؤنس عوض، الاضطهادات الصليبية لليهود فى حوض الراين بألمانيا عام1096م/ 490هـ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية(بحوث ودراسات)، ط.القاهرة2005م، ص7- ص35، جان ريتشارد، تكوين مملكة بيت المقدس، ص158.

(2) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص212، زكى النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت 1958م، ص183، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص230، كلود كاهن، الشرق والغرب، ص615، جوناثان فيليبس، الشرق اللاتينى، ص173.

(3) Benjamin of Tudela, p. 17, السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 229 – 230.

أما عن آخر الفئات السكانية فى الإمارة، ألا وهم المسلمون، فالواقع أنه رغم هجرتهم بأعداد ضخمة من طرابلس، عقب احتلال الصليبيين لها نظرًا لما ارتبط بالغزو الصليبى من أعمال وحشية وبربرية ضد مسلمى بلاد الشام، إلا أنهم مع هذا كانوا أصحاب الغلبة العددية فى الإمارة بشكل ملحوظ لدرجة لفتت انتباه العديد من المؤرخين الصليبيين والمسلمين على حد سواء خاصة جاك دى فيترى أبرز شهود العيان من القرن13م/ 7هـ الذى يؤكد لنا أن اللسان الغالب فى مدينة طرابلس عاصمة الإمارة كان اللسان العربى لكثرة سكانها ومرتاديها من التجار المسلمين، لدرجة أنه اضطر للاستعانة بمترجم للتعامل مع غالبية مواطنيها[1] خاصة إذا ما عرفنا أن مسيحىّ الإمارة الشرقيين، وكذلك يهودها وحتى كثيرًا من صليبييها، كانوا يستخدمون اللغة العربية كلغة تخاطب فيما بينهم، ونفس الأمر يمكن تأكيده على باقى مدن الإمارة خاصة مدينتى جبيل واللاذقية، مما يبين لنا أن المسلمين فى إمارة طرابلس لم تكن لهم الغلبة العددية فى ريفها وقراها فحسب، كما هو حال باقى الدويلات الصليبية كمملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية، بل فى مدنها أيضًا[2].

ولعل حرص المسلمين على التمسك بأوطانهم وإيثارهم البقاء فيها، والسعى لاسترداد أراضيهم التى سلبها منهم الصليبيون، هو ما جعلهم يتحملون اضطهادات وإيذاء الصليبيين لهم، فالغزو الصليبى لإمارة طرابلس لم ينزل بمسلميها من مكانتهم الاجتماعية كطبقة حاكمة مالكة لغالبية أراضيها ومنازلها ودور صناعتها وحوانيتها وغيرها، إلى الطبقة الدنيا التابعة التى كانت بالكاد

(1) Jacques de Vitry, Letters, ed. R.B.C. Huygens (Leiden 1960), p.93 .

(2) العماد الأصفهانى، والفتح القسى، ص62، ص128– ص131 ، ناجلا محمد عبد النبى، المسلمون فى مملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية، العدد (24) يناير1996م، ص 61، حسين عطية، المسلمون فى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى – الفرنجى، جـ1، كلية الآداب جامعة اليرموك، ط.أربد2000م، ص380.

تكسب قوت يومها[1]، ورغم ذلك هناك اختلاف فى الأوضاع الاجتماعية بين كل من سكان مدن الإمارة وسكان ريفها من المسلمين، ففى المناطق الريفية فى ظل النظام الإقطاعى الصليبى اعتبر المسلمون شبه مستأجرى أراضٍ بعد أن كانوا مالكيها، والأصح أنهم باتوا أقنانًا، أى عبيدًا، غير أحرار حتى فى التنقل من قراهم للعيش فى قرى أخرى تتبع سيدًا إقطاعيًا آخر، حيث كان محرمًا عليهم ترك الأراضى الزراعية أو القرى دون إذن سادتهم الإقطاعـيين، ولعل خير دليل على ذلك ما أقدم عليه بوهمند الثالث أمير أنطاكية من اتفاق مع إسبتارية حصن المرقب عندما بيع لهم الحصن فى عام1186م/ 582هـ، على أن يعيدوا له أيا من فلاحى إمارته المسلميـن الخاضعـين لسلطـته إذا ما هـرب أحدهم إلى إقـليم المرقب، ونفس الأمر بالنسبة له حيث كان عليه هو الآخر أن يعيد لهم من يفر من فلاحيهم فى حالة لجوئهم إليه، مع العلم أنه تغافل عن هذا الحق الذى ادعاه لنفسه بالنسبة لفلاحيه من المسيحيين الشـرقيين[2]، ليس هـذا فحسب بل إنه حتى زواج الفلاح المسلم من فلاحة تعيش فى إقطاع لسيد آخر كان محرمًا عليهم، إلا فى حالة ما إذا عوض سيد الفلاح الإقطاعى سيد الزوجة بفلاحة أخرى من أقنانه بدلًا من تلك التى تزوجها تابعه، على أن تكون فى نفس عمرها وحالتها الاجتماعية، وبطبيعة الحال لم يكن السادة الإقطاعيون يشغلون بالهم بالاهتمام بمثل هذه الأمور، لذلك لم يكن هذا الأمر شائعًا بين صفوف المسلمين على نحو واسع[3].

أما سكان المدن من المسلمين فقد كانوا أحسن حالًا من نظرائهم من سكان الريف حيث كانت لهم حرية التنقل من مكان لآخر بالإضافة لحريتهم فى ممارسة المهنة التى كانوا يتقنونها فاشتغل غالبيتهم بمعظم صنوف الصناعات المختلفة

(1) ر. سى . سميل، فن الحرب عند الصليبيين فى القرن الثانى عشر(1097-1193م)، ت : محمد وليد الجلاد، ط. دمشق1982م، ص98- ص99، يوشع براور، عالم الصليبين، ص78.

(2) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ت.إلياس شاهين، ط. موسكو1986م، ص134، Cahen, La Syrie de Nord, p.343, Prawer, Crusader institutions, pp. 203 – 204 .

(3) حسين عطية، المسلمون فى الإمارات الصليبية، ص384.

كصناعة الزجاج والسكر والفخار والخزف والنسيج وصناعة الورق والصابون وغيرها من الصناعات التى اتفقت مع الشريعة الإسلامية، هذا بخلاف من عمل منهم بالأنشطة التجارية المختلفة[1].

لكن على الرغم من ذلك لم يُتِحْ صليبيو الإمارة الفرصة لأى من مسلميها ليحظوا بمكانة مرموقة فيها، وذلك لما أثقلوا به كاهلهم من أعباء مادية عينية ونقدية مبالغ فيها، فبخلاف ضريبة الرأس، أو كما هو متعارف عليها بالجزية، وضريبة الخراج التى قد تصل لما يقدر بنصف حجم المحصول[2]، كانت هناك ضريبة العشور التى أداها المسلمون للكنيسة اللاتينية فضلًا عن الضرائب التى أداها المسلمون للإدارة الحاكمة فى الإمارة على رى أراضيهم وعلى مواشيهم وأغنامهم وعلى حق استغلالهم لمراعى وغابات الإمارة وحتى على مرافق الخدمات العامة كالأفران والطواحين والحمامات العامة والمعاصر والموازين والمكاييل، وكذلك على حق جمع الحطب الذى كانوا يستخدمونه سواء فى الطهو أو للتدفئة، وغيرها من صنوف الضرائب والالتزامات المادية الكثيرة، حتى أن مساكنهم لم تكن بأيديهم كما يظن ابن جبير فالواقع أن المسلمين كان يؤدون إيجارًا شهريا أو سنويا لسيدهم الإقطاعى مقابل السماح لهم بالسكن فى دورهم التى كانت فى الأساس ملكًا لهم[3]، وعلى هذا النحو يمكننا القول إن حياة مسلمى إمارة طرابلس لم تكن حياة هنيئة رغدة كما يتصورها ابن جبير، بل كانت حياة شاقة حيث كانوا بالكاد يستطيعون كسب قوت يومهم .

زد على ذلك أن مسلمى الإمارة تعرضوا بخلاف ذلك لضغوط أخرى لمنعهم

(1) ناجلا محمد عبد النبى، المسلمون فى مملكة بيت المقدس، ص 69.
(2) ابن جبير، رحلته، ص239– ص240.
(3) حسين عطية، المسلمون فى الإمارات الصليبية، ص385– ص387، سعيد البيشاوى، الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية(1099–1291م)، ط. الإسكندرية 1990م، ص298– ص 299، ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص134– ص135، Smith, The Feudal nobility, pp.55-57.

من إقامة شعائرهم الدينية، حيث كان أول ما قام به الصليبيون عقب استيلائهم على مدينة طرابلس أن حولوا جامعها الكبير الواقع فى وسط المدينة إلى كنيسة، والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة لغالبية مساجد الإمارة الأخرى[1]، كما عانى مسلمو الإمارة أيضا من افتقادهم إلى حد كبير للعدالة القضائية، فدون أن نورد أمثلة لما تعرضوا له من ظلم تشريعى يكفى أن نعرف أن محكمة السوق أو المدينة التى اختصت بقضايا السكان الوطنين كانت هيئتها القضائية تتألف إلى جانب رئيسها الـ Bailli من ستة قضاة منهم اثنان من الصليبيين وأربعة قضاة آخرين من المسيحيين الشرقيين، ولم يكن من بينهم قاض مسلم واحد، على الرغم من أن مسلمى الإمارة كما سبق أن أوضحنا كانوا يمثلون السواد الأعظم من سكانها[2].

وإذ كان هذا حال من عُدوا أحرارًا من مسلمى الإمارة، فما بالنا بأوضاع العبيد والأسرى المسلمين فى ظل هذا النظام الجائر، فالواقع أن الصليبيين لم يتوانوا عن استغلال قدرات هذه الطبقة التى جاءت فى أسفل الهرم الطبقى لأقصى حد ممكن، سواء كخدم فى قصورهم ودورهم أو حتى كعمال وحرفيين لديهم، خاصة أن غالبية أسرى الحرب من المسلمين كانوا من ذوى المهارات الحرفية كبنائين ونجارين وغيرها من المهن الحضرية، حيث استغلهم الصليبيون على نحو خاص فى تشييد وبناء وترميم قلاعهم وقصورهم، ولعل خير دليل على مدى نفع هذه العناصر من المسلمين بالنسبة لصليبىّ الإمارة رفض الأخيرين عرض الظاهر بيبرس لتبادل أسراهم من الصليبيين مقابل من كان لديهم من أسرى المسلمين[3]، مما يظهر لنا أن ما كان يعود على صليبىّ الإمارة من نفع مادى من استخدامهم لهؤلاء الأسرى الحرفيين كان أهم لديهم من إنقاذ بنى جلدتهم من الصليبيين .

---

(1) على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص161، يوشع براور، عالم الصليبيين، ص77.

(2) La Monte, The Feudal, p .108, Richard, "The Political and Ecclesiastical Organizations of the Crusades states", in Setton, vol. v, New York 1983, pp. 224-225, Runciman, A History of the Crusades, p. 302.

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 154.

ومن الطبيعى وأوضاع المسلمين على هذا النحو من الاضطهاد والجور، خاصة أن أمراء البيت النورماندى تعنتوا فى معاملة المسلمين بشكل واضح بعد ما لاقوه من خيانة قاضى جبلة المسلم لهم- الذى ناصر صلاح الدين وأهله من المسلمين لاسترداد جبلة- أن يسعى مسلمو الإمارة لنفض عباءة الغزو الصليبى عن كاهلهم. ولعل أبرز المحاولات التى أتتنا فى هذا الصدد المقاومة الشعبية التى تولى زمامها فلاحو الإمارة المسلمون، وبالتحديد فلاحى منطقة زغرتا الذين ساندوا الظاهر بيبرس فى حملته التى شنها على الإمارة فى عام 1266م/ 664هـ، حيث قاموا بشن هجمات عديدة ومكثفة ليلًا على الفرسان الصليبيين فأبادوا منهم أعدادًا كبيرة، إلا أنه على الرغم من ذلك باءت محاولة بيبرس بالفشل واستطاع الصليبيون أن يخمدوا هذه المقاومة بقسوة[1].

ومع ذلك ظل مسلمو الإمارة على إصرارهم فى مساندة الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون لتحريرهم من نير الاحتلال الصليبى، إلا أنهم فى هذه المرة لم يلجأوا إلى استخدام السلاح العسكرى بل لجأوا إلى سلاح آخر كان أشد ضراوة على الصليبيين وأكثر نفعًا لدولة المماليك من السلاح العسكرى، ألا وهو سلاح المعلومات، حيث يتضح من خلال تناولنا لعلاقة دولة المماليك بإمارة طرابلس خلال عهدى هذين السلطانين أنهما كانا على دراية تامة بمجريات الأمور فى إمارة طرابلس، مما يعنى أنهما كانت لهما أعين فى الإمارة تنقل لهم كل ما يستجد بها من أحداث أولا بأول. ومن البديهى أن من تولى هذا الأمر كان من مسلمى الإمارة وليس سواهم[2].

---

(1) عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس، ص558- ص559، ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص136.

(2) مفضل بن أبى الفضائل، كتاب النهج السديد، ص191، شافع بن على، حسن المناقب السبرية، ص104.

لكن على أية حال، لم يكن هؤلاء هم العناصر الإسلامية كافة فى إمارة طرابلس، بل كانت هناك عناصر أخرى مسلمة إلا أنها لم تكن خاضعة تمامًا لسيادة الصليبيين، ومن تلك العناصر قبائل البدو الرُّحل والتركمان والأتراك (الميديانيون) الذين اتخذوا من رعى الأغنام والماشية سبيلًا لهم لكسب الرزق، لذلك كانوا دائمى التنقل من مكان لآخر بحثًا عن المرعى والكلأ، إلا أنهم تواجدوا على نحو خاص فى إمارة طرابلس بسهل عرقة لما اشتهر به من وفرة مراعيه الدائمة الخضرة، وكانت هـذه القبائل معـروفة بكونهـا شديـدة المراس فى الحرب بارعة فى فنون القتال خاصة فى استخدام السيوف والرماح، لذلك استعان بهم صليبيو الإمارة فى بعض الأحيان القليلة للقتال فى صفوفهم فى المنازعات التى نشبت فيما بينهم فحسب، كقوات مرتزقة عرفوا فى الجيش الصليبى بالتركبولى (Turcopole)[1].

وكان من المنطقى أن يسعى صليبيو الإمارة لإخضاع هذه القبائل لسيادتهم، إلا أنه نظرًا لطبيعتهم التى اعتادت ألا تخضع إلا لسلطان نفسها وما درجوا عليه من تنقل دائم، بات من الصعب على الصليبيين إحكام السيطرة على تلك القبائل الدائمة التمرد لذلك اكتفوا بفرض بعض الضرائب عليهم مقابل استغلالهم لمراعى الإمارة التى كانت تقدر حسب عدد خيامهم وما تحتلها من مساحة[2].

---

(1)Burchard of Mont Sion, p.16.

التركبولى (Turcopole) : لفظة يونانية معناها أبناء الترك، أطلقها البيزنطيون على إحدى فرقهم العسكرية والتى تلى لديهم فرقة الفرسان، وكان أفراد هذه الفرقة من المرتزقة أو القوات مدفوعة الأجر التى يتم تجنيدها من السكان المحليين وبخاصة من العنصر التركى، وكانت توضع هذه الفرقة دائمًا فى صدارة جيوش الصليبيين، لمزيد من التفاصيل عنها انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، جـ2، ص149، حاشية(1)، ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ت: حسين محمد عطية، ط. القاهرة 1990م، ص92، ص98 حاشية (17)، ناجلا محمد عبد النبى، المسلمون فى مملكة بيت المقدس، ص68، آلان فورى، النظم الرهبانية العسكرية، ضمن كتاب تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ص183.

(2) ناجلا محمد عبد النبى، المرجع السابق، ص 65،

Prawer, The Latin Kingdom, pp.50-51 .

كما ضمت إمارة طرابلس أيضا عنصرًا آخر من عناصر المسلمين ألا وهم الإسماعيلية النزارية[1] الذين اتخذوا من قلاع الدعوة (الرصافة والكهف والخوابى والقدموس والمنيقة والعليقة ومصياف) بجبال النصيرية مستقرًا لهم فى بلاد الشام، وبالتالى فلقد كانت جميع مناطق نفوذهم تدخل ضمن حدود إمارة طرابلس إلا أنه نظرًا لما عرف عن أتباع هذه الطائفة من طاعة عمياء لزعيمهم شيخ الجبل[2] التى قد تصل إلى حد قتلهم لأنفسهم، ولما انتهجه هؤلاء الإسماعيلية من سياسة قتل واغتيال لأعدائهم، كما هو الحال بالنسبة للوزير السلجوقى نظام الملك والأمير مودود أتابك الموصل وكونراد دى مونتفرات، بل محاولتهم قتل صلاح الدين الأيوبى نفسه فى عام1175م/ 571هـ جعلهم ذلك فرقة مرهوبة الجانب سواء من المسلمين أو الصليبيين على حد سواء، لذلك لم يحاول صليبيو الإمارة إثارة المتاعب مع تلك الفرقة. وبلغ من حرصهم لتجنب هؤلاء الإسماعيلية أن وضعوا حدودًا فاصلة بين مناطق سيادتهم وبين مناطق قلاع الدعوة[3]، وكان أقصى ما بلغه الصليبيون لفرض سلطانهم على هؤلاء الإسماعيلية أن جعلوهم يؤدون جزية سنوية

(1) ينسب الإسماعيلية النزارية أو من عرفوا بالباطنية أو الحشاشين Assassins إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق الذى نجح أتباعه فى إقامة الدولة الفاطمية فى أخريات القرن الـ9م/ 3هـ ويعد الحسن بن الصباح الذى أخذ ينادى بإمامة نزار بن المستنصر لدين الله الفاطمى هو المؤسس الفعلى لتلك الفرقة التى اتخذت من قلعة الموت فى جبل البرز جنوب بحر قزوين فى إيران مقرًا لدعوتها الجديدة تلك، ومع مرور الوقت ازداد أتباع هذه الفرقة إلى أن اتخذوا من قلاع الدعوة ببلاد الشام موطنًا ثانيًا لهم، ولمزيد من التفاصيل عن هذه الفرقة انظر : ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار، ص77، خواندمير، تاريخ روضة الصفا، ت: أحمد عبد القادر الشاذلى، ط.القاهرة 1988م، ص71، محمد بن عيسى بن كتان، حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، ط. بيروت 1991م، ص73- ص74،

Marco Polo, The travels, Trans by. Benedetto (L.E), London 1903, pp.49-52.

أسامة زكى زيد، الصليبيون والإسماعيلية، ص65- ص76، برنارد لويس، الحشاشون، سميرة بن عمو، ال. موت أو إيديولوجيا الإرهاب الفدائى، ط. اللاذقية 1996م، ص75.

(2) عنه انظر :

Nowell. (C.E.) The old man of mountain, Speculum, vol. 22, no. 4 (Oct, 1947), pp .497-515 .

(3) Burchard of Mont Sion, p.106 .

لهيئة الإسبتارية، لكن بخلاف ذلك يمكن القول إن هذه الفرقة كانت تتمتع بشكل شبه كامل بالحكم الذاتى[1].

ورغم أن تلك الفرقة شهدت ذروة مجدها فى بلاد الشام خلال القرن12م/ 6هـ إلا أن هذا المجد أخذ يخبو تدريجيًا خاصة بعد أن أقدم الإسماعيلية على اغتيال ريموند الابن الأكبر لبوهمند الرابع فى سنة 1213 م/ 610هـ[2]، وعلى الرغم من أن الشكوك قد حامت حول الإسبتارية باعتبارهم المحرضين لهم على هذا الأمر مقابل إعفائهم من الجزية المقررة عليهم، إلا أن العقاب تحمله الإسماعيلية وحدهم، حيث كان بوهمند عازمًا على الثأر لابنه مهما كانت العواقب، فقام بالتعاون مع الداوية بمهاجمة حصن الخوابى ومحاصرته، ولولا نجدة الظاهر غازى حاكم حلب لهم لفتك بوهند بهم، على أية حال فمنذ هذه الواقعة لم يظهر للإسماعيلية أى دور ملموس على مسرح الأحداث فى بلاد الشام من جديد، إلا أنه على الرغم من ذلك ظل الظاهر بيبرس غير آمن لتلك الفرقة، ومن ثَمَّ أخذ على عاتقه وهو فى سبيله للسعى لإسقاط إمارة طرابلس القضاء على نفوذ هؤلاء الإسماعيلية فى بلاد الشام، فقام فى الفترة الواقعة بين عامى (1269- 1273م/ 667- 671هـ)، بالاستيلاء على كافة حصونهم[3]، وكتعويض منه لهم عن معاقلهم هذه قام بإقطاعهم بعض

(1) بيبرس الدوادارى، التحفة المملوكية فى الدولة التركية، ص68، شافع بن على، حسن المناقب، ص113– ص114، المقريزى، السلوك، جـ2، ص36.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ3، ص219، ابن العديم الحلبى، زبدة الحلب، ص452، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى، ص74، برنارد لويس، الحشاشون، ص214، محمد المقدم، الاغتيالات فى بلاد الشام والجزيرة، ص204.

(3) بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص145– ص146، مختار الأخبار، ص44، شافع بن على، حسن المناقب، ص151، الذهبى، العبر فى خبر من غبر، جـ5، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، ط. القاهرة1974م، ص287، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، م5، ط. بيروت1992 م، ص463– ص464، ابن دقماق، النفحة المسكية فى الدولة التركية من كتاب الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمرى، ط. طرابلس1993م، ص429، ص 435.

الأراضى فى مصر ليضمن بـذلك أن يكونـوا تحت تبعيته المباشـرة وحـتى يبعدهم عن مسرحهم الأصلى فى بلاد الشام، وعلى الرغم من ذلك ظل بعض من هؤلاء الإسماعيلية يقطنون تلك المعاقل ولم يرحلوا عنها؛ غير أنهم لم يعدْ لهم شأن يذكر على ساحة بلاد الشام بشكل عام[1].

ويأتى فى ختام حديثنا عن مسلمى الإمارة التعرض لفرقة أخرى من فرق الشيعة ألا وهى: فرقة النصيرية العلوية، الذين كانوا يدينون كباقى مسلمى الإمارة بالمذهب الشيعى، إلا أنهم كانوا إحدى فرق الشيعة الغلاة الذين أقاموا فى جبال النصيرية التى عرفت باسمهم[2]، والواقع أنه نظرًا لوعورة تلك الجبال من ناحية وشدة مراس النصيرية فى القتال من ناحية أخرى لم يستطع صليبيو الإمارة أن يكون لهم أدنى شكل من أشكال السيادة على تلك الفرقة، بل على العكس من ذلك فلقد لاقى الصليبيون عداءً واضحًا من هؤلاء النصيرية الذين لم يتوانوا عن محاربة الصليبيين وإن كان هذا على نطاق محدود، ومن ثَمَّ فالأرجح أن النصيرية اكتفوا بمتابعة حياتهم على هذه الجبال فحسب ولم يسعوا لأن يكون لهم دور ملموس فى مجريات الأحداث بالإمارة، ولذلك كانت تلك الفرقة من أكثر عناصر المجتمع الطرابلسى انعزالية وتقوقعا على نفسها[3].

أما بالنسبة لأهم مظاهر الحياة الاجتماعية لهذا المجتمع باعتبارها مرآة أكثر إيضاحًا لطبيعته وميوله فنبدأها بالملبس الذى اعتاد أهل الإمارة على ارتدائه فى

(1) جوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع فى الشرق الأوسط (1250-1254م)، ط . الإسكندرية1959 م، ص234، برنارد لويس، الحشاشون، ص221- ص222، سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ط.القاهرة 2001م، ص87.

(2) لمزيد من التفاصيل عن النصيرية انظر:الرازى، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق النشار، ط. بيروت1982م، ص61، محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير "غير منشورة" كلية الآداب – جامعة عين شمس عام1984م، ص 236، حاشية(1).

(3) Burchard of Mont Sion, pp.18-105 .

حياتهم اليومية، ومن المعروف أن ملبس الإنسان يختلف من فئة لأخرى طبقا لشرائع وعادات هذه الفئات، كذلك لتتناسب مع طبيعة المناخ العام لهذا المجتمع، زد على ذلك أن الملبس نفسه قد يختلف من طبقة لأخرى فى المجتمع الواحد وفقا للحالة المادية لكل طبقة من تلك الطبقات، وإذا طبقنا هذا الأمر على إمارة طرابلس سنجد أنه نظرًا للتفوق العددى للمسلمين فيها وطبقًا لشريعتهم الإسلامية التى حرمت ارتداء الحرير على الرجال كانت الملابس القطنية والكتانية وكذلك الصوفية هى الغالبة على ملابسهم، وحتى على ملابس سكان الإمارة من المسيحيين الشرقيين أيضا[1]، نظرًا لتوافقها أكثر مع طبيعة المناخ الحار نسبيا للإمارة وخاصة فى فصل الصيف، لذا كان أمرًا طبيعيًا أن نجد الصليبيين ذاتهم الذين حرصوا على ارتداء أفخر الثياب وأغلاها يقدمون هم أيضا على ارتداء تلك الملابس، بل إنهم حرصًا منهم على ارتداء الحرير لجأوا فى كثير من الأحيان كعادة السكان المحليين إلى ارتداء الملابس الحريرية المنسوجة مع خيوط القطن[2].

كما امتازت ملابس سكان الإمارة جميعها- رغم اختلاف أصولهم الاجتماعية- بطابعها الشرقى الذى غلب حتى على ملابس الصليبيين، فإذا ما نظرنا إلى ملابس نسائهم وجدنا أنهن اعتدن ارتداء الملابس ذات الأذيال الطويلة والأكمام الواسعة الموشاة عادة بخيوط الذهب والفضة وأحيانا بالحلى والجواهر، وفى الغالب كانت تلك الملابس من الحرير ذى الألوان الزاهية الجميلة، كما كن معتادات أيضا على تغطية وجوههن بالحجاب لكنهن لم يرتدينه من قبيل الاحتشام كنساء المسلمين بل لوقاية مساحيق التجميل التى زين بها وجوههن[3]. أما فى الشتاء ، فقد ارتدين عادة الملابس المصنعة من الفراء والمخمل المصنع فى أنطرطوس وطرابلس، بل إن

---

(1) Burchard of Mont Sion, pp.103 – 104 .

(2) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص211– ص212،
Holmes, Life among the Europeans, p.16 .

(3) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص136،
Conder, The Latin kingdom, p.178, Runciman, A History of the Crusades, vol.II, p.332 .

كثيرًا منهن كن حريصات على الإتيان بأجمل الملابس الصوفية والفساتين المصنعة فى الفلاندر وشامبانى وغيرها من المناطق الغربية التى اشتهرت بتلك المصنوعات[1]، ومن وصف ابن جبير للعرس الإفرنجى يتبين لنا أن العروس وما يحيط بها من نساء صليبيات حرصن على ارتداء الملابس الفخمة ذات الطابع الغربى، مما يعنى أن الصليبيين رغم تواجدهم فى الشرق إلا أنهم اعتزوا دائما بلباسهم الأصلى[2].

كما حرصن أيضا على التباهى بارتداء حليهن التى اتخذت أشكالا عدة، منها: الأساور، والحلقان، والخلاخل، والخواتم، والعقود، وعصائب الرأس والأكاليل المصنوعة من الذهب الخالص. والواقع أن الحلى بالنسبة للصليبيات كانت يُعدْ من أهم مقتنياتهن على الإطلاق وخاصة للعرائس منهن[3].

أما عن ملابس الرجال من الصليبيين فقد امتازت هى الأخرى إلى حد كبير بطابعها الشرقى، حيث اعتاد الصليبيون على ارتداء الملابس الفضفاضة المتسعة الأكمام كالجبب، كما ارتدوا الكوفية العربية أو الشملة التى كانت تصنع من وبر الجمال، والعمائم التى كانت تقيهم من حرارة الشمس[4]، إلا أن هذا لا يعنى أنهم لم يرتدوا ملابسهم ذات الطابع الغربى، بل على العكس فلقد ارتدوها غالبًا فى فصل الشتاء الذى شابه كثيرًا طبيعة المناخ فى الغرب الأوروبى والذى تواءم بطبيعة الحال مع ملابسهم الغربية، ويتضح من ملابس الصليبيين حرصهم المبالغ فيه على إظهار البذخ والثراء من خلال ملابسهم، حيث دأبوا على ارتداء الملابس

(1) أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص346، عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص166- ص167، على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص57 – ص58، هنرى بيرين، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ص139.

(2) ابن جبير، الرحلة، ص 242.

(3) ابن جبير، المصدر السابق، ص242، William of Tyre, vol.II, p289 .

(4) فيليب حتّى، لبنان فى التاريخ، ص380، تاريخ سورية و لبنان، جـ2، ص255، Grousset, Historie des Croisades, vol.2, p.318, Jay, Knights of the Crusades, New York 1962, p.70 .

المحلاة بالفراء الثمين والمعاطف المصنوعة بأكملها من الفراء أو المزركشة بالذهب، حتى أن أزرار ملابسهم كانت فى كثير من الأحيان تصنع من الذهب[1]، لدرجة أن رجال الدين كذلك لم يستثنوا من هذا الأمر، حيث نعرف أنهم اعتادوا ارتداء الملابس المصنوعة من الديباج السميك الذى كان يعد من أثمن أنواع الأقمشة فى الإمارة[2].

وبينما كان هذا هو حال الصليبيين ومن برز من السكان الوطنيين لطبقة البرجوازية، كانت الغالبية العظمى من السكان المحليين فى الإمارة تشهد ملابسهم على ما حل بهم من تراجع وانحدار لأوضاعهم المادية، فلقد كانت ملابسهم بشكل عام محدودة وبالية فى أغلبها ومتشابهة إلى حد كبير، لدرجة أنه كان يصعب تفريق أصحابها منها، حيث لم تشهد الإمارة رداءً مميزًا للمسلمين أو المسيحيين عن غيرهم، وإن حرص الأخيرون على وضع أحزمة من الصوف على خصورهم لتميزهم عن المسلمين، لكن على الرغم من أوضاع هؤلاء السكان المالية المتعسرة إلا أنهم حرصوا فى أعيادهم على شراء الملابس الجديدة وخاصة لأطفالهم على سبيل إدخال نوع من البهجة والسعادة لقلوبهم، وعلى هذا النحو كانت الأعياد والمناسبات السعيدة من أكثر الأوقات التى شهد أهل الإمارة خلالها تباهيهم بملابسهم الجديدة بألوانها الزاهية الجميلة فى مجملها[3].

وبجانب ما سبق عرضه من أنماط وهيئات الثياب المختلفة التى ارتداها مواطنو الإمارة، كان هناك نمط آخر من تلك الثياب اختص بنوعية محددة من هؤلاء السكان ألا وهم المحاربون، حيث امتاز هؤلاء برداء صُنع أغلبه من الحديد لوقايتهم من طعنات أعدائهم، وهو مكون من معطف يصل طوله حتى ركبة

(1) عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص46.

(2) الوهرانى، منامات الوهرانى، ص150، Jean de Joinville, p. 314,
هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص189 - ص190.

(3) Burchard of Mont Sion, pp.103 – 104, Holmes, Life among the Europeans, p.4 .

المحارب، صُنع من سلاسل معدنية مع قناع حديدى للوجه أو قبعة للرأس مع واق للأنف والرقبة. وأخيرا كان هناك الحذاء الذى صُنع هو الآخر من الحديد. وكان المحاربون يرتدون فى أغلب الأحيان تحت معاطفهم تلك سترة من الصوف أو الكتان المنقوع فى الخل اعتقادًا منهم أن تلك السترة على هذا النحو بإمكانها أن تقيهم من النيران التى قد تنشب أثناء الحروب[1].

وكأى مجتمع شهد تباينًا واضحًا بين طبقاته، كما هو الحال فى المجتمع الصليبى بصفة عامة والطرابلسى على نحو خاص، كان من الطبيعى أن يشهد أيضا انعكاسا لهذا التباين على طبيعة طعامه وشرابه أيضا، فعلى الرغم من أن الصليبيين فى هذا الأمر تأثروا أيضا بالمجتمعات الشرقية التى عاشوا بين جنباتها فى إقبالهم على الأطعمة الشرقية التى امتازت بتنوع أصنافها الشهية، خاصة أنَّ لاستخدام التوابل التى اعتاد عليها الشرقيون فى أطعمتهم وعلى وجه الخصوص المواد الحريفة منها، كالزنجبيل والقرفة والفلفل والشطة، بالإضافة لاستخدامهم زيت الزيتون والمسلى، كان له أثره فى طيب مذاق تلك الأطعمة[2]، إلا أن الطعام الذى اعتاد على تناوله الصليبيون رغم ذلك اختلف كثيرًا عما تناوله غالبية مواطنى الإمارة من السكان الشرقيين، فقد كانت موائد الصليبيين تزخر بأنواع شتى من لحوم الغزلان والظباء والجمال وكذلك لحوم الضأن والجاموس بالإضافة إلى لحم الخنزير الذى كان يعد الغذاء الرئيسى لديهم، كما كانت على موائدهم أيضا أنواع شتى من لحوم الطير. وقد كانت الوسيلة الأكثر شيوعًا فى طهو تلك اللحوم هى الشواء[3]، أما بالنسبة إلى

---

(1) على السيد على، المجتمع المسيحى، ص 240،

Conder, The Latin kingdom, p.175 .

(2) ابن العديم، الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب، تحقيق سليمى محجوب ودرية الخطيب، جـ1، ط. حلب1986م، ص408، جلال حسنى عبد الحميد سلامة، الاستيطان الصليبى فى الأراضى المقدسة1095-1187م/ 492-583هـ رسالة دكتوراه "غير منشورة"، كلية البنات، جامعة عين شمس2004م، ص165،

Prawer, The Latin Kingdom, p.493 .

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ص517- ص615،

Burchard of Mont Sion, p.18 .

الأسماك بأنواعها المختلفة، والتى كان لها النصيب الأوفر من وجبات سكان الإمارة بمختلف طبقاتهم، سنجد أن طرق طهوها اتخذت أشكالا عدة، فقد كان منها ما يقلى فى الزيت ومنها ما يتم شواؤه، بينما كان جزء لا بأس به من تلك الأسماك يعد عن طريق التمليح أو التجفيف بالنسبة للأسماك الصغيرة استعدادًا لحفظها وتخزينها لاستهلاكها فى مواسم الصيام لدى مسيحىّ الإمارة[1].

كما شهدت موائد الصليبيين أنواعًا عدة من الفطائر والمعجنات حيث نعرف أنهم صنعوا من الخبز وحده أكثر من عشرين صنفًا، هذا إلى جانب الخضراوات والبقوليات التى توفرت على نحو واسع فى الإمارة، إلا أنها لم تتوافر كثيرًا على موائد الصليبيين إذا ما قورنت باللحوم والطيور والأسماك، كما شاع على موائدهم أيضا أطباق المشهيات بمختلف أنواعها كالمخللات وعصير الليمون وغيرها. كذلك السكر باستخداماته المختلفة، سواء فى صنع الحلويات الشامية الذائعة الصيت أو فى صنع المربات أو حتى فى إضافته لعصائر الفاكهة، بات عنصرًا رئيسيًا فى غذاء الصليبيين اليومى فى بلاد الشام، بعد أن استعاضوا به عن العسل الذى اعتادوا على استخدامه فى بلادهم الأصلية[2]، كما كانت الفاكهة بأنواعها العديدة، التى زرعت فى إمارة طرابلس أو التى كان يتم استيرادها من المناطق الإسلامية المجاورة، وخاصة دمشق، كالعنب والتفاح والبطيخ والبرقوق والكمثرى وغيرها من الفاكهة التى تعد جزءًا أساسيًا من موائد الصليبيين[3].

---

(1) محمد مؤنس، الأسماك فى بلاد الشام، ص115- ص116.

(2) ابن العديم، الوصلة إلى الحبيب، جـ1، ص 406، عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص45، على السيد على، العلاقات الاقتصادية ص61، فيليب حتّى، سورية ولبنان، جـ2، ص255، لبنان فى التاريخ، ص379- ص380، محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية، ص134،

Prawer, The Latin kingdom, p.364, pp. 516 – 518 .

(3) ابن العديم، المصدر السابق، جـ1، ص405- ص406،

.Phocas, p.9, Conder, The Latin Kingdom, p.182

أما فيما يتعلق بالمشروبات التى أقبل عليها الصليبيون إلى جانب عصائر الفاكهة المحلاة بالسكر كانت هناك الجعة المتبلة بجوزة الطيب والثوم، بالإضافة للخمور بأنواعها المختلفة والتى كانت تعد مشروبهم الأساسى، وقد كان من حسن حظ صليبىّ إمارة طرابلس أن الإمارة كانت تمتاز بجودة خمورها كالنبيذ المصنع فى مدينة نيفين وكذلك نبيذ حصن الأكراد الذى عرف بمذاقه المسكر كما أسلفت الإشارة من قبل، ومن الطبيعى أن هذه المشروبات فى شهور الشتاء يكون مذاقها باردًا ومنعش إلا أن طبيعة المناخ فى شهور الصيف لم تكن توفر لها هذا الأمر لذلك عول الصليبيون على نقل بعض قطع الثلج الكبيرة الحجم من فوق قمم جبال لبنان القريبة من الإمارة لتقطيعها واستخدامها فيما بعد فى مشروباتهم تلك، بينما كانت مياه الشرب التى يؤتى بها من أنهار الإمارة تمتاز ببرودتها طوال فصول السنة بما فى ذلك فصل الصيف رغم ارتفاع درجة حرارته التى تؤثر على ذوبان بعض ثلوج جبال لبنان لتجرى عبرها وتصب فى تلك الأنهار بكميات كبيرة من المياه الباردة[1].

وجدير بالذكر أن كثيرًا من الصليبين كانوا يقبلون على تناول تلك الخمور بشراهة حتى ينتهى بهم الأمر فى كثير من الأحيان بأن يسقطوا من السكر وهو ما عابه عليهم جاك دى فيترى، كما عاب عليهم أيضا شراهتهم فى الطعام بقوله: "حتى سمنوا وغلظوا وباتوا بطيئين وكسالى"[2]. ولعل هذا يعطينا إشارة إلى مدى ترف الصليبيين الذى وصل فى بعض الأحيان إلى حد الإسراف والإفراط فى مأكلهم ومشربهم دون مراعاة لما قد يحدثه هذا الإفراط من تأثير سلبى على صحتهم، وإن كنت أظن أن هذا الأمر قد شاع أكثر بين العامة منهم لأن طبيعة الحياة العسكرية التى عاشها صليبيو الطبقة الأرستقراطية الحاكمة لم تكن تسمح لهم

(1) Phocas, p.9, Holmes, Life among the Europeans, p.18 .
(2) Jacques de Vitry, p.64 .

بهذا الأمر، كما أن نساءهم وما عرفن به من حب للأناقة والزهو بأنفسهن لم يكن يتفق مع الأجسام الممتلئة البدينة.

أما عن عامة الرعية من السكان الوطنيين وخاصة الفلاحين منهم الذين شكلوا الجانب الأكبر من تعداد سكان الإمارة، فقد كانت طبيعة أوضاعهم المادية لا تتيح لهم تناول اللحوم وحتى الطيور إلا فى نطاق ضيق بعض الشيء سواء فى الأعياد، وخاصة فى عيد الأضحى لدى المسلمين وعيدى الفصح والميلاد لدى المسيحيين، أو فى المواسم والمناسبات السعيدة، أما خلاف ذلك فكان نادرًا ما تؤكل هذه الأصناف من الطعام، إلا أن الأسماك والخضراوات بأنواعها المختلفة وكذلك البقوليات ومنتجات الألبان خاصة الجبن وكذلك الفاكهة بالإضافة إلى الخبز عوضت هذا الأمر إلى حد كبير[1]، وبشكل عام كانت وجبة العشاء فى الغالب تعد الوجبة الرئيسية بالنسبة لهم، وكان من أشهر الأطباق لديهم: الترمس المملح والفول المطهو فى زيت الزيتون[2].

كما نعرف أن هناك أطعمة اقترنت لدى سكان الإمارة المحليين بمناسبات معينة، فقد كان العدس على سبيل المثال يُعد من أطعمة الحداد التى ارتبطت بالمناسبات الحزينة كعيد خميس الأربعين لدى المسيحيين وكذلك فى المآتم، فى حين كان الكعك والفطائر من الأطعمة التى اقترنت لديهم بالمناسبات السعيدة كالأفراح والأعياد[3].

ومن المعروف أن أسواق مدن الإمارة- خاصة الساحلية منها- شهدت حركة تجارية نشطة، وبالتالى كان من الطبيعى أن تكون فى احتياج إلى أماكن تختص بإعداد

(1) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 207، Burchard of Mont Sion, p.10، محمد مؤنس عوض، عالم الحروب الصليبية، ص 105.

(2) على السيد على، المجتمع المسيحى، ص 136.

(3) النويرى نهاية الأرب، جـ1، ص192- ص193، المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط.القاهرة ب- ت، جـ2، ص27.

الأطعمة المطهوة لتفى باحتياجات المترددين عليها من طعام ، لذلك شاعت فى تلك الأسواق الخانات والمحلات التى اختصت بهذا الأمر، فكان منها ما يُعد الأسماك ومنها ما يخصص للحلوى وآخر للفطائر وعلى هذا النحو الكثير من الأطعمة الأخرى[1].

أما عن المشروبات التى شاعت بين مواطنى الإمارة المحليين فعلى الأرجح أنها كانت من اللبن المحلى بالعسل أو السكر أو المضاف إليه بعض حبات التمر، وكذلك هناك عصائر الفاكهة المحلاة بالسكر[2]، والخمور التي اقتصر تناولها على مسيحىّ الإمارة على نطاق محدود بعض الشىء، وفى الغالب كان تناولها يقتصر على أعيادهم ومناسباتهم السعيدة فحسب[3].

ومن المفترض أن السكان المحليين فى إمارة طرابلس كان منهم من هو على دراية كافية بفوائد الكثير من الأطعمة والأعشاب التى تناولوها فى التداوى من الكثير من الأمراض المختلفة، خاصة إذا ما عرفنا أن الطب والتداوى آنذاك لم يكن يعتمد على المواد الكيماوية، كما هو الحال الآن، وإنما كان يعتمد على هذه المواد الطبيعية، ويجب علينا ألا نتجاهل أن إمارة طرابلس آنذاك كانت تُعد واحدة من منابر دراسة الطب والكيمياء فى العالم، ومما لا شك فيه أن هذا الأمر كان له تأثير على توعية مواطنيها بجدوى تلك الأطعمة والأعشاب[4].

تلك كانت لمحة عن طبيعة المأكل والمشرب للفئات السكانية المختلفة التى قطنت إمارة طرابلس خلال القرن13م/ 7هـ أما عن وضع المرأة فى إمارة طرابلس، فالواقع أنه سيصعب علينا أن نعطى شكلًا عامًا ومحددًا لوضع المرأة فى هذا المجتمع

---

(1) Rey, Les Colonies, p.64 .

(2) ابن العديم، الوصلة إلى الحبيب، جـ2، ص503- ص511.

(3) على السيد على، المجتمع المسيحى، ص122.

(4) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 332 – ص333،
Holmes, Life among the Europeans, p.26, Rey, Les Colonies, pp. 178-181 .

دون التعرض لنمطين غاية فى التباين والاختلاف من نساء الإمارة: النمط الأول منهما يتمثل فى نمط المرأة العربية الشرقية التى قلما أن أشارت إليها المصادر العربية على مختلف العصور إلا على استحياء، نظرًا لأن الطبيعة الشرقية للمجتمعات العربية أبت أن يكون للنساء دور إلا داخل بيوتهن، وذلك ليس تجاهلا من الرجال الشرقيين لدور نسائهم فى المجتمع وإنما هى رغبة لديهم فى تكريم وحماية نسائهم ليس أكثر، خاصة أن شئون البيت وتربية الأبناء من المهام الصعبة الملقاة على عاتقها، وعلى هذا النحو تقاسم الزوجان إدارة شئون حياتهما، فبينما النساء فى البيوت يقمن برعاية أبنائهن وشئون بيتهن كان على الزوج تحمل أعباء العمل حتى يوفر لأسرته الدخل المناسب الكافى لإعاشتهم حياة مقبولة، ولا يعنى هذا أن المرأة الشرقية احتجبت عن باقى فئات مجتمعها، بل على العكس لقد خالطت تلك الفئات واحتكت بها فى أمور عدة إما عن طريق التسوق، أو تبادل الزيارات بينها وبين الأقارب والأصدقاء، أو بالاحتكاك مع الجيران والتعامل معهم وحتى من خلال خروجها لمعاونة زوجها فى كسب الرزق، أو حتى تولى هذا الأمر برمته فى حالة عدم قدرة الزوج على إعالة أسرته أو وفاته، خاصة فى المناطق الريفية، حيث كانت المرأة الشرقية تذهب إلى الأسواق وتبيع البيض والجبن والخضر والفاكهة وبعض الطيور والأسماك، لدرجة أن بعضهن عملن بالخدمة فى بيوت بعض الأثرياء، وغيرها من سبل كسب الرزق[1]، إلا أن هذا كله كان على نطاق محدود بعض الشيء، ولذلك امتازت المرأة الشرقية مسلمة كانت أو مسيحية بعفافها وطهارتها ليس عن وازع دينى فحسب، أو لما تربت عليه من عادات وتقاليد، بل عن اعتقاد لديها أن الشرف والكرامة لا يتأتيان للمرأة إلا من خلال عفافها ورقى نفسها عن الدنس والأعمال المشينة[2].

(1) Burchard of Mont Sion, p.103, Powell, The Role of Women in the Fifth Crusade, in the Horns of Hatin, Jerusalem 1992, p.300 .

(2) على السيد على، المجتمع المسيحى، ص68- ص70، فليب حتى، تاريخ لبنان، ص494.

فى حين أننا إذا ما نظرنا للنمط الآخر المتمثل فى المرأة الصليبية سنجدها فى كثير من الأحوال على النقيض من هذا الأمر، فقد اعتادت دومًا على الخروج إلى الحياة العامة والاحتكاك بفئات وأنماط مختلفة من البشر، التى باتت خبيرة بهم من تعاملاتها المتعددة معهم، خاصة إذا ما علمنا أن عددًا لا بأس به منهن كن يعملن بالتجارة[1]، وحتى بالقتال[2]، وعلى هذا فلم يكن من الصعب عليها أن ترتقى لأعلى منصب فى الإمارة ألا وهو عرش الإمارة ذاته، حيث شاهدناها وصية على العرش، كالكونتيسة لوسين التى كانت وصية على ابنها القاصر بوهمند السادس، وكذلك الكونتيسة سبيلا الوصية على ابنها القاصر بوهمند السابع. ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل لقد تولت المرأة الصليبية حكم الإمارة رسميًا فى عهد الكونتيسة لوسى ابنة بوهمند السادس التى كانت آخر من تولت حكم الإمارة من الصليبيين[3]، وعلى ذلك فلقد كان أمرًا طبيعيًا وعاديًا أن نجد النساء الصليبيات يزاحمن الرجال فى شوارع وطرقات مدن الإمارة، ورغـم أن بعضًا منهن حرصن على تقليد النساء الشرقيات فى التواجد فى بيوتهن، وإن كان أزواجهن الصليبيين أكثر منهن حرصًا على هذا الأمر، إلا أن طبيعة المرأة الصليبية لم تألف هذا الأمر كثيرًا، لدرجة أنهن اتبعن وسائل عدة للتحايل على أزواجهن للخـروج من منـازلهن ومنها: لجوؤهن فى كثير من الأحيان لتعلم السحر[4]، ولعل هذا يُظهر لنا مدى جرأة كثير من النساء الصليبيات وعدم التزامهن، بطاعة أزواجهن، نظرًا لأن العلاقة الزوجية التى كانت تجمعهن بهم كان يشوبها فى كثير من الأحيان عدم الوفاق بين الزوجين، الذى قد يكون ناتجًا عن صغر وتباين أعمار الزوجين، حيث

---

(1) Powell, Ibid, pp. 296 – 298 .

(2) الأصفهانى، الفتح القسى، ص188.

(3) Jean de Joinville, pp.296–297, Les Gestes des Chiprois, p.780, Runciman, A History of the Crusades, vol. III, pp. 403 – 408 .

(4) Jacques de Vitry, p.65 .

كان سن البلوغ عند الإناث لديهم الثانية عشرة بينما كانت سن البلوغ عند الذكور منهم سن الخامسة عشرة، وقد يكون هذا الخلاف نابعًا فى الأساس من أن الكثير من تلك الزيجات كان قائمًا على أطماع مادية فى أغلبها، وعلى هذا النحو كان من الطبيعى أن تتطور تلك الخلافات إلى حد الخيانة الزوجية من أحد الطرفين أو من كليهما، فلقد كان هذا الأمر شائعًا بين صفوف الصليبيين[1].

وإن كان هذا حال غالبية النساء الصليبيات فى الإمارة فعلينا أن نعرف أن هناك الكثير منهن كن نساء فضليات يُحتذى بهن فى الاستقامة والطهارة، بل إن بعضهن كن من الورع والتقوى إلى الحد الذى جعلهن يزهدن فى متاع الدنيا برمتها ويلجأن إلى حياة الرهبنة جاعلات من عبادة الله المتعة الحقيقية لديهن، وقد تصورن أن ذلك هو الطريق الأفضل لهن فى الحياة[2].

وإذا كان هذا جانبا من جوانب حياة المرأة فى المجتمع، فهناك جانب آخر علينا أن نلقى الضوء عليه، ألا وهو دور المرأة فى أسرتها كأم ومربية، فبداية من المعروف أن مشاعر الأمومة عند المرأة لا تختلف إذا كانت الأم شرقية أم صليبية، إلا أن طبيعة تربية الأبناء هى التى تباينت فيها بينهن، فقد كانت النساء الصليبيات، وخاصة المتيسرات حالًا منهن، يستعن ببعض الجوارى والخدم فى تربية أبنائهن، خاصة أنهن لم يتواجدن بشكل مستمر فى بيوتهن، الأمر الذى كان له أثره على تباعد أبنائهن عنهن نظرًا لأن دور تلك الجوارى والخادمات قلص من دور الأم المربية، ورغم أن هذا لا يعنى تجاهل المرأة الصليبية لتربية أولادها وتوجيههم وتعريفهم بأمور الحياة، إلا أن الأمر ظل يشوبه بعض الخلل والتمزق فى علاقتها بأبنائها، لذلك لا يدهش المرء أن يعلم أن عقوق الوالدين كان من الأمور الشائعة عند الصليبيين[3].

---

(1) Geoffrey de Vinsauf, Richard of Holy Trinity (Itinerary of Richard I and other to the Holy land), Cambridge 2001, p.4. Jacques de Vitry, p.89 .

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ط. القاهرة 1981م، جـ2، ص 90.

(3) Jacques de Vitry, p.60 .

فى حين كانت النساء الشرقيات فى الإمارة لديهن حرص شديد على ألا يشاركهن أحد فى تربية أبنائهن، حتى أن دور الأب ذاته فى تربية أبنائه لم يكن يوازى دور الأم، خاصة أن الوضع المالى للغالبية العظمى من سكان الإمارة الشرقيين كان متعسرًا بعض الشىء، مما يعنى أن أمر وجود الجوارى والخدم لديهم لم يكن شائعًا على الإطلاق فيما بينهم[1]، وبالتالى فإن دور الأم الشرقية فى أسرتها كان دورًا محوريًا يصعب تجاهله، وكانت المرأة الشرقية بشكل عام حريصة على تربية أبنائها وتنشئتهم على القيم الدينية والأخلاق الحميدة، وقبل هذا وذاك غرس روح الجهاد والشجاعة والكرامة فيهم حتى يتمكنوا، عندما تقوى عزيمتهم، على تولى مهمة المقاومة الشعبية والجهاد فى سبيل الله، ولقد حرصت أن تغرس هذا الأمر فى جميع أبنائها الإناث منهن والذكور على السواء، لذلك فلا غرابة أن نعرف أن من أوائل من تولوا قيادة حركة المقاومة الشعبية فى الإمارة خلال القرن13م/ 7هـ كانت عائشة البشناتية إحدى نساء المسلمين التى لا يزال الطرابلسيون يتحاكون عنها بفخر واعتزاز لا يدانيه اعتزاز إلى وقتنا الحالى، لما استطاعت أن تحققه تلك المرأة بروحها الفدائية من أعمال بطولية فى حروب المقاومة المختلفة ضد الصليبيين إلى أن لاقت وجه ربها عقب استشهادها فى إحدى معاركها ضد صليبيّ إمارة طرابلس، وجدير بالذكر أن ممن تولوا أمر الجهاد إلى جانبها كان شقيقها حسن البشناتى الذى كانت له كذلك مواقفه التى لا تنسى فى مقاومة الاحتلال الصليبي[2]، لكن دون أن نعرض لتفاصيل هذا الأمر أود أن نتصور الأم التى نَشَّأَتْ أبناءها على هذا النحو! على أية مثل عليا وقيم نشَّأتهم! وعلى أى روح للكرامة والإباء غرستها فيهم! فى الواقع أن تلك الأم التى ربت أبناءها كهؤلاء الأبطال الخالدين فى ذاكرة التاريخ

(1) أتانا الرحالة الألمانى بورشارد بلمحة سريعة عن الأوضاع المادية المتدنية للسكان الوطنيين فى الدويلات الصليبية خاصة طائفة الروم الأرثوذكس، لكن الغريب فى الأمر أنه أكد أن كثيرا من الروم الأرثوذكس كانوا يعملون خدما عند المسلمين، مع العلم أن المسلمين فى حد ذاتهم لم يكونوا أفضل حالًا من الروم الأرثوذكس أو غيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى، ومن ثم فالأرجح أن بورشارد قد جانبه الصواب إلى حد ما فى هذا الوصف، انظر:

Burchard of Mont Sion, p.103 .

(2) عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس السياسى والحضارى، جـ 1، ص 558- 559.

الإسلامى، وليس فى ذاكرة أهالى طرابلس فحسب، يصعب علينا بأى السبل إيفاء حقها.

والواقع، أن الأعياد التى تم الاحتفال بها فى الإمارة كانت انعكاسًا واضحًا لتعدد فئاتها وطوائفها الاجتماعية المختلفة التى كان لكل منها أعيادها الخاصة بها، ونظرًا لكثرة تلك الأعياد فسوف نلقى الضوء على الأعياد الرئيسية منها فحسب. وليكن أول ما نبدأ به أعياد مسيحىّ الإمارة من صليبيين ومسيحيين شرقيين، حيث يأتى فى مقدمتها عيد الزيتونة أو ما يعرف بأحد السعف أو أحد الشعانين، أى عيد التسبيح، وعرف بعيد التسبيح لأن المسيح عندما أتى إلى القدس استقبله أهلها وهم يسبحون بين يديه[1]، وكانت عادة المسيحيين فى هذا اليوم أن يطوف أطفالهم بالكنائس حاملين فى أيديهم أغصان الزيتون وسعف النخيل معلق فيها الكعك والثمار والشموع وكذلك الأزهار حيث يندفع الناس عليهم فى سعادة وبهجة لالتقاط إحدى تلك الأغصان لحفظها على سبيل التبرك بها[2].

أما عيد الفصح الذى يسمى بالعيد الكبير، أو كما يعرف بعيد القيامة، فهو اليوم الذى شهد قيام السيد المسيح من قبره، وذلك وفقا لمعتقدات النصارى، وكانت عادة المسيحيين فى هذا اليوم صنع الكعك بالحليب وسلق البيض وتلوينه بالألوان المختلفة، وإهداء تلك الأطعمة فيما بينهم وبين جيرانهم، أما الصليبيون وخاصة الأثرياء منهم فلقد اعتادوا إقامة الموائد الحافلة بأنواع شتى من الأطعمة والمشروبات لكل من يرغب فيها، كما حرص المسيحيون جميعهم خلال هذا العيد على التزين وارتداء أفضل ما لديهم من ملابس، كذلك اعتادوا فى هذا اليوم التنزه على شواطئ الإمارة البحرية منها والنهرية، حيث كانوا يقضون غالبية يومهم هناك فى ركوب المراكب واللعب بالألعاب المسلية والغناء والرقص[3].

---

(1) النويرى، نهاية الأرب، جـ1، ص192، المقريزى، الخطط، جـ2، ص24.

(2) ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، جـ1، ط. النجف1969م، ص80.

(3) الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص280، المقريزى، المصدر السابق، جـ2، ص25، Geoffrey de Vinsauf, p214, Jacques de Vitry, pp.40 -41.

ويأتى بعد ذلك عيد من أهم أعياد الإمارة على الإطلاق ألا وهو عيد ميلاد السيد المسيح، حيث كان يبدأ الاحتفال بهذا العيد من عشية اليوم السابق لليلة الميلاد، إذ كانت الكنائس تبدو فى أبهى صورها بعد أن تزين وتضاء مصابيحها، كما اعتاد الأهالى أيضا فى عشية هذا اليوم على وضع قناديل منيرة فوق أسطح منازلهم وإيقاد النيران وممارسة الألعاب النارية احتفالا بهذا العيد[1]، وفى الواقع أن فرحة المسيحيين فى هذا اليوم تكاد تملأ كافة أرجاء الإمارة ولعل هذا يظهر جليًا فى احتفالات الصليبيين به، حيث كانوا يخرجون للتنزه فى هذا اليوم مرتدين أفخر الثياب متحلين بكل ما هو غالٍ ونفيس، وكانوا يقومون أيضا بعمل حفلات صاخبة تقدم فيها الولائم التى تحتوى على أفخر الأطعمة والخمور وتجرى فيها كافة وسائل المرح والتسلية[2].

أما آخر الأعياد الكبرى لدى المسيحيين فهو عيد الغطاس أو عيد المعمودية، الموافق السادس من شهر يناير من كل عام، وهو اليوم الذى قام فيه القديس يوحنا المعمدان[3] بتعميد السيد المسيح فى نهر الأردن[4]، والذى طبق بدوره نفس الأمر على تلاميذه فيما بعد حيث أمرهم بتعميد الأمم كافة ولهذا كان طقس المعمودية من أهم الشعائر الرئيسية فى الديانة المسيحية، ولقد اعتاد القساوسة فى هذا اليوم أن يطوفوا ببيوت المسيحيين يرشونها بماء مقدس فيما يعرف بعملية (التكريس)، كما

(1) الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص281، المقريزى، الخطط، جـ2، ص25.

(2) على السيد على، المجتمع المسيحى، ص213.

(3) القديس يوحنا المعمدان، هو أحد رجال الدين من يهودا، عاش خلال الفترة التى سبقت ظهور السيد المسيح مباشرة وقد حمل على عاتقه مهمة التبشير بالسيد المسيح حتى ظهر حيث قام بتعميده، وقد لقى مصرعه على يد هيرودس، عنه انظر: متى الإصحاح(1) من1إلى6، الإصحاح(3) من 17:13، مرقس، الإصحاح(6) من14 الى29، لوقا، الإصحاح (9) من7 إلى9، محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون، ص66 حاشية (54).

(4) النويرى، نهاية الأرب، جـ1، ص192، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ2، ص416.

اعتاد المسيحيون على الاستحمام فى هذه الليلة بماء الينابيع وغمر أنفسهم بالماء حتى رءوسهم[1].

هذا بخلاف عيد البشارة وخميس الأربعين وعيد الختان وعيد الأربعين وعيد الخميس، أو ما يعرف بعيد العنصرة، وخميس العهد وسبت النور وأحد الحدود وعيد التجلى وعيد الصلب وعيد رأس السنة الميلادية، بالإضافة إلى عدد يصعب حصره لأعياد القديسين والشهداء[2].

أما عن أعياد اليهود الرسمية التى نصت عليها التوراة فكان عددها خمسة: أولها عيد رأس السنة أو عيد البشارة، الموافق أول أكتوبر، ويستمر ثلاثة أيام حيث يحتفل اليهود خلاله بذكرى عتقهم من نير الفراعنة، وكان من طقوسهم فى هذا العيد ارتداء الملابس البيضاء تعبيرًا عن ابتهاجهم وسعادتهم. أما العيد الثانى فهو عيد الغفران أو عيد(كبور) بالعبرية أو عيد صوماريا، أى الصوم العظيم، ويأتى تاسع يوم من شهر أكتوبر، حيث يقضى اليهود هذا اليوم واليوم التالى له فى انشغال تام بالعبادة والاستغفار والصيام. أما العيد الثالث فهو عيد المظلة أو عيد الظل أو كما عرف بالعبرية بعيد (سكوت)، وكان الاحتفال به يبدأ من الخامس عشر من شهر أكتوبر ويستمر سبعة أيام، وكانت عادة اليهود فى هذا العيد الجلوس تحت أغصان الأشجار وقراءة التوراة. أما العيد الرابع فهو عيد الفصح أو عيد الفطير وكان يوافق الفترة الواقعة بين آخر مارس وأوائل أبريل، وكان يتم فيها غالبا ذبح الأضاحى.أما العيد الخامس فهو عيد الأسابيع أو عيد العنصرة، وكان موعده السادس من يونيو وكانت عادة اليهود فى هذا العيد تناول الأطعمة المصنوعة من الألبان فحسب، وقد كان من أهم مظاهر الاحتفال لديهم بتلك الأعياد النفخ فى

(1) على السيد على، المرجع السابق، ص210.
(2) عن هذه الأعياد انظر: النويرى، نفس المصدر، جـ1، ص192- ص194، المقريزى، المواعظ، جـ2، ص27- ص29.

أبواقهم وإن كان هذا الأمر بطبيعة الحال على نطاق محدود بعض الشيء نتيجة العداوات القديمة التى ترسخت بينهم وبين المسيحيين[1].

ويبقى أن نلقى الضوء على أهم أعياد المسلمين ألا وهما: عيدا الفطر والأضحى، لكن قبل أن نستعرضهما علينا أولًا أن نعرف أن توقيت هذين العيدين مرتبط بالتقويم القمرى لا التقويم الشمسى كأعياد المسيحيين واليهود، لذلك لا يدهش المرء أن يجد أن أعياد المسلمين تتفق أحيانًا مع أعياد المسيحيين أو أعياد اليهود، وأول هذين العيدين طبقًا للتقويم الهجرى عيد الفطر، الذى يوافق الأيام الثلاثة الأولى من شهر شوال، أى عقب نهاية شهر رمضان مباشرة، حيث تنتهى فترة صيام المسلمين، ومن عادتهم فى الاحتفال بهذا العيد إعداد الكعك والحلوى وإهداء بعض منها لجيرانهم وكذلك ارتداء الملابس الجديدة، طبقًا لسُنة نبينا، كما اعتاد المسلمون أيضا الخروج لزيارة الأقارب والأصدقاء والتنزه فى الحدائق. أما ثانى أعياد المسلمين فهو عيد الأضحى، الموافق العاشر من ذى الحجة، حيث يمتد الاحتفال به لمدة أربعة أيام، ومن شعائر المسلمين فى هذا العيد ذبح الأضاحى لكل من له القدرة المالية على ذلك اقتداء بافتداء الله لسيدنا إسماعيل بعد أن كاد والده سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يذبحه طاعة لأمر الله.

كما كان للمسلمين أياما أخرى ذات مكانة دينية تعد بالنسبة لهم أشبه بالأعياد، كيوم رأس السنة الهجرية، وعاشوراء، ويوم مولد النبى، كذلك ليلة الإسراء والمعراج، بالإضافة لليلة النصف من شعبان وأخيرًا يوم وقفة عرفات، ومن عادة المسلمين فى هذه الأيام الإكثار من التعبد والصيام وقراءة القرآن.

أما عن الاحتفالات الاجتماعية فى إمارة طرابلس فالواقع أنها رغم محدوديتها، ما

(1) النويرى، نهاية الأرب، جـ8، ص187- ص188، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ2، ص436- ص 437.

بين حفلات زواج وولادة واحتفالات بالختان أو المعمودية، إلا أن ما شاهدته تلك المناسبات من دروب الاحتفالات والتسلية المختلفة جعل منها ملجأ لمواطنى طرابلس يتناسون فيها مصاعب حياتهم، ففى احتفالات الزواج على سبيل المثال عادة ما كانت تشهد إحضار المهرجين والحواة وأرباب الملاهى والراقصات والفرق الموسيقية، وبشكل عام كان الغناء والرقص وإقامة الولائم يُعدون الجانب الأكبر والرئيسى فى هذه الاحتفالات[1].

أما عن مراسم الزواج نفسها، فقد تباينت إلى حد كبير ما بين السكان الشرقيين والصليبيين فى الإمارة، فلقد كان من عادات الشرقيين فى اليوم السابق لحفل الزفاف وهو اليوم الذى يعرف بليلة الحناء، أنْ تضعَ تضع العروس الحناء فى يديها وقدميها، وكذلك العريس، وبعد ذلك تذهب إلى الحمام بصحبة أهلها وصديقاتها فى جو من البهجة والفرحة والغناء، ويتم بعد ذلك تزيينها وتهيئتها نهائيا لليلة الزفاف، أما فى اليوم التالى فيتم الزفاف فى حفل بهيج يضم جميع الأهل والأصدقاء والجيران من كلا الطرفين فى أبهى ملابسهم، حيث يتم فى ذلك عقد قران العروسين، وبعد ذلك يقوم كلاهما مع الحاضرين بالمرور فى بلدهما على سبيل المثال للإعلان والإشهار بتمام زواجهما حيث ينثر عليهما أهل البلدة الورود والحلوى وماء الورد، ثم يعود العروسان إلى منزلهما لينتهى حفل الزفاف بين ألحان الموسيقى والغناء وتهانى الأهل والأصدقاء[2].

بينما كانت مراسم الزواج لدى الصليبيين، كما يصفها لنا ابن جبير، تشهد عقب عقد قران العروسين اصطفاف الحاضرين من نساء ورجال فى سماطين أمام باب

(1) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص168، ابن جبير، الرحلة، ص242.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية، ص177، على السيد على، المجتمع المسيحى، ص58- ص61،

Holmes, Life among the Europeans, pp.19- 20.

العروس إلى أن تخرج العروس فى أبهى حسنها وجمالها ممسكة بأيدى رجلين، فى الغالب يكون أحدهما والدها أو أقرب الأقرباء لها والآخر هو العريس، ويسير هذا الموكب الهوينى حيث تعزف الموسيقى وتردد بعض الأغانى بين المدعوين مع الرقص على أنغامها، وتسود مظاهر اللهو والتسلية التى شهدتها أفراح الشرقيين أجواء هذا الموكب إلى أن يصل العروسان إلى بيتهما الجديد، بينما يقضى باقى المدعوين يومهم فى وليمة عظيمة أعدت احتفالاً بهذا اليوم[1].

ومن المناسبات الأخرى التى احتفل بها فى الإمارة، ولادة الأطفال- خاصة الذكور منهم- سواء لدى الصليبيين أو المسيحيين الشرقيين وحتى المسلمين، حيث كانوا يقيمون وليمة للأقارب والأصدقاء والجيران، وهى ما عرفت لدى المسلمين بالعقيقة، وكان الضيوف يُحضرون معهم بعض الهدايا كالسكر والأرز والزيت وغيرها فضلا عن مبلغ من المال يتفاوت قدره حسب القدرة المالية لكل منهم، وقد يصل الأمر ببعض الحضور لتقديم خراف إلى أهل المولود كهدية على مقدمه السعيد، بينما كان من عادات الصليبيين فى تلك المناسبة إقامة الولائم التى تستمر عادة من يوم الاثنين وحتى الخميس الذى يعقب ولادة الطفل مباشرة[2].

وأخيرا تأتى مناسبة ختان الأطفال لدى المسلمين واليهود وبعض طوائف المسيحيين كاليعاقبة، وطبقًا لما يرويه جاك دى فيترى، أن تلك العادة طبقت على الأطفال جميعهم من كلا الجنسين، كما هو الحال بالنسبة لطقس العماد أو المعمودية الذى مارسه مسيحيو الإمارة جميعهم سواء كانوا شرقيين أو صليبيين[3].

(1) ابن جبير، المصدر السابق، ص 242، Holmes, Ibid, p.24.

(2) على السيد على، المجتمع المسيحى، ص62- ص65.

(3) Jacques de Vitry, p.72, Letters, p.83, Holmes, Life among the Europeans, p.4 .

وجدير بالذكر أن كثيرًا من الصليبيين اعتادوا إقامة العديد من الحفلات فيما بينهم بخلاف هذه الأعياد والمناسبات التى شهدت غالبية مظاهر اللهو والتسالى السابقة، إلا أن أبرز ما كانت تتسم به تـلك الحفلات، المسابقات الـرياضية، التى كانت تعـقد بين الحضور، من مسابقات الرمى بالقوس والمبارزات بقبضات اليد أو العصى وكذلك السيوف التى كانت من أحب وسائل التسلية لديهم[1].

لكن من الملاحظ أننى خلال عرضى للأعياد والاحتفالات السابقة لم أشر قـط لتواجد المسلمين فى احتـفالات المسيحيين واليهود والعـكس، والواقع أننى تعمدت ذلك لأن تواجد أى منهم فى احتفالات الآخرين كان أمرًا بديهيا وطبيعيا لدرجة أنه كان يصعب تمييز المسلمين عن المسيحيين الشرقيين أو اليهود، نظرًا لأن المجتمعات الشرقية بشكل عام، ومنها مجتمع طرابلس، لم تكن تشهد أى فرق اجتماعى نتيجة المعتقـدات الدينية خاصة فى احتفـالاتهم، ولعل خير دليل على هذا ما أتتنا به مؤلـفات المـؤرخيـن المعـاصرين لتـلك الفتـرة، الـذين أقروا أن غالبية مسيحىّ الإمارة الشرقيين كانوا أكثر محبة وقربًا للمسلمين عن الصليبيين والعكس، لدرجة أنهم فى أغلب الأحيان فضلوا عودة السيادة الإسلامية إلى بلادهم من جديد عن سيادة الصليبيين[2].

وبخلاف هذه الأعياد والاحتفالات كان من العسير أن نقدم عرضًا لمظاهر الحياة الاجتماعية فى إمارة طرابلس دون أن نتعرض لأهم العادات والتقاليد التى تمسك بها المجتمع آنذاك، فمن تلك العادات التى شاعت فى المجتمع الطرابلسى بمختلف فئاته، أنه فى حالة ما إذا ألم بأحد منهم مكروه أو مرض أصابه كان يلجأ إلى الله بالصلاة والصوم والدعاء والصدقات، وفى بعض الأحيان كانوا ينذرون لله

---

(1) على السيد على، المجتمع المسيحى، ص67.

(2) Jacques de Vitry, p.p.67,77, Michael le Syrien, Chronique, vol.III, ed. Par Chabot, Paris1903, p.p270,314,332, Holmes, Life among the Europeans, p.4 .

نذرًا إذا ما أبرأهم مما حل بهم كعادة المسلمين على نذر أضحية لله يتم توزيعها على المحتاجين والفقراء فى الإمارة، وكعادة المسحيين على نذر شموع وبخور وزيت لكنيستهم التى يتبعونها[1]، كما كان هؤلاء المسيحيون يعتقدون فى بركة النباتات الموجودة على جدران كنائسهم وكذلك الأيقونات وقدرتها على شفاء مرضاهم، ليس هذا فحسب، بل كان كثير منهم يعتقد فى قدرات قديسيهم على تحقيق بعض المعجزات وقدراتهم على منح أبنائهم البركة والشفاء، لدرجة أن بعضًا من أتباعهم كانوا يذهبون لقبور هؤلاء القديسين ويؤدون الصلوات لهم والبكاء عند قبورهم والتمسح بها على أمل استرضاء هؤلاء القديسين لمنح مرضاهم القدرة على الشفاء، ولم يقتصر هذا الأمر على القديسين فحسب، بل شمل أيضا تكريم بعض أنواع الأشجار كإحدى أشجار السنديان المعمرة فى جبال لبنان والتى كان كل من الدروز والنصارى يتبركون بها ويعظمونها[2].

بينما كان من اعتقادات المسلمين كما جاءنا فى العديد من المصادر العربية المعاصرة لفترة الدراسة أنه إذا لدغت أفعى أو حية شخصًا ما كان عليه أن يذهب أو يرسل أحدًا نيابة عنه إن لم يستطع الذهاب إلى موضع معين فى سور قلعة الخوابى، فإذا ما شاهد بعينه هذا الموضع برأ الملدوغ مما حل به، وهى معتقدات شعبية توارثتها الأجيال[3].

أما إذا ألم هذا المكروه بأحد من الصليبيين فكان من عاداتهم لطم وجوههم بأيديهم واللجوء لرجال دينهم للاعتراف لهم بخطاياهم وآثامهم، مع انهماكهم فى البكاء والصلوات وتقديم القرابين والنذور، وكذلك الصيام الذى كانوا يفرضونه

(1) على السيد على، المرجع السابق، ص 151.

(2) فيليب حتى، تاريخ لبنان، ص496.

(3) عنها انظر: ابن عبد الله العمرى، مسالك الأبصار، ص133، ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص254؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ4، ص149.

حتى فى بعض الأحيان على أطفالهم الرُّضَع حيث كانوا يمنعونهم من الرضاعة حتى يصرخوا من شدة جوعهم[1]، وذلك على أمل أن يقبل الله منهم توبتهم وأن يخفف عنهم آلامهم، لكن علينا أن ننتبه إلى أن الصليبيين كانوا أقوامًا تـلـم بهم التقوى فى نوبات فجائية وذلك لأن الحياة لديهم كانت مفعمة باللهو والترف إلى أقصى حد.

كما كان لاختلاط الصليبيين بالسكان الشرقيين فى الإمارة أثره الواضح فى إقلاع كثير منهم عن بعض عاداتهم التى لم تكن لتتفق مع طبيعة المجتمعات الشرقية المحافظة، والتى كان منها على سبيل المثال: خروج النساء إلى شوارع الإمارة، فلقد كان من الأمور الملفتة للانتباه أن بعضًا من النساء الصليبيات وكذلك أزواجهن حرصن على تواجد الزوجة فى منزلها بشكل دائم، لدرجة أن جاك دى فيترى عاب على الأزواج الصليبيين منعهم نساءهم من زيارة الكنائس إلا مرة واحدة فى السنة[2]، فى حين أنه بات من العادات الأساسية للمرأة الصليبية خروجها للحمامات العامة إما برفقة زوجها، مع العـلـم أنها فى هذه الحالة كانت تـكشف عن عـورتها أمام رواد الحمام من الـرجال دون استحياء[3]، أو الذهاب بمفردها بمعدل قد يصل لثلاث مرات فى الأسبوع على الرغم من أن خروجها هذا قد يكون فى بعض الأحيان تحت حراسة صارمة، ولعل هذا الأمر يظهر لنا عادة جديدة استجدت على بعض صليبيّ الإمارة ألا وهى عادة النخوة والحمية التى افتقدها غالبيتهم بشهادة المؤرخ العربى أسامة بن منقذ[4].

وكذلك من العادات التى ارتبطت بالسكان المحليين عادة الرجال فى إطلاق

(1) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص 48، على السيد على، المجتمع المسيحى، ص 152.

(2) Jacques de Vitry, p.65 .

(3) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص136، فليب حتّى، لبنان فى التاريخ، ص388.

(4) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص 165.

لحاهم اعتقادا منهم أن اللحية تعد رمزًا للرجولة والشرف، خاصة أن الذكور المخصيين كانوا بدون لحى ولذلك عمد معظم الصليبيين على تقليد الرجال الشرقيين فى إطلاق لحاهم لهذا السبب[1]، كما كانت هناك عادات اقتصرت على فئات بعينها فى المجتمع الطرابلسى عن باقى فئاته الأخرى كعادة تقديس يوم السبت لدى الروم الأرثوذكس، لدرجة أنه لم يكن مسموحًا لهم صيام هذا اليوم باستثناء مجيئه خلال عيد الفصح فحسب، وهم بذلك يتشبهوا باليهود فى بعض عاداتهم[2].

كما كان من العادات التى اشترك فيها اليعاقبة مع الروم الأرثوذكس عادة وشم أذرعهم وجباههم بعلامة الصليب، وكان يتم ذلك بكىّ أذرعهم وجباههم وفى بعض الأحيان وجناتهم بحديد شديد الحرارة على هيئة صليب، وكان غرضهم من ذلك تمييزهم عن أصحاب الديانات الأخرى فى الإمارة من المسلمين واليهود[3].

ومن عادات مواطنى الإمارة الأخرى عادة إخفاء نقودهم داخل أوانٍ فخارية فى باطن الأرض، وربما يكون دافعهم لذلك خوفهم من سطو اللصوص عليهم أو تحسبًا لأية غارة تودى بأموالهم، ومن الاكتشافات الأثرية الحديثة لمدينة طرابلس يتضح لنا أن غالبية تلك النقود كانت ذات قيمة صغيرة حيث كان معظمها من العملات الفضية وليست الذهبية[4]، مما يجعلنا نرجح أن تلك العادة كانت قاصرة فى الغالب على فئاتها السكانية المحدودة الدخل والتى كانت تلك الأموال هى مصدر الثروة الوحيد لديهم، لذلك حرصوا على عدم ضياعها بإخفائها تحت سطح الأرض.

(1) Anonymous pilgrims, p. 28, Jacques de Vitry, P.68 .
(2) Jacques de Vitry, p.72, Holmes, Life among the Europeans, p.4 .
(3) Jacques de Vitry, pp.74 – 75 .

(4) على السيد على، المجتمع المسيحى، ص 151،
Prawer, The Latin Kingdom, p.384.

وكان من العادات التى عرف بها الصليبيون حب المقامرة ولعب الميسر، ومن الواضح أن تلك العادات انتشرت بين مختلف طبقات وفئات المجتمع الصليبى، لدرجة أن لعب النرد والمقامرة على موائد القمار شاع تواجده فى كثير من شوارع مدن الإمارة[1].

ومن أسوأ العادات لدى الصليبيين أيضًا والتى لم يتورعوا عن المجاهرة بها عادة الزنا[2]، التى شاعت على نطاق واسع بين صفوفهم دون مراعاة لدين أو خوف من عقاب، ولم لا وقد كان محتسب اللاذقية على سبيل المثال يدعو بنفسه الغرباء للفجور فى حلقته على حد قول القزوينى[3]، مما يعنى أن هذا الأمر كان يحدث تحت سمع وبصر السلطات الحاكمة فى الإمارة بل بمشاركتهم فى بعض الأحيان، بل الأفدح من هذا أن الانحلال الخلقى للصليبيين بلغ الحد الذى جعل بعض نسائهم ممن مارسن تلك الأعمال المشينة يزعمن (أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان –إلى الله–)[4]!! على أساس أن تلك الأعمال كانت بغرض الترويح عن الرجال الصليبيين، والتخفيف من أعبائهم، ومن البديهى أن كثيرًا من رجال دينهم لم يحاولوا إثناء أتباعهم من الصليبيين عن تلك العادة الفاسدة، وهم أنفسهم منغمسين فيها بشهادة رجل من أبرز رجال دينهم ألا وهو جاك دى فيترى الذى أشار، فى مواضع عدة فى تاريخه لبيت المقدس، لانتشار تلك العادة بين رجال الدين

---

(1) Jacques de Vitry, p.89,Conder, the Latin Kingdom, p.18 .

(2) عن انتشار الدعارة فى المناطق الصليبية، انظر: العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص170، زكى النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية، ص152.

Brundage. (J.), "Prostitution, Miscegenation and Sexual purity in The First Crusade", in Crusade and settlement, ed. By Peter Edbury, Cardiff 1985,

ترجمة حسن عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية 1997م.

(3) القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 259.

(4) العماد الأصفهانى، المصدر السابق، ص170.

وحتى بين الرهبان والراهبات[1] على نحو يكشف لنا الوجه الحقيقى لرجال الدين الصليبيين الذين تظاهروا بالطهر وفى الواقع كانوا يسهلون الرذيلة، بمعنى آخر أن هناك تناقضا بين المثال والواقع المعاش .

وجدير بالذكر أن الصليبيين، وهم على هذا الحال من الانحلال الخلقى، لم يكونوا ليستحوا من القيام ببعض الممارسات الجنسية الشاذة فيما بينهم، خاصة بين الصليبيين حديثى العهد ببلاد الشام والتى كانت البابوية ذاتها المشجع الرئيس لإرسال هؤلاء المخنثين للشرق لمساندة الصليبيين على أمل تطهيرهم لأنفسهم وتكفيرهم عن ذنوبهم[2]، وإن كنت أظن أن غرض البابوية الأساسى من هذا الأمر تخليص أوروبا من تلك الزمرة الفاسدة الماجنة، إلا أنه علينا ألا نبالغ فى تقدير هذه الظاهرة لأنها مهما كانت لم تكن منتشرة فى المجتمع الصليبى على نحو الزنا على سبيل المثال، بل إنها كانت ظاهرة أكثر منها عادة إلا أنها بأى حال من الأحوال تعطينا صورة لمدى الانحلال الخلقى والفساد الاجتماعى الذى استشرى كالوباء بين الصليبيين آنذاك، ولا ننكر هنا الإشارة إلى أن ارتفاع معدلات الجرائم تكشف لنا عن انهيار المجتمع من الداخل.

وقد يرى البعض فى تقييمى للمجتمع الصليبى فى إمارة طرابلس أننى قد تحاملت وبالغت فى نقد هذا المجتمع إلا أنه علينا أن ننتبه إلى أن هذا التقييم لمجتمع كان آيلا للسقوط والانهيار، ومما لا شك فيه أن هذا الانهيار والانحلال لم يكن وليد اليوم أو الأمس وإنما وليد تراكمات لعوامل عديدة لعل أهمها الحياة المترفة اللاهية التى انغمس فيها الصليبيون، كذلك سبل التربية الخاطئة التى اتبعوها فى تنشئة أبنائهم، وقبل هذا وذاك الانقسامات والانشقاقات الواضحة فى صفوفهم حيث كانت المصالح الشخصية هى الحاكم الأساسى فى كافة تعاملاتهم

---

(1) Jacques de Vitry, p.63, 88 .

(2) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 136

وعلاقاتهم بعضهم ببعض، بالإضافة إلى حالة اللامبالاة التى اتسم بها المجتمع الصليبى بمختلف عناصره حتى فى أحلك اللحظات التى واجهوها خلال وجودهم فى الإمارة.

كان ذلك عرضًا لفئات وطبقات المجتمع الطرابلسى مع إيضاح لأهم ملامح الحياة الاجتماعية له، أما الفصل التالى فيتناول نظم الحكم والإدارة فى الإمارة خلال القرن 13م/ 7هـ.

■ الفصل الرابع

نظم الحكم والإدارة

يتناول هذا الفصل بالدراسة نظم الحكم والإدارة التى طبقت فى إمارة طرابلس خلال القرن13م/ 7هـ، وذلك عبر تناولنا للإدارة المركزية للإمارة وكذلك النظم القضائية والدستورية فيها، بالإضافة لتناولنا لنظمها الإقطاعية والمالية ووضع الكنيسة فيها وأخيرًا دور الهيئات الدينية العسكرية بها.

وواقع الأمر أن نظم الحكم والإدارة فى إمارة طرابلس عرفت بتشابهها إلى حد كبير مع نظم مملكة بيت المقدس، نظرًا لأن كلتيهما استمدت أصولها من النمط الفرنسى فى الحكم، ومن هذا المنطلق نجد أن الأمير الذى تولى حكم الإمارة طبقًا لقانون الغزو كان يأتى على رأس الإدارة الحاكمة فيها، حيث كان يعد سيدًا على جميع الأراضى التابعة للإمارة وكان النظام المتبع فى انتقال الحكم هو النظام الوراثى[1]، وعلى هذا النحو انتقل حكم إمارة طرابلس من البيت الطولوشى إلى البيت النورماندى حكام أنطاكية، حيث كان بوهمند الرابع يعد أقرب أقرباء ريموند الثالث، ووفقًا لهذا فقد كان لبوهمند الرابع الحق فى تولى حكم الإمارة طبقًا لقانون الوراثة، ورغم أن ريموند الثالث قد أوصى بأن يتولى ريموند، الابن الأكبر لبوهمند الثالث، الحكم فى إمارة طرابلس من بعده وليس بوهمند الرابع إلا أن هذا الأمر لم يُفقد بوهمند الرابع شرعيته فى حكم الإمارة[2].

(1) جمعة مصطفى الجندى،" نظم الحكم والإدارة فى مملكة بيت المقدس"، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، كتاب تكريمى للأستاذ الدكتور إسحق عبيد، تحرير، محمد مؤنس عوض، ط. القاهرة2003م، ص203.

(2) Eracles, pp.71 -72 .

ومن المعروف أن نظام الوراثة فى العرف الإقطاعى كان يقضى بأن يكون للابن الأكبر وحده الحق فى وراثة الإقطاع كاملًا، كما نص هذا النظام على ألا يكون للإناث نصيب فى تولى الحكم حيث انحصرت الوراثة فى الذكور فقط طبقًا لنظام البكورية، وكتعويض للإناث عن هذا الأمر كن يحصلن على صداق كان يعد بمثابة معاش لهن(1).

أما فى حالة ما إذا مات الأمير الحاكم قبل أن يصل ابنه الأكبر لسن الرشد فلقد كان على الوكيل أو الوصى- وهو منصب يتولاه أقرب أفراد الأسرة للقاصر، وفى حالة عدم وجود أقارب كان يعين من بين الأفصال التابعين- أن يقوم مقام الأمير القاصر فى جميع شئون الإمارة إلى أن يبلغ القاصر سن الرشد، ورغم ذلك شهدت الإمارة عدة حالات تولت فيهما النساء الحكم خلال القرن 13م/ 7هـ.

كانت أولى هذه الحالات عقب وفاة بوهمند الخامس حيث كان ابنه الأكبر بوهمند السادس لا يزال قاصرًا فتولت أمه لوسين الوصاية عليه إلى أن استطاع بوهمند السادس بمساعدة الملك لويس التاسع رفع وصاية أمه عنه قبل الموعد القانونى لبلوغه سن الرشد بأشهر قليلة(2)، بينما كانت المرة الثانية التى تولت فيها امرأة حكم الإمارة عقب وفاة بوهمند السادس الذى مات هو الآخر تاركًا ابنه بوهمند السابع وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من عمره، ورغم محاولات الملك هيو ملك قبرص فرض وصايته على ابن عمه بوهمند السابع إلا أن سبيلا الأرمينية والدة بوهمند السابع لم تعطه تلك الفرصة، حيث تولت هى الوصاية عليه إلى أن بلغ سن الرشد وتولى الحكم بنفسه(3)، أما الحالة الثالثة فكانت عقب وفاة بوهمند السابع نفسه

---

(1) Richard, La Comte de Tripoli, p.45 .

(2) Jean de Joinville, pp.296 – 297,

جوزيف نسيم، العدوان الصليبى، ص 307.

(3) Les Gestes des Chiprois, p.780 .

الـذى مات دون أن يترك وريثًا ذكرًا يتولى الحكم من بعده، ودب الصراع بين لوسى أخته ووريثته الشرعية وبين سبيلا أمه التى طالبت هى الأخرى بأحقيتها فى الحكم، ورغم أن لوسى هى التى استطاعت أن تنتصر فى ذلك الصراع إلا أنها لم تهنأ طويلًا بهذا المنصب حيث كان المنصور قلاوون أسرع منها خطى لإسقاط عرشها[1].

وواقع الأمر، أن الأمير الحاكم فى إمارة طرابلس لم تقتصر حقوقه على كونه حاكمًا للإمارة فحسب، بل كان أيضا سيدًا على أتباعه من البارونات والنبلاء المتولين إقطاعات تابعة للإمارة كأسرة أمبرياتشى حكام جبيل على سبيل المثال، كما كان له الحق فى اختيار الزوج المناسب للإناث اللاتى يرثن إقطاع آبائهم، زد على ذلك أنه كان يحق له عقد المعاهدات أو إعلان الحرب باعتباره القائد الأعلى لقوات الإمارة العسكرية، كما كان الأمير مسئولًا عن تعيين الشخصيات الهامة فى الإدارة المركزية، ورغم كل تلك المزايا والحقوق التى حازها أمير طرابلس إلا أنه كان مقيدًا إلى حد ما فى بعض الحالات برأى أمرائه والمحكمة العليا[2].

أما بشأن الإدارة المركزية فالملاحظ أنها استمدت أصولها من النظام الإقطاعى الغربى حيث كان هناك عدد من الشخصيات الهامة التى عاونت الأمير فى حكم الإمارة وهم الرجال الذين عرفوا بكبار موظفى البلاط، وكان الكونت يختارهم من بين كبار أتباعه من البارونات وكان يأتى فى مقدمة هؤلاء الموظفين:

الحاجب العسكرى أو القهرمان Le seneschal، الذى كان يترأس المحكمة

(1) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص316، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص926، King, The knights Hospitallers, p.350, Runciman, A History of the Crusades, vol.III, PP. 403 – 408 .

(2) جمعة الجندى، نظم الحكم والإدارة، ص204، La Monte, The Feudal Monarchy in the Latin kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932, p.104 .

العليا فى غياب الأمير باستثناء القضايا الجنائية والقضايا المتعلقة بالإقطاعيات، فلم يكن له أن يتصرف فيها إلا بحضور الأمير نفسه، كذلك كان القهرمان رئيسًا للإدارة المدنية، وكان اسمه يذكر دائمًا فى نهاية قائمة الشهود، والقهرمان هذا هو أقرب ما يكون لمنصب رئيس الوزراء فى وقتنا الحالى، لكن من الملاحظ أن الموظف الذى كان يتولى هذا المنصب لم يكن غالبًا من الشخصيات اللامعة فى الإمارة[1].

كما ضم النظام الإدارى أيضا موظفًا عرف بالكونستابل Constable، أو الكنداسطبل كما ورد فى المصادر العربية[2]، أى المقدم العسكرى الأول الذى كان يتولى قيادة الجيش أثناء غياب الأمير، حيث كان مسئولًا عن نظام الجيش وإدارته وقضائه، وممن تولوا هذا المنصب جيسوس دى هان وجيرار كونستابل إمارة طرابلس فى عهد الأمير بوهمند الرابع وكذلك حنا كونستابل طرابلس الذى قاد قوات إمارة طرابلس مع حنا ووليم سادة البترون- أبناء عمومة بوهمند الخامس- ضمن قوات التحالف الصليبى الإسلامى الذى انهزم فى معركة غزة 1244م/ 642 هـ[3].

وكان ينوب عن الكونستابل فى كل اختصاصاته موظف يعرف بالمارشال Le Marechal، كان يعد بمثابة المساعد الرئيسى للكونستابل، وبخلاف الكونستابل والمارشال كان هناك موظف آخر يعرف بالحاجب أو الياور Chamberlain، كان يعد أقرب وأكثر موظفى الإدارة المركزية ارتباطًا بالأمير حيث كان هذا الحاجب مسئولًا عن كل من حاشية الأمير الشخصية وأمواله وموظفى قصره

(1) عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص 159، جمعة الجندى، نظم الحكم والإدارة، ص204،

Runciman, A History of the Crusades, vol.II, p.306 .

(2) ابن القلانسى، الذيل، ص197.

(3) Eracles, p.p. 322. 430,

سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص116،

Grousset, Histoir des Croisudes, t.3, p.417 .

وخدمه، كما كان يشرف على مراسم قسم التبعية الإقطاعية التى يؤديها البارونات والأفصال إلى الأمير[1].

ومن الوظائف الإدارية الأخرى وظيفة كبير كتاب الإنشاء أو الرئيس الأعلى للقضاء Chancellar، وهو منصب كنسى كان يتولاه رجال الكنيسة، وكان هذا الموظف هو المسئول عن كتابة القوانين التشريعية وتحرير الوثائق، وعلى ذلك فقد كان من الطبيعى أن يحمل هذا الموظف خاتم الأمير، وإلى جانب هذا الموظف كان هناك كاتب آخر خاص بالأمير كان يتولى أمر سجلاته[2]، وإن كنت أرجح أن كلا الموظفين السابقين كان عليهما الإلمام باللغة العربية بالدرجة الكافية، نظرًا لأنه كما سبق أن أوضحنا أن الغالبية العظمى من سكان الإمارة كانوا يتحدثون اللغة العربية، ومن الوظائف التى ارتبطت بشخصية الأمير هى الأخرى وظيفة المستشار الذى كان يشترط فيه أن يكون من مواطنى الأمير الصليبيين[3].

أما عن موظفى الإدارة المحلية فيأتى على رأسهم الفيكونت Viscount حاكم المدينة، حيث كان لكل مدينة من مدن الإمارة حاكمها الخاص بها، وكان يختار

(1) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص197، عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص161،123 Prawer, The Latin kingdom, p.123,161 .

(2) جمعة الجندى، نظم الحكم والإدارة، ص224،

Richard, La Comte de Tripoli, p.49, Runciman, A History of the Crusades, vol.II, p.306 .

(3) كانت هناك بعض الوظائف الأخرى التى اختصت بقصر الأمير حاكم طرابلس كوظيفة الساقى وإن لم تكن اختصاصاته معروفة بشكل واضح إلا أننا نرجح أن وظيفته كانت أكثر ارتباطًا بالاحتفالات التى كانت تقام فى قصر الأمير، كذلك كانت هناك وظيفة القيمة على غرفة أميرة طرابلس وفى الغالب أن هذه الوظيفة كانت تشبه وظيفة القهرمانة أو الوصيفة فى قصور الخلفاء والسلاطين، وأخيرًا وظيفة قس الأميرة، ومن الملاحظ أن هذه الوظيفة لم تقتصر على شخص الأميرة فحسب بل لقد كان كثير من سيدات الطبقة الرقية والنساء الثريات فى إمارة طرابلس حريصات على أن يكون لهن قساوستهن – الأجراء – الخاصين بهن، انظر:

Jacques de Vitry, p.65, Richard, Ibid, PP.51-52 .

الفيكونت غالبًا من بين طبقة الفرسان، وكان له تقريبًا جميع صلاحيات الأمير فى تعاملاته مع سكان المدينة التى يحكمها، لذلك لم تكن هذه الوظيفة وراثية. إلا أنه علينا أن نلاحظ أن صلاحيات الفيكونت لم تكن تتعدى على نفوذ نبلاء المدينة، أما عن أهم مسئوليات هذا الموظف، فإلى جانب رئاسته للمحكمة البرجوازية وإشرافه على أعمالها وتنفيذ قراراتها وأحكامها وما يتبع ذلك من تحصيل الغرامات والالتزامات المالية التى كانت تفرض على المتقاضين، كان عليه أيضا إقرار الأمن والسلام فى المدينة باعتباره رئيسًا للشرطة المحلية، وكان يتولى أيضا جباية الضرائب وتحصيل العوائد والمتحصلات المالية المستحقة لسيده الإقطاعى أو الأمير وإرسالها إلى بيت المال بعد أن يخصص جزءًا منها لنفقات الحكومة المحلية[1].

وكان من أهم معاونى الفيكونت موظف يعرف بالمحتسب[2] أو (المشرف على الأسواق)، وهى وظيفة توارثها الصليبيون عن العرب، وكان المحتسب هو المسئول الرسمى عن لوائح الأسواق والرقابة على المتاجر ومنع أساليب الغش والتزوير التى اتبعت فى بيع السلع والبضائع، واكتشاف الفاسد فيها والحيلولة دون بيعها، خاصة السلع التى تتعرض للفساد سريعًا والتى يكثر عليها الطلب فى ذات الوقت كالأسماك واللحوم والخبز، كما كان عليه مراقبة الموازين والمكاييل المستخدمة فى عمليات البيع والشراء وكذلك الإشراف على الصناع والحرفيين، كما كان على المحتسب مراقبة الأسعار فى الأسواق وإيقاف التجار الذين يبالغون فى ثمن بضائعهم وتقديم تقرير بشأنهم إلى الفيكونت، كما كان عليه مراقبة الأسواق ليلًا

(1) Benevinisti. M., The Crusaders in the Holy land, Jerusalem, 1970, p. 28 , Richard, La Comte de Tripoli, pp.40-43, Smith, The Feudal Nobility, p.87 .

(2) يلاحظ أن هناك مؤلفات عديدة فى الحسبة تلقى الضوء على تلك الوظيفة منها:
الشيرزى، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العرينى، ط. القاهرة1990م، ابن تيمية، الحسبة فى الإسلام، ط. القاهرة 1980م، ابن الأخوة، معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق روبن ليوى، ط. كمبردج1937م، ابن بسام، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائى، ط. بغداد1968م.

بمساعدة معاونيه من رجال الشرطة، وكان يقوم بهذا العمل بالتقاسم مع الفيكونت، وكان المحتسب يتقاضى فى نظير عمله هذا 12 بيزانتًا بالإضافة إلى نسبة من عمليات البيع والحجز على ممتلكات التجار[1].

وتقوم على حفظ الأمن فى المدينة الشرطة المحلية التى كان من أهم مهامها حفظ الأمن فى شوارع المدينة وأسواقها، وتنفيذ قرارات وأحكام المحاكم المحلية، إلى جانب تحصيل الإيجارات من المحلات والحوانيت والمخازن، وكانوا يحصلون فى مقابل ذلك على راتب شهرى قدره سته بيزنتات[2]..

والجدير بالذكر، أن هذه النظم الإدارية السابقة هى نفسها النظم التى اتبعتها الأسرة الطولوشية، مؤسسو الإمارة، والتى كان معمولًا بها خلال القرن12م/ 6هـ مما يعنى أنه رغم انتقال حكم إمارة طرابلس إلى البيت النورماندى، حكام أنطاكية الذين كانت لهم نظمهم الخاصة بهم فى الحكم، ورغم اختلاف كلا النظامين إلى حد ما[3]، إلا أن الغريب فى الأمر أن إمارة طرابلس لم تشهد على الإطلاق أى تغيير فى نظم حكمها وإدارتها خلال حكم الأسرة النورماندية.

وترى الباحثة أن هذا الأمر قد يكون مرجعه فى الأساس تخوف الأمراء النورمانديين من استثارة غضب وتمرد الطبقة الأرستقراطية الحاكمة فى إمارة طرابلس، نظرًا لأن هذه النظم هم الذين أرسوها وشغلوا أغلبها وبالتالى فإن المساس بتلك النظم من أمراء البيت النورماندى الذين يعدون دخلاء على الإمارة

(1)Assises de J'erusalem, t.II, in R.H.C., Paris 1843, p243,

يوشع براور، عالم الصليبيين، ص136،

La Monte, The Feudal Monarchy, pp.167 –168, Rey, Les Colonies, p.65, Ziadeh,(N.), Urban life in Syria under the Early Mamlukes, Beirut 1953, pp.118-119, 122-124 .

(2) Assises de J'erusalem, t.II, p.244,

حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص154،

Prawer, The Latin kingdom, pp.410 – 411, Smith, Ibid, p.87 .

(3) Runciman, A History of the Crusades, vol.II, p.308 .

فيه إهانة وتعدٍّ على حقوق تلك الطبقة، ولعل فى المحاولة الوحيدة، من قبل لوسى زوجة بوهمند الخامس لإحداث بعض التغييرات الإدارية فى إمارة طرابلس بتعيين بعض أقاربها الإيطاليين فى مناصب إدارية بالإمارة وما ترتب على ذلك من إثارة سخط وتمرد نبلاء الإمارة[1]، خير دليل على مدى حرص هؤلاء البارونات على مناصبهم ونظمهم الإدارية،كما علينا أن نتنبه إلى أن هذه الحادثة تحمل فى طياتها بعض الضوء على ضعف سلطة الأمير خاصة إذا ما اقترنت بضعف شخصيته كحالة الأمير بوهمند الخامس.

وعلى أيه حال، فلقد ظل هذا النظام الإدارى هو المتبع فى إمارة طرابلس حتى العام الأخير من سقوطها، حيث شهدت الإمارة خلال هذا العام حالة من الفوضى والاضطراب عقب وفاة بوهمند السابع إثر صراع لوسى وسبيلا على حكم طرابلس، مما ترتب عليه تغير محورى فى نظم حكم الإمارة بوضع القومون الجنوى مدينة طرابلس تحت حماية جنوة، وللأسف لم تأتِ لنا المصادر أو المراجع التى تناولت دراسة تلك الفترة بماهية الوضع الإدارى فى إمارة طرابلس آنذاك، ولعل هذا الأمر يرجع لقصر فترة تولى القوميون حكم الإمارة الذى لم يدم إلا لأيام معدودة وبعدها انتقل الحكم ثانية إلى لوسى التى أصبحت الحاكمة الشرعية لإمارة طرابلس[2].

أما عن النظم القضائية والدستورية فى إمارة طرابلس فيأتى على رأسها المحكمة العليا باعتبارها أعلى هيئة قضائية فى الإمارة حيث ترأسها الأمير ذاته، وكان أعضاؤها فى بادئ الأمر من كبار نبلاء الإمارة والإقطاعيين، إلا أنه بمضى الوقت أخذ ينضم لهيئتها ممثلين عن الكنيسة من رجال الدين باعتبارهم من أصحاب

(1) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص368،
Hamilton, The Latin church in the Crusader States, London 1980, p.236 .
(2) Les Gestes des Chiprois, pp.802 – 803, Runciman, A History of The Crusades, vol.III, pp.404 – 406 .

الإقطاعات الكبيرة فى الإمارة، وكذلك ممثلين عن الهيئات الدينية العسكرية الإسبتارية والداوية، على الرغم من أن تلك الهيئات لم تكن تدين بالتبعية للأمير، إلا أنه نظرًا لما امتلكته تلك الهيئات من إقطاعات كبيرة فى الإمارة بالإضافة لما قاموا به من دور مؤثر فى الدفاع عنها، باعتبارهم أكبر قوة عسكرية بها، أصبح من حقهم شرعًا حضور اجتماعات المحكمة العليا، كما التحق فيها بعد بهيئتها ممثلون عن أعضاء القومونات الإيطالية التى ينطبق عليها إلى حد كبير وضع الهيئات العسكرية، حيث كان كثير من أفراد هذه القومونات لديهم فى الإمارة إقطاعات واسعة إلا أن هذه القومونات كانت تتمتع بالحكم الذاتى فى الإمارة وبالتالى لم تكن تتبع الأمير، لكن نظرًا لما كان لتلك القومونات من امتيازات ونفوذ فى الإمارة بفضل قوتها البحرية والعسكرية وثرائها الاقتصادى فلقد أوجب ذلك شرعية وجودها فى هيئة المحكمة العليا[1].

ومما سبق يتضح لنا، أن الصليبيين باختلاف انتماءاتهم حرصوا على أن يكون لهم مكان بارز فى هذه الهيئة القضائية، حيث يمكننا القول إن هذه المحكمة كانت أشبه بالبرلمان، نظرًا لما كانت عليه تلك المحكمة من سلطة مؤثرة فى إمارة طرابلس، فلقد اختصت تلك المحكمة بسن القوانين وإقرارها بمعنى أنه كان ممنوعًا إصدار قانون أو تشريع جديد فى الإمارة إلا بعد موافقتها، كما كان من اختصاصها محاكمة من ارتكب من أعضائها جرمًا يستحق عليه العقاب، بالإضافة إلى التزامها بالفصل فى الشكاوى والقضايا التى يرفعها إليها أحد أعضائها ضد الآخر، كما حدث عندما أقدم رينوار حاكم نيفين على تخطى سلطة سيده الأمير بوهمند الرابع بزواجه من إيزابيلا وريثة حصن عكار دون موافقة بوهمند، وحينئذ لم يستطع الأخير أن ينزل برينوار العقاب الرادع إلا بعد أن التجأ للمحكمة العليا التى أدانت رينوار

(1) جمعة الجندى، نظم الحكم والإدارة، ص214،
La Monte, The Feudal Monarchy, pp.88 – 100 .

وأجازت لبوهمند استرداد إقطاع تابعه ومعاقبته، كذلك كان من اختصاصات هذه المحكمة الفصل فى الجرائم الكبرى كجرائم القتل والخيانة العظمى[1].

وجدير بالذكر، أن هذه المحكمة كما سبق أن ذكرنا كانت تُحُدُّ إلى حد كبير من نفوذ الأمير نظرًا لكونه مرتبطًا فى اتخاذه لمعظم قراراته السياسية بموافقة المحكمة العليا، وبالتالى فإن اتساع قاعدة أعضاء هذه المحكمة كان يزيد من تقلص نفوذ الأمير فى إمارته.

وبخلاف المحكمة العليا وجدت فى إمارة طرابلس محاكم أخرى عديدة كالمحكمة البرجوازية Cours des Bourgeois التى عرفت بالمحكمة الصغرى، وكانت هذه المحكمة خاصة بالصليبيين البرجوازيين، وكان يترأسها الفيكونت حاكم المدينة الذى كان عليه أن يكون على دراية كافية بالشئون المالية والقضائية وكان يعاونه فى قضائها اثنا عشر محلفًا، وكان هؤلاء المحلفون من اللاتين الذين ولدوا أحرارًا وكانوا فى الغالب من العنصر البروفنسالى إلى جانب العناصر الإيطالية، حيث كان الأمير أو السيد الإقطاعى هو المسئول عن اختيار وتعيين هؤلاء المحلفين، وجدير بالذكر أنه كان يحق لأحد الخصوم أمام هذه المحكمة أن يتخذ من هؤلاء المحلفين محاميًا عنه، إلا أنه فى هذه الحالة لم يكن يحق لهذا المحلف الذى تولى الدفاع عن الخصم الاشتراك فى إصدار الحكم[2].

واختصت هذه المحكمة بالنظر فى المعاملات المالية والمدنية بالإضافة للفصل فى القضايا الجنائية الخاصة ببرجوازىّ المدينة وضواحيها من الصليبيين، وكانت تعقد ثلاثة أيام فى الأسبوع وهى أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، باستثناء أيام الأعياد والمواسم، وكان يمتد انعقادها من شروق الشمس حتى غروبها، وكان هذا النوع

(1) Eracles, p.314, Les Gestes des Chiprois, p.663, Hardwick, The Crusader states, p.534, Richard, La Comte de Tripoli, pp.71 – 72 .

(2) جمعة الجندى، نظم الحكم والإدارة، ص218- ص220،
La Monte, The Feudal Monarchy, pp.105 – 107, Richard, La Comte de Tripoli, p.81 .

من المحاكم يوجد فى كل مدينة كبرى من مدن الإمارة، كمدن طرابلس وعرقة وجبيل وأنطرطوس[1].

وكان النظام القضائى المتبع فى كل من المحكمة العليا والمحكمة البرجوازية فى إمارة طرابلس يقر مبدأ المحاكمة عن طريق الأسوياء، أى أنه كان يقضى بمحاكمة المذنب أمام نظرائه ولعل هذا السبب هو الذى جعل رينوار حاكم نيفين يمتنع عن الامتثال أمام المحكمة العليا فى الشكوى التى رفعها ضده بوهمند الرابع نظرًا لتأكده من عدم شرعية موقفه، كذلك أقرت كلتا المحكمتين مبدأ المبارزة كفيصل بين المتخاصمين، إلا أن المحكمة البرجوازية وحدها دون المحكمة العليا أقرت فى التحكيم أيضا المحاكمة عن طريق النار والماء[2].

كما وجدت فى مدن الإمارة أنواع أخرى من المحاكم، منها محكمة المدينة أو ما عُرف بمحكمة السوق أو الفندق Cour de la fonde، وكان يرأسها أحد صليبىّ المدينة الذى كان يعينه الفيكونت وكان هذا الشخص يحمل لقب (Bailli) وكان يعاونه فى هذه المحكمة ستة أعضاء: اثنان منهم من الصليبيين والأربعة الآخرين من المسيحيين الشرقيين، حيث لم يكن بينهم أى قاض مسلم، ومن الضرورى ملاحظة أن هذا النوع من المحاكم قد لجأ إليه الصليبيون ليحل محل المحاكم الوطنية الخاصة بالسكان الوطنيين فى كثير من قضاياهم، إلا أنهم رغم ذلك لم يستطيعوا أن يلغوا نشاط المحاكم المحلية[3].

وكانت محكمة المدينة مكلفة بالنظر فى القضايا التجارية وكذلك القضايا الجنائية المتعلقة بالسكان الوطنيين، إلا أن القضايا الجنائية الكبرى التى قد تصل لحد

(1) Prawer, The Burgesses, p.164, Richard," The Political and Ecclesiastical Organizations of The Crusader states", in Setton , vol.V, pp.222 – 223, Runciman, A History of the Crusades, vol.II, pp.301 – 302 .

(2) ابن منقذ، الاعتبار، ص139– ص140، جمعة الجندى، المرجع السابق، ص219.

(3) Assises de J'erusalem, t.II, p.171, Mayer, The Crusades, Trans by. J.Gillingham, Oxford 1972, pp.171 – 173, Rey, Les Colonies, pp.59 –60, Richard, The Political and Ecclesiastical Organizations, p.244 .

الإعدام أو بتر الأعضاء كانت من اختصاص المحكمة البرجوازية، وكان يجرى بمحكمة المدينة تطبيق قانون العرف عند السكان المحليين حيث كان يحلف كلا الخصمين المحليين اليمين على كتابه المقدس كحلف المسلمين على القرآن على سبيل المثال، كذلك أخذت هذه المحكمة بشهادة الشهود فى حين أنها رفضت المبارزة مبدأ للتحكيم بين المتخاصمين، كما اختصت هذه المحكمة أيضا بتسجيل عقود البيع والهبات بعد إثبات صحتها، وكذلك جباية ضرائب الشراء، وعلى أية حال كان يصح استئناف أحكام هذه المحكمة أمام المحكمة البرجوازية[1].

زد على ذلك، أنه نظرًا لما شهدته موانئ الإمارة من نشاط تجارى مكثف فلقد دعت الحاجة إلى إيجاد نوع جديد من المحاكم تختص بهذا المجال، وبالفعل أقيمت محكمة جديدة عرفت بمحكمة الميناء أو المرفق Cour de la chaina وأطلق عليها أيضا محكمة السلسلة، نظرًا لأن الصليبيين كانوا يلجأون لإغلاق الموانئ بشكل مؤقت بالسلاسل وقت الاقتضاء مع أى من التجار إلى أن ينتهى هذا الخلاف بالمحاكمة[2]، وكانت هذه المحكمة تختص بالنظر فى كل القضايا المالية والقضائية المتعلقة بشحن السفن والجمارك، كذلك بتحصيل الغرامات المالية والرسوم الجمركية الخاصة بالميناء، وكان يختار محلفوها من بين التجار الذين كانوا ذوى دراية كاملة بالقانون البحرى[3].

وكما سبق أن ذكرنا أن الجاليات الإيطالية فى إمارة طرابلس حرصت كل الحرص

---

(1) Assises de J'erusalem, t.II, pp.172 – 173,
حاتم الطحاوى،الاقتصاد الصليبى، ص154– 155، جمعة الجندى، نظم الحكم والإدارة، ص221،
La Monte, the Feudal Monarchy, pp.10 .

(2) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص150،
La Monte &Hennery, The world of the middle Ages, p.364, Smith, The Feudal Nobility, pp.92 – 93 .

(3) جمعة الجندى، نظم الحكم والإدارة، ص221، ولمزيد من التفاصيل عن القانون البحرى الذى طبقه الصليبيون فى بلاد الشام انظر:
حاتم الطحاوى، "القانون البحرى لمملكة بيت المقدس الصليبية، قراءة فى مجموعة قوانين بيت المقدس"، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – مجلد(58)عدد4، أكتوبر 1998م، ص477– 529.

على استقلالها قضائيًا بحيث يكون لها محاكمها الخاصة التى تتولى أمور مواطنيها، وهى المحاكم التى عرفت بالمحاكم القنصلية وكان يتولى رئاستها الفيكونت رئيس الجالية، وكانت هذه المحاكم يشترط فيها عدم اختصاصها بجرائم القتل والسرقة والهرطقة، كذلك قضايا بيع المنازل أو الأراضى والمزارع والحدائق، حيث كانت المحكمة العليا هى الوحيدة المسئولة عن هذا الأمر، وكانت السلطات الحكومية عادة تتدخل من وقت لآخر فى اختصاصات هذه المحاكم، إلا أنه بمضى الوقت أخذت الإدارة المركزية فى الإمارة تترك لهذه المحاكم القنصلية الحق فى مباشرة جميع القضايا المدنية والجنائية التى تـنشب بين سكان الأحياء والقرى التابعة لقوموناتهم سواء كانوا من مواطنيهم أو من العناصر السكانية الأخرى[1].

أما بشأن المحاكم الوطنية فكما سبق أن ذكرنا أن هذه المحاكم تولت أمـور السكان المحليين بمدن الإمارة وقراها، وكان يرأسها رئيس الطائفة الدينية (الرئيس)، وكانت هذه المحكمة تختص بما ينشب من منازعات بين أفراد الطائفة الواحدة لكن بمرور الوقت أخذت محكمة المدينة أو السوق تحل محل المحاكم الوطنية فى قضايا عديدة إلى الحد الذى اقتصرت فيه اختصاصات المحاكم الوطنية على النواحى الدينية والشرعية للسكان المحليين كأمور الزواج والوصاية وما شابه ذلك فحسب[2].

وجدير بالذكر، أن بارونات وكبار السادة الإقطاعيين فى إمارة طرابلس كان لهم أيضا محاكمهم الخاصة بهم والتى تألفت من أفصال السيد الإقطاعى من

---

(1) إرنست باركر، الحروب الصليبية، ت: السيد الباز العرينى، ط. القاهرة1960م، ص79، Smith, Ibid, p.96.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص169، حسين عطية، المسلمون فى الإمارات الصليبية، ص397،
La Monte, Ibid, pp.108, Richard, The Political and Ecclesiastical Organizations, pp.224 – 225 .

الفرسان، وكانت هذه المحكمة تنظر فيما ينشب من منازعات بين أتباعه الفرسان من قضايا مدنية وجنائية، أما فى حالة خرق السيد الإقطاعى لعلاقة التبعية مع أحد أتباعه بتعديه على حقوق الأخير فكان على الفارس حينئذ رفع دعواه إلى المحكمة العليا ذاتها باعتبارها الجهة الوحيدة القادرة على محاكمة السادة الإقطاعيين، كما اختصت المحكمة بالإجراءات القانونية فى نقل الأملاك الإقطاعية داخل حدود إقطاع النبيل أو السيد الإقطاعى سواء بالتنازل عن الملكية أو البيع أو الرهن أو التقسيم أو التبادل، وكان لا يصح هـذا الإجراء إلا بعد موافقة السيد الإقطاعى عليه وتصديقه على صحته، ثم تقوم المحكمة فيما بعد بتسجيل هذه الإجراءات فى سجلاتها، وكانت أحكام المحكمة الإقطاعية نهائية لا استئناف فيها، كما كانت تعد هذه المحكمة أيضا مقرًا لاجتماع السيد الإقطاعى بأفصاله، وبشكل عـام لم تكن لتـلك المحكمة مواعيد محددة تعقد فيها شأنها فى ذلك شأن المحكمة العليا[1].

ومما سبق عرضه عن محاكم إمارة طرابلس يتضح لنا أن الإمارة شهدت أنواعا عدة من المحاكم التى اختلفت فى اختصاصاتها نظرا لاختلاف التركيبة الطبقية للمجتمع الطرابلسى التى قضت بتعدد أشكال تقاضيها وهى بذلك ساعدت إلى حد كبير، بطريق غير مباشر، على زيادة الفرقة بين أفراد المجتمع الطرابلسى، حيث تعاملت هذه المحاكم مع المجتمع على أساس طائفى وطبقى فحسب ولم تتعامل معه باعتباره كيانًا واحدًا لا تقسيم فيه، كما كان من المفترض فى هذه المحاكم إقامتها للعدالة بين أفرادها إلا أن ما لجأت إليه من سبل تحكيم كالمبارزة أو عن طريق الماء يعطينا صورة على مدى هذه العدالة التى اتخذت من القوة والمهارة فى المبارزة وكذلك التوفيق والحظ معيارا لعدالتها، كما علينا أن نعى أيضا أن القانون الصليبى لم يكن منصفًا على وجه الخصوص بالنسبة لرعاياه من المسلمين، حيث وضعتهم فى

(1) Richard, "Feudal Regime", in Setton, vol.V, p.207, Runciman, A History of the Crusades, vol.II, p.302 .

مرتبة أقل من مسيحىّ الإمارة الصليبيين والشرقيين معًا وليس كما ادعت قوانينهم بأن الجميع سواسية أمام القانون[1]، فعلى سبيل المثال نجد أن القانون الصليبى كان يفرض عقوبة شديدة ضد أى مسلم يعتدى بالضرب على أحد مسيحىّ الإمارة سواء كان رجلا أو امرأة، وفى حالة ما إذا تكرر منه هذا الأمر كان يعاقب بالشنق بينما لم يأتِ لنا القانون بالعقاب الذى كان يحل بالمسيحى إذا ما صدر منه هذا الفعل فى حق أى مسلم[2].

ومن ناحية أخرى، يلاحظ أن الأمير حاكم إمارة طرابلس باعتباره مالكًا لجميع أراضيها يعد بمثابة السيد الإقطاعى الأعلى فى إمارته وبالتالى فقد كان من حقه منح أتباعه من النبلاء والبارونات إقطاعيات من أراضى الإمارة يتدبرون أمرها وحمايتها، وفى ذات الوقت يتكفل ريعها لمعاشهم وذلك فى مقابل مطالبتهم بالخدمة العسكرية، لكن نظرًا لصغر مساحة الإمارة لم يتح هذا الأمر الفرصة لقيام طبقة واسعة من السادة الإقطاعيين خاصة أن الأمير كان يجنح دائمًا للاحتفاظ بجزء من أراضى الإمارة تحت تبعيته المباشرة، وبالتالى لم تكن الإقطاعات عديدة وحتى مساحاتها لم تكن هى الأخرى بالكبيرة، ولذلك لجأ حكام الإمارة إلى نوع آخر من الإقطاع ألا وهو الإقطاع النقدى الذى عرف بإقطاعات البيزنت Fief de Besant، حيث كان الأمير يقدر مبلغا معينا من المال إلى النبيل تكفى لمعاشه ومتطلباته من الخدمة العسكرية وبذلك يضمن الأمير وفاء أتباعه من الإقطاعيين بأداء الخدمة العسكرية له فى المستقبل، وكان الإقطاع النقدى عادة عبارة عن حق تحصيل إيجارات مرافق فى المدينة أو نوع من الضرائب كضريبة السوق أو حتى تحصيل رسوم جمركية فى موانئ الإمارة وغيرها من أشكال مصادر الدخل، لذلك كان هذا النوع من الإقطاع مجزٍ هو الآخر كإقطاع الأراضى، ومن ثَمَّ بات اعتماد

---

(1) Assises de J'erusalem, t.II, p. 173 .

(2) حسين عطية، المسلمون فى الإمارات الصليبية، ص397.

عدد لا بأس به من السادة الإقطاعيين على هذه المخصصات المالية من خزانة الإمارة[1].

وجدير بالذكر أن نظام الإقطاع النقدى هذا لم يكن معروفًا فى أوروبا وإنما عرفه الصليبيون عن العالم الإسلامى حيث كان هذا النظام هو المعمول به فى غالبية البلدان الإسلامية آنذاك، لكن على أية حال سواء كان هذا الإقطاع نقدًا أو أراضٍ فمن المؤكد أن حجمه اختلف من تابع لآخر حسب رتبة هذا التابع- السيد الإقطاعى- ومكانته وحتى درجة قرابته من الأمير، فإذا نظرنا إلى إقطاع الأراضى سنجد أن الإقطاع بشكل عام وحدة متماسكة من الأراضى قد يتمثل فى مدينة كمدينة البترون التى كانت واحدة من أهم الإقطاعيات فى الإمارة، لذلك حرص بوهمند الرابع على ألا تخرج سيادة تلك المدينة خارج البيت النورماندى بأن أوكل أمرها لأبناء عمومته وليم وحنا[2]، أو كمدينة نفين أو مدينة جبيل، مع العلم أن مدينة جبيل هذه كان لها شأن خاص فى الإمارة سنوضحه فيما بعد، وقد يكون الإقطاع متمثلًا فى حصن أو قلعة كحصن عكار، أو يكون الإقطاع حتى مجموعة من القرى المتلاصقة، مع العلم أن القرية فى حد ذاتها كانت تعد وحدة قياس الإقطاع[3].

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أنه كان لكل سيد إقطاعى فى الإمارة- سواء كان إقطاعه من الأراضى أو إقطاع نقدى- أتباعه من الفرسان، الذين تكفل برعايتهم بمنحهم أجزاء من إقطاعه فى مقابل الاعتراف بتبعيتهم له من خلال قسمهم يمين الولاء والتبعية الإقطاعية وتقديمهم الخدمة العسكرية له من الفرسان المحاربين، بالإضافة إلى بعض الالتزامات الإقطاعية الأخرى كالمشورة وضريبة الإعانة Aid،

(1) Assises de J'erusalem, t.I, pp.377 - 379, La Monte, The Feudal Monarchy, p.p.144, 148,151, Smith, The Feudal Nobility, p.6 .

(2) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص 366، حاشية 98.

(3) Prawer, The Latin kingdom, p.80, Richard, Feudal Regime, pp.230-232, Runciman, A History of the Crusades, vol.II, p292 .

ومن الملاحظ أن الخدمة العسكرية لم تكن محدودة بوقت معين فى السنة كما هو الحال فى الغرب الأوروبى نظرًا لأن الوضع فى بلاد الشام اختلف كثيرًا عن الوضع هناك، نتيجة عدم شرعية الوجود الصليبى فى الأساس ووقوعه فى وسط حيز إسلامى معادٍ له، وبالتالى كانت مقاومة الدويلات الإسلامية لهذا الوجود الصليبى أمرا طبيعيا، وعلى ذلك كان قيام الصراعات من وقت لآخر بين المسلمين والصليبيين بالإضافة إلى صراعات الصليبيين أنفسهم فيما بينهم، السبب الأساسى الذى أدى إلى أن تكون الخدمة العسكرية غير مشروطة بوقت معين، وإن كانت مشروطة بعدد الفرسان الذين يقدمهم السيد الإقطاعى للأمير فى الحرب، ومن اللافت للانتباه أن السيد الإقطاعى الذى كان يقدم للأمير سبعة فرسان كخدمة عسكرية يعد من كبار السادة الإقطاعيين فى الإمارة، ولنا أن نتصور على هذا الأساس مدى ضعف القوة العسكرية للإمارة، خاصة أن أعدادا كبيرة من هؤلاء الفرسان كانوا يلقون حتفهم فى الحروب التى كانوا يخوضونها ضد بعضهم البعض، ناهيك عن معاركهم مع المسلمين[1].

ومن الملاحظ هنا، أن السادة الإقطاعيين من ذوى إقطاعات الأراضى عمدوا- شأنهم شأن إقطاعى البيزنت- إلى منح كثير من فرسانهم إقطاعات أو مرتبات نقدية، وإن كان فى بعض الأحيان جزء من تلك الرواتب يقدم لهم عينا فى صورة قمح وشعير أو زيوت ونبيذ أو حتى فى صورة علف للماشية، ولعل السبب الذى دفع السادة الإقطاعيين لهذا الإجراء هو صغر مساحة إقطاعياتهم نسبيا، حيث إن كثيرًا من هذه الإقطاعات لم تكن تكفى إلا لتجهيز فارس واحد، ولذلك لم تكن هناك منفعة تعود على السيد الإقطاعى من وراء تقسيم إقطاعه، ولقد نتج عن هذا الأمر أن باتت روابط التبعية الإقطاعية بين الفارس وسيده الإقطاعى أكثر ارتباطًا وولاء عن نظيرتها فى الغرب الأوروبى[2].

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ4، ص 133، أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص159،
Eracles, p.430, Grousset, Histoir des Croisudes, t.3, p.417 .

(2) Prawer, The Latin kingdom, p.66, Smith, The Feudal Nobility, p.8 .

وعلى هذا النحو فمن المتصور أن دخل الفارس السنوى فى إمارة طرابلس خلال القرن13م/ 7هـ، كان يكاد يكفى لتوفير حياة ميسورة له حيث كان ينفق ما يقدر ببيزنت واحد يوميًا، أما فى حالة إذا ما تزوج الفارس وأصبح يعول أسرة فإن هذا الدخل لم يكن يكفى إلا لإعاشته هو وأسرته حياة بسيطة غير مترفة، ووفقًا لهذا النظام الإقطاعى أصبحت الطبقة الحاكمة فى إمارة طرابلس منقسمة إلى جزأين: الجزء الأول تمثل فى كبار النبلاء وكبار ملاك الأراضى الذين كانت غالبيتهم فى الأساس من الصليبيين المفلسين لكن بموجب قانون التبعـية باتوا أثرياء بما حازوه من إقطاعـيات من القرى المحتلة والأملاك المصادرة فى الإمارة، أما الجزء الثانى فتكون من عدد كبير من الأتباع الفرسان محدودى الدخل[1].

وجدير بالذكر، أن إقطاعىّ الأراضى، سواء كانوا من السادة الإقطاعيين أو من صغار الفرسان، لم يكونوا على اتصال مباشر بإقطاعاتهم فى المناطق الريفية حيث كانت المدينة أو القلعة هى مركز الإقطاعية ومقر السيد الإقطاعى ومركز إدارته وحتى لو كان الإقطاع متمثلًا فى عدد من القرى الريفية فكان الإقطاعى أو تابعه يقيم برجًا أو قلعة وسط تلك القرى يحيا فيها ويباشر من خلالها شئون إقطاعه، ومما لا شك فيه أن التركيبة السكانية فى تلك الإقطاعات اختلفت من مكان لآخر، ففى المدن على سبيل المثال كان النبلاء والفرسان والبرجوازيون من الصليبيين وغيرهم من السكان الوطنيين يخضعون جميعًا لسلطة السيد الإقطاعى، فى حين كانت التركيبة السكانية فى المناطق الريفية تتألف من الفلاحين المسلمين والمسيحيين الشرقيين، أما القلاع، وخاصة الواقعة على حدود الإمارة كحصن مرقية على سبيل المثال، فكان يغـلب عـلى قاطنيها الطبيعة العسكرية إلى حد ما، وبالتالى اخـتلفت طبيعة الإدارة البارونية من مكان لآخر من تلك الأماكن، وإن كانت محكمة السيد

(1) جرت القاعدة حسب ما يذكر ريموند الصنجيلى، بأن لأول قادم من الصليبيين الحق بموجب قانون الغزو Law of Conquest فى أن يملك ما يستولى عليه من قلعة أو مدينة بشرط أن يرفع علمه عليها، وأن ينزل بها حامية . انظر :
إرنست باركر، الحروب الصليبية، ص67،64.Prawer, The Latin kingdom, p

الإقطاعى التى عرفت بالمحكمة الإقطاعية هى الأداة الإدارية الرئيسية المشتركة فى جميع هذه الإقطاعيات[1].

وكانت السمة الأساسية فى النظام الإقطاعى أنه كان نظاما وراثيا، أى أن الإقطاع يظل فى أسرة التابع الإقطاعى، إلا فى حالات قليلة ينتقل فيها الإقطاع لأيدى أخرى، كحالة إذا ما توفى التابع الإقطاعى تاركًا أرملته أو ابنته دون زواج فيصبح الأمير أو السيد الإقطاعى الأعلى مكلفًا باختيار الزوج المناسب لأى منهن لينتقل الإقطاع إلى الزوج الجديد، كما حدث عندما انتهت سلالة حكام البترون الأصليين فى شخص وليم دوريل الذى ترك ابنته ووريثته سيسل دون زواج حيث قام ريموند الثالث أمير طرابلس حينئذٍ بتزويجها من ثرى بيزى يدعى بليبانوس Plebanus، الذى ضمن بموجب هذا الزواج انتقال إقطاع مدينة البترون له وذلك بعد أن دفع عشرة آلاف بيزنت لريموند الثالث حتى يضمن سيادته على هذا الإقطاع[2].

أما الحالة الثانية، فهى إذا ما انتهت أسرة الإقطاعى دون أن يترك من يرثه، حيث ينتقل الإقطاع آنذاك لسيده الإقطاعى الأعلى الذى يصبح صاحب الحق الكامل فى التصرف فى هذا الإقطاع إما بضمه إلى أملاكه الخاصة أو بنقله لسيد إقطاعى جديد كما حدث فى البترون أيضا عندما مات بليبانوس دون أن يعقبه وريث ذكر كان أو أنثى فانتقل إقطاعه إلى سيده الإقطاعى الجديد بوهمند الرابع الذى نقل ملكية الإقطاع إلى أبناء عمومته حنا ووليم.

أما الحالة الثالثة التى كان ينتقل خلالها الإقطاع إلى السيد الإقطاعى الأعلى أو الأمير، فتمثلت فى خرق التابع الإقطاعى لقانون التبعية الإقطاعية sur la ligece

(1) Smith, The Feudal Nobility, pp.9 – 11 .

(2) هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص 327،

Richard, Feudal Regime, p.231 .

Assises وذلك إما بإثبات تهمة الخيانة العظمى على الإقطاعى أو بتصرفه فى إقطاعه بالبيع أو الإيجار وغيرها من الإجراءات المتعلقة بملكية الأراضى الإقطاعية دون موافقة الأمير والمحكمة العليا(1).

كذلك فى حالة عدم التزام الإقطاعى بمتطلباته من الالتزامات الإقطاعية، وأخيرا فى حالة إذا ما أقدم الإقطاعى على الزواج دون موافقة سيده الإقطاعى الأعلى، نظرًا لأن علاقة الزواج والمصاهرة كان من شأنها نقل الميراث الإقطاعى إلى سيد إقطاعى آخر وبالتالى كان هذا الأمر سيؤثر على طبيعة النظام الإقطاعى بأكمله فى الإمارة، كما حدث عندما أقدم رينوار حاكم نيفين على الزواج من إيزابيلا وريثة حصن عكار دون موافقة سيده الإقطاعى الأعلى الأمير بوهمند الرابع، حيث إن الخطورة فى ما أقدم عليه رينوار من خلال هذا الزواج لم تكن فى علاقة الزواج ذاتها بقدر ما تمثلت فى إقدام رينوار على ضم إقطاع حصن عكار، الذى كان من الإقطاعات الكبرى فى الإمارة، إلى جانب إقطاعه هو شخصيا ألا وهو إقطاع مدينة نيفين التى كانت من الإقطاعات ذات الشأن فى الإمارة، وبالتالى كان تمكين رينوار من فرض سيطرته على إقطاعىّ مدينة نيفين وحصن عكار من شأنه أن يزيد نفوذه وقوة شوكته فى الإمارة وهو ما اتضح جلياً من خلال تمرده على سيده بوهمند الرابع وعدم مبالاته بقرارات المحكمة العليا بإدانته وتمكين بوهمند الرابع من مصادرة إقطاعاته(2).

أما فيما يتعلق بنمط النظام الإقطاعى ذاته فى إمارة طرابلس، فالواقع أنه يصعب علينا وضع إطار محدد لهذا النظام نظر لاختلاف طبيعة العلاقة الإقطاعية من تابع لآخر، ويتبين ذلك إذا ما نظرنا إلى إقطاعات الجاليات الإيطالية وكذلك إقطاعات الكنيسة والهيئات الدينية العسكرية الإسبتارية والداوية، حيث سنجد أن تلك

(1) Conder, The Latin kingdom, pp.171-172, La Monte, The Feudal Monarchy, p.150, Richard, La Comte de Tripoli, p.72 .
(2) Eracles, p.314, Runciman, A History of the Crusades, vol.III, P.89 .

الإقطاعات تميزت إلى حد كبير بالاستقلالية عن تبعية الأمير، وإن حرص الأخير على إعلان سيادته على تلك الإقطاعات من وقت لآخر، فى حين كان إقطاع آخر كإقطاع مدينة جبيل كاد يتمتع بالاستقلال الكامل عن تبعية الأمير، حيث كان لحكام جبيل الحرية الكاملة فى التصرف فى إقطاعياتهم وكذلك تقديم المنح والامتيازات التجارية، كما كانت لهم محاكمهم الخاصة وكان لهم أيضا حرية عقد المعاهدات والاتفاقات، ووفقا لهذا يمكننا القول إن تبعية جبيل لإمارة طرابلس كانت تبعية اسمية أكثر منها تبعية فعلية، والأصح أن العلاقة التى كانت قائمة بينهما كانت أقرب لكونها علاقة ندية، ولعل ذلك يظهر جليًا من خلال علاقات المصاهرة العديدة التى ربطت كلتا الأسرتين الحاكمتين فى طرابلس وجبيل خلال النصف الأول من القرن 13م/ 7هـ[1]، وكذلك من خلال التحالفات التى قامت بينهما كما حدث عندما تحالف بوهمند الرابع مع أسرة أمبرياتشى بقيادة جاى حاكم جبيل خلال صراعه مع تابعه رينوار حاكم نيفين، وكذلك خلال صراعه مع الملك ليو الثانى ملك أرمينيا على حكم إمارة أنطاكية، ولعل علاقـة الندية هذه تظهر بشكل أكثر وضوحًا خلال النصف الثانى من هذا القرن عندما أخذت العلاقات بين كلتا الأسرتين فى التدهور إلى أن وصل الأمر بينهما إلى حد المواجهات العسكرية والحروب الأهلية[2].

أما عن النمط الإقطاعى الثالث والذى كان أكثر شيوعا فى الإمارة، فهو الإقطاع التابع لسيادة الأمير مباشرة كإقطاع البترون وحصن عكار، وجدير بالذكر أن هذا النوع من الإقطاع كان له الحق فى بعض مظاهر الاستقلال الذاتى عن سلطة الأمير

(1) حسين عطية،إمارة أنطاكية الصليبية، ص268.
(2) عن الحروب التى دارت بين كلتا الأسرتين، انظر :
Les Gestes des Chiprois, pp. 746 – 750,
سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص134– ص135،
Grousset, Histoir des Croisudes, t.3, pp.686 – 688 .

كوجود محاكم خاصة لتلك الإقطاعات، كذلك حق السيد الإقطاعى فى منح الامتيـازات التجارية داخـل نطاق إقطاعيته لكن خلاف ذلك كانت الإقطاعية تخضع لسلطة الأمير الفعلية[1].

لكن الأمر المؤكد فى نمط العلاقة الإقطاعية بين الأمير وأتباعه من السادة الإقطاعيين أن هذه العلاقة شهدت نوعًا من الخلل والاضطراب خلال القرن 13م/ 7هـ، والواقع أن هذا الأمر يرجع لعوامل عديدة ومتباينة منها انشغال بعض حكام الإمارة بشئون أخرى جذبت انتباههم عن النواحى الداخلية فى الإمارة، كما هو الحال فى عصيان رينوار الذى استغل انشغال سيده بوهمند الرابع فى صراعه مع ريموند روبين ابن أخيه وليو الثانى ملك أرمينيا فى حرب الوراثة فى أنطاكية، خاصة بعد أن لقى رينوار الدعم القوى من أطراف خارجية كان لها تأثير فعال فى ترجيح كفته بعض الوقت فى صراعه مع بوهمند الرابع، والتى تمثلت فى ملك مملكة بيت المقدس الملك عمورى الثانى وكذلك عدد من بارونات مملكته[2].

كما كان لاتخاذ بعض حكام إمارة طرابلس لمواقف تعسفية غير حكيمة مع أتباعهم سببًا آخـر فى تـأزم العلاقـة الإقطاعيـة بينهـم وبين هـؤلاء الأتبـاع، كما حدث عندما حاول بوهمند السادس جعل أسرة أمبرياتشى حكام جبيل الجنوى الأصل يقدمون على مساندة البندقية فى حربها ضد الجنوية عند سواحل بلاد الشام، والتى عرفت بحرب القديس ساباس، ولقد ترتب على هذا الموقف الذى اتخذه بوهمند السادس من سادة جبيل أن أعلن هنرى حاكم جبيل استقلاله عن إمارة طرابلس مما ترتب على هذا الموقف الذى لم يقدر بوهمند السادس عاقبته قيام حرب

(1) La Monte, The Feudal Monarchy, p p.143 – 144, Runciman, A History of the Crusades, P.298, Smith, The Feudal Nobility, pp.5 – 6 .

(2) Les Gestes des Chiprois, p.663,

موضى عبد الله السرحان، بيروت تحت الحكم الصليبى، ص207– ص208،

Hardwick, The Crusader states, p.534 .

أهلية داخل إمارة طرابلس بينه وبين أسرة أمبرياتشى استمرت لسنوات عديدة تنخر فى عضد الإمارة إلى أن أهلكتها تمامًا وأسفرت عن سقوطها فى نهاية المطاف[1].

إلا أن أهم تلك العوامل التى أخلت بالنظام الإقطاعى فى الإمارة يعود فى الأساس لضعف شخصية الأمير الحاكم ذاته وعدم قدرته على السيطرة على مقاليد الحكم فى الإمارة بشكل قوى وفعال، كما هو الحال بالنسبة لبوهمند الخامس وكذلك بوهمند السابع، خاصة أن عهدهما شهد تمادى نفوذ أتباعهم من السادة الإقطاعيين، ففى عهد الأول- بوهمند الخامس- نجد أن شخصية زوجته لوسى طغت عليه بشكل واضح، ولعل ذلك يظهر جليًا عندما عزمت على تنصيب بعض أقاربها فى مناصب مرموقة فى إمارة طرابلس، إلا أن بارونات الإمارة وسادتها الإقطاعيين ومنهم حاكم البترون- ابن عم بوهمند الخامس يوحنا الأنطاكى- وقفوا أمام تلك المحاولة من قبل لوسى وزوجها بوهمند الخامس وثاروا عليهما مما أرغمهما على التراجع عن موقفهما[2]، ولقد كان فى تلك الحادثة الإشارة الأولى على تزايد نفوذ السادة الإقطاعيين، الذى استمر فى التمادى حتى بلغ فى عهد بوهمند السابع أقصى مراحل التمرد، خاصة من قبل سادة جبيل الذين وصل بهم الأمر إلى حد إلحاق الهزيمة العسكرية ببوهمند السابع نفسه، وللأسف تعامل بوهمند السابع مع هذا التمرد برعونة وتهور بدلا من تدبر هذا الأمر بشىء من الحكمة والجدية، خاصة أن خطر الغزو المملوكى للإمارة كان بالقريب وليس بالبعيد، إلا أننا نجده رغم ذلك يتعامل بمنتهى الوحشية مع أسرة أمبرياتشى بأن قبض على بعض

(1) Les Gestes des Chiprois, pp.746 – 749,

سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص122– ص123،

King, The knights Hospitallers, pp.254 – 255 .

(2) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص368،

Runciman, A History of the Crusades, vol.III, P.191 .

أفرادها. ومنهم جاى حاكم جبيل ودفنهم فى الأرض حتى أعناقهم ثم تركهم يموتون جوعًا، ومن الطبيعى أن مثل هذا الفعل الانتقامى ما كان ليترك دون رد رادع من قبل أسرة أمبرياتشى التى راسلت فيما بعد المنصور قلاوون وحرضته على مهاجمة طرابلس، وهكذا بفعل أحمق ومتهور لبوهمند السابع أدى إلى ضياع آخر ملك لأسرته فى بلاد الشام[1].

ومن منظور آخر سنجد أن الأوضاع المالية فى إمارة طرابلس كان من الطبيعى أن ترتبط بنظمها الإقطاعية ارتباطا وثيقا خاصة بالنسبة لموارد الدخل المالية فى الإمارة، والتى برع السادة الإقطاعيون والسلطات الإدارية الحاكمة الأخرى- سواء كانت متمثلة فى الأمير أو الكنيسة أوالجاليات الإيطالية أو الهيئات الدينية العسكرية - فى استحداثها من خلال الأعباء المالية المختلفة والعديدة التى أثقلت كاهل السكان الوطنيين، خاصة الذين عملوا منهم بفلاحة الأراضى الزراعية والتى كان من أمثلتها على سبيل المثال ضريبة الخراج Carragium، التى كانت تعد الضريبة الرئيسية التى أداها الفلاحون عن محاصيلهم الزراعية، حيث كانت الأراضى الزراعية تقسم إلى وحدات زراعية تقاس بوحدة الباريليات Parilliata وهى وحدة قياس من أصل بروفنسالى تعادل الفدان تقريبًا، وكان استخدامها شائعًا فى إمارة طرابلس، كذلك وحدة الكابلاريا Caballaria التى كانت من أصل نورمانى، وكان الفلاح يدفع نحو ربع أو ثلث محصوله عن كل قطعة أرض تقاس بالوحدات السابقة، وقد تصل هذه الضريبة إلى نحو نصف المحصول على محاصيل الفاكهة والزيتون، ولذا كانت هذه الضريبة تعد من أهم مصادر الدخل الرئيسية فى الإمارة[2].

(1) ابن بهادر، فتوح النصر فى تاريخ مصر، مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم72 تاريخ، ورقة226، Grousset, Histoir des Croisudes, t.3, pp.688 – 690, Runciman, The Crusader states, pp.587 – 588 .

(2) Prawer, The Crusader's Kingdom; European Colonialism in middle Ages, New York 1972, p.375, Sidelko, Muslim Taxation under Crusader rule , in Gervers.(M.).& Powell (P.), Tolerance and Intolerance, New York 2001, pp.65 – 69, Smith, The Feudal Nobility, pp.44 – 45 .

كما كان لرجال الجهاز الإدارى فى القرية كالريس(رئيس القرية) والترجمان وكاتب القرية بعض الالتزامات المادية التى كان يؤديها الفلاحون لهم كامتياز على قيامهم بوظائفهم، كما التزم الفلاحون بدفع نوع آخر من الضرائب عُرف بضريبة الإتاوة أو الجباية xenia أو exenia وهى كلمة من أصل بيزنطى تعنى الهبات أو الهدايا، حيث كان الفلاح ملزمًا بدفع هذه الضريبة ثلاث مرات فى العام، وذلك فى موسم الحصاد وعيد رأس السنة الميلادية وعيد الفصح، وكانت هذه الضريبة فى الغالب تقدم عينًا على هيئة بعض الدجاج والجبن والأخشاب وفى بعض الأحيان كان يقدم معها الماعز وإن كان هذا الأمر لم يكن شائعًا كثيرًا، وقد تقدم هذه الضريبة فى بعض الأحيان على هيئة قدر من القمح وقدر آخر من الشعير، وجدير بالذكر أنه من خلال الضرائب السابقة قدر متوسط دخل القرية بما يتراوح ما بين 3000 و5000 بيزنت، مع العلم أن بعض القرى القريبة من المراكز العمرانية كان متوسط دخلها أضعاف هذه النسبة[1].

وبخلاف تلك الضرائب كانت هناك أنواع أخرى من الأعباء المالية التى فرضت على الأراضى التى تروى مباشرة من الأنهار دون اعتمادها على مياه الأمطار، بالإضافة إلى الضرائب التى فرضت على نقل المحاصيل إلى الأجران ومخازن الغلال التى عُرفت باسم Rasium، وعلى مرافق الخدمات العامة كالحمامات والطواحين والمعاصر وصهاريج المياه والأفران، كفرن دير الضريح المقدس بتلة الحجاج، وغيرها من المرافق التى كانت ضرورية للحياة اليومية لمواطنى الإمارة، ومن الضرورى هنا أن ندرك أن مثل تلك المرافق كانت تُدرُّ عائدا مجزيا للإمارة، ففى قلعة المرقب على سبيل المثال كان أحد أفرانها يدر دخلًا قدره 150بيزنتًا فى السنة، فما بالنا بدخل مرافق الإمارة بأكملها ؟! بالإضافة إلى ما سبق ذكره كانت هناك

(1) على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص177، ناجلا محمد عبد النبى، المسلمون فى مملكة بيت المقدس، ص64.

التزامات مالية فرضت على حق استغلال الغابات والمراعى وعلى الماشية والأغنام ومناحل العسل وحتى على جمع الحطب الذى يستخدم للطهو أو التدفئة[1].

كما كان لاستخدام الموازين والمكاييل ضرائبها الخاصة التى عُرفت باسم (Mensuragium) وكانت هذه الضريبة ذات دخل مادى مجزى لخزانة إمارة طرابلس نظرًا لتنوع استخدام تلك الموازين والمكاييل فى النشاطات التجارية المختلفة، كما فرضت الضرائب أيضا على الآلات الموسيقية كالدفوف والطبول والأبواق والمزامير وغيرها، وكانت هذه الضريبة تصل لنحو 500 بيزنت سنويًا، هذا بالإضافة إلى الضرائب التى فرضت على الجزارين وبائعى لحم الخنزير وعمال المذبح والمسلخ والتى قدرت بنحو400 بيزنت سنويا، و160 بيزنتا على باعة زيت السمسم، ونفس المقدار على باعة الليمون، و70 بيزنتا على باعة السمك، و22بيزنتا على باعة الألبان وباعة النبيذ وعلى هذا النحو تم فرض ضرائب مختلفة القيمة على غالبية السلع والمنتجات فى إمارة طرابلس[2]، وحتى على التجار والمسافرين عبر موانئها والتى كان منها على سبيل المثال:

ضريبة الرسو Anchoragium، وتقدر بمارك فضى واحد تدفعه كل سفينة راغبة فى الرسو فى أى من موانئ الإمارة، هذا بشأن السفينة أما المسافرين على متنها من تجار وحجاج وفرسان فكان يجبى منهم ضريبة أخرى تسمى التيركياريا Terciaria أوTertienaria كما عرفت بها فى إمارة أنطاكية، وقدرت هذه الضريبة بنحو ثلث نفقات الرحلة، ونظرًا لمبالغة قيمة هذه الضريبة فلقد كانت الجاليات الإيطالية كثيرًا

(1) Prawer, The Latin kingdom, p.82.

حسين عطية، المسلمون فى الإمارات الصليبية، ص385، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص205– ص206،

Smith, The Feudal Nobility, p.p.44, 89 .

(2) على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص170– ص171،

Prawer, The Latin kingdom, pp.410 – 411 .

ما تسعى للإعفاء من هذه الضريبة أو تخفيضها كما حدث للبيازنة فى عام1200م/ 597هـ[1].

كما دفع التجار الإيطاليون على سفنهم ضريبة أطلق عليها اسم Carates قدرت بنحو 1/ 24 من حمولة السفينة من البضائع، كما أرغمت هذه السفن أيضا على دفع ضريبة مماثلة لهذه الضريبة عرفت بضريبة الميناء، وبعد أن يتم رسو السفن فى الميناء يتم إنزال البضائع من على متنها إلى رصيف الميناء حيث يقوم موظفو الجمارك بفحص البضائع وتسجيلها فى سجلات خاصة بها ثم يقدرون قيمة الضرائب على تلك البضائع إما على حسب كمية وحجم السلعة كالحبوب والخمور على سبيل المثال أو على حسب قيمة البضائع كالتوابل والعطور[2].

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن موظفى الجمارك فى هذه الحالة كانوا يلجأون فى بعض الأحيان إلى تخمين قيمة هذه البضائع وبالتالى قيمة الضرائب المفروضة عليها، ومما زاد الأمر تعقيدًا على هؤلاء الموظفين أن الضرائب التى فرضت فى الإمارة على السلع لم تكن موحدة بل اختلفت من سلعة لأخرى، ولتفادى هذا الأمر كان موظفو الجمارك فى كثير من الأحيان ينتظرون حتى تباع البضائع على رصيف الميناء ومن ثَمَّ يقدرون قيمة الضريبة عليها ويجبونها، وفى حالة إذا ما تم بيع هذه السلع فى الأسواق كسوق طرابلس المعروف باسم placearius Montis Peregrini[3]، كان يفرض على التجار الإيطاليين دفع ضريبة الميناء بالإضافة إلى ضريبة المبيعات أو ضريبة السوق التى فرضت على السلع المباعة والمشتراة، وكانت ضريبة المبيعات والمشتريات تلك تحصل عادة عند جسر تلة الحجاج وعلى طريق وادى أمريت الواقع بين أنطرطوس وحصن الأكراد، كما كان التجار الإيطاليون

(1) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص131– ص132، ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص141،

Prawer, Ibid, p.404 .

(2) Smith, The Feudal Nobility, p.93 .

(3) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص205 – ص206.

يدفعون ضرائب أخرى عديدة فى الجمارك لعل أهمها ضريبة عن المزاد الذى كان يقام لبيع سلعهم فى الجمرك وضريبة المغادرة أو الإقلاع[1]، وكانت محكمة الميناء أو ما أطلق عليها بمحكمة السلسلة هى المكلفة بتحصيل هذه الضرائب نظرا لكونها تشرف على سير العمل فى الميناء بما فى ذلك مكتب الجمارك[2].

زد على ذلك، أن هناك رسوما كانت تفرض على السلع التى يصدرها التجار الإيطاليون من أراضى إمارة طرابلس لمدن الظهير الإسلامى وكذلك السلع التى يستوردونها، إلا أنهم أعفوا من دفع ضريبة الواردات على سلعهم فى حال ما إذا لم يتم بيعها فى الإمارة، ومن ثَمَّ كان بإمكانهم إعادة تصديرها لكن فى هذه الحالة كان عليهم دفع ضريبة صادرات على هذه السلع قدرت بنحو ثمانية فى المائة من ثمنها، وإن كان فى كثير من الأحيان يتم إعفاؤهم من هذه الضريبة[3].

ولقد فرضت على سلع وبضائع التجار المسلمين القادمين من مدن الظهير الداخلية نفس الأعباء المالية، وإن كانت أثقل بطبيعة الحال، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك الضرائب التى فرضت على القوافل التجارية التى تمر عبر أراضى الإمارة والتى عرفت بتجارة العبور، وكانت تُحصل تلك الضرائب عادة عند حدود إمارة طرابلس أو عند بوابات المدن الكبرى فى الإمارة كمدينة طرابلس وجبيل أو عند بوابات القلاع كبوابة حصن الأكراد[4].

---

(1) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص133، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص148- ص153، ص180.

(2) Assises de Jerusalem, t.II, p.245,

عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص169، هايد، تاريخ التجارة، جـ1، ص341 – ص342،

The world of the middle Ages, p.364. La Monte & Henery, .

(3) حاتم الطحاوى،الاقتصاد الصليبى،ص134، ناجلا محمد، المسلمون فى مملكة بيت المقدس، ص72.

(4) Smith, The Feudal Nobility, pp.93 – 94 .

وكما سبق أن أوضحت، كان من الصعب تحديد قيمة غالبية هذه الضرائب والرسوم الجمركية نظرًا لاختلافها من سلعة لأخرى، بل من مكان لآخر كما اختلفت قيمتها الضريبية أيضا حسب جنسية التاجر ذاته فمما لا ريب فيه أن تجار الجمهوريات الإيطالية وخاصة الجنوية منهم لم يكونوا يتساوون بغيرهم من التجار الأوروبيين أو المسلمين[1]، ولكن للأسف أن المصادر المعاصرة لفترة الدراسة لم تنجح فى أن تقدم لنا ولو إشارات بسيطة على نسبة الجمارك والضرائب فى الإمارة.

وإلى جانب ما سبق ذكره من موارد مالية كانت ترد إلى خزانة الإمارة الإيجارات المستحقة على المتاجر والمنازل، وكذلك رسوم القضايا والغرامات المالية التى كانت تفرض على المتقاضين، والمساعدات المالية التى كانت تأتى للإمارة من الغرب الأوروبى، وكذلك القومونات الإيطالية التى درجت على منح حكام الإمارة أشكالًا عدة من المساعدات- التى كان منها بطبيعة الحال المساعدات المالية- مقابل منحهم بعض الامتيازات فى الإمارة، كالثلاثة آلاف بيزنت التى قدمها الجنوية لبوهمند الرابع فى عام 1205م/ 602هـ، مقابل منحهم محكمة وحق البيع فى أسواق مدينة طرابلس[2].

كذلك كانت الغنائم التى حازها الصليبيون نتيجة هجومهم على أراضى المسلمين مصدرا آخر من موارد الإمارة غير المنتظمة نظرا لأن غارات إمارة طرابلس على البلدان الإسلامية المجاورة لها خلال القرن 13م/ 7هـ كانت قليلة بعض الشىء، لما شهده هذا القرن من توازن فى القوى بين إمارة طرابلس وجيرانها من المسلمين، وإن شهد النصف الثانى من هـذا القرن ترجيح كفة المسلمين العسكرية بشكل واضح على كفة الصليبيين جميعهم وليس بالنسبة لإمارة طرابلس فحسب، وجدير بالذكر أن الهيئات الدينية العسكرية وخاصة الإسبتارية هى من

(1) Anonymous Pilgrims, p.29, William of Tyre, vol.I, p.554 .

(2) Rohricht, Regesta, no.807, pp.215 – 216,

حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص 268– ص 269.

تحملت النصيب الأوفر فى شن هذه الغارات على البلدان الإسلامية المجاورة لهم، كما حدث عندما شارك بوهمند الرابع إستبارية حصن الأكراد والمرقب فى بعض الغارات على بعرين وحماة وحمص وجبلة واللاذقية خلال الفترة الواقعة بين عامى 1202-1204م/ 599-601هـ[1].

أما عن أهم موارد الإمارة المالية وأكثرها انتظامًا فكانت ضريبة الرأس Capitation أو الجزية بمعنى أصح، التى فرضت على كل ذكر من مسلمى ويهودىّ الإمارة بلغ سن الخامسة عشرة من عمره، وكانت هذه الضريبة تقدر بقطعة واحدة من العملة البيزنطية التى عرفت باسم النوميسما Nomisma أو بدينار وخمسة قراريط كما ذكرها الرحالة العربى ابن جبير، وكانت هذه الضريبة تعادل تقريبا 230 كيلو جراما من القمح[2].

وقد يرى البعض أن غالبية موارد الدخل السابقة لم تكن سوى مصادر ضعيفة نسبيًا للدخل وهو رأى صحيح إلى حد كبير، لكن من الضرورى أن ندرك أنه تجمع تلك المصادر معًا كان من شأنه أن يدر على خزانة الإمارة دخلا هائلا يوفر الحياة الرغدة والمترفة إلى حكام وسادة الإمارة، حياة لم يكونوا ليعيشونها فى أوطانهم الأصلية، ولعل خير دليل على ذلك الثراء ما أقدم عليه ليوبولد دوق أستريا- الذى قدم إلى الشرق فى ركاب الحملة الهنغارية إلى بلاد الشام مع الملك أندرو الثانى ملك هنغاريا عام1217م / 614هـ- من اقتراض مبلغ 50 ألـف بيزنت من جاى أمبرياكو حاكم جبيل بعد أن بات فى احتياج شديد للدعم المادى على إثر إنفاقه كل ما كان بحوزته من الأموال طوال الخمسة أعوام التى قضاها فى الشرق[3].

---

(1) الحنبلى، شفاء القلوب، ص306، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ3، ص141- ص168، المقريزى، السلوك، جـ1، ص273.

(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص239،
La Monte, The Feudal Monarchy, p.175, Prawer, The Crusader's Kingdom, p.219, Sidelko, Muslim Taxation, pp. 70 – 71 .

(3) Eracles, p.332, Runciman, A History of the Crusades, vol.III, P.182 .

لكن قبل أن نعرض للالتزامات المالية للإمارة ونفقاتها كان علينا أن نوضح أولًا زاوية لا تخلو من الأهمية ألا وهى العملات النقدية التى درج استخدامها داخل إطار حدود إمارة طرابلس، فبخلاف العملة البيزنطية الذهبية التى عرفت بالبيزنت أو النوميسما والتى شاع تداولها فى التجارة العالمية نظرًا لما امتازت به من جودة نوعيتها وثبات فى قيمتها[1]، والعملات الأوروبية، وخاصة الفرنسية منها، والتى شاع استخدامها على نحو ملفت للانتباه فى إمارة طرابلس، وكذلك العملات الإسلامية سواء كانت فاطمية أو أيوبية، كانت هناك العملات التى تَمَّ سكها فى إمارة طرابلس. ذاتها حيث كان لإمارة طرابلس دار سك خاصة بها مقرها فى مدينة طرابلس وكان امتياز سك العملة قاصرًا على أمراء الإمارة فحسب وإن كانوا قد صرحوا للبنادقة بهذا الحق لكن على نطاق محدود بعض الشىء، ومن خلال دار السك هذه قام حكام الإمارة بضرب عملاتهم الخاصة بهم والتى انقسمت على النحو التالى:

الجزء الأول منها النقود الصليبية المقلدة للنقود الفاطمية والأيوبية والتى عرفت بوزن طرابلس وكذلك باسم البيزانتات الشرقية، وكانت تـلك العملات معترفًا بها فى جميع الدويلات الصليبية فى بلاد الشام وحتى فى التداول التجارى العالمى وكذلك فى المناطق العربية، وكان الاسم الأكثر انتشارًا لتلك العملات اسم الدينار الصورى نسبة إلى مدينة صور التى كانت أول من سُكت فيها العملات[2].

وجدير بالذكر، أن صليبىّ الإمارة برعوا مع مرور الوقت فى إتقان تقليد تلك العـملات التى لم يفرقها عـن أصلها سوى وجـود تواريخ ومكان سك العملة وبعض الرموز الصليبية الأخرى كالصليب فى بعض الأحيان بالإضافة إلى حرف

---

(1) حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى، ص158، ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص210– ص211، Prawer, The Latin kingdom, p.384.

(2) رأفت النبراوى، النقود الصليبية، ص35 – ص36، Schlumberger, Numismatique De L'Orient, Paris 1878, pp.133 – 134.

الـ (B) الذى كان يرمز لأسماء حكام الإمارة (بوهمند)، وحرف الـ (T)، الذى كان اختصارًا لاسم مدينة طرابلس، إلا أنه منذ حوالى منتصف القرن ١٣م/ ٧هـ، شهدت تلك العملات تغيرًا ملحوظا فى تقليدها حيث جرت عليها بعض التعديلات على إثر إعلان المندوب البابوى أيودى من شاتيورEudes de Chatearoux (أنه من المخزى أن تحمل العملات الصليبية التى سكها الصليبيون فى دور الضرب فى طرابلس وعكا اسم نبى الإسلام محمد ﷺ وتاريخ مولده بشكل واضح)، وتأييدًا لهذا القرار حرَّم البابا أنوسنت الرابع تداول النقود الصليبية ذات النقوش الإسلامية، وهكذا لم يكن أمام السلطات الحاكمة فى إمارة طرابلس إلا الإذعان لأوامر البابا ومندوبه حرصًا منهم على ضمان قبول عملاتهم فى تداولها خاصة مع الغرب الأوروبى، ورغم ذلك ظلت النقوش على عملات الإمارة نقوش عربية إلا أن محتواها بات ذا معان مسيحية، ونتيجة لهذه التغيرات التى وقعت للعملات الإسلامية المقلدة أصبح تقليد تلك النقود ردىء إذا ما قورنت بمثيلتها من العملات المقلدة سابقًا[1].

ومن زاوية أخرى، كانت أشهر العملات الإسلامية التى شاع تقليدها فى إمارة طرابلس، دراهم الظاهر غازى حاكم حلب، والتى استمرت تسك فى الإمارة حتى بعد وفاته(1216م/ 613هـ) بنحو ربع قرن تقريبًا، كذلك دراهم الملك الصالح إسماعيل حاكم دمشق، التى امتازت دراهمه المقلدة بأنها أفضل ما تم تقليده من العملات الإسلامية فى إمارة طرابلس[2].

أما عن الجزء الآخر من العملات التى تَمَّ سكها فى إمارة طرابلس فكانت تتمثل فى العملات الصليبية الخاصة بالإمارة ذاتها، وكانت تلك العملات فى الغالب تسك من معدنى الذهب والفضة وإن كانت العملات الفضية استخدامها

(1) رأفت النبراوى، النقود الصليبية، ص47 – ص48،
Mayer, The Crusades, p.163 .

(2) رأفت النبراوى، المرجع السابق، ص47.

أكثر شيوعا وخاصة فى التعاملات الداخلية، نظرًا لتوافر معدن الفضة الذى كان يؤتى به من الغرب الأوروبى عن معدن الذهب الذى لم يتوفر كثيرًا فى ذلك الوقت إلا فى المناطق التى عرفت فيما بعد بالسودان وروسيا[1]، ولعل ذلك يظهر جليًا من خلال الكشوف الأثرية الحديثة لمدينة طرابلس والتى كشفت لنا عن وجود 3500 قطعة نقود فضية يرجع تاريخها إلى ما بعد عام 1221م/ 619هـ، وكانت تلك القطع تتألف من1700 قطعة فضية صليبية، أى مما كان يتم سكه فى الإمارة و1800 قطعة نقد فرنسية وبعض العملات الأخرى التى ترجع فى أصولها لما يقرب من أربعة وعشرين مكانا مختلفًا لم يوضح لنا هذا الكشف أى مكان منها، ومن الملفت للانتباه فى هذا الكشف أنه لم يؤكد لنا شيوع استخدام العملات الفضية الخاصة بالإمارة فحسب وإنما العملات الفضية الفرنسية التى راج استخدامها بشكل واسع فى الإمارة حتى فى ظل حكم الأسرة النورماندية[2].

وكانت عملة الإمارة الفضية تعرف باسم الدينار فى حين كانت عملتها الذهبية تعرف بالبيزنت Bezant، كما كان يسك بها عملات فضية وذهبية أخرى من فئة النصف دينار والنصف بيزنت، بيد أن تلك العملات كانت فى الغالب غير مؤرخة وكان تداولها شائعًا فى التجارة العالمية خاصة البيزنتات الذهبية منها، وكانت العملات التى تضرب فى إمارة طرابلس خلال القرنين 12و13م/ 6 و7هـ تمتاز بوجود صليب كبير فى مركز العملة وعلى هامش الوجه كلمة الكونت بوهمند BAMUND COMES، داخل دائرتين من الحبيبات المتماسة، بينما كان يوجد على الظهر نجمة سداسية أو ثمانية الأطراف على مركز العملة ترمز إلى الشمس شعار إمارة طرابلس وعلى الهامش مدينة طرابلس باللاتينية CITE TRIPOLIS أو CIVITAS TRIPOLIS داخل دائرتين من الحبيبات المتماسة أيضا، مع العلم بوجود

(1) Holmes, Life among the Europeans, p.9, Runciman, A History of the Crusades, vol.III, P.363 .

(2) Prawer, The Latin kingdom, p.384 .

بعض العيوب والاختلافات الطفيفة فى تلك العملات من عهد أمير لآخر، ففى إحدى النقود التى تنسب إلى عهد بوهمند السادس على سبيل المثال كتب اسم الكونت بوهمند ينقصه عدة حروف على النحو التالى (B.O.C.O.M.S)[1].

فى حين كانت العملات التى تم سكها فى عهد بوهمند السابع مختلفة تمامًا عما سبقها من العملات فى كونها العملات الوحيدة التى وجد عليها اسم بوهمند السابع كاملًا باللاتينية SEPTIM BOEMUDVS COMES بينما وجد على مركز الظهر ثلاثة أبراج تحيط بها دائرة وعلى هامش الظهر كتبت مدينة طرابلس سوريا بجانب الصليب CIVITAS TRIPOLIS SURIE داخل دائرتين من الحبيبات المتماسة[2].

كان من الطبيعى أن ما سبق عرِضه من العملات قد تداوله كافة مواطنى الإمارة وعلى رأسهم السلطات الحاكمة فى تعاملاتهم اليومية وكذلك نفقاتهم، خاصة أن نفقات تلك السلطات كانت فى الغالب مُبالغا فيها وغير متكافئة مع دخل الإمارة المالى، فبداية علينا أن نعرف أن موارد الإمارة التى سبق أن عرضناها لم يكن أغلبها يعود على خزانة الأمير وحده وإنما كان شطرًا منها يعود على الجاليات الإيطالية وكذلك الكنيسة، فى حين كان الشطر الأكبر منها يعود على الهيئات الدينية العسكرية، كما كان لسادة إقطاعىّ الأراضى نصيبًا وافرًا من هذا الدخل، وما كان يخص خزانة الأمير من موارد مالية كان جزء كبير منه يدفع لمقطعيه من أصحاب الإقطاعات النقدية التى كان حكام الإمارة حريصين على الوفاء بها نظرًا

---

(1) رأفت النبراوى، النقود الصليبية، ص162 – ص164،
Holmes, Life among the Europeans, p.8, Schlumberger, Numismatique De L'Orient, PP.104 – 105 .

(2) رأفت النبراوى، المرجع السابق، ص162 – ص164،
Schlumberger, Ibid, p.105.

انظر القسم الخاص بالملاحق.

لاحتياجاتهم الدائمة إلى التزامات هؤلاء الإقطاعيين العسكرية فى صراعاتهم وحروبهم التى خاضوها.

وجدير بالذكر، أن تلك الحروب فى حد ذاتها كانت أكبر السبل التى استنزفت موارد الإمارة المالية خاصة حرب الوراثة فى أنطاكية التى استمرت ما يقرب من عشرين عامًا، من عام 1201م/ 597هـ وحتى عام1220م/ 617هـ، كذلك الحروب الأهلية فى الإمارة التى دارت بين سادة جبيل وحكام إمارة طرابلس، ولعل خير دليل على ما أحدثته تلك الحروب من تعثرات مالية فى إمارة طرابلس أنه فى عام 1204م/ 601هـ، عندما حدث غلاء عظيم فى إمارة أنطاكية نتيجة نقص الغلال بها، وقفت إمارة طرابلس ساكنة بلا حراك أمام هذه الأزمة رغم أنه من المفترض أن تكون هى أول من يمد يد العون لإمارة أنطاكية على اعتبار أن كلتيهما اتحدتا تحت حكم واحد، فى حين كانت الجهة الوحيدة التى ساندت أنطاكية لتنهض من كبوتها تلك هى إمارة حلب الإسلامية التى كانت تحت حكم الملك الظاهر آنذاك[1].

كما لا ننكر على صليبيّ الإمارة أن بعضا من نفقاتهم كانت موجهة لإقامة بعض المرافق والمنشآت الحديثة فى الإمارة التى كان منها على سبيل المثال إعادة إعمار الإمارة بعدما تهدمت غالبية منشأتها عقب زلزال 1201- 1202م/ 597 – 598هـ، كذلك قناة الأبرنس المتفرعة من نهر أبى على فى مدينة طرابلس والبرج الذى أقامه بوهمند السادس سنة 1268م/ 666هـ فى مدينة طرابلس أيضا بغرض تدعيم دفاعاتها وتقويتها بعد أن بات الخطر المملوكى وشيكًا على الإمارة عقب استرداد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس لمدينة أنطاكية فى ذات العام[2]، لكن علينا أن ننتبه لزاوية غاية فى الأهمية ألا وهى أن تلك المرافق والمنشآت لم يعمد الصليبيون

(1) ابن العديم الحلبى، زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ2، ص446.
(2) رقيم من عهد الصليبيين، المشرق العدد (4) عام 1928م، ص304- ص305.

لإقامتها فى الإمارة بغرض تعميرها ورقيها فى المقام الأول، وإنما كان الغرض الأساسى منها هو خدمة مصالحهم وتدعيم وجودهم فى الإمارة .

وأخيرًا كان الجانب الأكبر من نفقات الصليبيين فى الإمارة موجهة لحياة البذخ والرفاهية التى حياها الصليبيون وخاصة الطبقة الأرستقراطية منهم، تلك الحياة التى لم يكن لها مثيل فى الغنى والثراء الفاحش كما أوضحنا من قبل، ورغم ما سبق عرضه من وسائل الإنفاق المختلفة إلا أن الإمارة غالبية القرن13م/ 7هـ لم تتعرض لأزمات اقتصادية فعلية باستثناء الأعوام الأولى من ذلك القرن التى تعرض فيها اقتصادها لهزات عنيفة من جراء الكوارث الطبيعية التى حلت بكل من سكان ومحاصيل ومواشى ومنشآت الإمارة المعمارية فى عامى1201- 1202م/ 597-598هـ، ولعل هذا الازدهار الاقتصادى الذى تمتعت به الإمارة كان الدافع الأساسى وراء تفضيل حكامها الاستقرار فيها عن الحياة فى مسقط رأسهم ببلاد الشام ألا وهى مدينة أنطاكية التى كانت الصراعات الداخلية فيها تكاد تفتك بها[1].

وظلت إمارة طرابلس على هذا النحو غالبية القرن13م/ 7هـ، إلا أنه مع بدايات النصف الثانى من ذلك القرن أخذت إمارة طرابلس فى التعرض لأزمات مالية حادة نتيجة العثرات الاقتصادية التى حلت بها آنذاك من جراء حرب القديس ساباس بين القومونات الإيطالية التجارية فى الشرق وما أصاب خطوط التجارة العالمية من اضطرابات نتيجة الغزوات الهمجية للقبائل التتارية فى وسط آسيا وبلاد الشام وما أحدثته هجمات القبائل التركمانية لكل من إمارتى أنطاكية وطرابلس من إخلال فى أمن الطرق التجارية التى ربطت الإمارة بما يجاورها من دويلات إسلامية، بيد أن تلك الأزمات تزايدت بشكل ملحوظ مع اقتراب الخطر المملوكى على إمارة طرابلس ورضوخ سادة الإمارة لتطبيق نظام المناصفات مع السلطات المملوكية التى أودت بنصيب وافر من مواردها المالية التى تقاسمتها مع المماليك،إلا

(1) Bouchier, A Short history, p.p 266, 299 .

أنه حتى ما تبقى من موارد مالية للإمارة أخذت مع مرور الوقت فى التناقص بعد أن اتجه الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون فى استنزاف موارد الإمارة وتقليص حدودها إلى أن أسقطوها تمامًا[1].

وإلى هنا يكون قد انتهى حديثنا عن الموارد المالية فى إمارة طرابلس باعتبارها جزءًا من أنظمة الحكم والإدارة فيها، ومن الطبيعى خلال تناولنا لتلك الأنظمة أن نتعرض لدور الكنيسة فيها خاصة أن الدافع الدينى الذى زعمه الصليبيون منذ مجيئهم لبلاد الشام بدعوى حماية إخوانهم فى الدين ألا وهم المسيحيون الشرقيون من اضطهاد المسلمين كان الشعار الرسمى للمشروع الصليبى بأكمله وليس فى إمارة طرابلس فحسب[2]، إلا أن كذب ادعائهم هذا ظهر جليًا منذ اللحظة الأولى التى شرع فيها الصليبيين فى تأسيس دويلاتهم فى بلاد الشام حيث بدا واضحًا من تعاملات الصليبيون مع مسيحىّ الشرق أنهم اعتبروهم أقل منهم فى المرتبة، بل لقد كانت معاملتهم لكثير منهم لا تختلف فى أغلب الأحيان عن معاملتهم للمسلمين أو اليهود فلقد كان الجميع سواء فى نظرهم طالما أنهم ليسوا فرنجة[3]، لدرجة أن الروم الأرثوذكس الذين كانوا أقرب المذاهب الدينية للصليبيين والتى عدت طقوسهم البيزنطية وأكليروسها صحيحة فى نظرهم، وأن الاختلاف القائم بين مذهبى كلتا الطائفتين يسير ويمكن التغاضى عنه، أجبروا على التنحى عن مناصبهم كبطاركة لبطريركتى بيت المقدس وأنطاكية، وحتى عن أسقفياتهم حيث

(1) Joseph de Cancy, A Crusader's letter from the Holy land (May 1282), in .P.P.T.S, vol.V, p.13 .

(2) عن هذه الادعاءات انظر النصوص التى أتتنا لخطاب البابا أوربان الثانى Urbanus II (1108–1099م/ 481–493هـ) فى مجمع كليرمونت Clermont1095م/ 489هـ لكل من:
Fucher of Charter, pp.62-65, Robert Monachi, Historia Iherusalemitane, R.H.C, t.III, Paris 1866, pp.756 – 758, Munro, The Speech of Pope Urban II. At Clermont 1095, in AHR, vol.11, No.2 (Jan., 1906), pp. 231-242 .

(3) Michael Le Syrian, t.III, pp.267 – 270,

يوشع براور، عالم الصليبيين، ص82.

تم عزلهم جميعًا وتنصيب رجال دين لاتين بدلًا منهم، وإمعانًا فى التحقير من شأن هؤلاء الروم الأرثوذكس قاموا بإجبارهم على الاعتراف برجال دينهم الجدد، بل والخضوع لهم أيضا بعد أن انتهكوا حرمة كنائسهم واستولوا على جميع أملاكها من أموالٍ وأراضٍ[1].

وبطبيعة الحال فإن أسقفيات إمارة طرابلس طبق عليها ما سبق من إجراءات كنسية أخضعتها لسلطة رجال الدين اللاتين، لكن الغريب حقًا أن الصليبيين فى إمارة طرابلس لم يسعوا قط لتطبيق الأمر ذاته على كنائس أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة من نساطرة أو يعاقبة أو حتى موارنة قبل تبعيتهم لكنيسة روما، وبالتالى فلقد حازت تلك الطوائف المسيحية فى إمارة طرابلس على قدر من الحرية الدينية لم يحظَ به غيرهم من الروم الأرثوذكس[2]، ولعل السبب فى ذلك يرجع لكون الصليبيين لم تكن تعنيهم تلك الطوائف المسيحية فى شيء ما داموا هراطقة بمخالفتهم لمذهبهم الكاثوليكى .

وعلى هذا النحو باتت أسقفيات إمارة طرابلس خاضعة تماما للسيادة الصليبية وكانت تلك الأسقفيات، منذ استيلاء الصليبيين على الإمارة، تتمثل فى أربعة أسقفيات ألا وهى :

أسقفية أنطرطوس التى كان يتبعها كل من مدنية أنطرطوس وجزيرة أرواد ومدينة مرقية، وتعد تلك الأسقفية أول الأسقفيات التى أسست فى الإمارة نظرًا لكون أنطرطوس، كما سبق أن أوضحنا من خلال التناول التاريخى للتطور السياسى للإمارة خلال القرن 12م/ 6هـ، كانت أول مدينة أسقطها ريموند الصنجيلى خلال

(1) ر. سى. سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص94،
Richard, The Establishment of the Latin, pp.233 – 235, Runciman, A History of the Crusades, vol.III, P.465 .

(2) عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص173،
Richard, La Comte de Tripoli, p.61 .

محاولاته لإقامة إمارة خاصة به فى الشرق، وفى تلك المدينة شيد ريموند كاتدرائية ضخمة لا تزال قائمة إلى وقتنا الحالى، وقد بنيت على نمط الكنائس الرومانسكية بشمال فرنسا، وجدير بالذكر أن تلك الكاتدرائية هى التى لقى فيها الابن الأكبر لبوهمند الرابع، ريموند، مصرعه فى عام1213م/ 607هـ، على أيدى بعض أفراد طائفة الحشاشين(1).

ويأتى بعد ذلك أسقفية جبيل التى قامت بعد استيلاء الصليبيين على مدينة جبيل سنة 1104م/ 596هـ، ويرجع أقدم بناء للكنيسة الصليبية التى بها إلى سنة 1115م/ 509هـ إلا أنه للأسف لم يتبقَ من بنائها شيء حيث يوجد فى موضعها حاليًا كنيسة مارونية تعرف باسم كنيسة القديس مار يوحنا(2).

أما أسقفية طرابلس التى كانت تضم مدن طرابلس والبترون وعرقة فقد كان أول أساقفتها الأسقف ألبير دى سان أرارد Alber de San Arard الذى كان أحد أفراد حاشية ريموند الصنجيلى، ومن الملفت للانتباه أن هذا الأسقف قد لقب بلقب أسقف طرابلس حتى من قبل إسقاط الصليبيين لمدينة طرابلس ذاتها(3)، وبناء على هذا فلقد كان من الطبيعى عقب إسقاط الصليبيين لمدينة طرابلس أن يعمدوا لبناء كاتدرائية لهم فيها تكون مقرا لأسقفيتهم الجديدة بها، وقد عرفت تلك الكاتدرائية التى امتازت بضخامتها باسم كاتدرائية القديسة مريم، ولقد أعيد بناء هذه الكاتدرائية عدة مرات بعدما ألحقت بها الزلازل أضرارا جسيمة فى بنائها خاصة بعد زلزالى1170م/ 565هـ، وزلزال 1201–1202م/ 597- 598هـ، حيث كان

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ3، ص219، ابن العديم، زبدة الحلب، ص452،
Runciman, A History of the Crusades, vol.III, P.138 .

(2) عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص173، فيليب حتى، لبنان فى التاريخ، ص384.

(3) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص209،
Runciman, Ibid, vol.II, P.311 .

أحدث بناء لها يرجع لبدايات القرن 13م/ 7هـ، إلا أنه مع نهاية هذا القرن عقب استرداد المسلمين لإمارة طرابلس هدمت تلك الكاتدرائية وأقيم بدلًا منها جامع فسيح موجود إلى الآن فى مدينة طرابلس ويعرف بالجامع الكبير[1].

وعلى الأرجح أن تلك الكاتدرائية هى التى شهدت أهم المراسم الرسمية فى الإمارة، كمراسم تتويج حاكم طرابلس ومراسم الزواج والمراسم الجنائزية للأسرة الحاكمة، وحتى دفن موتاهم كان يتم غالبًا فى هذه الكاتدرائية، حيث نعلم أنه عند إسقاط المسلمين لمدينة طرابلس قام بعض المحاربين المماليك الذين خربوا هذه الكاتدرائية بنبش قبر بوهمند السادس الذى دفن داخل جدرانها[2].

وبخلاف تلك الأسقفيات الثلاث كانت هناك أسقفية رابعة عدت ضمن أسقفيات إمارة طرابلس ألا وهى أسقفية رفنية، التى أقيمت بعد استيلاء بونز عليها فى سنة 1126م/ 521هـ، إلا أنها لم تستمر طويلًا ضمن أسقفيات الإمارة حيث كانت منطقة رفنية ضمن المناطق التى استولى عليها المسلمون فى غضون عام

---

(1) عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية، ص172، فيليب حتى، لبنان فى التاريخ، ص385.

(2) من الضرورة بمكان أن ندرك أن تدمير كاتدرائية طرابلس جاء ضمن عملية تدمير شاملة لمدينة طرابلس بأكملها وليس الكاتدرائية فحسب، كما علينا أن ندرك أيضًا أن تصرف بعض أفراد الجيش المملوكى على هذا النحو كان تجاوزًا واضحًا للشريعة الإسلامية السمحة التى ألزمت المسلمين بمراعاة حرمة الميت أيًا كان، إلا أنه علينا أن نراعى أيضًا أن ما قام به بوهمند السادس من تحالف مع المغول ضد مسلمى بلاد الشام واشتراكه شخصيا معهم فى غزو مدينة دمشق وما ألحقه آنذاك بمسلميها ومساجدها من انتهاك وامتهان وإيذاء فاق قدرة بعض المسلمين عن الصفح والتسامح لما جنته يداه فى حقهم، فما كان منهم إلا أن أصروا على الانتقام منه إن كان حيا أو حتى جثمانًا راقدًا فى قبره، عن هذا انظر :

اليونينى البعلبكى، ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، جـ3، ص92، الكتبى، عيون التواريخ، جـ 20، تحقيق فيصل السامر ونبيه عبد المنعم، ط. بغداد1980م، ص288، المقريزى، السلوك، جـ1، ص425– 426، ابن تغرى بردى، الدليل الشافى على المنهل الصافى، جـ1، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط . القاهرة 1988م، ص12،

Grousset, Histoir des Croisudes, vol.3, p.589 .

1137م/ 531هـ[1]، وعلى هذا النحو اقتصرت أسقفيات طرابلس خلال القرن13م/ 7هـ على ثلاث أسقفيات فقط .

وكانت تلك الأسقفيات وفقًا للتنظيم الكنسى القديم تتبع أسقفية صور التى تتبع بدورها بطريركية أنطاكية، إلا أن أسقفية صور بحكم الفتح كانت تعتبر جزءًا من مملكة بيت المقدس، وبناء على ذلك فلقد قرر البابا باسكال الثانى Paschal II (1099-1118م/ 493-512هـ) ضرورة تبعية أسقفية صور بما يتبعها من أسقفيات إلى بطريركية بيت المقدس ورغم أن هذا الأمر طبق على أسقفيات صور التابعة لها فى عكا وصيدا وبيروت إلا أن مساعى بطاركة بيت المقدس لفرض سلطانهم على أسقفيات إمارة طرابلس باءت أغلبها بالفشل، حيث كانت أسقفيات الإمارة تابعة لبطريركية أنطاكيـة وإن كانـت هـذه التبعيـة لم تـدم فـى بعض الأحيان حيث ظل وضـع هـذه الأسقفيـات غالبية القرن الـ12م/ 6هـ، متأرجحا بين كلنا البطريركيتـين إلـى أن انتقـل حكـم إمارة طرابلس إلى البيت النورماندى، حيث باتت تبعية أسقفيات طرابلس لبطريركية أنطاكية تبعية رسمية ونهائية[2].

ومن الملاحظ أن دور الكنيسة فى إمارة طرابلس لم يقتصر على كونها دارًا للعـبادة وإقامة الشعائر الدينية فحسب، بل اعتبرت أيضًا وسيلة للإعلام حيث كان يتم فيها قراءة المراسيم الصادرة من الأمير وكذلك الإدارة الحاكمة، كما اختصت الكنيسة أيضا بواسطة محاكمها الخاصة بها بالفصل فى القضايا الدينية الخاصة بشئون الهرطقة والنظام الدينى والعلاقات الأسرية بما انطوت عليه من أمور الطلاق والزنا

(1) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص240، أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص8، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص151، مصطفى طلاس ومحمد وليد، حصن الأكراد، ص54.

(2) جان ريتشارد، تكوين مملكة القدس اللاتينية، ص159،
Richard, La Comte de Tripoli, p.59, Rowe, Paschal II and the Relation between the Spiritual and Temporal Powers in the Kingdom of Jerusalem, Speculum, vol.32, No.3 (Jul, 1957), p.491 .

والوصايا، ولقد جرت تلك المحاكم وفقًا للإجراءات واللوائح التى التزمت بها محاكم الكنيسة فى الغرب[1].

كما كان للكنيسة دور فى النشاط التبشيرى فى إمارة طرابلس، فالواقع أنه يمكننا القول إن الإنجاز الحقيقى الذى يحسب للإرساليات التبشيرية وأسقفيات الإمارة، وخاصة أسقفية طرابلس هو إنجازها فى عدول أتباع المذهب المارونى وبعض من أتباع المذهب اليعقوبى عن مذهبهما ودخولهما فى حوزة الكنيسة الكاثوليكية، خاصة أن إنجازًا كهذا لم تستطع كثير من الأسقفيات الصليبية الأخرى تحقيق مثله، مع ملاحظة أن ذلك تم فى الأصل فى القرن12م/ 6هـ[2].

أما عن الوضع المالى للكنيسة فى إمارة طرابلس ففى حقيقة الأمر أن أسقفيات الإمارة تعاظم ثراؤها وغناها بشكل واضح من جراء المنح والهبات التى انهالت عليها من مختلف فئات الصليبيين وحتى من خلال الممتلكات التى كان يوقفها عليها بعض صليبيّ الإمارة، وبذلك اتسعت رقعة أملاكها خاصة من الأراضى الزراعية التى كانت تدر على خزائنها قدرًا لا بأس به من موارد الدخل، إلا أنه علينا أن نلاحظ أن هذه الإقطاعات الكنسية فى إمارة طرابلس كان لها وضع خاص بها اختلف عن باقى إقطاعات الإمارة سواء التى كانت تمنح للسادة الإقطاعيين أو للهيئات الدينية العسكرية فى كونها إقطاعات صغيرة المساحة نسبيًا ومتناثرة فى نواحٍ عديدة من نواحى الإمارة لذلك كان من الصعب علينا أن نحدد مواضع تلك الإقطاعات فى الإمارة بشكل دقيق، ولعل السبب فى هذا الأمر يعود فى الأساس للحرص الشديد الذى أبداه حكام إمارة طرابلس من البيت الطولوشى تجاه منح الإقطاعات بشكل عام سواء للسادة الإقطاعيين أو الهيئات الدينية العسكرية أو الكنيسة، فإذا ما نظرنا لإقطاع السادة الإقطاعيين سنجد أنها رغم كبر مساحتها

(1) إرنست باركر، الحروب الصليبية، ص80، على السيد على، المجتمع الصليبى ببلاد الشام، ص200، La Monte, The Feudal Monarchy, pp. 215 – 216, Runciman, A History of the Crusades, vol.II, P.311 .
(2) Michael Le Syrian, t.III, p.319, William of Tyre, vol.II, pp. 458 – 459 .

بعض الشيء إلا إنها كانت محدودة فى عدد معين من السادة الإقطاعيين، أما إقطاعات الهيئات الدينية العسكرية فكانت محدودة إلى حد ما حتى منتصف القرن 12م/ 6هـ إلا إنها أخذت منذ هذا الوقت فى التزايد بشكل واضح أمام تزايد الخطر الإسلامى على الإمارة فأخذ حكام الإمارة يوكلون لكل من هيئتى الإسبتارية والداوية مهمة الدفاع عن حدود الإمارة إلى أن انتهى بهم الأمر للسيطرة على أغلب أراضى الإمارة، ومن البديهى أمام محدودية الأراضى التى كان يسيطر عليها حكام الإمارة على هذا النحو، وكذلك لحرصهم على الاقتصاد من مناطق نفوذ الكنيسة حتى لا تقوى شوكتها فى الإمارة وتصبح مصدرًا للقلاقل بالنسبة لهم، أن تكون أراضيها الإقطاعية محدودة هى الأخرى إلى حد ما، وكتعويض للكنيسة عن هذا الأمر عول حكام الإمارة على منحها بعض الإقطاعات النقدية التى غلبت بشكل واضح على النظام الإقطاعى فى الإمارة[1].

وعلى الرغم مما حازته الكنيسة فى إمارة طرابلس من إقطاعات إلا أن اعتمادها الأساسى فى موارد دخلها كان على ضريبة العشور التى اختصت بها دون سواها، حيث كانت تفرضها على كافة موارد الدخل فى الإمارة، حتى غنائم الحرب لم تسلم من تلك الضريبة التى أداها أيضًا السادة الإقطاعيون وحتى الهيئات الدينية العسكرية عن مزارعيهم من المسلمين الذين عملوا فى أراضيهم، ولقد حاولت الكنيسة بشتى السبل فرض هذه الضريبة على مسيحىّ الإمارة الشرقيين على اعتبار غالبيتهم من أتباع مذاهب دينية مخالفة لمذهب الصليبيين الكاثوليك، إلا أن مساعيها باءت جميعها بالفشل[2].

كما شملت موارد الكنيسة أيضا إيجارات بعض الأبنية التابعة لها كالمنازل

---

(1) Jacques de Vitry, p.62,

جان ريتشارد، تكوين مملكة القدس اللاتينية، ص160، عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص170.

(2) Jacques de Vitry, p.54,

إرنست باركر، الحروب الصليبية، ص81.

والخانات وحتى مقابل حق الانتفاع بما يقع ضمن أراضيها من معاصر وطواحين وأفران وغيرها من مرافق الخدمات المختلفة، كذلك كان لأوقاف أديرة إمارة طرابلس التى يأتى فى مقدمتها بلا شك دير البلموند Abbatial Belmontis - أى الدير القائم على جبل جميل- أشهر أديرة الإمارة على الإطلاق نصيبًا وافرًا من موارد الدخل بالنسبة للكنيسة[1].

ولقد كان من الطبيعى أن تلتزم الكنيسة- بما حازته من ممتلكات إقطاعية كغيرها من الإقطاعات- بأداء الخدمات العسكرية الإقطاعية للأمير حاكم الإمارة، إلا أنه من الملاحظ أن التزاماتها العسكرية تألفت من خدمات الجند المشاة السرجندارية فحسب، ولم تكن الكنيسة ملتزمة بتقديم خدمات الفرسان كغيرها من الإقطاعيين، كذلك كان رجال الدين أنفسهم معفيين من أداء الخدمة العسكرية[2].

وعلى هذا النحو يتضح لنا أن التزامات الكنيسة كانت محدودة بشكل كبير، وحتى مصروفاتها لم يكن مبالغا فيها نظرًا لأن أغلبها اختص بمصرفات الكنيسة الإدارية، حيث كان للكنيسة نظامها الإدارى الخاص بها والذى استعانت فى شغل بعض وظائفه بعدد من الصليبيين العلمانيين، حيث كان من تلك الوظائف على سبيل المثال الكتبة وجباة الضرائب والمترجمون، وجدير بالذكر أن الكنيسة كانت معفاة من الضرائب التى كان من المفترض أن تفرض على أملاكها، وطبقًا لهذا فإذا ما حاولنا تقييم العلاقـة بين موارد الكنيسة وبين مصروفاتها سنجـد أن هناك فائض دخل هائل كان يعود على الكنيسة وأفرادها من رجال الدين الذين ألفوا تنظيمها الداخلى من رجال الكهنوت النظاميين وقساوستها ومرتليها وحاملى أختامها ومتولى أمر خزانتها ومشرعوها وكذلك معلمو اللاهوت بها[3].

(1) فيليب حتّى، لبنان فى التاريخ، ص385،
Richard, La Comte de Tripoli, p.61 .

(2) عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية القرن الثانى عشر، ص173- ص174، محمد مؤنس عوض، العلاقات، ص118.

(3) إرنست باركر، الحروب الصليبية، ص82، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص210ـ 211.

وبصرف النظر عما فرضته الالتزامات الدينية على رجال الكنيسة من زهد فى متاع الدنيا وورع وتواضع، إلا أن رجال الدين الصليبيين فى الإمارة كانوا بما غرتهم به أعينهم من مظاهر الترف والنعيم المبالغ فيها التى عاشها الصليبيون، وبما حازه هؤلاء الرجال من ثروات ضخمة تحت أيديهم أخذوا يستخفون بالتزاماتهم الدينية تلك شيئا فشيئا حتى انعدمت التقوى من قلوب أغلبهم وصاروا أكثر جشعًا وحرصًا على دنياهم بشهادة رجل دين ومؤرخ صليبى من القرن13م/ 7هـ[1]، وعلى هذا النحو تطرق الفساد للنظام الكنسى فى الإمارة بأسرها لدرجة أنه أصبح لبعض رجال الدين هؤلاء طموحات جامحة فى السيطرة على حكم الإمارة ذاتها كما هو الحال بالنسبة لبارثلميو أسقف أنطرطوس الذى كان لنفوذه سطوته الواضحة على سياسة بوهمند السابع وأمه سبيلا[2].

لكن على الرغم من ذلك علينا أن نلاحظ أن نفوذ رجال الدين فى الإمارة لم يبلغ شأنا يذكر إلا بعد سقوط إمارة أنطاكية فى أيدى المسلمين وضياع كرسى بطريركيتهم بها، وتبعًا لهذا فلقد كان أساقفة الإمارة أحرارًا من أيه تبعية لبطريركية أنطاكية ومن ثَمَّ أخذت السلطة الدينية تتركز فى أيديهم بشكل أكبر خاصة فى قبضة بارثلميو أسقف أنطرطوس الذى شغل منصب وكيل بطريركية أنطاكية الغائب فى أوروبا، وعلى الرغم من ذلك لم يظهر للكنيسة دور على مسرح الأحداث فى الإمارة إلا فى شخص هذا الأسقف فحسب ولسوء حظه أن الأوضاع فى إمارة طرابلس، خاصة بعد وفاة بوهمند السابع لم تهيئ له القيام بأى دور فعال ومؤثر فى مجريات الأحداث[3].

كما علينا أن ندرك أن السياسة التى اتبعها حكام الإمارة تجاه الكنيسة لم تكن لتسمح لها بتعدى حدودها التى وضعوها لها، خاصة إذا ما علمنا أن تعيين غالبية

(1) Jacques de Vitry, pp. 62 – 63 .
(2) Les Gestes des Chiprois, p. 780,

سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص134،
Grousset, Histoir des Croisudes, t.3, p.684 .

(3) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص386.

رجال الدين فى الإمارة، وخاصة الأساقفة منهم، كان يتم عادة من قِبَل حكام الإمارة، كما حدث عندما قامت لوسى والدة بوهمند السادس بتعيين شقيقها بول الثانى أسقفًا لطرابلس(1261-1285م/ 659-684هـ)[1]، ليس هذا فحسب بل لقد شهد عهدا بوهمند الرابع وبوهمند السادس على وجه الخصوص اتجاها معاديا بعض الشيء للكنيسة، فبدلا من أن يسعوا لمحاباة الكنيسة ورجال دينها وإعطائهم المنح والهبات على عادة الصليبيين، وجدناهم يضربون بقراراتهم عرض الحائط، بل لقد بلغ الأمر ببوهمند الرابع أن استولى على العديد من ممتلكات الكنيسة وعزل بطريرك أنطاكية اللاتينى الذى قتله فيما بعد وعين بدلًا منه بطريركا يونانيا يدعى سيمون الثانى Simon II فى عام 1207م/ 604هـ[2]، بينما نجد من ناحية أخرى بوهمند السادس يتجاهل نداءات البابوية المتكررة له بعدم التحالف مع المغول[3]، مما أدى فى نهاية الأمر لإصدار قرار بالحرمان الكنسى ضدهما، وإذا كانت هذه هى طبيعة

(1) سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص134،
Grousset, Histoir des Croisudes, t.3, p.684 .

(2) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص277،
Hamilton, The Latin church, p.236 .

(3) كانت البابوية معارضة تمامًا لفكرة التحالف مع المغول فى أول الأمر، وقد كان ذلك راجعًا لما ألحقته هجمات المغول البربرية لبلدان أوروبا الشرقية من ترسبات معادية فى نفوس الأوروبيين بما فيهم البابوية تجاه هؤلاء المغول لدرجة أن البابوية فرضت الحرمان الكنسى ضد كل من بوهمند السادس وهيثوم الأول ملك أرمينيا لمجرد تحالفهما مع المغول إلا أنها بمضى الوقت وجدت أن الأجدى لها كسب هؤلاء المغول، لصفها على أمل مساندتهم للدويلات الصليبية فى بلاد الشام، ومن ثَمَّ أخذت البابوية على عاتقها مهمة الاتصال بالمغول والسعى لعقد تحالفات معهم، إلا أنه لسوء حظها باءت جميع محاولاتها بالفشل ولم تستطع أن تحقق شيئا من مخططاتها، عن المراسلات المتبادلة بين المغول وبين البابوية وملوك أوروبا الغربية انظر :
Robban Sawma, The history of life and travels of Robban Sawma, Trans by E.A. Wallis Budge, Cambridge 2001, pp 21-36, Chabot. J.B (ed),"Notes sur les relations du roi argoun avec loccident ", R.O.L , to me II , Paris 1892 , pp . 570 – 571,Guzman (G.), Simon of Saint Quentin and the Dominican Mission to the Mongol Baiju: A Reappraisal, Speculum, vol. 46, No.2 (Apr 1971,), pp.232-249, McLean, An eastern embassy to Europe in the year 1287-8, E. H .R, vol. 14, No. 54 (APR, 1899), pp. 299 – 318 .

العلاقات بين اثنتين من أبرز حكام الإمارة بالبابوية فما بالنا بعلاقاتها بالأسقفيات الواقعة تحت سلطانها.

وعلى الرغم من إخفاق الكنيسة على هذا النحو فى أن يكون لها دور حيوى فى تاريخ الإمارة إلا أن ما حققته المنظمات الدينية العسكرية- التى نبعت فى الأساس من عباءة الكنيسة- من مكانة بارزة ودور محورى فى إمارة طرابلس كان بمقدوره أن يعوض الكنيسة شيئا عن هذا الإخفاق، فبإلقاء نظرة على دور تلك المنظمات فى إمارة طرابلس سنجد أنها كانت تتمثل فى ثلاث هيئات عسكرية كانت كالتالى :

أولًا: هيئة الإسبتارية Hospitallers، أى هيئة فرسان المستشفى، ولقد أطلقت عليهم هذه التسمية نظرًا لانتسابها إلى مستشفى أقامها تجار أمالفى فى مدينة بيت المقدس فى حوالى سنة1170م / 463هـ، حيث قـام عـدد من الرهبان فيها بعلاج المرضى من الحجاج المسيحيين، ولقد سميت هذه المستشفى باسم القديس يوحنا المعدان بوصفه القديس الراعى لهؤلاء الرهبان، ومن ثَمَّ عرفت تلك الهيئة بهيئة فرسان القديس يوحنا أو فرسان المستشفى[1]، ومع الغزو الصليبى لبلاد الشام واحتلال الصليبيين لمدينة بيت المقدس تغير حال تلك الهيئة بشكل واضح وملحوظ حيث كان للهدايا والهبات التى انهالت عليها بشكل مبالغ فيه، سواء من صليبيّ بلاد الشام أو من البلدان الغربية أثره الواضح فى اتساع هذه الهيئة وزيادة نفوذها حتى صار لها شأن عظيم بين الصليبيين مما شجع البابا باسكال الثانى للاعتراف بها كهيئة مستقلة غير تابعة لأية سلطة إلا لسلطة البابوية وكان ذلك فى عام1113م/ 507هـ[2].

وبمرور الوقت أخذت تلك الهيئة تتجه إلى النشاط الحربى على غرار هيئة

(1) William of Tyre, vol.II, pp.244 – 245 .

(2) محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص120.
King, The knights Hospitallers, p32, Smail, The Crusaders in Syria, p.59 .

الداوية، إلى جانب أدائها للأعمال الخيرية، حيث أتتنا الإشارات التاريخية بأنه فى بدايات عام1126م/ 520هـ، تولى رجل يدعى دوراندوDorando منصب كونستابل الهيئة، وكما سبق أن أوضحنا أن هذا المنصب كان رتبة عسكرية، مما يعنى أن الهيئة بات لها تنظيمها العسكرى الخاص بها، ونظرا لما عانته الدويلات الصليبية من نقص عددى واضح فى صفوفها وبالتالى ضعف قوتها العسكرية وما واكبه آنذاك من ظهور شجاعة وبراعة أفراد تلك الهيئة فى القتال أخذت تلك الدويلات وفى مقدمتها مملكة بيت المقدس فى الاعتماد على قدرات تلك الهيئة العسكرية شيئا فشيئا إلى أن أصبحت تلك الهيئة واحدة من أهم مراكز الثقل فى بلاد الشام[1].

ثانيًا: هيئة الداوية Templars، أو كما عرفت فى المصادر العربية باسم فرسان المعبد، ويرجع تاريخ نشأة هذه الهيئة إلى ما بعد استقرار الصليبيين ببلاد الشام فى عام 1118م/ 512هـ حيث كان الحجاج الغربيون لا يأتمنون على أنفسهم وهم فى طريقهم لبيت المقدس خاصة خلال طريق يافا- بيت المقدس، من جراء الكمائن والغارات التى كان يشنها المسلمون عليهم عبر تلك الطرق، وحرصًا من بعض الفرسان المتحمسين لحماية وحراسة هؤلاء الحجاج وبتأييد من الملك بلدوين الثانى الذى منحهم جزءًا من قصره الملكى، وهو الجزء الذى فيه المسجد الأقصى الشريف أو كما عرف لدى الصليبيين بهيكل سليمان تأسست هذه الهيئة الحربية الجديدة التى عرفت باسم الداوية أو فرسان المعبد نظرًا لانتسابها لمعبد سليمان[2] ويجدر بنا أن نتوقف هنا لنرصد جانبًا من طبيعة هذه الهيئة التى تشابهت مع هيئة الإسبتارية فى أمور شتى،

(1) أسامة سيد على أحمد، الظهير الشامى ودوره فى الصراع الإسلامى الصليبى فى القرن السادس الهجري/ الثانى عشر الميلادى، رسالة دكتوراه "غير منشورة" كلية الآداب - جامعة عين شمس 1996م، ص286، محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية، ص59- ص60،
Cahen, La Syrie du Nord, p. 317, King, The knights Hospitallers, p34 .

(2) Fetellus, p.39, John of Wurzburg, Description of the Holy land, Trans .by Aubrey Stewart, P.P.T.S, vol.V, London 1896, p.21; Theoderich, p.31; King, The knights Hospitallers, p.31 .

لعل أهمها: نمط الحياة الصارمة الذى التزم به أفراد كلتا الهيئتين،كذلك نشاطهما العسكرى الملفت للانتباه سواء فى الدفاع عن الدويلات الصليبية أو فى هجومهما على الدويلات الإسلامية المجاورة، كذلك فى اتساع رقعة الأراضى والعطايا التى حازتها كل منها إلى أن باتتا من أكبر المؤسسات الاقتصادية فى بلاد الشام[1]، وحتى فى تشابه كلا الهيئتين فى استقلاليتهما عن أية سلطة باستثناء سلطة البابا، مما يعنى أن الدويلات الصليبية فى بلاد الشام لم يكن لها أى نفوذ فعلى عليهما[2].

ثالثًا: هيئة التيوتون Order of Teutonic knights، ويرجع تاريخ نشأة هذه الهيئة لوقت حديث نسبيًا بالمقارنة بهيئتى الإسبتارية والداوية، وبالتحديد إلى الفترة الواقعة بين بدء حصار الحملة الصليبية الثالثة لمدينة عكا فى حوالى صيف عام 1189م/ 585هـ وبين منتصف شهر سبتمبر1190م/ شعبان586هـ، وهو تاريخ أول وثيقة ورد فيها ذكر لهذه الهيئة، وفى تصورى أن تلك الهيئة كانت تُعد بمثابة تجسيم مصغر لهيئة الإسبتارية، فلقد كانت فى أول نشأتها عبارة عن مستشفى ميدانى أقامها الصليبيون الألمان لعلاج جرحاهم خلال حصارهم لمدينة عكا، إلا أنه سرعان ما وجدنا أفراد تلك المستشفى ينحون منحى الهيئتين السابقتين - الإسبتارية والداوية- فى اتخاذهم النشاط العسكرى منهجًا لتنظيمهم حتى أقروا بالفعل فى عام 1198م / 594هـ، كهيئة دينية عسكرية[3].

(1) آلان فورى، النظم الرهبانية العسكرية، ص296- ص299.

(2) Anonymous Pilgrims I-VIII, pp. 29- 30,

ميخائيل زابروف، الصليبيون فى الشرق، ص162- ص163.

(3) لمزيد من التفاصيل عن هيئة التيوتون انظر :

حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة حوالى1190-1291م/ 586 – 690هـ ط. الإسكندرية1989م، محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية والمسيحية، ص382- ص390،

Sternes, The Teutonic Knights in The Crusader states, in Setton, vol.V, pp.315 – 378, Crime and Punishment among the Teutonic Knights, Speculum,vol.57, No.1 (Jan., 1982), pp.84 – 111 .

لكن لسوء حظ هذه الهيئة أنها ظلت منذ نشأتها وحتى انقضاء الوجود الصليبى بأكمله من بلاد الشام فى نهاية القرن13م/ 7هـ محدودة النشاط والأهـمية حتى أنها لم تستطع منافسة هيئتى الإسبتارية والداوية سواء فى نفوذهما بين الصليبيين أو قوتهما ونشاطهما العسكرى أو حتى فى الامتيازات والمنح التى نالوهما، ولذلك فإذا ما أمعنا النظر لوضع تلك الهيئة فى إمارة طرابلس سنجد أن كل ما حازته من منح وامتيازات فى الإمارة كان مجرد قطعة من الأرض الممتدة أسفل برج المدينة الواقع فى السور الرئيسى لمدينة طرابلس والتى منحها إياهم بوهمند الرابع فى عام 1209م/ 606هـ، وعلى الرغم من أن تلك المنحة شملت أيضًا ثلاثة أبراج من نفس السور فى المنطقة الممتدة ما بين سلالم البرج الرئيسى وحتى حدود أسقفية طرابلس وأراضى الداوية فى الجهة الغربية من سور المدينة[1]، إلا أنه من الواضح أن هذه المنحة كانت أقصى ما حازته تلك الهيئة فى إمارة طرابلس، مما ينم عن مدى ضعف تواجد ونفوذ تلك الهيئة فى الإمارة بحيث إننا لن نبالغ إذا ما جزمنا بأن تلك الهيئة لم يكن لها أدنى شأن يذكر فى طرابلس .

بينما إذا ما نظرنا لوضع هيئتى الإسبتارية والداوية فى الإمارة- وخاصة الأولى- سنجدهما على النقيض التام من هذا الأمر، لكن قبل أن نسترسل فى عرض وضع هاتين الهيئتين فى الإمارة آثرنا التعرض أولًا للظروف التى نمت خلالها هاتين الهيئتين فى إمارة طرابلس حتى بات شأنهما خلال القرن 13م/ 7هـ يفوق وضع الأمير ذاته فى إمارته، فالواقع أن الإمارة منذ نشأتها فى بدايات القرن12م/ 6هـ كانت لديها القدرة الذاتية على الدفاع عن أراضيها على أكمل وجه، لكن بمرور الوقت ومع ظهور القوة العسكرية للمسلمين، التى باتت تشكل خطرًا حقيقيًا على أمن الإمارة، ومع محدودية القوات العسكرية للصليبيين - الناتجة عن النقص العددى الحاد فى

(1) Rohricht, Regesta, no.839 ,p.224,

حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص 148.

صفوفهم - بل تناقصها الملحوظ من جراء المعارك العديدة التى خاضتها قوات الإمارة العسكرية، باتت هناك ضرورة ملحة لوجود قوة عسكرية جديدة تحافظ على ما تبقى من أراضى الإمارة من هجمات المسلمين المتوالية عليها، وعلى هذا النحو لم يجد حكام الإمارة بديلًا آخر أمامهم سوى اللجوء لهيئتى الإسبتارية والداوية لتولى هذا الأمر، لما عرفوا عنهم بمراسهم الطويل فى شئون الحرب والقتال، وبالفعل كانت أولى المناطق التى اضطر ريموند الثانى كونت طرابلس لتسليمها للإسبتارية كانت منطقة الحدود الواقعة عند ثغر حمص - طرابلس باتجاه جبال البهراء، حيث كانت هذه المنطقة من أكثر مناطق الإمارة عرضة لغارات المسلمين، وقد شملت تلك المحنة التى وقعت فى عام 1142م/ 537هـ المنطقة الممتدة من بحيرة قطينة (قادس) عند نواحى حمص وبعلبك وحماة وشيزر بما فى ذلك بعض الأعمال المتبقية من منطقة رفنية مثل تل مرداش بالإضافة لمنطقة الثغر ذاته والقلاع المسيطرة عليه فى وادى البقيعة كقلعة الحصن وعدد من القلاع الصغيرة الأخرى كحصون البقيعة (أعناز) وأفليس (فيليسيوم) وحصن الأكمة (لاكوم)[1].

ومنذ ذلك الحين أخذت الإمارة كلما عجزت عن الدفاع عن أية منطقة أو قلعة داخل حدودها، أو إذا ما أصابها الدمار من جراء أية هجمة أو زلزال ضربها فى تسليم هذه المناطق والقلاع للهيئات الدينية العسكرية، كما حدث عقب زلزال 1170م / 567هـ، الذى دمر كلًا من حصنى عرقة وعكار، ولسوء حظ الإمارة أنها كانت حينئذ فى ضائقة مالية حادة جعلتها تعجز حتى عن أداء فدية أميرها ريموند

(1) نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة القاهرة 1974م، ص27، مصطفى طلاس ومحمد وليد، حصن الأكراد، ص53، ص 62،
Le Roulx. J .D, Les Archives, La Bibliotheque ET le Tresor de l'Ordre de Saint - Jean de Jerusalem a Malthe, Paris 1883, pp.76 - 80, King, The knights Hospitallers, p.36 .

الثالث الذى كان أسيرا لدى نور الدين محمود، ومن ثَمَّ لم يتسنَّ للإمارة - بوضعها المتعثر هذا - القدرة على إعادة بناء وترميم هذين الحصنين من جديد، لذلك لم يجد الملك عمورى الأول، ملك مملكة بيت المقدس (1162– 1174م/ 557هـ - 568هـ) والوصى على إمارة طرابلس، بدًا من تسليم كلا الحصنين للإسبتارية حتى يتكفل أفرادها بإعادة بنائهما وحمايتهما من أى خطر قد يتعرضان له من جديد، وعلى هذا النحو تم تسليم حصن يحمور أو الحصن الأحمر Chastel Rouge فى عام 1177م/ 574هـ، وحصن الطوفان مع جميع ملحقاته فى عام 1180 م/ 577هـ، وحصن مرقية فى عام 1199م/ 595هـ لهيئة الإسبتارية[1].

لكن علينا أن نلاحظ أن المناطق والقلاع التى حازتها هيئة الإسبتارية فى الإمارة لم تكن جميعها من قبيل الهبة أو المنح شأن المنح السابقة، بل كان بعض منها ما قد تم شراؤه من أصحابها، كما هو الحال بالنسبة لقلعة المرقب والحصون التابعة لها ناحية الحدود الشمالية الغربية للإمارة التى اشترتها هيئة الإسبتارية فى عام 1186م/ 582هـ، من صاحبها برتراند لو مازوا (B. Le Mazoir)[2].

أما عن المناطق التى سلمت إلى هيئة الداوية فمن الملاحظ أنها كانت أقل بكثير مما حازته هيئة الإسبتارية من ممتلكات فى الإمارة، حيث اقتصرت أملاك الداوية فيها على مدينة صافيتا الواقعة فى منتصف الطريق بين أنطرطوس وحصن الأكراد وكذلك مدينة أنطرطوس التى تسلمتها الداوية فى عام 1152م/ 547هـ[3].

---

(1) جوناثان رايلى سميث، الإسبتارية فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس وقبرص " 1050 - 1310م "، ت : صبحى الجابى، ط . دمشق 1984م، ص69 - ص70، مصطفى طلاس ومحمد وليد، حصن الأكراد، ص63 - ص 64.

(2) جوناثان رايلى سميث، المرجع السابق، ص71، نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرسان، ص27.

(3) عن وثيقة تسليم مدينة انطرطوس لهيئة الداوية انظر :

Smith, Notes and Documents "The Templars and the castle of Tortosa in Syria: an unknown document concerning the acquisition of the fortress ", E.H.R .vol.V. LXXXIV, (April. 1969), No.331, pp.278 – 288, Richard, La Comte de Tripoli, pp.66 – 67 .

ومن الواضح أن أمراء طرابلس باتوا يعتمدون على تلك الهيئات بشكل مبالغ فيه، لدرجة تجعلنا نرجح أن هذا الأمر لم يكن نوعًا من الضعف العسكرى للإمارة بقدر ما كان نوعًا من الهروب والتحايل، لعدم تحمل مسئولية الدفاع عن أية منطقة قد تتعرض للهجوم الخارجى، حتى إن أسوار مدينة طرابلس ذاتها، عاصمة الإمارة ومقر حكمها والأراضى المحيطة بها، عجزت عن حمايتها بقوات الإمارة العسكرية، ومن ثَمَّ أسندوا أمر الدفاع عنها لهيئتى الداوية والإسبتارية، لذلك لا يدهش المرء أن يعلم أن بوهمند السادس أول ما تسلم ميناء اللاذقية من المغول سلمه بدوره لكل من هيئتى الداوية والإسبتارية مناصفة فيما بينهما[1].

وعلى هذا النحو إذا ما دققنا النظر فى الإطار الجغرافى لإمارة طرابلس خلال القرن 13م / 7هـ، سنجد أن معظم أراضى ومدن وقلاع الإمارة كانت بحوزة هيئتى الإسبتارية والداوية، وبالمقارنة بين ما امتلكته هاتان الهيئتان من أملاك فى الإمارة وبين ما حازه أمراء البيت النورماندى من أراض تابعة لهم سنصل إلى قناعة مؤداها أن الهيئات الدينية العسكرية فى إمارة طرابلس لم تكن بمثابة الدولة داخل إمارة طرابلس بل على العكس، فالأصح أن حكام الإمارة من أمراء البيت النورماندى هم من كانوا حقًا بمثابة الدولة داخل دولة هيمنت عليها الهيئات الدينية العسكرية.

ومن هذا المنطلق ووفقًا لما سبق ذكره من أن تلك الهيئات لم تكن تخضع لأية قوة علمانية، فلقد كان من الطبيعى أن نجد هذه الهيئات تتبع سياسة مستقلة تمامًا عن سياسة حكام إمارة طرابلس، صحيح أنها قد تتفق معها فى بعض الأحيان، كما حدث عندما قامت إسبتارية حصن الأكراد بالاشتراك مع أمراء طرابلس فى الهجوم على بعض البلدان الإسلامية المتاخمة لحدود الإمارة كمدن حماة وحمص وبعرين واللاذقية بين عامى 1202- 1204م/ 599 - 601هـ فى عهد بوهمند الرابع، ونفس

---

(1) Cahen, La Syrie du Nord, p.706 .

الأمر فى عهد خليفته بوهمند الخامس ضد حصن بعرين فى عام 1234م / 631هـ وذلك لإجبار صاحبها حاكم حماة، المظفر تقى الدين الثانى، على الاستمرار فى دفع الجزية التى يؤديها لهيئة الإسبتارية[1].

كذلك كان الأمر ذاته فى مشاهد عدة بين هيئة الداوية وأمراء البيت النورماندى ابتداء من صراع بوهمند الرابع مع ملوك أرمينيا- الذين كانوا على عداء دفين لهيئة الداوية- للسيطرة على إمارة أنطاكية فيما عرف بحرب الوراثة فى أنطاكية، وما أعقبها فيما بعد من قتل فيليب ابن بوهمند الرابع فى أحد سجون أرمينيا، حتى بلغ هذا العداء أقصى ذروته فى عهد بوهمند الخامس المطالب بثأر أخيه فيليب، عندما قام بالاتفاق مع هيئة الداوية فى شن حملة على أراضى مملكة أرمينيا، إلا أنه لحسن حظ هذه المملكة أن هذه الحملة لم تخرج إلى حيز التنفيذ الفعلى[2].

بيد أن الأمر المؤكد فى علاقة هاتين الهيئتين بإمارة طرابلس أنهما فى أغلب الأحيان لم تكن علاقاتهما سلمية طوال الوقت بحكام طرابلس، بل على العكس من ذلك فلقد بلغت فى بعض الأحيان حد العداء السافر والمواجهات العسكرية، ذلك العداء الذى شاهدنا بعض أنماطه من خلال صراع بوهمند الرابع مع هيئة الإسبتارية التى استبسلت فى مناصرة أعدائه، ريموند روبين وليو الثانى ملك أرمينيا، خلال حرب الوراثة فى أنطاكية، الأمر الذى دفع بوهمند الرابع للانتقام من هذه الهيئة بتجريدها من كافة ممتلكاتها فى إمارتيه أنطاكية وطرابلس، وأمام هذا التصرف الانتقامى من بوهمند الرابع لم يجد البابا أنوسنت الثالث الذى تتبعه

---

(1) Eracles, pp.403 – 405,

سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص809 – ص810، منى فريد مصطفى عثمان، حماة فى العصر الأيوبى، ص138– ص140.

(2) Cahen, La Syrie du Nord, p.650, King, The knights Hospitallers, p.214.

حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص351.

الهيئـات الدينية العسكرية فى بلاد الشام بدًا من فرض الحرمان الكنسى ضده بل السماح للإسبتارية أيضا بمقاومته حتى ولو بحد السيف(1).

كذلك فى صراع بوهمند السابع مع الداوية التى ساندت أسرة أمبرياتشى فى صراعها ضده، فما كان منه إلا أن قام بتدمير كافة معاقل الداوية فى إمارته التى سارعت بدورها إلى إحراق قلعة البترون التابعة لبوهمند السابع، ليس هذا فحسب بل قامت بالاشتراك مع جاى أمبرياكو حاكم جبيل بإلحاق الهزيمة العسكرية ببوهمنـد السـابع فى معركة دارت رحاها شمال مدينة البـترون فـى عـام 1278م/ 677هـ(2)، وعلى الرغم من أن هذا الصراع استمر أثره مهيمنا على علاقة كلا الطرفين ببعـضهما البعض لفترات طويلة لاحقة لهذا التاريخ، إلا أننا وجدنا هذه الهيئة وكذلك هيئة الإسبتارية تؤديان دورهما المنوط بهما فى الدفاع عن مدينة طرابلس خلال حصار المماليك لها(3).

ولا مراء فى أن تراخى حكام إمارة طرابلس فى إحكام سيطرتهم على تلك الهيئات الدينية العسكرية وكذلك على الجاليات الإيطالية التى لم تقل شأنا عنها، بالإضافـة إلى ما شهـدته الإمارة خلال هـذا القرن من تهـاوى نظم حكمها وإدارتها، خاصة نظمها الإقطاعية التى ألم بها الفساد والضعف والتى كانت نتاجًا طبيعيا لضعف شخصية بعض حكام الإمارة الذين لم يتمكنوا من إحكام قبضتهم على زمام الأمور فيها، كالأمير بوهمند الخامس حيث شهد عهده بداية تزايد نفوذ الأتباع الإقطاعيين على حساب سلطة أسيادهم أمراء طرابلس أصحاب الحق

(1) King, The knights Hospitallers, p.213 .
(2) Les Gestes des Chiprois, pp.747–750, Grousset, Histoir des Croisudes, vol.3, pp.684 – 687, Irwin, Conquest of County of Tripoli, p.247 .
(3) سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص141، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص928،
Runciman, A History of the Crusades, vol.II, pp. 405 – 406, King, The knights Hospitallers, p.287 .

الشرعى فى حكم الإمارة، كذلك كان هذا الضعف ناتجا أيضا عن السياسات غير الحكيمة التى اتبعتها غالبية أمراء طرابلس سواء مع أتباعهم من الإقطاعيين أو حتى بعلاقاتهم بمراكز القوى الأخرى المؤثرة على مسرح الأحداث فى الإمارة، والتى أسفرت فى بعض الأحيان عن خوضهم معارك وحروبا لم تجن الإمارة منها سوى إهدار غالبية قوتها العسكرية ومواردها المالية، وحتى إعلان الحرمان الكنسى ضد بعض أمرائها، كالأمير بوهمند الرابع وحفيده بوهمند السادس، كما كان لهذه السياسة أثرها الواضح أيضا فى زيادة الفرقة والنزعة الاستقلالية بين غالبية القوى المهيمنة على إمارة طرابلس. ومجمل القول إن أساس ما ألم بنظم الحكم والإدارة فى إمارة طرابلس من انحدار وفساد إنما مرجعه فى المقام الأول إلى أمراء طرابلس أنفسهم وليس إلى أحد سواهم .

كان ذلك عرضًا لأهم ملامح نظم الحكم والإدارة فى إمارة طرابلس خلال القرن 13م/ 7هـ، أما الفصل التالى فيتناول سقوط إمارة طرابلس .

■ الفصل الخامس

سقوط إمارة طرابلس

يتناول هذا الفصل بالدراسة الأحداث التاريخية التى أحاطت بسقوط إمارة طرابلس بدءًا من عرض أهم عوامل الضعف الداخلى بالإمارة، مع استعراض لعلاقاتها المملوكية فى عهدى كل من الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون، حتى نصل لمرحلة سقوط الإمارة ذاتها فى عام 1289م/ 688هـ، والعوامل التى ساعدت فى ذلـك، وكذلـك الأسباب الـتى أدت لتأخـر سقوطـها فـى أيـدى القـوى الإسلامية، انتهاء بتأثير سقوط الإمارة ونتائجه عـلى الكـيان الصلـيبى بوجـه عام.

وواقع الأمر، أن سقوط إمارة طرابلس لم يكن ناتجًا عن فاعلية حركة الجهاد الإسلامى بقدر ما كان ناتجًا عن عوامل الضعف الداخلية التى ألمت بالإمارة نفسها، والتى كان من أهمها عدم التجانس الواضح فى التركيبة السكانية لعناصر الصليبيين فى الإمارة، فإذا كان الصليبيون أبناء الغرب الأوروبى استطاعوا أن يتناسوا قومياتهم وجنسياتهم الأصلية بما حملته فى طياتها من ترسبات قديمة للعداءات التى كانت قائمة فيما بينهم ليعيشوا سويًا كمجتمع صليبى واحد فى الشرق، إلا أن الجاليات الإيطالية على وجه الخصوص لم تستطع أن تستسيغ هذا الأمر وأصرت على استقلالها الكامل عن باقى عناصر المجتمع الصليبى، ناهيك عن الخلافات الواضحة فى أسلوب المعيشة والميول والأفكار التى كانت قائمة بين عناصر الصليبيين المحليين وبين إخوانهم من الصليبيين حديثى العهد ببلاد الشام، التى بلغت من حدتها فى بعض الأحيان أن تصاعدت إلى حد المصادمات

العسكرية[1]، زد على ذلك أن الهيئات الدينية العسكرية - الإسبتارية والداوية - على الرغم من وجودها القوى فى إمارة طرابلس بما حازوه من إقطاعات واسعة إلا أنهم على شاكلة الجاليات الإيطالية لم يعدوا أنفسهم بأى حال من الأحوال كأفراد ضمن المجتمع الصليبى الطرابلسى[2].

وليت صليبيو الإمارة اكتفوا بما حل بهم من تشرذم وانقسام، بل الأسوأ من هذا أنه مع احتدام الخلافات والصراعات فيما بينهم، التى يعزى أغلبها لتنافسهم المبالغ فيه بمختلف عناصرهم لإحراز الثروة والسلطة والنفوذ، باتت المواجهات العسكرية هى السبيل الوحيد أمامهم لإنهاء خلافاتهم، وإن كان هذا الحل بشكل مؤقت، كما هو الحال بالنسبة لحرب القديس ساباس التى دارت رحاها بين المدن التجارية(بيزا وجنوة والبندقية) عند سواحل بلاد الشام عامى 1257– 1258م/ 655 - 656هـ، والتى بلغت من قوتها وتأثيرها أن جذبت إليها كافة الأطراف الصليبية فى بلاد الشام، وبرغم ذلك لم تستطع تلك الحرب أن تصل إلى حل جذرى ينهى الخلافات والصراعات التى كانت قائمة بين هذه الجاليات، بل على العكس فلقد زادت من حدة الخلافات والانقسامات بين الصليبيين أنفسهم فيكفى أن نعلم أن تلك الحرب التى شارك فيها بوهمند السادس باعتباره حليفًا للبنادقة زادت من هوة الخلاف بينه وبين أتباعه من أسرة أمبرياتشى حكام جبيل الذين وقفوا فى الجانب المضاد من هذا الصراع ألا وهو الجانب الجنوى بحكم أصولهم الجنوية[3] لندرك مدى التأثير السلبى لمثل تلك الحروب ليس على المجتمع الصليبى الطرابلسى فقط، بل على المستوى الصليبى بشكل عام فى بلاد الشام، ونفس الأمر يمكن قوله بالنسبة

(1) Jacques de Vitry, pp.57-58 .

(2) Caritidge, The Crusades failed Holy wars, San Diego 2002, p.72 .

(3) Les Gestes des Chiprois, pp.744-750, King, The Knight Hospitallers, pp. 254 -255, Runciman, The Crusader states, p.570 .

للحروب الأهلية المتوالية فى الإمارة، التى كان أغلبها بين أمراء البيت النورماندى حكام طرابلس وبين أتباعهم من أسرة أمبرياتشى حكام جبيل، والتى استمر صداها مؤثرًا على علاقة صليبىّ الإمارة بعضهم ببعض حتى اللحظة الأخيرة من وجودهم فيها[1] دون مراعاة لعدم مشروعية وجودهم وسط حيز إسلامى معاد لهم، خاصة مع تزايد الخطر الإسلامى المملوكى على الوجود الصليبى بأكمله وليس على إمارة طرابلس فحسب.

ومما لا شك فيه، أن تلك الصراعات والحروب التى خاضها صليبيو الإمارة سواء ضد أعدائهم من المسلمين - وهى على قدر ذلك لم تكن كثيرة - أو التى خاضوها ضد بعضهم البعض - وهى الغالبة على حروبهم - كانت لها أكبر الأثر على ضعف وإنهاك قواهم العسكرية خاصة أنهم كانوا يعانون فى الأساس من نقص واضح فى العنصر البشرى، وقد جاءت تلك الحروب لتزيد من هوة هذه الأزمة لتؤدى إلى هلاك قدر هائل منهم، فيكفى أن نعلم أن خسائر حرب دير القديس ساباس فى الأرواح وحدها بلغت ما يزيد عن عدة آلاف من القتلى[2]، والتى كان لصليبيى الإمارة نصيبًا فيهم بحكم اشتراكهم فيها، ليعطينا ذلك تصورًا ولو بشكل تقريبى عن مدى ما تكبدته إمارة طرابلس باشتراكها فى حرب الوراثة فى أنطاكية التى استمرت قرابة العشرين عامًا ومن بعدها الحروب الأهلية الطاحنة فى إمارة طرابلس من قتلى وجرحى لندرك مدى الانهيار والضعف العددى الذى كان عليه

(1) Les Gestes des Chiprois, pp.802 – 803,

سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص122– ص123، عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس، جـ 1، ص 579 – ص 580،

Irwin, Conquest of County Tripoli, p.247, Runciman, A History of the Crusader, vol.lll, pp. 378-379 .

(2) مجهول، تتمة تاريخ وليم الصورى، ص233 – ص238، حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص 279 – 281 ،

Dotson, Fleet operation in the first Genoese – venation war .

صليبيوها، ومما زاد الأمر سوءًا أن الرافد البشرى، الذى كان يعتمد عليه الصليبيون لتدعيم وجودهم فى الشرق من الغرب الأوروبى، كان آخذًا فى النضوب بعد أن أدرك الأوروبيون أنه لا جدوى من دعمهم للمشروع الصليبى، خاصة بعد أن أيقنوا أنهم الخاسر الأكبر من وراء هذه المغامرة التى لم يحمدوا عقباها، فإن ما تحملوه من خسائر فادحة فى الأرواح والأموال خلال حملاتهم على الشرق كان أغلى وأفدح مما جنوه من مكاسب محدودة هناك، وعلى هذا النحو كان أمرا طبيعيًا أن تتكرر شكوى صليبيو بلاد الشام من نقص أعدادهم المستمر خاصة المقاتلين والفرسان منهم دون أن يجدوا لهم نصيرًا فى الغرب الأوروبى[1].

زد على ذلك، أن المجتمع الصليبى عانى من فجوة واضحة بين أجياله من الصليبيين، والتى تظهر جليًا إذا ما عقدنا مقارنة بين جيل التأسيس الذى شيد الدويلات الصليبية وبين الأجيال اللاحقة التى ولدت وعاشت بها وتزاوجت من السكان المحليين ببلاد الشام لتنشأ منهم أجيال كانت واقعة بشكل كبير تحت تأثير المؤثرات الشرقية فيما يعرف بظاهرة التمشرق[2]، وإن كانت غالبية هذه المؤثرات تجلت بشكل أوضح على المظهر الخارجى للصليبيين كالملبس والمأكل وحتى إتقانهم للغة العربية، فى حين كان صدى تلك المؤثرات على أخلاقهم وعاداتهم أضعف بكثير، حيث كان غالبية الصليبيين منغمسة فى حياة اللهو والترف والممارسات الشاذة فيما بينها، ومما لا شك فيه أن حياة على هذا النحو من الدعة والرفاهية لم تكن لتتفق مع ساحات القتال، ولعل هذا الوضع هو ما يفسر لنا لماذا لم نجد لدى غالبية هؤلاء الصليبيين أدنى دافع للقتال فى كثير من الأحيان، حتى للدفاع عن أنفسهم.

(1) De Cancy, p.13, Edward I, king of England, "Letter to Joseph de Cancy" (May.1283), in P.P.T.S, vol.V, pp.16-17, Caritidge, The Crusades failed, p.77 .

(2) Jacques de Vitry, pp.57-58, William of Tyre, vol.II, P.256,
محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية (السياسة، المياه، العقيدة)، ص51- ص52.

بالإضافة إلى ذلك، كانت إمارة طرابلس برغم ما اشتهرت به من ازدهار اقتصادى إلا أنها عانت فى بعض الأحيان، وبخاصة خلال النصف الثانى من القرن 13م/ 7هـ، من تعرضها لأزمات اقتصادية، خاصة أن نشاطها التجارى الذى كان يعد أهم أنشطتها الاقتصادية نظرًا للدور الفعال الذى قامت به الإمارة كوسيط تجارى بين الظهير الإسلامى والشرق الأقصى من ناحية وبين الغرب الأوروبى من ناحية أخرى، قد تأثر على نحو واسع باضطراب حركة التجارة العالمية على إثر نشوب حرب دير القديس ساباس وما واكبها آنذاك من زحف الجيوش المغولية عبر بلدان آسيا الوسطى والعالم الإسلامى، كذلك ما أحدثته هجمات التركمان على الإمارة من ضعف حركة التجار المسلمين إليها، ومما زاد من تفاقم تلك الأزمات أن صليبيو الإمارة لم تكن لديهم سياسة مالية راسخة، فالناظر لمصروفات الإمارة سيجد أن صليبيوها قد أضاعوا غالبية مواردهم المالية فى صراعاتهم وإسرافهم المبالغ فيه خاصة فى شراء السلع الترفيهية، ولعل أوضاع الصليبيين هذه هى التى دفعت الغرب الأوروبى لتجاهل نداءات الصليبيين المتكررة لتقديم العون المادى لهم، والتى كان منها على سبيل المثال نداء الفارس الصليبى يوسف دى كانسى فى خطابه للملك إدوارد الأول ملك إنجلترا فى عام 1282م/ 668هـ الذى ذكر فيه:" أنه أبدًا ما شاهدنا فى تاريخنا فى الأرض المقدسة مثل هذه الحالة من الفقر إلى يومنا هذا ". وفى الحقيقة أن قول دى كانسى هذا كان أبلغ وصف لما كان عليه الوضع المادى المتهالك للصليبيين فى تلك الفترة البالغة الحرج من تاريخهم[1].

والواقع، أنه تعزى غالبية عوامل الضعف السابقة إلى عدم وجود قيادة صليبية قوية طيلة القرن 13م/ 7هـ، بل الأدق من بعد وفاة الملك عمورى الأول ملك مملكة بيت المقدس الذى توفى فى عام 1174م/ 570هـ، سواء على المستوى الصليبى أو حتى على مستوى الإمارة فى حد ذاتها، فمنذ وفاة هذا الملك لم نشهد قائدًا صليبيًا

(1) De Cancy, p.13, Caritidge, The Crusades failed, pp.76-77, Jackson, The Crisis in the Holy Land in 1260, in HER, vol.95, no.376 (Jul, 1980), pp.481-513 .

قادرًا على جمع شمل صليبىّ بلاد الشام على كلمة سواء، أو على أدنى تقدير يكون لديه الحرص على مصلحة الصليبيين العامة بدلًا من مصلحته الخاصة[1]، فعلى الرغم من أننا اعتبرنا أن كلًا من بوهمند الرابع وحفيده بوهمند السادس من الشخصيات الصليبية القوية، لكن علينا أن نتنبه إلى أن قوتهما هذه كانت تقاس بمستوى أقرانهما من القادة الصليبيين آنذاك، أى أنهما بمعنى أصح كانا أقوى الضعفاء، ولعل ذلك يظهر جليًا من خلال سياستهما، فحقًا أن بوهمند الرابع استطاع توحيد عرشى إمارتى أنطاكية وطرابلس تحت سلطانه، ومن بعده حفيده بوهمند السادس بمحالفته للمغول من الفوز بمدينتى جبلة واللاذقية ليضمن بذلك لأول مرة ربط إمارتى طرابلس وأنطاكية جغرافيًا[2]، إلا أن الأيام أثبتت أن سياستيهما هذه لم تعد على الصليبيين بالنفع بقدر ما جرته عليهم من مضار، فيكفى أن نعلم أن إمارة أنطاكية التى خاض بوهمند الرابع بقواته فى سبيل الاستيلاء عليها حروبا استمرت قرابة العشرين عامًا تجاهلها أبناؤه وأحفاده من بعده، وحتى هو نفسه، لتصبح مسرحًا للصراعات والحروب الأهلية لقرابة نصف قرن، زد على ذلك أن تحالف بوهمند السادس جر عليه وعلى إمارتيه انتقاما لا هوادة فيه من قبل الملك الظاهر بيبرس الذى اعتبره أعدى أعدائه[3].

وإذا كان هذا حال إمارة طرابلس فى عهد اثنين من أبرز حكامها الصليبيين فما بالنا والذى يتولى أمرها حاكم كالأمير بوهمند الخامس الذى عرف بضعف شخصيته، خاصة أمام زوجته لوسى، لدرجة شجعت بعضًا من أتباعه على زيادة نفوذهم على حسابه هو نفسه، أو كعهد الأمير بوهمند السابع الذى تعامل فى خلافاته مع أتباعه، وخاصة حكام جبيل - كما سبق أن أوضحنا - بأسلوب منافٍ

(1) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية (السياسة، المياه، العقيدة)، ص51.

(2) Les Gestes des Chiprois, p.751, Stevenson, The Crusaders in The east, p.335 .

(3) حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص120- ص121، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص906، محمد جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس، ص66.

تمامًا للحكمة والروية والعقلانية لدرجة أدت لانقسام صليبيّ الإمارة على أنفسهم لحزبين معادين لبعضهما بشكل كامل، فى وقت كان من المفترض أن يحرص هؤلاء الصليبيون فيه على وحدة صفوفهم وتقويتها.

وعلى أية حال، فإن الدويلات الصليبية وهى على هذا النحو من الضعف والتناحر بين صليبييها كان من المحتم سقوطها بأى حال من الأحوال، إلا أن ما عجل بهذا الأمر كان راجعًا فى المقام الأول لقيام دولة المماليك فى مصر فى منتصف القرن13م/ 7هـ، التى يعزى لسلطانيها المظفر قطز ومن بعده الظاهر بيبرس وحدة بلاد الشام بمصر بعد أن أوقعوا بالمغول هزيمة مدوية فى معركة عين جالوت عام 1260م/ 659هـ[1]، والواقع أن انتصار المماليك فى هذه المعركة لم يوقف الغزو المغولى الهمجى عن باقى العالم الإسلامى والغرب الأوروبى من بعده فحسب، وإنما كان أيضًا أفضل اختبار للمماليك ليكشفوا فيه عن قوتهم العسكرية الضاربة، زد على ذلك أن وحدة مصر والشام لم تضمن لمصر تأمين عمقها الدفاعى المتمثل فى بلاد الشام فقط، بل ضمنت أيضًا وجود المماليك بالقرب من ساحة الوجود الصليبى ليتهيأ لهم بذلك الانقضاض على الدويلات الصليبية وفقًا لما يتراءى لهم من ظروف ملائمة.

وللأسف لم تسنح الظروف للمظفر قطز أن يكون له نصيب فى مجاهدة الصليبيين، فلقد قتل عقب معركة عين جالوت بفترة وجيزة على يد بيبرس البندقدارى، ودون الخوض فى غمار تفاصيل هذا الخلاف الذى أودى بحياة واحد من أعظم القادة العسكريين فى التاريخ الإسلامى، فالثابت تاريخيًا أن هـذه الحادثة أسفرت عن تولى بيبرس الذى لقب بالظاهر حكم مصر وبلاد الشام، والواقع أن الظاهر بيبرس لم يكن أقل إقدامًا أو شجاعة من المظفر قطز، فيكفى أن نعرف أن هذا القائد هو البطل

(1) عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، ط.الرياض1989م، ص34- ص38، وليم موير، تاريخ دولة المماليك فى مصر، ت: محمود عابدين سليم حسن، ط . القاهرة1995م، ص45.

الحقيقى لمعركة المنصورة وفارسكور التى جرت وقائعهما فى عام1250م/ 648هـ وانتهت بوقوع الملك الفرنسى لويس التاسع فى أغلال الأسر ومن ثَمَّ فشل الحملة الصليبية السابعة على مصر[1]، كذلك لا يمكن إنكار أن بيبرس كان له الفضل الأكبر فى انتصار المسلمين فى معركة عين جالوت، فوفقًا للمخطط الذى وضعه المظفر قطز لهذه المعركة كان على بيبرس والكتيبة التى قادها أن يتحملوا وحدهم عبء الضربة الأولى من جيوش المغول لينقض عليهم بقية الجيش المملوكى من كل صوب، ليس ذلك فحسب، بل يرجع الفضل له أيضًا فى مواصلة الزحف وراء جحافل المغول الهاربة من المعركة حتى لم يعد لهم مقام فى الشام .

لكن بيبرس على الرغم من تتويجه ملكًا على مصر وبلاد الشام، إلا أنه لم يستطع أن يكسب لنفسه ولرفاقه من المماليك الشرعية الكافية لتولى المُلك، نظرًا لعدم استنادهم إلى أصل نبيل، ومن ثَمَّ حمل بيبرس على عاتقه مهمة هذا الأمر، فكان سبيله إلى هذا إعادة الخلافة العباسية وإحياؤها بالقاهرة فى شخص الأمير أبى العباس أحمد الذى بويع خليفةً للمسلمين تحت لقب الحاكم بأمر الله، وفى الوقت نفسه بايع بيبرس سلطانا على مصر وبلاد الشام فى عام 1263م/ 662هـ[2]، والواقع أنه برغم إقدام بيبرس على هذه الخطوة الناجحة لكسب الشرعية السياسية الرسمية لملكه ولخلفائه من بعده، إلا أنه كان لا يزال يؤرقه نظرة البعض له ولأتباعه

(1) سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ8/ ق2، ص777- ص780، أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص 180،

Jean de Joinville, pp.257-259,

محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ط. القاهرة 1961م، محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير "غير منشورة" كلية الآداب - جامعة عين شمس عام 1984م، ص512 – ص513.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص142- ص14، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص79، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، جـ5، ط . القاهرة ب- ت، ص34، محمد حسين ومحمد سالم الطراونة، " دور الظاهر بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة "، مجلة كلية الآداب، م30، جامعة عين شمس، أبريل- يونيو2002م، ص221- ص257.

من المماليك نظرة دونية، لذلك كان على المماليك أن يبرروا ضرورة بقائهم فى الحكم بتحقيق إنجاز يحسب لهم، وبحكم أن الوجود الصليبى إلى جانب غارات المغول المتكررة فيما بعد على بلاد الشام كانا يعدان أهم الأخطار التى واجهها العالم الإسلامى آنذاك، فلم يكن أمام دولة المماليك سبيل لاكتساب احترام رعاياهم وسائر الشعوب الإسلامية إلا بقضائهم المبرم على هذين الخطرين.

لكن على الرغم من ذلك علينا أن نتنبه إلى أن هذا الأمر لا يعنى أن مجاهدة المماليك للصليبيين لم يكن بوازع دينى كما يحاول بعض الباحثين الغربيين إظهاره لنا[1]، بل على العكس فلقد كانت روح الجهاد أبرز ما ميز دولة المماليك البحرية، خاصة السلطان الظاهر بيبرس الذى تشهد مواقفه وانتصاراته جميعها، سواء قبل توليه الحكم أو بعد ما أصبح سلطانًا، بأن حرصه الأول كان رفعة شأن الإسلام والعالم الإسلامى.

أما إذا ما اتجهنا إلى ساحة الصراع المملوكى – الصليبى سنجد أن الظاهر بيبرس حرص كل الحرص على ألا يدخل فى مواجهة مع الصليبيين دون أن يؤمن ظهره من أى خطر قد يتهدده، فقام فى سبيل ذلك بعقد سلسلة من المعاهدات والتحالفات مع القوى الخارجية خاصة المعادية منها للمغول والصليبيين ضمن بموجبها حيادها التام فى صراعه مع كليهما، بل مساندتها له، فكان من تلك التحالفات ما عقده بيبرس مع بركة خان زعيم مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) المسلم (1256- 1267م/ 654-655هـ) الذى كان على عداء دفين بهولاكو خان زعيم مغول فارس حتى قبل إعلان الأول إسلامه[2]، ويتراءى لى أن الذى ألهم بيبرس لعقد هذا التحالف بدون قصد

---

(1) محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص332،
Housely, The later Crusades 1274- 1580, Oxford 1992, p.10 .

(2) الجوينى، تاريخ جهانكشاى، جـ2، ص370، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص214، النويرى، نهاية الأرب، جـ27، ص360، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص222، عبد العزيز الخويطر، الظاهر بيبرس، ص 60- ص67، محمد مجدى حسن، المغول وبلاد الإسلام فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه "غير منشورة" بكلية الآداب – جامعة المنيا 1991م، ص168- ص171،
Howerth, History of the Mongols, vol.2, London 1975, p.196 .

بطبيعة الحال بوهمند السادس وهيثوم الأول ملك أرمينيا بتحالفهما مع مغول فارس.

كما شملت تحالفات بيبرس أيضًا الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوغس (1259-1282م/ 657-681هـ)، الذى عقد معه حلفًا دفاعيًا فى عام 1262م/ 660هـ، موجهًا ضد مغول فارس من ناحية[1]، والصليبيين فى بلاد الشام من ناحية أخرى، كما أضاف بيبرس إلى دائرة تحالفاته بعض ملوك دول غرب أوروبا كمنفرد بن فردريك الثانى ملك صقلية وتوسكانيا (1258-1266م/ 656-664هـ) وخليفته شارل الأول الأنجوى (1266- 1285م/ 664- 684هـ)[2]. وقد حرص بيبرس أيضا على توثيق عرى الصداقة والمودة بجيمس الأول ملك أرغونة (1213- 1276م/ 610- 675هـ)، وألفونس العاشر ملك قشتالة وكذلك عرب خفاجة بالعراق وملك شيراز بفارس[3].

وهكذا استطاع بيبرس أن يحيط تحركاته ضد الصليبيين بسلسلة من التحالفات التى استغرقت منه لتوثيقها وتقويتها قرابة خمسة أعوام، وبالفعل كان عام 1265م/ 663هـ هو البداية الفعلية لجهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين، وعلى الرغم مما سبق أن أوضحناه من أن بيبرس كان يعتبر بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس ألد أعدائه، لما أجرمه فى حق المسلمين بمحالفته للمغول ومشاركته إياهم

(1) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، جـ9، ص97، العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، جـ1، تحقيق محمد محمد أمين، ط.القاهرة1987م، ص332، إسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغس، ط. بنى غازى، ب- ت، ص61، ليلى عبد الجواد، علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية (659- 784هـ/ 1261- 1382م)، مقال بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة العدد(47) عام 1988م، ص58- ص67،

Howerth, History of the Mongols, vol.2, p.196 .

(2) بيبرس الدواداري، المصدر السابق، جـ9، ص98، العينى، المصدر السابق، جـ1، ص290،

Lane-Poole, History of Egypt in Middle ages, London 1919, pp.266 - 267 .

(3) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص182، أحمد عودات وآخرون، تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجرى حتى القرن الثالث عشر الهجرى، ط . القاهرة، ب - ت، ص97.

فى إسقاط دمشق، إلا أنه كان من الحكمة والحنكة العسكرية ما جعله يؤثر تأمين مسار تحركاته وخطوط إمداداته أولًا فى جنوب بلاد الشام على مواجهة بوهمند السادس وهو لا يزال بعد حليفًا قويًا للمغول ولملك أرمينيا .

ومن ثَمَّ كانت أولى الضربات التى وجهها بيبرس للصليبيين متمثلة فى المناطق الجنوبية للساحل الشامى لا سيما قيسارية التى كانت واحدة من المدن والقلاع التى عمل الملك الفرنسى لويس التاسع على تقويتها وزيادة استحكاماتها قبل مغادرته لبلاد الشام، لذلك جد بيبرس ورجاله فى حصارها بشكل واضح، لدرجة أنه اشترك بنفسه فى هدم أسوارها وإحكام حصارها، فنصب المجانيق حولها واستمر فى تضييقه عليها إلى أن أسقطها المماليك بعد قرابة الأسبوع من حصارها فى مارس1265م/ 15جمادى الأولى 663هـ، وكان بيبرس قد أمَّن أهلها وسمح لهم بمغادرتها بسلام، ثم أمر رجاله بعد ذلك بهدم المدينة بأكملها فيما يعرف بسياسة الأرض المحروقة، حتى لا يعاود الصليبيون مهاجمتها من جديد[1]، ومن الملاحظ أن سياسة هدم المدن والقلاع تلك قد اتبعها بيبرس ومن بعده قلاوون فى غالبية فتوحاتهم بشكل عام وللهدف نفسه، مما يظهر لنا مدى الحرص الذى أبداه كلاهما تجاه الصليبيين حتى لا يمكنوهم من إعادة امتلاك ولو شبر واحد من الأراضى الإسلامية.

وما إن انتهى بيبرس من أمر مدينة قيسارية حتى واصل تحركاته المستمرة تجاه باقى الدويلات الصليبية الأخرى، خاصة أنه كان حريصًا على استغلال ارتفاع الروح المعنوية لجنوده الذى أحدثه انتصارهم الحاسم فى استرداد مدينة قيسارية، ومن ثَمَّ فلقد آثر بيبرس مهاجمة مدينة يافا التى استغرق هجومها والاستيلاء عليها وتخريبها من الجيش المملوكى يومًا واحدًا لا غير، حيث تم لهم هذا فى 7 مارس

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص230- ص231، بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص 128، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص2، حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، ط. الإسكندرية1990م، ص223.

1265م/ 20جمادى الأولى 663 هـ[1]، والواقع أن انتصار بيبرس على هذا النحو البالغ السرعة على صليبيّ يافا هو ما جعله ينتبه إلى عامل الهزيمة المعنوية التى ألحقها بأعدائه الصليبيين سواء عن قصد منه أو بدون قصد، إلا أنه على أى حال عمل جاهدًا على زيادة تعميق هذا الأمر فى نفوسهم واستغلاله لصالح المسلمين قدر المستطاع، فما كان منه إلا أن سارع بالتوجه بجيشه إلى أرسوف الواقعة بين قيسارية شمالًا ويافا جنوبًا مستغلًا قطع الإمدادات عنها بعد إسقاطه لقيسارية ويافا ومحاصرة المسلمين لها، وعلى الرغم من ذلك كانت أرسوف أكثر المدن الصليبية التى أبدت مقاومة شديدة أمام الجيش المملوكى، إلا أنها فى النهاية لاقت نفس المصير فى 26 أبريل1265م/ 13رجب663هـ[2].

وقبل أن تفتر همة رجاله وحماستهم اتجه بيبرس لإرسال حملة يقودها الأمير سيف الدين قلاوون- الذى سيتولى حكم دولة المماليك فيما بعد تحت لقب المنصور- لمهاجمة إمارة طرابلس فى مايو1266م/ شعبان664هـ وفى تصورى أن هذه الحملة إلى جانب كونها ردًا مباشرًا على مهاجمة بوهمند السادس لمنطقة حمص، كان الهدف الأساسى منها هو وضع تصور مفصل للطبيعة الجغرافية للإمارة ومدى قوة استحكاماتها الدفاعية، ولعل ذلك يظهر جليًا من خلال أحداث هذه الحملة نفسها، فوفقًا لترتيب أحداثها التسلسلى كان أول تحرك قام به قلاوون تجاه مدينة طرابلس نفسها إلا أنها استعصت عليه، فما كان منه إلا أن تركها وهاجم حصونها الشمالية حلباء ثم عرقة وانتهاء بالقليعات الساحلية فاستولى عليها وغنم منها الكثير ثم هدم ثلاثتها[3].

---

(1) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ط. بيروت1981م، ص321، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ 2، ص909، محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص333،

Housely, The later Crusades, p10 .

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص243، بيبرس الدوادارى، المصدر السابق، جـ9، ص128، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص268- ص272، العينى، عقد الجمان، جـ1، ص397.

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص251- ص252، الذهبى، دول الإسلام، جـ2، ص169، العبر، جـ5، ص275، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص282- ص284.

والواقع، أن أهمية هذه الحصون ترجع لكونها بمثابة الخط الدفاعى الأول لمدينة طرابلس من جهة الشمال الشرقى باعتبارها أقرب القلاع إليها، كذلك لإشرافها على منفذ حمص- طرابلس وبذلك كان استيلاء المسلمين عليها تهديدًا مباشرًا لمدينة طرابلس[1]، وعلى الرغم من ذلك لم يُظهر المماليك أدنى حرص لتمسكهم بتلك الحصون التى سرعان ما استولى عليها الصليبيون من جديد وأعادوا بناءها، أضف إلى ذلك أن هذه الحملة شملت أيضًا الإغارة فحسب على حصن الأكراد دون أن يكون هجومًا مدروسًا، مما يؤكد هذا تصورى بأن قلاوون لم تكن لديه أوامر مسبقة لتحقيق مكسب فعلى تجاه إمارة طرابلس بقدر توسيع دائرة هجماته فيها حتى يستطيع نقل صورة واضحة لطبيعتها ودفاعاتها للظاهر بيبرس.

وما إن انتهى الظاهر بيبرس من هذه الحملة حتى تحرك بجيشه نحو صفد الواقعة بشمال فلسطين فشن عليها هجومًا محكمًا إلى أن أعلنت حاميتها من فرسان الداوية طلبهم تسليم المدينة إليه بالأمان على أن يتركهم يرحلون بسلام، فوافقهم بيبرس على ذلك على ألا يخرجوا بمال أو سلاح وألا يتلفوا شيئًا من ذخائر قلعتها، وبالفعل أخذ الداوية فى الخروج من المدينة إلا أن بيبرس أمر بتفتيش رجالهم فوجد معهم من المال والسلاح ما ينافى ما اتفقوا عليه، ليس هذا فحسب، بل وجد معهم أيضًا بعض أسرى المسلمين الذين أخرجوهم معهم على أساس أنهم نصارى، مما أثار هذا الأمر حنق الظاهر بيبرس فما كان منه إلا أن أمر جنوده بالفتك بحامية المدينة بأكملها[2].

ومما لا شك فيه، أن أمرًا كهذا الحادث كان من شأنه أن يشيع الرعب والهلع فى

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص910، عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس السياسى، جـ1، ص556.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ2، ص149، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ2، ص338، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص117- ص118، اليافعى، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، جـ4، ط. بيروت 1997م، ص123.

قلوب الصليبيين تجاه الظاهر بيبرس، لذلك لم يبدوا مقاومة كبيرة أمامه عندما توجه إلى منطقة طبرية وهاجمهم فى هونيين وتبنين والرملة واللد التى استولى عليها جميعًا فى العام ذاته، عام 1266م/ 644هـ[1].

كما شهد هذا العام أيضًا مواجهة بين قوات الظاهر بيبرس التى ولى قيادتها لسيف الدين قلاوون وللملك حماة الأيوبى المنصور الثانى وبين قوات الملك هيثوم الأول ملك أرمينيا، الذى كان لا يزال على حلفه مع مغول فارس، ولقد دارت رحى هذه المعركة بالقرب من دربساك إحدى أهم القلاع الحصينة لإمارة أنطاكية حيث لقى الجيش الأرمينى هزيمة ساحقة وقع من جرائها الأمير ليو ابن الملك هيثوم فى الأسر بينما لقى ابنه الآخر توروس مصرعه خلالها، وما إن انتهى الجيش المملوكى من هذه المعركة حتى سارع لمهاجمة مدن أرمينيا الرئيسية: المصيصة وأذنه وطرسوس وإياس، بالإضافة إلى سيس عاصمة المملكة حيث قاموا بنهبها وتدميرها قدر المستطاع[2]، وحينها أدرك هيثوم الأول أنه ليس له طاقة بمقاومة الجيش المملوكى، خاصة بعد أن خذله المغول ولم يبدوا أى اهتمام بشأنه، لذلك اتجه لمراسلة السلطان الظاهر بيبرس يشفع فى ولده ويطلب منه الصلح، فوافق بيبرس على عقد الهدنة إلا أنه أصر على أن يظل ولده فى الأسر[3].

وبطبيعة الحال، كان من شأن هذا العمل القتالى المتواصل للمماليك أن يضعف ويجهد الجيش المملوكى، لذلك آثر بيبرس أن يعطى رجاله فترة لا بأس بها من الراحة، إلا أنه أراد أن يكون الصليبيون هم من يقدمون على هذه الخطوة حتى لا يهون

---

(1) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ2، ص152، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص267، محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص335.

(2) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص152، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت 1958م، ص498، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص4، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ3، ص453 – ص454، العينى، عقد الجمان، جـ1، ص422 – ص424.

(3) النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص296، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ5، ص386– ص387، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص911، عزمى عبد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامى، ص45.

أمره وأمر رجاله فى نظرهم لذلك عمد إلى حيلة حربية تجبر الصليبيين على طلب الصلح معه، حيث قام بإلباس بعض جنوده ملابس فرسان الداوية والبعض الآخر ملابس الإسبتارية ثم توجه بهم نحو أبواب عكا دون أن يشك الصليبيون فى أمرهم، فما كان منه إلا أن وضع السيف فيهم، مما زاد هذا الأمر من خوف وهلع الصليبيين تجاهه فآثروا عقد الصلح معه، وهكذا بات بيبرس هو سيد الموقف آنذاك، إلا أنه على الرغم من ذلك آثر ألا يربط نفسه بعقد تصالحات عديدة مع الصليبيين تحد من تحركاته ضدهم، لذلك اتجه لعقد عدد من الهدن مع بعضهم دون بقيتهم، حيث عقد فى عام 1267م/ 665هـ صلحًا مع صاحب صور بالإضافة إلى إسبتارية حصن الأكراد والمرقب فى 29مايو1267م/ 4رمضان665هـ، حيث تم الاتفاق على أن تكون تلك الهدن بمدة لا تتجاوز عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات[1].

لكن من الملاحظ فى هذه المعاهدة الأخيرة التى عقدها بيبرس مع إسبتارية حصن الأكراد والمرقب أنها أقرت بكون قلاع الدعوة الإسماعيلية وكذلك مناطق حماة وشيزر وأفامية وأبى قبيس وعينتاب مناطق تتبع رسميًا دولة المماليك، وبالتالى فلقد اشترط على الإسبتارية إبطال الجزية أو القطيعة التى فرضوها على تلك البلدان، كما اشترط بيبرس عليهم أيضًا أن يكون له الحق الكامل فى فسخ هذه الهدنة متى أراد على أن يعلمهم بذلك قبلها بمدة.

والواقع، أن أهمية هذه المعاهدة تأتى فى كونها حدت بقدر كبير من دخل هيئة الإسبتارية، وهو ما كان يتحراه بيبرس دومًا فى سياسته مع الصليبيين بوجه عام

---

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص282- ص283، شافع بن على، حسن المناقب، ص113 – ص 114، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ14، ص31- ص39، محمد ماهر حماد، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الإسلامى، ط.بيروت 1986م، ص261- ص270،

Khowaiter, Baibars the First, London 1978, p.95,Vermeulen," Le Traite d'Armistice entre le Sultan Baybars et les Hospitaliers de Hisn Al Akrad et Al Marqab, pp.189 - 195,

انظر نص الهدنة فى القسم الخاص بالملاحق.

وتجاه هذه الهيئة على وجه الخصوص، فيكفى أن نعلم أنه بإبطال الجزية المفروضة على تلك البلدان حُرمت الإسبتارية من دخل نقدى فقط قُدِّر بنحو ستة آلاف دينار سنويًا ناهيك عما كان مفروضًا عليها من جزية عينية[1].

وكيفما كان الأمر، فإن بيبرس لم يستطع أن يصبر على تراخيه فى جهاده للصليبيين لفترة تزيد عن هذا العام، ففى 15أبريل 1268م/ 30رجب 666هـ، واصل بيبرس انتصاراته بإسقاطه لقلعة شقيف أرنون بموقعها الإستراتيجى عند الحدود الشمالية لمملكة بيت المقدس الصليبية على نهر الليطانى، حيث أبدى بيبرس حرصًا شديدًا على أن يحرم الصليبيين من تلك القلعة البالغة الأهمية بالنسبة لهم، فما إن استولى عليها حتى أمر رجاله بهدمها كاملة[2].

وقبل أن يفيق الصليبيون من صدمتهم لسقوط قلعة شقيف أرنون، كان بيبرس يسرع الخطى بجيشه شمالًا صوب إمارة طرابلس، حيث خيم بعسكره شرقى عاصمتها فى أول مايو1268م/ منتصف شعبان666هـ، ثم هاجم المدينة ذاتها واقتحم برجها ودمره وهو على الأرجح حصن صنجيل، نظرًا لأنه سيتضح لنا من سياق الأحداث فيما بعد أن المنصور قلاوون عندما شن هجومه الأخير على مدينة طرابلس لم يأتنا أى مصدر عربى أو أجنبى بذكر لهذا الحصن على الرغم من أهميته البالغة فى حماية مدينة طرابلس لذلك، فالغالب أن هذا الحصن هو ما دمره بيبرس خلال حملته هذه[3].

---

(1) شافع بن على، حسن المناقب، ص113– ص114، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص297 – ص298، المقريزى، السلوك، جـ2، ص36.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ2، ص156، شافع بن على، المصدر السابق، ص125– ص126، ص160،

Les Gestes des Chiprois,p.771,

سرور على عبد المنعم، الدور السياسى لحصن شقيف أرنون فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير "غير منشورة"، كلية الآداب – جامعة طنطا 1997م، ص123– ص130،

Khowaiter, Baibars the First, p.98.

(3) عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس السياسى، جـ1، ص558.

إلا أن بيبرس على أية حال، ظل مقيمًا على حصار طرابلس، خاصة أن صليبييها لم يبدوا أية مقاومة تذكر أمامه، لكن برغم ذلك كان من الواضح أن موارنة جبل لبنان كانوا أحرص منهم على حمايتهم، ولعل ذلك يظهر جليًا من خلال ما قاموا به من الإغارة على الجيش المملوكى من الخلف مما كبد الأخيرين خسائر واضحة فى صفوفهم، ولذلك أمر بيبرس رجاله بمطاردة هؤلاء الموارنة ومهاجمة أراضيهم فى حدث الجبة[1]، وعلى الرغم مما ألحقه الجيش المملوكى بهؤلاء الموارنة من قتلى وأسرى، إلا أن بيبرس أدرك أن ما يعوقه عن إسقاط طرابلس لم تكن قوة استحكاماتها بقدر ما تمثلت فى دفاعاتها البشرية المتمثلة فى الهيئات الدينية العسكرية وموارنة جبل لبنان، لذلك سنلاحظ أن بيبرس ومن بعده قلاوون راعوا من خلال علاقاتهما بإمارة طرابلس أن يقضوا على هذين العائقين أولًا حتى يتسنى لهم القضاء المبرم على إمارة طرابلس الصليبية فى نهاية المطاف.

لكن بوجه عام، كان من الواضح أن محاولات بيبرس للثأر من بوهمند السادس لم تكن لتقف عند هذا الحد، فما إن شعر بيبرس بعدم فاعلية حملته على طرابلس بالقدر الذى رجاه، حتى واصل سيره نحو حمص ومنها إلى حماة وهناك استقر فكره ومعه كبار قادة جيشه على تقسيم الجيش المملوكى إلى ثلاث فرق يجتاحون بها إمارة أنطاكية، التى كان أميرها بوهمند السادس متغيبًا عنها آنذاك فى إمارته الأخرى طرابلس، حيث توجهت الفرقة الأولى إلى ميناء السويدية أو سان سيمون San Simeon لقطع الطريق بين أنطاكية والبحر المتوسط، بينما اتجهت الفرقة الثانية لقطع أى منفذ بين مملكة أرمينيا وبين بلاد الشام، وذلك لمنع أية مساعدات قد يجازف هيثوم الأول بإرسالها لأنطاكية، أما القوة الرئيسية للجيش المملوكى فقادها الظاهر

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص305، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ2، ص382، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص305، المقريزى،السلوك،جـ2، ص49، أسطفان الدويهى، تاريخ الطائفة المارونية، ص112، بطرس ضو، تاريخ الموارنة، جـ3، ص483، محمد مؤنس عوض، أضواء على تاريخ موارنة لبنان، ص202- ص 203.

بيبرس نفسه حيث توجه بها مباشرة نحو أنطاكية التى ضرب حولها حصارًا ضاريًا ابتداء من يوم الأربعاء 15مايو1268م/ أول رمضان666هـ، وفى حادثة يصعب تفسيرها بأى حال من الأحوال استولى بيبرس على مدينة أنطاكية بأكملها، التى بلغ عدد أبراج سورها وحده ثلاثمائة وستين برجًا بعد أقل من خمسة أيام من بداية حصاره لها[1]، مما يعنى أن أنطاكية على الرغم من كونها من أكثر مدن الشام منعة وحصانة إلا أنها لم تستطع أن تصمد أمام حصار بيبرس لها لأكثر من أربعة أيام، والواقع أننى لا أجد سببًا منطقيًا لهذه الواقعة مهما كانت قوة الضربات التى ألحقتها القوات المملوكية بالمدينة.

لكن على أية حال، فإن الأمر الذى لا شك فيه أن سقوط إمارة أنطاكية كان من شأنه أن يزيد الضغط الحربى والسياسى المملوكى على شقيقتها الجنوبية إمارة طرابلس، لا سيما أن أنطاكية كانت بمثابة غطاء جغرافى آمن لإمارة طرابلس من جهة الشمال. زد على ذلك أنه بتخلص الظاهر بيبرس من خطر تلك الإمارة باتت توجهاته العسكرية مقصورة بشكل أكبر على بقايا الكيان الصليبى فى مملكة بيت المقدس التى جردها تقريبًا من أهم دفاعاتها فى حملاته السابقة عليها، بالإضافة إلى إمارة طرابلس التى باتت المستقر الوحيد لبوهمند السادس فى بلاد الشام. أضف إلى ذلك أن سقوط إمارة أنطاكية أدى لانقطاع الصلة تقريبًا بين بوهمند السادس فى

(1) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص170- ص172، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 307- ص309، بيبرس الدوادارى، التحفة المملوكية، ص62- ص64، مختار الأخبار، ص36- ص 37، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ2، ص382، شافع بن على، حسن المناقب، ص 127- ص128، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص126، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص252،الذهبى، دول الإسلام، جـ2، ص188، المقريزى، السلوك، جـ2، ص50،

Eracles, pp.456- 457, les Gestes des Chiprois, p.771,

حسين عطية، إمارة أنطاكية، ص469- ص473، سعدون عباس نصر الله، رحيل الصليبيين، ص 106- ص 108، عزمى عبد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامى، ص50- ص53،

Grousset, Histoir des Croisudes, vol.3, p.641, Hilal, Al Mansur Qalaun's policy towards Latin states in Syria, Master of Arts. A.U.C, 1993, pp. 34 – 35 .

طرابلس وهيثوم الأول فى أرمينيا الصغرى مما يعنى أن أمر التحالف بين بوهمند وهيثوم بات بلا جدوى أو فاعلية[1].

ومن الجدير بالذكر، أنه بالرغم من قوة تلك الحادثة وعظم شأنها إلا أن بوهمند السادس لم تكن لديه أدنى دراية أو معرفة على الإطلاق بما حل بإمارته أنطاكية التى استردها المسلمون كاملة بجميع مدنها وحصونها باستثناء مدينة اللاذقية إلا من خلال الظاهر بيبرس نفسه. الذى أبدى حرصًا شديدًا على أن يكون هو أول من يعلم بوهمند السادس بالمصير الذى حل بها على يديه من خلال رسالة بعثها إليه وهو لا يزال بأنطاكية[2]، ومن الواضح أنه بالرغم من قوة تأثير الكارثة التى حلت ببوهمند السادس، خاصة أن معرفته بها جاءته محملة بعبارات لا تخلو من السخرية والتهديد والوعيد إلا أنه كان من الذكاء ليدرك حجم إمكانياته وقدراته وفى الوقت نفسه مدى طموحات وقوة بيبرس، لذلك لم يجازف بنفسه فى مواجهة مع بيبرس محسوم أمرها قبل أن يخوضها، بل على العكس فلقد آثر أن يعزز دفاعات عاصمته طرابلس التى باتت المأوى الوحيد له فى بلاد الشام، خاصة أنها وفقًا لتهديدات بيبرس كانت من المفترض أن تكون خطوته التالية[3].

لكن من الواضح، أن بيبرس كان عازمًا آنذاك على أمر آخر، فلقد استقر رأيه على أن يعقد فترة من الهدوء مع الصليبيين لالتقاط الأنفاس وليعيد تجهيز قواته على

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص912- ص913، محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص338.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص309- ص313، ص128- ص132، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص128- ص131، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص307- ص311، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ8، ص299- ص302، العينى، عقد الجمان، جـ2، ص23- ص28، أحمد حطيط، تاريخ لبنان الوسيط دراسة فى مرحلة الصراع المملوكى- الصليبى (658-690هـ/ 1260-1291م)، ط . بيروت 1986م، ص60- ص61،

Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, pp.307- 312 .

(3) رقيم من عهد الصليبيين، المشرق العدد (4)، ص 304- ص305.

نحو أفضل، فوافق فى سبيله لتحقيق ذلك على عقد هدنة فى عام 1269م/ 667هـ مع إيزابيلا الأبيلينة Isabella of Ibelin سيدة بيروت(1).

ومن الملاحظ، أن فترة الراحة التى عمد إليها بيبرس هذه المرة قد طالت عن سابقتها لنحو ثلاثة أعوام، اقتصر خلالها نشاط الجيش المملوكى على الساحة الشامية فى الاستيلاء على مناطق الإسماعيلية النزارية الواقعة فى الجانب الشمالى لإمارة طرابلس، والواقع أن بيبرس كان حريصًا قدر المستطاع على الحد من فاعلية هذه الفرقة فى بلاد الشام، نظرًا لما أشاعه هؤلاء الإسماعيلية النزارية من أعمال فوضى وإرهاب فى البلاد باتباعهم سياسة الاغتيال المستمر لخصومهم من القيادات البارزة، الذين كان أغلبهم من القادة المسلمين السنة، زد على ذلك أن أفراد تلك الفرقة خلال القرن 13م/ 7هـ، كانت علاقاتهم تميل بشكل واضح لمسالمة الصليبيين، لدرجة أنهم أدوا الجزية لإسبتارية حصن الأكراد عن طيب خاطر، فى حين أنهم أظهروا ضيقًا واضحًا حينما أسقطها الظاهر بيبرس عنهم خلال معاهدته التى عقدها من قبل مع إسبتارية حصن الأكراد والمرقب وأقر جبايتها منهم لصالح بيت مال المسلمين، الأمر الذى استغله بيبرس ذريعة ليكون له الحق فى مهاجمتهم والاستيلاء على جميع معاقلهم خلال الفترة الواقعة بين عامى 1269- 1273م/ 667-671هـ، وبرغم ذلك كان بيبرس لا يزال غير مطمئن بالقدر الكافى لاستمرار وجود تلك الفرقة فى بلاد الشام لذلك أقطع أفرادها بدلًا من قلاعهم تلك بعض الجهات فى مصر ليعيشوا فيها، وفى الوقت ذاته ليكونوا تحت رقابته المستمرة، وبرغم أن بعضهم أبى الرحيل وظل قاطنا لتلك القلاع إلا أن بيبرس تمكن على هذا النحو من تحقيق هدفه بتشتيت نفوذهم

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص282، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ14، ص40- ص42، محمد مؤنس عوض، العلاقات، ص 339- ص340 ،

Holt, "Baybars's treaty with lady of Beirut in 667/1269" in Crusade and Settlements, Ed by Peter W. Edbury, Cardiff 1985, pp. 242 -245 .

ووجودهم فى كل من مصر وبلاد الشام ليتخلص بذلك من خطر خفى دائمًا ما أرقه[1].

على أية حال، شهد عام1271م/ 699هـ، عودة قوية لنشاط بيبرس على الساحة الشامية وقد كان هدفه فى هذه المرة استكمال ما بدأه من حملات ضد أملاك بوهمند السادس على أمل ألا يدع له موطئ قدم فى بلاد الشام، ومن ثَمَّ فلقد تركزت حملات الظاهر بيبرس فى هذا العام وبشكل واضح على إمارة طرابلس الصليبية، وفى سبيله لذلك قام أولًا بتجريدها من أهم قلاعها وحصونها التى تولت أمر الدفاع عنها، فوفقًا لطبيعة الإمارة الجغرافية كان السبيل الوحيد لمهاجمتها عبر حدودها الشمالية الشرقية حيث ممر حمص - طرابلس، أضعف جهات الإمارة حصانة جغرافية، لذلك عمد صليبيوها إلى تعويض هذا القصور فى دفاعاتها بتركيز القلاع والحصون فى تلك الناحية، ومن ثَمَّ كانت أولى القلاع التى استهدفها بيبرس بعد أن أغار على مدينة طرابلس والمناطق المحيطة بها قلعة صافيتا الواقعة فى شمال إمارة طرابلس بين مدينة أنطرطوس الساحلية شرقًا وحصن الأكراد غربًا، حيث كانت تلك القلعة تابعة لفرسان الداوية الذين أبدوا إلى حد ما مقاومة هزيلة فى قتالهم للقوات المملوكية، ولعل خير دليل على ذلك إسراعهم بتسليم القلعة لبيبرس فى فبراير1271م/ 669هـ، على أن يتركهم يرحلون بأمان إلى أنطرطوس[2].

ومن صافيتا اتجه بيبرس إلى محطته التالية، قلعة حصن الأكراد درة العمارة الصليبية، والتى كانت بموقعها الإستراتيجى المسيطر على ثغر حمص- طرابلس فوق رابية يزيد ارتفاعها عن750 مترًا عن سطح البحر لتشرف على جميع الأراضى

(1) عبد العزيز الخويطر، الظاهر بيبرس، ص173- ص175، سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص87.
(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص374- ص375، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص324، المقريزى، السلوك، جـ2، ص69.

المحيطة بها بما فى ذلك ممرات القوافل التى تصل حماة وحمص بالمدن الكبرى طرابلس وأنطرطوس على ساحل البحر المتوسط، مما يعنى أن هذه القلعة بموقعها الإستراتيجى المهم كانت تعد الخط الدفاعى الأمامى من الجهة الشمالية الشرقية لإمارة طرابلس، كذلك هيأ لها موقعها هذا أن تهدد أراضى الظهير الإسلامى خاصة حماة وحمص التى لم تبعد عنها الأخيرة بأكثر من60 كم، ومن هنا جاءت أهمية استيلاء بيبرس على هذه القلعة، أولًا لكى يحمى مدنه من الغارات المتكررة لإسبتارية الحصن المهيمنين على أمره، ثانيًا لحرمان إمارة طرابلس من أقوى خطوط دفاعاتها لا سيما أن هذه القلعة كان يضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة[1].

وقد جاء حصار الظاهر بيبرس للقلعة ابتداء من يوم الثلاثاء 3 مارس/ 19 رجب من نفس العام، حصارًا محكمًا بالمجانيق ساعده فيه أنه قد عزل الحصن إلى حد كبير على إثر تسلمه لكافة ملحقاته من القلاع والحصون المجاورة له بالأمان كحصون المجدل وتل خليفة وغيره قبل وصوله للحصن، وبالرغم من ذلك امتنع الحصن على بيبرس لفترة طويلة نظرًا لقوة تحصيناته ودفاعاته، خاصة أنه كان للحصن ثلاثة أسوار منيعة، وهكذا وأمام طول أمد الحصار لم يجد بيبرس من وسيلة أمامه لإجبار حاميتها على تسليم الحصن له إلا عن طريق الخدعة حيث بعث لهم رسالة على لسان مقدم هيئتهم هيج ريفل Hugh Revel يأمرهم فيها بتسليم الحصن وطلب الأمان، ومن الواضح أن إسبتارية الحصن كان قد أرهقهم طول الحصار وبات بعضهم يميل إلى فكرة تسليم الحصن، فما إن وصلتهم تلك الرسالة حتى استقر رأيهم على تسليمه لبيبرس وكان ذلك فى 18 أبريل 1271م / 24 شعبان 669هـ، أى بعد حوالى خمسة وثلاثين يومًا من الحصار، على أن يسمح لهم بالرحيل

(1) تيسير بن موسى، غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، ط. بنى غازى 1983م، ص93، سليمان عبد الله الخرابشة، نيابة طرابلس، ص23، عبد الرحمن زكى، العمارة العسكرية فى العصور الوسطى، ص128 حاشية (3)، محمد مؤنس عوض، العلاقات، ص340، مولر، القلاع، ص76- ص79.

إلى طرابلس[1]، وما إن تسلم بيبرس الحصن واطلع على قوة تحصيناته واستحكاماته العسكرية حتى استقر رأيه على أن يُبقى عليه بل، يتخذه قاعدة لشن هجماته على مدينة طرابلس، خاصة أن هذا الحصن بموقعه الإستراتيجى هذا يسيطر تمامًا على الطريق المؤدى إليها، ومن ثم جاء أمر بيبرس لرجاله بإعادة تقويته وبناء ما تهدم أو تصدع من منشآته ثم تعيينه نائبًا عنه به[2].

وبينما بيبرس لا يزال بحصن الأكراد لم يتأهب للرحيل بعد، إذا بمقدم الداوية، الذى أفزعه المصير الذى حل بحصن الأكراد وإسبتاريته، يرسل له مفاتيح مدينة أنطرطوس التابعة لهيئته رجاء منه أن يوافق بيبرس على مهادنته حتى ولو ناصف الداوية فيها، وعلى الأرجح أن الذى دفع مقدم الداوية للإقدام على مثل هذه الخطوة تخوفه من أن يحل بهيئته ما حل بإسبتارية حصن الأكراد، خاصة أنه بدا واضحًا للجميع أن بيبرس قد وجه نشاطه العسكرى نحو إمارة طرابلس بالتحديد دون سواها. ولعل فى اقتصار هذه الهدنة التى أبرمها بيبرس مع هيئة الداوية على مدينة أنطرطوس فحسب، بناء على طلب مقدمها، ما يؤكد صحة رأينا، ونفس الأمر بالنسبة لإسبتارية حصن المرقب الذين ناصفهم بيبرس على كل ما لهم فى حصن المرقب وملحقاته وعلى نفس الشروط التى اشترطها على داوية أنطرطوس

(1) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص185- ص187، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ2، ص 117، بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، جـ9، ص132، التحفة الملوكية، ص70، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص151- ص152، الذهبى، دول الإسلام، جـ2، ص172، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ5، ص391، المقريزى، السلوك، جـ2، ص69، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص150- ص151،

King, "The taking of Krak des Chevaliers in 1271 ", A., vol.XXIII, March 1949, pp. 82-85 .

(2) النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص327، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص259، المقريزى، المصدر السابق، جـ2، ص69، العينى، عقد الجمان، جـ2، ص71، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص268،

King, The Knights Hospitallers, p.271 .

وعلى المدة نفسها التي قدرت بعشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام إلا أنه زاد عليهم عدم تجديدهم أية عمارة بحصن المرقب[1].

ومهما يكن من أمر تلك المهادنات، فالأمر المؤكد أن بيبرس لم يطل به المقام كثيرًا في حصن الأكراد، حيث كان عازمًا على مواصلة تجريده لإمارة طرابلس مما تبقى لها من قلاع وحصون، وكانت وجهته هذه المرة إلى حصن عكار، الذى امتاز بموقعه المنيع فى وسط جبال لبنان الصعبة المرتقى التى كانت معروفة فى هذه الناحية باسم جبل عكار، حيث وصل إليه بيبرس بقواته فى أواسط شهر أبريل1271م/ 17 رمضان669هـ، فنصب حوله المجانيق وظل فى ضربه إياه إلى أن نقب أحد أسواره فآثرت حاميته الإسبتارية آنذاك الاستسلام فى أوائل مايو/ 29رمضان، فأمنهم بيبرس على أرواحهم وسمح لهم بالتوجه إلى طرابلس[2].

وكعادة بيبرس فى إظهار استهانته وإذلاله لبوهمند السادس بعث إليه رسالة يطلعه فيها بأسلوبه الساخر المعهود على استرداده لحصنى الأكراد وعكار معلنًا ومهددًا إياه أن مدينة طرابلس ستكون خطوته التالية[3]، ولم يكتفِ بذلك بل بعث له برسالة شفهية لاحقة عبر أحد فرسان الإسبتارية ينذره فيها من مغبة تحالفه مع

---

(1) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص189- ص190، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 378- ص379، بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص132، التحفة الملوكية، ص70، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص154- ص155، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص328، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ5، ص391، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ14، ص42- ص50، المقريزى، السلوك، جـ2، ص69- ص70،
انظر نص الهدنة فى القسم الخاص بالملاحق.

(2) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص190- ص191، بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص133، التحفة الملوكية، ص71 - ص72، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ2، ص448- ص 449، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص6، اليافعى، مرآة الجنان، جـ4، ص170.

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص380- ص381، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص155- ص 157، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص330- ص331، انظر نص الخطاب فى القسم الخاص بالملاحق.

المغول:"أين تروح منى، والله لا بد أن آخذ قلبك وأشويه وأنت تنظر وما ينفعك أبغا بن هلاوون"[1]. وتؤكد تلك الرسالة الأخيرة أمرين غاية فى الأهمية :

أولًا: أن بوهمند السادس كان لا يزال على اتصالاته بمغول فارس، وإن لم يتبين لهذه الاتصالات أية جدوى أو فاعلية على مجريات الأحداث بالإمارة.

ثانيًا : أن بيبرس، بذكاء وخبرة يحسبان له، عمل على الإحاطة بشكل وافٍ بأهم تحركات أعدائه لا سيما بوهمند السادس، والأدهى من ذلك أنه استغل معرفته بتحركاته تلك حتى يزيد من الضغط النفسى والعصبى عليه، خاصة عندما يدرك بوهمند على هذا النحو أن أكثر تحركاته خفاء، ألا وهى اتصالاته بمغول فارس، كانت تنقل بالتفصيل إلى بيبرس، مما بين له ذلك أن الخطر المملوكى الذى أصبح لديه دافع أقوى للانتقام منه بات محيطًا به إحاطة السوار بالمعصم، لدرجة جعلت بوهمند يمتنع عن الخروج من مدينته طرابلس تحسبًا لأى عمل انتقامى من قبل بيبرس تجاهه، خاصة أنه لم يستبعد أن يحرض الأخير أفراد فرقة الإسماعيلية النزارية التى دخلت فى طاعته حديثًا لاغتياله[2]، وما إن علم بيبرس بهذا الأمر وبمدى تأثير رسالته على انهيار معنويات عدوه اللدود بوهمند السادس حتى واصل من جديد ضغطه النفسى عليه حيث سيّر إليه غزلانًا مذبوحة وضبعًا حيًا وحمل ثلج مع رسالة محتواها التالى: "لما اتصل بنا امتناعك من التصرف خوفًا على نفسك وهجرانك للصيد الذى هو غاية مرامك، بعثنا إليك نصيبًا من الإجحاف بك والميل عليك"[3].

والواقع، أن الذى دفع بيبرس لينحو هذا النحو فى تعامله مع بوهمند السادس إدراكه أن هذا الأخير كان أقوى شخصية صليبية على ساحة الصراع الإسلامى-

(1) ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، جـ1، ص191، ابن أيبك، المصدر السابق، ص157.
(2) برنارد لويس، الحشاشون، ص 220- ص221.
(3) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص192، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص158.

الصليبى، وأنه بالرغم مما أحدق به من أخطار، خاصة بعد أن شاهد بعينيه ضياع أغلب ملكه، إلا أنه كان لا يزال صلبًا وعنيدًا مما جعله يأبى حتى مراسلة بيبرس وطلب الصلح معه، نظرًا لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن قد فقد الأمل فى إعادة تفعيل تحالفه مع المغول أو حتى وصول مساعدات من الغرب الأوروبى تدعم موقفه، وحينها فقط أدرك بيبرس أن شخصًا على هذا النحو من العزيمة والبأس كان عليه أن يلحق به الهزيمة المعنوية والنفسية أولًا قبل أن يُقْدم على أية خطوة عسكرية لاحقة، وكانت تلك الخطابات هى الوسيلة الأمثل من وجهة نظره لتحقيق مرتجاه هذا، وبالفعل سرعان ما جاءت الأيام لتبرهن على مدى حنكة هذا القائد الداهية حيث كانت مراسلته لبوهمند بالغة التأثير فى تحطيم معنوياته وآماله مما اضطره أخيرًا لطلب الصلح مع بيبرس والإلحاح فيه كثيرًا[1].

على أية حال، لم يكن بيبرس حتى الآن راغبًا فى أكثر من هذه الهزيمة النفسية حتى يتسنى له استكمال استرداده للأراضى الطرابلسية لإسقاطه مدينة طرابلس وما تبعها من ملحقات دون أن يلقى مقاومة ضارية منها، كما حدث له من قبل خلال حصاره لحصن الأكراد، الذى كاد أن ينتهى دون أن يسقطه، وبالفعل توجه بيبرس مباشرة من حصن عكار إلى طرابلس التى بات الطريق إليها آمنًا وممهدًا تمامًا حيث بلغها فى مايو 1271م / 4 شوال 669هـ، وكان بيبرس عازمًا بجد فى هذه الحملة على استرداد طرابلس، لكن لسوء حظه أنه ما إن شرع فى حصاره لها حتى بلغه وصول الأمير إدوارد الإنجليزى Edward[2] إلى عكا، حقًا أن القوات التى كانت برفقته لم يتجاوز عددها بضع مئات من الفرسان وبالتالى لم يكونوا يشكلون خطرًا جديًا على بيبرس إلا أن مكمن الخطر فيهم، كما تصور بيبرس، أنهم قد يكونون مقدمة لحملة صليبية جديدة، لذلك آثر بيبرس العودة بقواته سريعًا إلى مصر حتى يكون على

(1) بيبرس الدواداری، زبدة الفكرة، جـ9، ص133، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص152.
(2) Prestwich (M.), Edward I, London 1997, p.69 .

أهبة الاستعداد إذا ما توجهت الحملة المزمعة صوبها كشأن غالبية الحملات الصليبية السابقة، لكن كان عليه قبل أن يترك الساحة الشامية أن يصل أولًا لحل ولو مؤقت مع بوهمند السادس فما كان منه إلا أن وافق على العرض الذى تقدم به بوهمند السادس من قبل مرارًا وتكرارًا لعقد الصلح بين الطرفين لكن وفقًا للشروط التى أملاها بيبرس عليه وهى[1]:

1. أن تكون عرقة وجبلة وأعمالها للأمير بوهمند، مع العلم أن عرقة وأعمالها وهى 56 قرية صدقة من الملك الظاهر على بوهمند.
2. أن يكون ساحل أنطرطوس والمرقب وبانياس وبلاد هذه النواحى مناصفة بين السلطان وبين فرقتى الداوية والإسبتارية.
3. تكون بعرين وحمص القديمة اللتين كانتا للإسبتارية والداوية خالصة للسلطان.
4. مدة الصلح بينهما عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

وعلى الرغم من أن هذا الصلح جاء لينقذ بوهمند السادس من هلاك محتم إلا أنه لم يبد الحرص اللازم للتمسك بهذا الصلح، فيكفى أن نعلم أن أول ما قام به عقب رحيل الظاهر بيبرس عن إمارته أن توجه إلى أبغا بن هولاكو زعيم مغول فارس مستغيثًا به من الظاهر بيبرس ذاكرًا له ما استرده من بلاد وحصون، لكن من الواضح أن استصراخ بوهمند له لم يؤتِ ثماره، بل العكس فلقد رأى أبغا أن بوهمند ما جاء إليه إلا ليزيد من انهيار معنوياته هو ورجاله التى كانت قد تهاوت وضعفت بالفعل من جراء الهزائم المتتالية التى لحقت بهم على يد المماليك، لذلك جاء رد أبغا

(1) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص193- ص194، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 383- ص384، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ2، ص450، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص158، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص331- ص332، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص259، المقريزى، السلوك، جـ2، ص70، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص152.

على بوهمند قاسيًا وعنيفًا بقوله :" أنت ما جئت إلا لتخوفنى منه وتنفرنى عنه وتملأ قلوب عسكرى رعبًا"[1].

وإن كانت تلك هى أول محاولة لبوهمند السادس نمَّتْ عن غدره بالمسلمين وعدم احترامه للمعاهدة التى عقدها مع بيبرس فإنها لم تكن المرة الأخيرة، ففى عام1275م/ 673 هـ قام بوهمند السادس على إثر وفاة حاكم حلب - الذى ولاه الظاهر بيبرس أمر مناصفة اللاذقية - بالسيطرة على تلك المدينة بالكامل، وقد كانت حجته فى ذلك أنها لم ينص على ذكرها فى بنود الصلح الذى عقده بيبرس معه، وشاءت الظروف آنذاك أنه لم يطل عمر بوهمند السادس طويلًا حتى يلقى رد الظاهر بيبرس على تعديه هذا فتولى ابنه القاصر بوهمند السابع أمر ذلك الخلاف حيث جاءه كتاب من الظاهر بيبرس يذكره فيه:" نحن لنا فى اللاذقية النصف، فتترك النصف الآخر فإنه من حقوق المسلمين "[2].

ومن الواضح، أن مسرح الأحداث فى إمارة طرابلس قد شهد تخبطًا واضحًا فى سياسة صليبيها عقب وفاة بوهمند السادس، فبداية جاء جوابهم على الظاهر بيبرس بزيادة تحصين أبراج اللاذقية استعدادًا للدفاع عنها إذا ما هاجمها المسلمون، فخشى مسلموها عاقبة أمرهم من الصليبيين، ومن ثَمَّ جاء أمر الظاهر بإخلاء اللاذقية من مسلميها، ويبدو أن الصليبيين قد وجدوا فى هذا التصرف ما قد يكون مقدمة للهجوم عليهم فسارعوا بالرجوع عن موقفهم السابق وأرسلوا للسلطان معلنين له أنهم لا يزالون متمسكين بأهداب الصلح معه، فاستقر الأمر بينهم على تجديد الصلح من جديد على أن يؤدى الملك هيو ملك قبرص الذى كان يطمح فى فرض وصايته على الإمارة عشرين ألف دينار صورى إلى السلطان الظاهر ويطلق سراح عشرين أسيرًا من المسلمين[3].

---

(1) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص195، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص160.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص445- ص446، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص343.

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص447، النويرى، نهاية الأرب، جـ30، ص343- ص344، العينى، عقد الجمان، جـ2، ص138.

على أية حال، فلقد جاءت هذه الهدنة بمثابة فصل الختام لحركة جهاد القائد العظيم الظاهر بيبرس، حيث أكمل المسيرة من بعده المنصور قلاوون الذى ما لبث أن تولى مهام الحكم حتى تعرض حصن الأكراد فى أكتوبر 1280م/ أواسط سنة679هـ لهجوم شنه عليه إسبتارية حصن المرقب على أمل أن يستردوه من جديد، إلا أن محاولاتهم تلك باءت بالفشل كما هو متوقع فما كان منهم إلا أن عادوا من حيث أتوا[1].

وحتى يتجنب الأمير سيف الدين بلبان الطباخى نائب السلطنة بحصن الأكراد التعرض لهذا الموقف من جديد طلب من السلطان المنصور قلاوون السماح له بالهجوم على حصن المرقب بغية الاستيلاء عليه والانتقام من حاميته، وما إن نال موافقته حتى قاد الطباخى قوة مكونة من4600 فارس وجندى مصطحبًا معه آلات الحصار، حيث قام فى فبراير 1281م/ 679هـ بمحاصرة الحصن بالمجانيق، وبالرغم من أن الطباخى كان موفقًا إلى حد كبير فى استعداداته إلا أنه لم يراعِ زاوية بالغة الأهمية ألا وهى أن القلعة تقع على قمة تل عال صعبة المرام، فضلًا عن أنها كانت قوية التحصين ولذلك لم يكن لضرباته تأثير واضح عليها، فى حين كانت ضربات أسهم حاميتها الإسبتارية على القوات المملوكية موجعة لدرجة كبدتهم خسائر جسيمة فى الأرواح، وحينها أدرك الطباخى أن موقع قواته كانت فى مرمى أعدائه لذلك أصدر أوامره لجنوده بالابتعاد عن الحصن فظنها الأخيرون أنها الهزيمة فتراجعوا من فورهم، ولسوء حظ الطباخى أنه لم يستطع السيطرة على زمام الموقف بالسرعة الكافية فاضطر أسفًا لاتباعهم ومن ثَمَّ فشلت محاولته لإسقاط حصن المرقب[2].

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص39- ص40، بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ 9، ص195، التحفة الملوكية، ص95،

King, The Knights Hospitallers, p.282 .

(2) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص321، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص 80، بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص196، التحفة الملوكية، ص95- ص96، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص14، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص239، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ص325- ص326، المقريزى، السلوك، جـ2، ص137، ابن بهادر، فتوح النصر، ورقة147،

Hilal, Al Mansur Qalaun's policy, pp.85 – 86 .

والواقع، أن وصول أنباء تأهب أبغا خان مغول فارس لشن حملة كبرى ضد المماليك لمسامع المنصور قلاوون قد اضطرته للجوء للحل السلمى مع الصليبيين بدلًا من الاقتصاص منهم، وذلك حتى لا يشتت قواته فى جبهتين ضد المغول والصليبيين فى آن واحد، بل الأحرى أنه لجأ للتصالح مع الصليبيين حتى يضمن ألا يعاود تحالفهم مع المغول من جديد وبالتالى يضمن حيادهم قدر المستطاع، لكنه فى الوقت ذاته آثر ألا يشعرهم بحرج موقفه هذا فى تصالحه معهم لذلك عمد أولًا للجوء لاستخدام سلاح التهديد بقوته العسكرية حتى يجبر الصليبيين على أن يكونوا هم السباقين لطلب الصلح معه وبالتالى يكونون أكثر حرصًا على الوفاء به.

وبالفعل قاد المنصور قلاوون جيشه إلى بلاد الشام وما إن بلغ منزلة الروحاء الواقعة بالقرب من حيفا فى أبريل1281م/ ذى الحجة679هـ، حتى توافد عليه رسل الصليبيين طالبين تجديد معاهدات الصلح معه، التى عقدوها من قبل مع الظاهر بيبرس، مع العلم أن المنصور قلاوون حتى ذلك الحين لم يكن قد حاول مهاجمة أى من ممتلكات الصليبيين، إلا أنه من الواضح أن تعداد الجيش المملوكى وتسليحه والقوة التى ظهر عليها قد أرهبت الصليبيين على نحو بالغ فآثروا السلامة وتصالحوا مع قلاوون. وكانت أولى وفودهم التى حلت بالمعسكر المملوكى وفد ضم مقدم الإسبتارية فى عكا نيكولاس دى لورجانى Nicolas de Lorgne وقادة إسبتارية المرقب، معلنين له رغبتهم فى تجديد الهدنة معه بعد ما حدث بينهم وبين الطباخى نائبه على حصن الأكراد فأقر المنصور قلاوون الهدنة معهم ابتداء من3 مايو1281م/ 12محرم680هـ ولمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على الشروط التى حددها بيبرس من قبل فى معاهداته معهم[1].

(1) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، جـ9، ص221، التحفة الملوكية، ص106، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ7، ص204- ص205، المقريزى، السلوك، جـ2، ص139، السيد البار العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ1، ط. القاهرة 1963م، ص357- ص359، محمد حمزة الحداد، السلطان المنصور قلاوون، ط. القاهرة 1993م، ص40- ص41، Rey, Les Colonies, p.110 - 0113.

كما عقد قلاوون فى 15يوليو1281م/ 27ربيع الأول680هـ، هدنة مع بوهمند السابع أمير طرابلس كان أهم شروطها ألا يهاجم أحد الطرفين الطرف الآخر وبالتالى لا يعينوا أيا من أعدائهم ضد بعضهم البعض، كذلك ألا يحدث بوهمند أى بناء جديد داخل حدود إمارته التى استثنيت منها أنطرطوس كما التزم السلطان هو الآخر بألا يستجد بناء قلعة أو حصن بجوار المناطق التابعة لبوهمند السابع، وأخيرًا اتفق الطرفان بأن الهدنة لا تنقض بموت أحدهما[1].

وبالرغم من ذلك، فمن الملاحظ أن كلا الطرفين، سواء إسبتارية المرقب وبوهمند السابع من ناحية أو المنصور قلاوون من ناحية أخرى لم يكونوا ينتوون الالتزام الجاد بتلك الهدن، ولعل خير دليل على هذا ما أقدم عليه صليبيو طرابلس وإسبتارية المرقب من اتفاق مع المغول لمشاركتهم فى معركة حمص التى دارت بينهم وبين المماليك فى 30 أكتوبر 1281م/ أواسط شهر رجب 680هـ، فوفقًا لرواية يوسف دى كانسى الفارس الإسبتارى الذى شارك بالفعل فى هذه المعركة: "لا نحن ولا الأمير - بوهمند السابع - ولا ملك قبرص انضممنا إلى صفوف المغول نظرًا لأن الأخيرين لم يرسلوا لنا"، إلا أنه مع هذا يؤكد فيما بعد أن إسبتارية المرقب وحدهم هم من شاركوا عسكريًا مع المغول فى هذه المعركة بناء على التماس ملك أرمينيا بمعاونة المغول[2]، ولعل ما يخبرنا به دى كانسى بشأن تلك المعركة يؤكد لنا على أن

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص210- ص211، بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، جـ9، ص221- ص224، شافع بن على، الفضل المأثور فى سيرة الملك المنصور، ص132- ص134، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، تحقيق البار العرينى، ط.القاهرة1992م، ص74- ص77، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ7، ص205- ص206، المقريزى، السلوك، جـ2، ص139، حسن عبد الوهاب حسين، الهدن بين المنصور قلاوون والفرنج فى بلاد الشام فى ضوء رواية شافع بن على الكاتب، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى- الفرنجى، جـ1، كلية الآداب جامعة اليرموك، ط. أربد 2000م، ص787- ص789،
انظر نص الهدنة فى القسم الخاص بالملاحق.

(2) المقدسى.

هناك اتفاقا مسبقًا بين المغول والصليبيين للتحالف ضد المسلمين وأن ما عقدوه من معاهدات مع قلاوون ما كان إلا ستارًا يخفون وراءه نواياهم الحقيقية فى التحالف مع المغول.

بينما كان قلاوون على الجانب الآخر فى انتظار أية فرصة تواتيه للانقضاض على ما تبقى للصليبيين من أملاك فى بلاد الشام حتى يفتك بهم ويتخلص من خطرهم، إلا أن الظروف لم تساعده حينها لتحقيق مأربه هذا، فلقد كان المغول بالرغم من هزيمتهم المدوية فى معركة حمص[1] لا يزالون يعملون على اجتياح بلاد الشام من حين لآخر، ولذلك لم يكن أمامه سوى الانتظار حتى ينتهى من أمر هؤلاء المغول أولًا ليتفرغ فيما بعد للصليبيين، وفى خلال فترة انتظاره هذه عقد هدنة جديدة مع داوية أنطرطوس في15أبريل 1282م/ 5محرم681هـ[2]، والواقع أنه يمكننا إرجاع الأسباب التى دفعت هيئة الداوية للسعى لعقد هذه الهدنة فى ذلك التوقيت بالتحديد لعاملين مهمين هما:

أولًا: أن الداوية كانوا منشغلين فى حرب أهلية دارت بينهم ومعهم جاى الثانى أمبرياكو حاكم جبيل من جهة ضد بوهمند السابع أمير طرابلس من جهة أخرى، ومن الطبيعى أن يسعى الداوية لتأمين موقفهم من أى خطر آخر قد يتهددهم.

ثانيًا: أن الداوية كانوا معروفين بنشاطهم الاستخباراتى الموفق ومن ثَمَّ فلقد بلغ لعلمهم معرفة قلاوون بمبادرة إسبتارية المرقب وبوهمند السابع أمير طرابلس للتحالف مع المغول ضده وبالتالى فلقد كانوا على يقين أن انتقامه بهم سيحل إن آجلا أو عاجلًا، وبما أن أنطرطوس تقع بين المرقب شمالًا وطرابلس جنوبًا فإنها على

---

(1) De Cancy, p.7 .

(2) بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص204- ص210، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص30 - ص37، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص259، اليافعى، مرآة الجنان، جـ4، ص144، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ7، ص212- ص219، ابن سباط، تاريخ ابن سباط، جـ1، ص447.

الأغلب ستتعرض كذلك لهجمات قلاوون، ومن ثَمَّ كانت أهمية هذه الهدنة التى اقتصرت على داوية أنطرطوس دون سواهم[1].

كما عقد قلاوون هدنة أخرى مع حكام عكا وصيدا وعثليث فى 3 يونيو 1283 م/ 5 ربيع أول683هـ، والجدير بالذكر هنا أن صليبيّ عكا على وجه الخصوص كانوا على صلة وثيقة وطيبة بالمنصور قلاوون دعمها موقفهم المساند له حينما أطلعوه على مؤامرة حاكها ضده أحد أتباعه بغرض قتله ووضع أحد أبناء الظاهر بيبرس على العرش بدلًا منه[2]، وعلى الأرجح أن هذا الموقف هو الذى جعل قلاوون يمتنع عن مهاجمة عكا بقية حياته امتنانا وعرفانًا بجميلهم.

وبصفة عامة يمكننا القول إن عام1285م/ 684هـ شهد البداية الفعلية لجهاد المنصور قلاوون ضد الصليبيين، فبعد أن تهاوى الخطر المغولى وانتهت خلافاته الداخلية مع أتباعه واستقر له الوضع فى البلاد باتت الساحة خالية تمامًا أمامه لمواجهة الصليبيين، وكان أول من توجهت أنظاره إليهم إسبتارية حصن المرقب، الذين لم يكن قد نسى لهم بعد تعديهم على البلدان الإسلامية المجاورة لهم من قبل وتكبيدهم خسائر عديدة فى أرواح جنوده فضلًا عن تحالفهم السابق مع المغول، لكن الملاحظ أن قلاوون فى هجومه على المرقب حرص على أن يتفادى الأخطاء التى وقع فيها نائبه الطباخى من قبل خلال محاصرته للحصن، فكان أول ما تحراه قلاوون فى تحركاته السرية التامة حتى عن جنوده أنفسهم الذين لم يدركوا إلى أين وجهتهم إلا عندما نازلوا الحصن بالفعل، وذلك ليستغل عامل المفاجأة فى تشتيت وتضارب تحركات أعدائه، ثانيًا: أنه عمد إلى زيادة عدد آلات حصاره، كذلك

(1) Hilal, Ibid, pp.101- 102 .

(2) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص322، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص1، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص77- ص79، اليافعى، مرآة الجنان، جـ4، ص144، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ7، ص207، المقريزى، المواعظ والاعتبار، جـ2، ص217، أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ت: عفيف دمشقية، ط. بيروت1993م، ص315،

Hilal, Al Mansur Qalaun's policy, p.88, Holt, Qalaun's Treaty with Acre in 1283, in EHR, vol. 91, No. 361(Oct., 1976), pp.802-812 .

راعى أن يكون موضع رجاله القائمين على حصار الحصن بعيدًا عـن مرمى حاميته، ومن ثم أخـذ قلاوون فى إحكام حصاره ابتداء من17أبريل/ 10صفـر من نفس العـام، واستمر فى قصفه بالمجانيق من جميع الجهات لفترة امتدت لثمانية وثلاثين يوما حتى اضطرت حاميته الإسبتارية في25مايو/ 19ربيع أول لطلب الأمان من السلطان مقابل تسليم الحصن له، إلا أنه اشترط عليهم مغادرة الحصن دون أى مال أو سلاح يخصان الحصن ذاته فى حين أنه سـمح لهم بحمل أموالهم الخاصة فحسب، وبالفعل خرجت الحامية تحت حماية عسكرية مملوكية إلى أنطرطوس ومنها توجهوا إلى طرابلس[1].

وبتخلص المسلمين من تلك العقبة التى استعصت عليهم طويلًا يكونون بذلك قد اجتازوا خطوة واسعة فى سبيلهم للقضاء المبرم على الوجود الصليبى فى بلاد الشام، بل الأحرى من ذلك أن قلاوون بعد أن اطلع على دفاعات حصن المرقب القوية الحصينة التى تتيح لمن فيه تحمل ظروف الحصار العنيفة استقر رأيه على أن يبقى عليه وأن يمده بالرجال والعتاد كما هو الحال بالنسبة لحصنى الأكراد وعكار ليجعله بذلك قاعدة عسكرية جديدة له فى بلاد الشام تعينه فى حملاته التالية ضد الصليبيين[2].

ومن حصن المرقب اتجه المنصور قلاوون لحصن مرقية الواقع بين المرقب شمالًا وأنطرطـوس جنوبًا، ونظرًا لما عرف عن هذا الحصن بمنعته وعصيانه على المسلمين

(1) ابن عبـد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص78- ص80، بيبرس الـدواداري، زبـدة الفكرة، جـ9، ص270- ص271، مختار الأخبار، ص84، شافع بن على، الفضل المأثور، ص141- ص144، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص268، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص39، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص17- ص18، المقريزى، السلوك، جـ2، ص189، ابن بهادر، فتوح النصر، ورقة 159، ابن سباط، تاريخ ابن سباط، جـ1، ص486- ص487.

(2) بيبرس الـدوادارى، التحفة الـملوكية، ص114، اليونينى، ذيـل مـرآة الزمـان، جـ2، ص448، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص31، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص305، الفيومى، نثر الجمان، م2، مخطوط بدار الكتب المصرية، تـحت رقم 1746 تاريخ، ورقة 283، ابـن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص96، جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون فى مصر، ط. القاهرة 1947م، ص238.

من قبل عدة مرات، فضلًا عما استحدثه الصليبيون فى بنائه لزيادة دفاعاته بالرغم مما ألزمتهم به معاهدتهم مع قلاوون بالوقوف عن هذا الأمر، فلقد آثر قلاوون لذلك ألا يتدخل فى هدم ذلك الحصن بنفسه بل ترك أمره لأصحابه أنفسهم كعقاب لهم على ما اقترفته أيديهم بتعديهم على الصلح الذى أبرموه معه بعد أن بعث برسالة تهديد لبوهمند السابع يعلمه فيها أنه لن يتورع عن استخدام القوة العسكرية ضده إذا لم يهدم هذا الحصن الذى ساهم هو نفسه فى زيادة تحصيناته[1]، ولما كان بوهمند السابع على يقين من احتدام الخطر المملوكى على ملكه فلقد اضطر للخضوع لأمر المنصور قلاوون حيث عوض صاحب الحصن بجزء من ماله وأراضيه الخاصة ثم شرع فى هدمه، إلا أن قلاوون ما كان ليترك هذا الأمر دون إظهار سطوته وقوة نفوذه على الصليبيين حيث قام بدوره بإرسال مائة من الحجارين يعاونون فى هدم الحصن[2].

وبهدم هذه القلعة باتت إمارة طرابلس عارية تمامًا من أية دفاعات أو تحصينات تحمى جبهتها الشمالية والشمالية الشرقية وفى ذات الوقت أصبحت اللاذقية فى الشمال معزولة تمامًا عن أية مساندة أو دعم خارجى قد يصلها من إخوانها صليبىّ الشام الذين تناسوا أمرها فى غمرة صراعاتهم وحروبهم، كما تناساها الغرب الأوروبى الذى لم يعد يأبه بأى مصير يلحق بمستعمراته فى الساحل الشامى، وبالتالى فلقد كان من المنطقى أن اللاذقية بوضعها هذا تكون أنسب ساحة يكمل عبرها المنصور قلاوون جهاده ضد الصليبيين.

وبالرغم من ذلك، لم يكن استرداد اللاذقية أمرًا أعد له قلاوون مسبقًا، بل

---

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص88- ص89،
Irwin, Conquest of County Tripoli, p.248 .

(2) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص 89 – ص 90، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص271، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص305، ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص96، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص315،
Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, pp.338 - 341, Irwin, Conquest of County Tripoli, p.248

الواقع أن سقوطها جاء من قبيل التوفيق ليس أكثر فلقد جاء استردادها بناء على تكليف السلطان المنصور الأمير حسام الدين طرنطاى بانتزاع صهيون من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر- أحد نواب المنصور قلاوون ببلاد الشام- الذى امتنع عن الحضور للمشاركة فى فتح المرقب، وبما أن سيد اللاذقية الصليبى كان يدين بالتبعية له فلقد استغل الأمير حسام الدين وجوده بالقرب منها لمهاجمتها، فما إن وصلت الأنباء لساكنيها من الصليبيين باقتراب القوات المملوكية من أراضيهم حتى سارعوا بالانسحاب من المدينة إلى حصن قريب منها، وعلى هذا النحو سقطت المدينة بيد المسلمين دون أدنى مقاومة، وأما الحصن فلقد تهدم أغلبه على إثر زلزال ضرب المنطقة قبل أن يشن المسلمون عليه أى هجوم، وأمام هذا الوضع المتردى لذلك الحصن لم يكن على الأمير حسام الدين سوى ممارسة بعض الضغوط العسكرية عليه حتى يكمل ما بدأته الطبيعة لهذا الحصن من انهيار، حيث تتابعت ضرباته عليه بالمجانيق حتى أدرك من بداخله من الصليبيين أنهم ليس لهم من مناص إلا التسليم وطلب الأمان، وهكذا تسلم الأمير حسام الدين طرنطاى القلعة في20 أبريل 1287م/ 5 ربيع أول 686هـ، ليكون بذلك قد استولى على اللاذقية بأكملها[1].

والواقع، أن أهمية سقوط مدينة اللاذقية فى أيدى المسلمين لا يعود لأهمية المدينة فى حد ذاتها بقدر ما يعود للصورة التى عكستها لنا للواقع المتدهور للصليبيين آنذاك، فبالرغم مما أحدق بهم من أخطار ظلوا فى صراعاتهم وحروبهم لبعضهم غير مبالين حتى بضياع أملاكهم، وذلك فى سبيل تحقيق انتصارات وهمية ضد بعضهم البعض، فإذا ما نظرنا إلى إمارة طرابلس- محور دراستنا- التى اقتصر

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص151- ص152، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص22، العينى، عقد الجمان، جـ2، ص361، ابن سباط، تاريخ ابن سباط، جـ1، ص489،
Les Gestes des Chiprois, pp.800- 801, Runciman, A History of the crusades, vol.III, p.358, The Crusader states, p.590 .

إطارها الجغرافى على مدينة أنطرطوس شمالًا ثم شريط ساحلى ضيق إلى الجنوب منها يمتد من طرابلس شمالًا حتى جبيل جنوبًا لوجدنا أن صليبييها كانوا غارقين فى منازعاتهم الداخلية حول أحقية تولية حكم الإمارة عقب وفاة بوهمند السابع ما بين أخته لوسى من ناحية وأمه سبيلا من ناحية ثانية والقومون الجنوى الذى فرض حمايته على الإمارة من ناحية ثالثة، مع العلم أن المنصور قلاوون لو أقدم على الهجوم على الإمارة آنذاك لن يكون هناك مجال على الإطلاق فيما بينهم لأى نزاع، لأن مسرح الأحداث ذاته، المتنازع عليه، سيكون قد انتقل بالكامل لأيدى أعدائهم من المماليك، ورغم ذلك لم يأبهوا بكل ما يحيط بهم من أخطار وظلوا على خلافاتهم، بل الأفدح من ذلك أن بارثلميو أمبرياكو حاكم جبيل الذى كان يكن للبيت النورماندى أمراء طرابلس عداء دفينًا من جراء ما لحق به وبأسرته على أيديهم من صنوف العداء والانتقام لم يتورع عن تحريض المنصور قلاوون سرًا لمساعدته فى الاستيلاء على مدينة طرابلس على أن تكون المدينة مناصفة فيما بينهما، كما ذهب البعض إلى أن البنادقة أيضا قد قاموا بتحريض قلاوون على نفس الأمر[1].

على أية حال، لم يكن قلاوون فى انتظار تحريض من أحد لينقض على ما تبقى من إمارة طرابلس، إلا أن هذا لا ينكر أنه استغل تلك الدعوة التى كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير ليكون له الحق فى التدخل عسكريًا لمهاجمة طرابلس، لكنه آثر كعادته أن يحيط تحركاته بالسرية التامة حتى لا يدرك أحد وجهته، فكان أول توجه له إلى مدينة دمشق التى مكث فيها أسبوعًا يستقبل

(1) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص320- ص321،

Les Gestes des Chiprois, pp.802- 803,

هانس ابراهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ت: عماد الدين غانم، ط. طرابلس 1990م، ص 407- ص408،

Grousset, Histoir des Croisudes, t.3, pp.740- 742, Runciman, A History of the crusades, vol.III, p.405, The Crusader States, p.591, Stevenson, The Crusaders in the east, p.349 .

خلاله توافد قوات نوابه ببلاد الشام عليه إلى أن أكمل إعداد جيشه وتسليحه الأمثل، ومن ثم بدأ تحركه سرًا فى 7مارس 1289م/ 20 صفر 688هـ، من دمشق إلى طرابلس، وعلى الرغم من ذلك وصلت أخبار تحركاته إلى طرابلس لمسامع مقدم الداوية وليم أوف بوجيه عن طريق رشوة الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أحد أمراء المماليك الذى قام بدوره بتنبيه صليبيّ الإمارة، إلا أن أحدًا لم يأبه بكلامه وظلوا فى انقساماتهم وصراعاتهم[1] حتى فوجئوا فى 17مارس/ غرة ربيع الأول بمحاصرة الجيش المملوكى لهم من الجهة الشرقية للإمارة التى كانت وفقًا لما ذكره المؤرخ العربى أبو الفداء، الذى كان ضمن القوات المملوكية المحاصرة لمدينة طرابلس"ليس عليها قتال إلا من جهة الشرقى وهو مقدار قليل"[2]، وفى تلك الجهة نصب المماليك تسعة عشر منجنيقًا وهو عدد يعد ضخمًا من آلات الحصار، إلا أننا لو علمنا أن سور مدينة طرابلس الممتد شرقى المدينة من البحر جنوبًا كان عرضه يسع ثلاثة فرسان بخيولهم لأدركنا أن عدد هذه المنجنيقات كان مناسبًا لقوة السور ومنعته، ولم يعتمد قلاوون على تلك الآلات فحسب، بل ضم فى صحبته أيضًا ما يقدر بحوالى ألف وخمسمائة نَقَّاب وحجَّار وزراق، حيث أخذ هذا العدد الهائل من الرجال مع آلات حصارهم يقذفون وينقبون أسوار المدينة ليل نهار[3].

على أيه حال، لم تكن مدينة طرابلس فى هذا الحصار بمعزل عن بقايا الوجود

---

(1) Les Gestes des Chiprois, p.804,

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ2، ص928،

Hilal, Al Mansur Qalaun's policy, p.145, Runciman, A History of the crusades, vol.III, pp.405- 406 .

(2) أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص23.

(3) بيبرس الدوادارى، التحفة الملوكية، ص120، شافع بن على، الفضل المأثور، ص159، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص23، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص383، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص31، ص47، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص80، المقريزى، السلوك، جـ2، ص211،

Stevenson, The Crusaders in the east, p.350 .

الصليبى فى بلاد الشام أو حتى الغرب الأوروبى، على عكس نظيرتها مدينة أنطاكية التى كما لاحظنا فى تناولنا لسقوطها، أنه كان قد أحكم المماليك حصارهم عليها وقطعوا عنها أى سبيل لنجدتها نظرا لكونها لم تكن مدينة ساحلية كمدينة طرابلس، فلقد كان لديها ميناء مستقل عنها هو ميناء سان سيمون San Simeon حيث كان فى الإمكان الاستيلاء عليه وقطع أية صلة للمدينة بعالم البحر المتوسط، وهو ما حدث على أرض الواقع، بينما هيئ موقع مدينة طرابلس الساحلى أن تتواصل عليها المساعدات العسكرية دون أى عائق من قبل المسلمين فبخلاف المساعدات التى قدمتها كل من هيئتى الإسبتارية والداوية والكتيبة الفرنسية التى وصلتها من عكا، بعث الملك هنرى ملك قبرص بدوره أخاه الأصغر عمورى على رأس قوة من فرسانه وجنوده المسلحين على متن أربع سفن حربية (غلايين)، كما بعثت جنوة أيضا أربع سفن حربية تحت قيادة الأدميرال بنتيتو زكريا، واثنتان للبنادقة بالإضافة إلى بعض القوارب الأصغر سعة من مدينة بيزا[1].

زد على ذلك، أن المدينة فى حد ذاتها قد توافد عليها من قبل أعداد هائلة من حاميات قلاعها التى استردها المسلمون سابقًا كحاميات حصنى الأكراد والمرقب وغيرهما، وعلى الرغم من أن كثرة عدد المدافعين عن المدينة على هـذا النحو وتجمع كلمتهم على هدف واحد هو الدفاع عن طرابلس متناسين خلافاتهم كان فيه بارقة أمل بالنسبة لهم لصحوتهم من سباتهم الطويل إلا أنه من الواضح أنها كانت صحوة ما قبل الموت، فسرعان ما تهاوت عـزائمهم فى الدفاع عن المدينة منذ أن شاهدوا أولى ثمار القذف الإسلامى للجهة الشرقية لسورها الذى أسفر عن هدم برج الأسقف القديم الواقع فى الركن الجنوبى الشرقى من السور، بالإضافة إلى برج

(1) المقريزى، السلوك، جـ2، ص211،
Les Gestes des Chiprois, pp.804- 805, Edbury, The kingdom of Cyprus and the crusades 1191 – 1374, Cambridge 1991,p.98, King, The Knights Hospitallers, p.288, Runciman, A History of the Crusades, vol.III, p.406 .

الإسبتارية الواقع بينه وبين البحر، فضلًا عن انهيار السور ذاته الممتد بين البرجين، فحينها فقط أدرك البنادقة أنها نهاية المدينة وأن الدفاع عنها بات من المستحيل فما كان منهم إلا أن سارعوا بالانسحاب من مواقعهم حاملين فى سفنهم على عجل كل ما يقدرون على نقله من ممتلكات ومؤن ثم أبحروا من فورهم، وما إن علم بنتيتو زكريا قائد الجنوية بذلك حتى سارع هو الآخر ومن معه من الجنوية بالانسحاب من مواقعهم على أمل ألا يتيحوا للبنادقة الفرصة لسرقة أى من قواربهم، حيث أخذوا كذلك فى حمل كل ما أمكنهم أخذه من المدينة وأبحروا بعيدا عن الميناء[1].

وفى تصورى، أن انسحاب تلك القوات وفرارها على هذا النحو كان بمثابة السقوط الفعلى لمدينة طرابلس، فبخلاف تأثير هذا الانسحاب فى انهيار معنويات المدافعين عن المدينة، واجه الصليبيون المحاصرون فى المدينة نقصًا حادا فى الإمدادات الغذائية فى طرابلس بعد أن حمل البنادقة والجنوية غالبية تلك المؤن إلى سفنهم خلال رحيلهم، ومما زاد الأمر سوءًا أن تعداد صليبيّ طرابلس قد ازداد بشكل ملحوظ فى الأعوام السابقة لحصارها من جراء توافد حاميات قلاعها- التى سقطت من قبل - عليها، وبالتالى فلقد كان أمرًا طبيعيًا أن مواردها الغذائية لم تعد تفى باحتياجات مواطنيها، خاصة تحت تأثير هذا الحصار مما أدى إلى حدوث أزمة غذائية فى المدينة، الأمر الذى عجل بدوره بسقوط طرابلس.

على أية حال، ما إن بلغت تلك الأنباء مسامع المنصور قلاوون حتى شدد حصاره على المدينة وكثف ضرباته على سورها الشرقى إلى أن تهدم فتدفقت قواته حينها إلى داخل طرابلس فى 26 أبريل 1289م/ 4ربيع آخر 688هـ، بعد حصار دام

(1) أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص23، المقريزى، السلوك، جـ2، ص211،

Les Gestes des Chiprois, p.805,

إبراهيم إبراهيم عنانى، البحرية الإسلامية فى مواجهة الصليبيين، ص340،

Grousset, Histoir des Croisudes, t.3, p.742, King, Ibid, p.288, Runciman, Ibid, vol.III, p.406 .

أربعة وثلاثين يومًا[1]، فحاول صليبيوها الفرار قدر استطاعتهم عبر مينائها حيث نجح بعضهم فى الإبحار بأمان مبتعدين عن المدينة كالأميرة لوسى التى رحلت مع الأمير عمورى القبرصى ومارشالا هيئتى الإسبتارية والداوية إلى مملكة قبرص، إلا أن غالبية صليبىّ طرابلس لم يستطيعوا أن ينجوا بأنفسهم، حيث كانت غالبية السفن والقوارب التى بالميناء قد أبحرت بالفعل وبذلك لم يعد أمامهم مفر من سيوف المماليك، وإن كان بعض منهم قد حاولوا النجاة بأنفسهم عبر قوارب الصيد الصغيرة للرحيل إلى جزيرة مواجهة لساحل طرابلس، وبالرغم من أن تلك الجزيرة- التى هى على الأرجح جزيرة النخلة- لم تكن تبعد عن ساحل طرابلس سوى مسافة يسيرة لكنها وفقًا لما أورده شيخ الربوة:" لا يتوصل إليها إلا فى المراكب "[2]، وبما أن الدولة المملوكية لم تكن قد اعتمدت بعد على استخدام الأساطيل البحرية فى أى من حروبها فبذلك أمن من فر إليها من الصليبيين، لكن من الواضح أنه حتى هؤلاء لم تهيئ لهم الأقدار أى منفذ للنجاة حيث انحسرت مياه البحر عنها فبات بمقدور القوات المملوكية العبور إليها على ظهور خيولهم، وما إن وصلوها حتى أبادوا جميع من فيها من الرجال وأوقعوا بنسائهم وأطفالهم فى

(1)عن سقوط طرابلس انظر:
بيبرس الدواداری، زبدة الفكرة، جـ9، ص285، التحفة الملوكية، ص120، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ3، ص93، شافع بن على، الفضل المأثور، ص159، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص23، التبر المسبوك فى تواريخ الملوك، تحقيق محمد زينهم محمد، ط.القاهرة1995م، ص84، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص383، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص313، الذهبى، العبر، جـ5، ص356، دول الإسلام، جـ2، ص188، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، جـ2، ص335، اليافعى، مرآة الجنان، جـ4، ص207، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص80، ابن سباط، تاريخ ابن سباط، جـ1، ص491، ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ1، تحقيق محمد مصطفى، ط. القاهرة 1982م، ص359، السلامى، مختصر التواريخ، مخطوطة بدار الكتب المصرية، تحت رقم1435 تاريخ، جـ1، ورقة 359، مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، نشر زترشتين Zetterşten، ط. ليدن1919م، ص 248،

Irwin, Conquest of County Tripoli, pp.246- 249 .

(2) نخبة الدهر، ص142، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص47.

الأسر، وبذلك يكون قد بلغ عدد قتلى صليبىّ طرابلس سبعة آلاف نفس على الأرجح، فى حين قدر عدد أسراهم بنحو ألف ومائتى أسير[1].

وهكذا يكون قد استرد المنصور قلاوون مدينة طرابلس بأكملها، لكن الغريب حقًا فى أمر هذا السقوط أن أيا من المصادر العربية أو الصليبية لم تورد لنا ذكر لأى مفاوضات أو مراسلات متبادلة بين الجانبين الصليبى والمملوكى بشأن تسليم المدينة وطلب الأمان كما هو مألوف خلال عمليات الحصار المملوكية السابقة للمدن والقلاع الصليبية، ولا ندرى ما السبب الحقيقى فى هذا الأمر، وإن كنت أتصور أن الذى منع الصليبيين ومن قبلهم المنصور قلاوون للتفاوض فى أمر تسليم المدينة هو يقينهم من أن قلاوون كان لا يزال على عزمه فى الانتقام منهم لما اقترفته أيديهم من الغدر به ومن قبله الظاهر بيبرس عدة مرات باتصالهم وتحالفاتهم المتكررة مع المغول ضد كليهما، ومن ثَمَّ فلقد كان حصار قلاوون لطرابلس وإسقاطه لها هما الفرصة الوحيدة أمامه للاقتصاص منهم.

ومهما يكن من أمر، فلقد جاء سقوط مدينة طرابلس ليكون إيذانًا بفنائها ودمارها، فبعد أن خاض المنصور قلاوون فترة طويلة من الحيرة حول مصير تلك المدينة التى بهرته بعبقرية موقعها وثراء مواردها وقوة أساساتها وتحصيناتها استقر رأيه على هدمها بأكملها وتسويتها بالأرض وذلك حتى لا يتيح الفرصة للصليبيين لمحاولة الاستيلاء عليها من جديد، ولعل الذى ساعده فى اتخاذه لهذا القرار ما لاحظه من تهدم أكثر أبنيتها من جراء القصف المملوكى، إلا أنه من الواضح أن قلاوون كان منبهرًا بعبقرية المكان الذى شغلته مدينة طرابلس لدرجة دفعته لتشييد مدينة جديدة تحمل نفس الاسم، إلا أنها هذه المرة تم بناؤها على بعد ميل تقريبًا من

(1) بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص285، التحفة المملوكية، ص120، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص23، ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص122، العينى، عقد الجمان، جـ2، ص381- ص382، Les Gestes des Chiprois, p.805.

البحر وأطلال المدينة القديمة التى بنى عليها عدد من الأبراج المنيعة لحماية المدينة الجديدة والدفاع عن الساحل[1].

على أية حال، لم تكن مدينة طرابلس وحدها هى ما هدمت، بل إن مدينتى البترون ونيفين شاركاها أيضا نفس المصير بعد أن استولت عليهما القوات المملوكية على إثر سقوط مدينة طرابلس بأيام قليلة، أما مدينة جبيل فلقد سمح قلاوون لحاكمها بيتر أمبرياكو بمتابعة حكمه إياها على أن يؤدى الجزية لبيت مال المسلمين، ثم اتجه قلاوون شمالًا نحو جبلة ليسقطها هى الأخرى، ليكون بذلك قد استرد إمارتى أنطاكية وطرابلس الصليبيتين باستثناء مدينتى أنطرطوس وجبيل[2].

وجدير بالذكر، أن كثيرًا من الباحثين يعتبرون أن سقوط إمارة طرابلس كان بمثابة بداية النهاية لبقايا الوجود الصليبى فى بلاد الشام، ورغم أن الواقع التاريخى يؤكد لنا هذا لما سنلاحظه فى استعراضنا التالى من تأثير سقوط طرابلس على انتهاء الوجود الصليبى بأكمله فى غضون عامين فقط من سقوطها، إلا أننى أرى أن النهاية الحقيقية للوجود الصليبى بما فى ذلك إمارة طرابلس ذاتها كان بنصر حطين وسقوط مملكة بيت المقدس فى عام 1187م/ 583هـ، حيث إننا لو تتبعنا التسلسل التاريخى للأحداث التى وقعت على الساحة الصليبية آنذاك سنجد أن إمارة طرابلس فى هذا العام سادتها حالة من الاضطرابات والخلل عقب وفاة أميرها ريموند الثالث دون أن يترك وريثًا يخلفه فى الحكم، وإن كان قد أعد نفسه لهذا

---

(1) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، جـ9، ص285، ابن أيبك، الدرة الذكية، ص383، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص48، الحريرى، الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق1981م، ص105، ابن حبيب، المصدر السابق، جـ1، ص122، النويرى السكندرى، الإلمام بالإعلام فيما حدث به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، جـ1، حيدر آباد الدكن1968م، ص86.

(2) بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص285، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص49، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص81، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ7، ص321، Irwin, Conquest of County Tripoli, p. 249.

اليوم بتركه وصية لبوهمند الثالث أمير أنطاكية ليولى ابنه حكم طرابلس من بعده، وهو ما حدث بالفعل بتولى الأمير بوهمند الرابع حكمها وهو لا يزال فى مقتبل عمره، ولم يكن بعد على دراية واسعة بشئون الحكم وخباياه، ومن ثم كانت تلك الظروف هى أفضل فرصة لاسترداد صلاح الدين الإمارة إن كان قد أبدى بعض العزم والمثابرة فى مهاجمته إياها[1].

على أية حال، فإن وجود الصليبيين منذ هذا التاريخ وحتى طردهم نهائيًا من بلاد الشام فى 1291م/ 690هـ، لم يكن ناجمًا عن واقع تاريخى أقروه هم أنفسهم بقوتهم وفاعلية وجودهم فى بلاد الشام، بل كان ناتجًا فى المقام الأول عن جمود الجبهة الإسلامية من بعد وفاة صلاح الدين فى عام 1193م/ 590هـ، حيث افتقدت الساحة الإسلامية لمدة تقارب السبعة عقود القيادة القوية المجاهدة التى تعيد للأذهان إنجازاته العظيمة ومن سبقه من قادة الجهاد البارزين كعماد الدين زنكى وابنه القائد المجاهد نور الدين محمود وغيرهم، إلى أن تولى الظاهر بيبرس فى عام 1260م/ 659هـ، قيادة الجبهة الإسلامية بعد أن وحَّد مصر والشام تحت سلطانه ليواصل العمليات العسكرية ضد الصليبيين من جديد.

والواقع، أن تلك العقود السبعة لم تفتقد فحسب وجود القيادة القوية البارزة على الساحة الإسلامية، بل شهدت أيضًا انقسامات وصراعات واضحة بين أبناء البيت الأيوبى على الحكم لم تثمر عن شىء سوى إضعافهم وإنهاكهم لدرجة أنهم باتوا حريصين على عدم إثارة أى حرب مع الصليبيين، بل الأفدح من ذلك أنهم وجدوا فى

(1) الأصفهانى، الفتح القسى، ص123- ص128، ابن الأثير، الكامل، جـ11، ص543، ص548- ص549، ابن شداد، المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة1953م، ص86- ص89، أبو شامة، عيون الروضتين، جـ2، ص186- ص188، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ2، ص256- ص257، أبو الفداء، المختصر، جـ3، ص74- ص75،

Eracles, p.72,

سعيد عاشور،الحركة الصليبية، جـ2، ص650- ص651، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت، ب.ت، ص62.

هؤلاء الأعداء حلفاء لهم يناصرونهم فى حروبهم ضد بعضهم البعض، كما حدث عندما تحالف الصالح إسماعيل حاكم دمشق ومعه الناصر داوود صاحب الأردن والمنصور إبراهيم حاكم حمص مع الصليبيين ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر وحلفائه من الخوارزمية فى معركة غزة الثانية فى عام 1244م/ 642هـ والتى انتهت بهزيمة ساحقة للتحالف الإسلامى - الصليبى[1].

وإذا كان هذا هو موقف الدولة الأيوبية التى هيمنت على حكم مصر والشام حتى منتصف القرن13م/ 7هـ، من مجاهدة الصليبيين، فما بالنا بدولة المماليك الحديثة النشأة التى لم تكن قد رسخت دعائمها بعد فى مصر والشام، فى حين أنه كان عليها أن تحمل على عاتقها مواجهة جحافل المغول المخيفة وحلفائهم من الصليبيين ـ بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس وهيثوم الأول ملك أرمينيا ـ والواقع أن دولة المماليك على الرغم من حداثة عهدها إلا أنها كانت من القوة والعزيمة إلى الحد الذى أتاح لها أن تتصدى لهذا الخطر بمفردها فى فترة بالغة الحرج من تاريخها، فلقد كانت أول مواجهة بين المغول ودولة المماليك فى معركة عين جالوت عام 1260م/ 659هـ، أى بعد عشرة أعوام فقط من نشأتها، وعلى الرغم من ذلك ألحقت الدولة المملوكية بالمغول هزيمة قاسية فى تلك المعركة التى تابعتها بانتصارات متوالية فى كافة المعارك اللاحقة التى دارت بين الطرفين[2].

---

(1) ابن العميد، تاريخ الأيوبيين، ص33، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ5، ص338- ص340، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ8/ ق2، ص745،النويرى، نهاية الأرب، جـ29، ص305- ص307، جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على بلاد الشام، ط. الإسكندرية1971م، ص47، حامد غنيم، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، جـ2، ص269- ص272،

Runciman, A History of the Crusades, vol.III, p.225 .

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص396، بيبرس الدواداری، زبدة الفكرة، جـ9، ص139- ص143، التحفة الملوكية، ص75، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص7، ص9، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص269، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ7، ص41، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ5، ص379، ص385، العينى، عقد الجمان، جـ2، ص91، 139-140.

ومن الطبيعي، أن هذه الظروف التى أحاطت بنشأة الدولة المملوكية كانت السبب الرئيسى فى تأخر مسيرة جهادهم للصليبيين حتى عام 1265م/ 663هـ الذى شهد بدايتها الفعلية على يد الظاهر بيبرس، وعلى الرغم من ذلك فلقد جاء سقوط إمارة طرابلس متأخرًا عن هذا التاريخ قرابة ربع قرن، والواقع أن السبب الأساسى فى هذا الأمر يعود للظروف التى أحاطت بمسيرة الجهاد المملوكية ذاتها. فبداية كان على الظاهر بيبرس أن يسترد المدن الصليبية الواقعة جنوب بلاد الشام حتى يستطيع أن يؤمن تحركاته وامتدادات جيشه جنوبًا ثم كان توجهه إلى إمارة إنطاكية شمالًا أمرًا طبيعيًا نظرًا لكونها أنسب الدويلات الصليبية وضعًا آنذاك للانقضاض عليها، فلقد كانت أنطاكية فى ذروة ضعفها وإنهاكها من جراء الحروب الأهلية المتواصلة التى اجتاحتها غالبية القرن13م/ 7هـ لدرجة جعلت حكامها من أمراء البيت النورماندى يؤثرون البقاء فى إمارتهم الأخرى طرابلس على العيش فيها، الأمر الذى ساعد بدوره على أن تكون هى بذلك أصلح الساحات الصليبية لمتابعة العمليات العسكرية المملوكية عبرها، زد على ذلك أن وقوع إمارة أنطاكية فى شمال بلاد الشام دون أن يكون لها ساتر يحميها من جهة الشمال، من بعد أن ضعفت وانهارت الدولة البيزنطية - التى كانت تحميها وتطالب بأحقيتها فيها- ودخلت فى تحالف مع الظاهر بيبرس، جعلها أسهل منالًا خاصة بعد أن قطع المماليك عنها أية إمدادات قد تصلها من أرمينيا أو حتى من صليبيّ الشام والغرب الأوروبى عبر مينائها سان سيمون، وبذلك جاء إسقاط بيبرس لإمارة أنطاكية ليكون تمهيدًا لخطوته التالية نحو إمارة طرابلس نفسها.

إلا أن بيبرس ما إن شرع فى التوجه نحو إمارة طرابلس حتى أدرك أن هناك عقبات جغرافية وبشرية تختص بتركيبة الإمارة ذاتها تمنعه من الوصول إليها، فبداية هناك قلاع الإمارة الحصينة التى تفانت حامياتها من هيئتى الإسبتارية والداوية فى تقويتها

وتحصينها حتى جعلوها مضرب الأمثال فى المنعة والقوة، ثانيًا هناك خطرا الإسماعيلية النزارية والموارنة الذين استوطنوا جبال لبنان وكانوا يشكلان خطرًا حقيقيًا على الجيش المملوكى، فالفرقة الأولى ألا وهى الإسماعيلية النزارية لم يكن لأحد أن يتوقع توجهاتها أو سياساتها التى قد تتغير بين ليلة وضحاها بحيث إنهم من الممكن أن يظهروا الولاء والطاعة للظاهر بيبرس فى حين إذا ما استأجرهم أحد الصليبيين أو غيرهم لقتل بيبرس لن يتورعوا عن القيام بذلك طالما سيحصلون على المقابل المادى المجزى، أما الموارنة فلقد كانت نظرتهم للصليبيين باعتبارهم إخوانهم فى الدين ويعدون بمثابة الأهل بالنسبة لهم هو الدافع الذى حركهم للاستبسال فى الدفاع عنهم خاصة أن عهد الصليبيين فى بلاد الشام كان يعد العهد الذهبى بالنسبة للموارنة[1].

وعلى الرغم من أن الظاهر بيبرس استطاع أن يتخطى إلى حد كبير تلك العقبات بتجريده إمارة طرابلس تقريبًا من كافة دفاعاتها وقلاعها التى تحميها ابتداء من قلعة صافيتا ثم حصن الأكراد أقوى بناء معمارى شيده الصليبيون طوال فترة بقائهم فى بلاد الشام وانتهاء بحصن عكار، وبنجاحه فى الحد من نفوذ وتواجد فرقة الإسماعيلية النزارية على إثر حملاته على قلاعها حتى تلاشت سطوة تلك الفرقة بأكملها فى بلاد الشام، وكذلك الموارنة الذين شن على معاقلهم فى جبل لبنان حملة فى عام1268م/ 667هـ، كان لها تأثيرها الواضح فى إضعاف دورهم الذى قاموا به فى الدفاع عن مدينة طرابلس، إلا أن توارد الأخبار بوصول حملة صليبية جديدة تولى مقدمتها الأمير إدوارد الإنجليزى جعل بيبرس يتراجع على عجل عن هجومه الأخير لطرابلس استعدادًا لمواجهة هذه الحملة، وعلى الرغم من أن تلك الأخبار لم يثبت صحتها إلا أن بيبرس لم يقَدر له أن يكمل هجومه على إمارة طرابلس نتيجة

(1) محمد مؤنس عوض، العلاقات، ص346.

انشغاله بالاستعدادات لنجدة تونس عقب مهاجمة الملك الفرنسي لويس التاسع لها في عام1270م/ 669هـ فيما عرف بالحملة الصليبية الثامنة[1]- التي فشلت مباشرة على إثر وفاة الملك لويس خلال وجوده بتونس- ثم بحروبه التي خاضها من جديد ضد المغول وحلفائهم الأرمن الذين تكررت غاراتهم على بلاد الشام في الفترة الواقعة بين عام1271م/ 670هـ حتى عام وفاته في 1277م/ 676هـ[2].

وبوفاة السلطان الظاهر بيبرس مرت الدولة المملوكية من جديد بفترة من الاضطرابات الداخلية الناتجة عن تداول السلطة فيما بين الابن الأكبر للملك الظاهر الملك السعيد بركة ثم إلى ابنه الآخر بدر الدين سلامش ثم انتهاء بالأمير سيف الدين قلاوون أتابك العسكر، مرورًا بمحاولات الانشقاقات والانقلابات العديدة التي جرت ضد المنصور قلاوون من أمرائه في بداية عهده، التي كان من أخطرها محاولة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطنة

---

(1) عن هذه الحملة انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص374- ص375، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ5، ص390، العيني، عقد الجمان، جـ2، ص60،

Jean de Joinville, pp.345- 346,

سامية عامر، الصليبيون في شمال إفريقيا حملة لويس التاسع على تونس 1270م/ 668-669هـ، فايز نجيب إسكندر، المقاومة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي على تونس سنة668- 669هـ / 1270م، ط. القاهرة1987م، مصطفى الكناني، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس668-669 هـ/ 1270م، ط .الإسكندرية 1985م،

Runciman, A History of the Crusades, vol.III, pp.221-222, Strayer," The crusades of Louis" in, Setton, A History of the Crusades, vol.II, Madison 1969, pp.514-516 .

(2)عن وفاة الظاهر بيبرس انظر: ابن أبي الفضائل، النهج السديد، جـ1، ص277،ابن أيبك، الدرة الذكية، ص258، الكتبي، فوات الوفيات، جـ1، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت1973م، ص 235- ص246،العيني، عقد الجمان، جـ2، ص174- ص182، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ3 ، ص462- ص463، الدليل الشافي على المنهل الصافي، جـ1، ص203، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، ط.القاهرة1997م، ص33- ص34، سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ط.القاهرة2001م، ص203- ص205.

على دمشق للاستقلال بحكم بلاد الشام فى عام 1279م/ 678هـ، إلا أن قلاوون بدهائه وحنكته استطاع أن يتخطى كل تلك الأزمات بها فى ذلك عصيان سنقر الأشقر عليه الذى تصالح معه وأدخله فى طاعته عام1281م/ 680هـ[1]، وما إن انتهى من تخطى آخر عقبة واجهته بهزيمته للمغول فى معركة حمص ودحرهم عن بلاد الشام فى نفس العام حتى أخذ فى استكمال العمليات العسكرية ضد الصليبيين، خاصة أن مهمته فى القضاء المبرم على الوجود الصليبى فى بلاد الشام باتت أسهل منالًا بعد أن ترك له الظاهر بيبرس الساحة الصليبية وهى تكاد تكون مجردة تماما من كافة خطوط دفاعها، ولذلك جاء سقوط بقايا دويلاتهم فى بلاد الشام سريعًا إلى حد ما، إذ جاء سقوط إمارة طرابلس بدءًا من إسقاط قلعة المرقب إحدى أقوى قلاع الصليبيين فى بلاد الشام على الإطلاق مرورًا باسترداد مدينة اللاذقية وانتهاء بسقوط مدينة طرابلس العاصمة نفسها ليستغرق من السلطان قلاوون قرابة خمسة أعوام فحسب، ولولا أن وافته المنية سريعًا لاستطاع إسقاط عكا التى مات وهو فى طريقه إليها، ولكان تحقق له ما تمناه من دحر الصليبيين نهائيًا عن بلاد الشام بعد أقل من عام واحد من إسقاطه لطرابلس[2].

على أية حال، فعلى الرغم من هذه الظروف وما واكبها من أمر انتقال الحكم إلى ابنه السلطان الأشراف خليل ابن قلاوون (1290-1293م/ 689-693هـ)، بما

(1) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص504، بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص200، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص14، ابن دقماق، النفحة المسكية، ص77، ص80- ص81، محمد عبد الغنى الأشقر، عصر السلطان قلاوون (موقف مصر من الأشقر سلطان الشام وزحف التتار على بلاد الشام 678- 686هـ/ 1279-1287م)، ط. القاهرة2006م.

(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص178- ص179، بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص286، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ5، ص403.

صاحب هذا الانتقال من مؤامرات حاكها أمراؤه للإطاحة به على عادة المماليك فى تداول السلطة فيما بينهم[1] إلا أن الأشراف خليل لم يستغرق أكثر من عام من توليه الحكم حتى قضى على الوجود الصليبى بأكمله فى بلاد الشام.

ومن الجلى البين، أن سقوط طرابلس هو ما عجل بالفعل بسقوط عكا وبقايا الوجود الصليبى، لأن بسقوطها بات الوجود الصليبى محاصرًا من كافة الجهات بالقوى الإسلامية، باستثناء الجهة الغربية التى كانت تطل على البحر المتوسط، ونظرًا لحالة الفتور واللامبالاة التى أظهرها الغرب الأوروبى تجاه الكوارث التى حلت بصليبىّ الشام فلم يعد لتلك الجهة أدنى جدوى أو فاعلية فى تأمين الصليبيين أو حتى فى إرسال الدعم عبرها لصليبىّ الشام، زد على ذلك أن بسقوط إمارة طرابلس واستيلاء المسلمين على قلاعها أخذ كل من الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون يعملان على أن يجعلا تلك القلاع كحصن الأكراد وعكار والمرقب نقاط انطلاق لقواتها المملوكية على مسرح الصراع الإسلامى – الصليبى فى بلاد الشام مما زاد الضغط بدوره على بقايا الوجود الصليبى، فضلًا عن أنه لا يمكن أن نتجاهل تأثير ما لحق بإسقاط إمارة طرابلس من عمليات قتل وأسر لصليبييها- الذين تجاوز عددهم ثمانية آلاف نفس - فى إضعاف الوجود العددى للصليبيين فى بلاد الشام، وبخاصة فى عكا التى عانت وبشكل ملحوظ من نقص عدد القادرين فيها على حمل السلاح ومقاتلة المماليك خلال حصارهم النهائى لهم، وأخيرًا جاء سقوط طرابلس بطبيعة الحال ليزيد من الضغط

(1) بيبرس الدوادارى، المصدر السابق، جـ9، ص290- ص291، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص 180- ص182، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص317، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص99- ص101، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ8، ص3- ص4، ابن بهادر، فتوح النصر، ورقة364.

العسكرى المملوكى على بقايا الوجود الصليبى، خاصة بعد أن اقتصرت الساحة أمامهم على تلك البقايا فحسب.

وهكذا بات بقاء الصليبيين فى بلاد الشام أمرا متوقفًا على مدى نشاط الجبهة الإسلامية ضدهم والتوقيت الذى يحدده الأشراف خليل للانقضاض عليهم، على أية حال لم يكن أمام الصليبيين فترة طويلة حتى يلقوا مصيرهم المنتظر، حيث ما إن انتهى الأشراف خليل من إعداد جيشه لمقاتلة الصليبيين حتى ضرب حصارًا محكمًا على مدينة عكا امتد لما يزيد عن خمسين يومًا أبدت خلالها القوات الصليبية استبسالا واضحًا فى الدفاع عن المدينة، خاصة أن المدينة كانت محصنة بشكل بالغ المنعة، لكن على أية حال كان على مدينة عكا أن تلقى هى الأخرى مصيرها المحتوم شاءت أم أبت، فلقد سقطت المدينة بأكملها فى 28مايـو1291م/ 17جمادى الآخرة 690هـ[1]، حيث جاء سقوطها ليرسخ قناعة لدى صليبيّ الشام أنه ما من مناص للنجاة بأنفسهم إلا بتسليم ما كان تحت نفوذهم من بلاد إلى القوات المملوكية مقابل تأمين حياتهم والخروج نهائيًا من الشام، وهكذا تسلم الجيش المملوكى فى نفس العام مدن صور وصيدا وبيروت وحيفا وعثليث وكذلك مدينتى

---

(1) بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص294- ص297، أبـو الفـداء، المختصر، جـ4، ص 24- ص25، ابـن أيبك، الـدرة الذكيـة، ص309- ص310، ابـن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص320، ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص375- ص376، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ 8، ص111،

John de Villiers, A letter of John de Villiers Master of the Hospital describing the fall of Acre, in King, the Knights Hospitallers in the Holy land, pp.301-303, Ludolph Van Suchem, pp.57- 59, Little, "the fall of Akka in 690/1291:the Muslim version", in M.Sharon, ed. Studies in Islamic history and civilization in honor of Professor David Ayalon, Jerusalem, Leiden 1986, pp.159-181, Runciman, a History of the crusades, vol.III, pp.413 – 423, Schein, "Babylon and Jerusalem: the fall of Acre", in Murray, From Clermont to Jerusalem(The crusades and crusader societies 1095- 1500), Turnout 1998 .

أنطرطوس وجبيل اللتين كانتا تتبعان من قبل إمارة طرابلس، وكان آخر ما استرده المماليك من أراضٍ احتلها الصليبيون جزيرة أرواد الطرابلسية الواقعة أمام سواحل أنطرطوس التى تسلموها فى عام1303 م/ 702هـ، لتكون بذلك خاتمة للوجود الصليبى فى بلاد الشام الذى استمر كواقع تاريخى قرابة قرنين من الزمان[1].

ذلك عرض عن سقوط إمارة طرابلس الصليبية، أما الصفحات التالية فيتم تخصيصها للحديث عن أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة.

(1) بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، جـ9، ص299- ص300، أبو الفداء، المختصر، جـ4، ص25، ص 47، النويرى، نهاية الأرب، جـ31، ص212- ص213، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص121- ص122، ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص409، محمد مؤنس عوض، العلاقات، ص 352.

الخاتمة

توصلنا على امتداد الفصول السابقة إلى عدد من النتائج، يمكن إجمالها على النحو التالي:

أولًا: أن الصليبيين بوجه عام، ومنهم صليبيو طرابلس بطبيعة الحال، لم يكونوا أصحاب رسالة حضارية، بل كانوا دعاة حرب وقتال ليس أكثر، فعلى الرغم من عدم اكتسابهم لمشروعية وجودهم فى بلاد الشام مما كان من المفترض أن يجعلهم هذا أكثر حكمة وحنكة فى سياساتهم وتحركاتهم إلا أنهم مع هذا لم يتوانوا على الإطلاق عن متابعة حروبهم، التى إن لم تكن أمام أعدائهم من المسلمين فضد بعضهم البعض، وهو الغالب فى حروبهم، ولعل ذلك ظهر جليًا من خلال تناولنا للتطور السياسى لإمارة طرابلس طوال القرن ١٣م/ ٧هـ، الذى لم يكن سوى سلسلة من الحروب والصراعات المتواصلة التى خاضها صليبيو الإمارة بدءًا من حرب الوراثة فى أنطاكية التى استمرت قرابة العشرين عامًا وانتهاء بحرب الوراثة أيضا، لكنها فى هذه المرة دارت رحاها فى مدينة طرابلس ذاتها والتى أدت فى النهاية إلى ضياع الإمارة نهائيًا .

ثانيًا : أظهرت الدراسة أن إمارة طرابلس الصليبية على الرغم مما اشتهرت به من ثراء وازدهار فى مجالاتها الاقتصادية المختلفة سواء كانت زراعية أو صناعية أو تجارية أو حتى مجالى الرعى والصيد، إلا أن اعتمادها الأساسى كان على نشاطها

التجارى بشكل خاص نظرا للدور الفعال الذى قامت به الإمارة عبر موقعها الإستراتيجي الحيوى كوسيط تجارى بين مدن الظهير الإسلامى والشرق الأقصى من ناحية والغرب الأوروبى من ناحية أخرى، إلا أنها بتأثير من حروبها الداخلية وغارات قبائل التركمان عليها التى حدَّت إلى قدر كبير من حركة التجار المسلمين إليها، فضلا عما واكب تلك الأحداث من اضطرابات لحركة التجارة العالمية على إثر زحف الجيوش المغولية عبر بلدان آسيا الوسطى والعالم الإسلامى وغاراتهم المتكررة على بلاد الشام، بالإضافة إلى حرب دير القديس ساباس، التى دارت بين مدن بيزا وجنوة والبندقية على سواحل بلاد الشام والتى انخرط فى رحاها بدورهم كافة الأطراف الصليبية فى بلاد الشام بمن فى ذلك صليبيو الإمارة ذاتها، كان من الطبيعى أن يتقهقر اقتصادها إلى ما وصل إليه فى نهاية هذا القرن من ضعف وانحطاط، إلى أن بات غير قادر حتى على الوفاء بمتطلبات مواطنى الإمارة من غذاء، مما جعل اقتصادها المتدني هذا واحدًا من العوامل التى ساهمت بدورها فى انهيار الإمارة فى نهاية المطاف.

ثالثًا: أن المجتمع الطرابلسى- كما اتضح من خلال تناولنا لأوضاع الإمارة الاجتماعية- شهد تباينًا واضحًا فى أوضاع وميول وانتماءات فئاته وطبقاته الاجتماعية، التى أدت بدورها لفقدانه العدالة الاجتماعية، خاصة إذا ما قارنا بين فئته الحاكمة من الصليبيين، الذين بالرغم من قلة عددهم إلا أنهم كانوا يملكون ويسيطرون فى الغالب على كافة موارد الإمارة وثرواتها من ناحية، وبين باقى سكان الإمارة المحليين أصحاب البلاد الأصليين، وعلى وجه الخصوص المسلمون منهم الذين باتوا بالكاد يحظون على قوت يومهم من ناحية أخرى، لذلك كان أمرًا طبيعيًا أن يئن المسلمون من وطأة هذا الظلم الواقع عليهم بما أقدموا عليه من وسائل شتى للمقاومة الشعبية، وليت الأمر اقتصر عند هذا الحد من الانقسام والتخبط بين طبقات وفئات المجتمع الطرابلسى، بل الأفدح من هذا أن تلك الظاهرة استشرت هى الأخرى فى صفوف الصليبيين أنفسهم حيث كانت الصراعات والحروب فيما

بينهم هى أكثر ما ميز المجتمع الصليبى فى طرابلس، والجدير بالذكر هنا أن معظم تلك الصراعات كانت تقوم غالبًا من أجل إحراز النفوذ والثروة وذلك من أجل إشباع رغباتهم وأهوائهم الخاصة التى كان أغلبها من الأمراض الاجتماعية العضال كالزنا والشذوذ الجنسى والمقامرة وغيرها، ومن الطبيعى أن مجتمعًا احتوى بين جنباته على كافة عناصر التصدع والانهيار، على هذا النحو لم يكن يستطيع أن ينجو بنفسه من مغبة أى هجوم خارجى قد يتعرض له.

رابعًا: كشفت هذه الدراسة عن أن إمارة طرابلس على الرغم من انتقالها من حكم الأسرة الطولوشية إلى حكم الأسرة النورماندية حكام أنطاكية إلا أنها لم تشهد أى تغير ملموس فى نظم حكمها وإدارتها طوال القرن ١٣م/ ٧هـ، وإن كانت قد شهدت تسرب الضعف والفساد إلى نظمها خاصة الإقطاعية منها منذ السنوات الأولى لهذا القرن، كما حدث بعصيان رينوار حاكم نيفين لسيده الأعلى بوهمند الرابع، وفيما بعد بإعلان أسرة أمبرياتشى حكام جبيل استقلالها عن إمارة طرابلس، وما تبع هذه الأحداث من حروب أهلية دامية، حقًا أنها انتهت بفشل كلتا المحاولتين واستقرار الوضع لأمراء طرابلس، إلا أنها أدت أيضًا إلى ضياع قدر هائل من قوة الإمارة العسكرية ومواردها المالية، خاصة إذا ما عرفنا أن سياسة الإمارة المالية فى حد ذاتها قد أثبتت فشلها بشكل واضح، فلقد كانت غالبية مصروفات صليبىّ الإمارة - المنتفعين الأساسيين من مواردها - تتركز فى المقام الأول إما على صراعاتهم وحروبهم وإما على حياتهم المترفة اللاهية دون مراعاة لما قد يستجد بهم من أمور فيما بعد، لذلك ما إن أخذت موارد الإمارة فى التقلص - سواء لما ألم بنشاطها التجارى من تدهور أو بتأثير من تقلص حدودها على يد دولة المماليك - حتى بدأت الإمارة تمر من وقت لآخر ببعض الأزمات المادية وعدم توافر السيولة النقدية، الأمر الذى بلغ أقصى حد له خلال حصار المماليك لإمارة طرابلس حيث كان لعدم توافر المؤن بها أكبر الأثر فى إسقاطها.

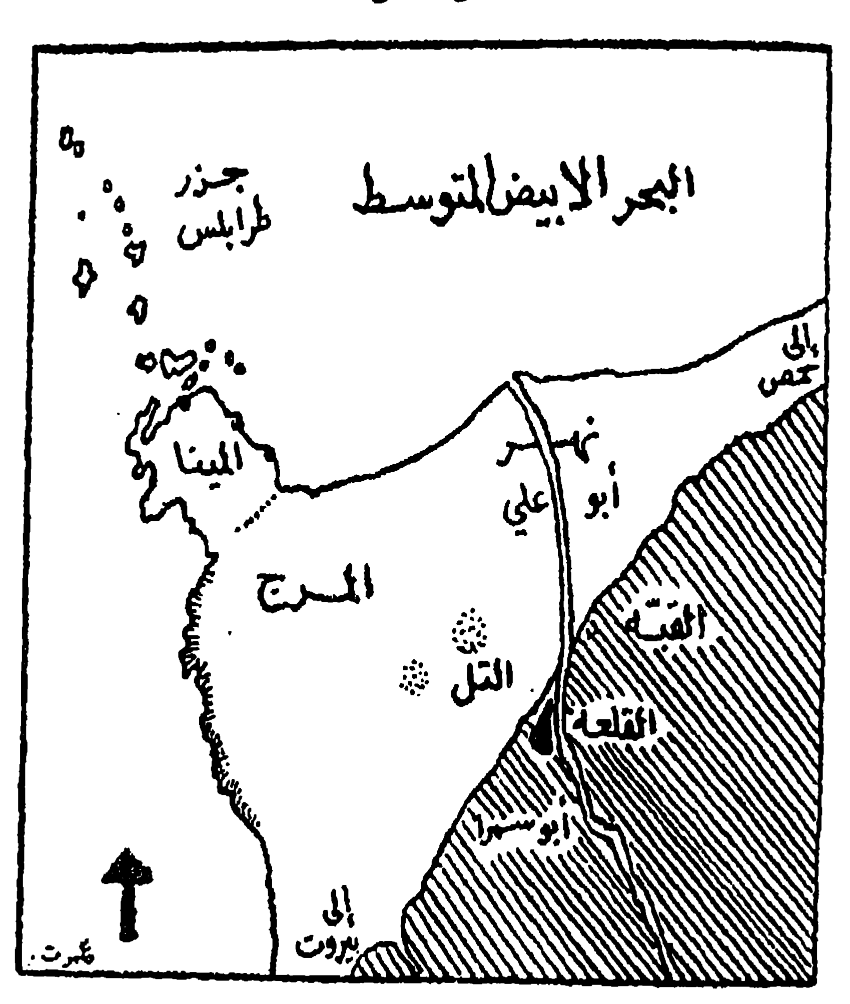
خامسًا: أكدت الدراسة على أن سقوط إمارة طرابلس، شأنها شأن باقى

الدويلات الصليبية فى بلاد الشام، جاء من الداخل قبل الخارج، فمما لا شك فيه أن عوامل الضعف الداخلية فى الإمارة، التى كان أهمها الحروب الأهلية الطاحنة التى جرت فى طرابلس حتى اللحظة الأخيرة من وجودها، قد وفرت على الجيش المملوكى مقاومة كان من المفترض أن تكون مقاومة شرسة من قبل صليبييها، لذلك لن نبالغ لو قلنا إن الجيش المملوكى خلال إسقاطه للدويلات الصليبية فى بلاد الشام كان يواجه فى المقام الأول قلاعًا وتحصينات منيعة، أما دور القوات الصليبية العسكرية فلقد جاء ثانويًا إلى أبعد الحدود، كما لا يمكن أن نتجاهل أن الوجود الصليبى بالرغم مما كان به من انقسامات وصراعات إلا أنه كان كيانا واحدا لا يمكن تجزئته، لذلك كان من الطبيعى أن سقوط أى قسم من هذا الكيان كان من شأنه أن يُعَجِّل بسقوط باقى الدويلات الصليبية التى كانت بمثابة العقد الذى إذا ما انفرطت منه إحدى حباته تتابع سقوط حباته جميعها، وعلى هذا النحو يمكن القول إن سقوط الرها فى عام ١١٤٤م/ 539هـ ساهم فى إسقاط مملكة بيت المقدس فى عام 1187م/ 583هـ وبالتالى فلقد جاء سقوط أنطاكية عام ١٢٦٨م/ ٦٦٦هـ ليعجل بدوره بإسقاط إمارة طرابلس، كما جاء سقوطها هى الأخرى ليحسم وضع باقى الدويلات الصليبية التى لم ينقضِ عليها عامان من سقوط طرابلس حتى قضى المماليك على وجودها جميعها.

على أية حال، يمكننا اعتبار أن مسيرة إمارة طرابلس الصليبية خلال القرن ١٣ م/ ٧هـ، لم تكن سوى مسيرةً لانهيار بطىء تسارعت خطواته بشكل ملحوظ فى الربع الأخير من عمر الإمارة ليأتى المنصور قلاوون فى عام ١٢٨٩م/ ٦٨٨هـ ويضع حدًا نهائيًا لهذا الانهيار بإسقاطه لها، لتأخذ طرابلس منحنى جديدًا فى تاريخها باعتبارها إحدى النيابات المملوكية فى بلاد الشام، حيث عرفت منذ هذا الحين بنيابة طرابلس المملوكية.

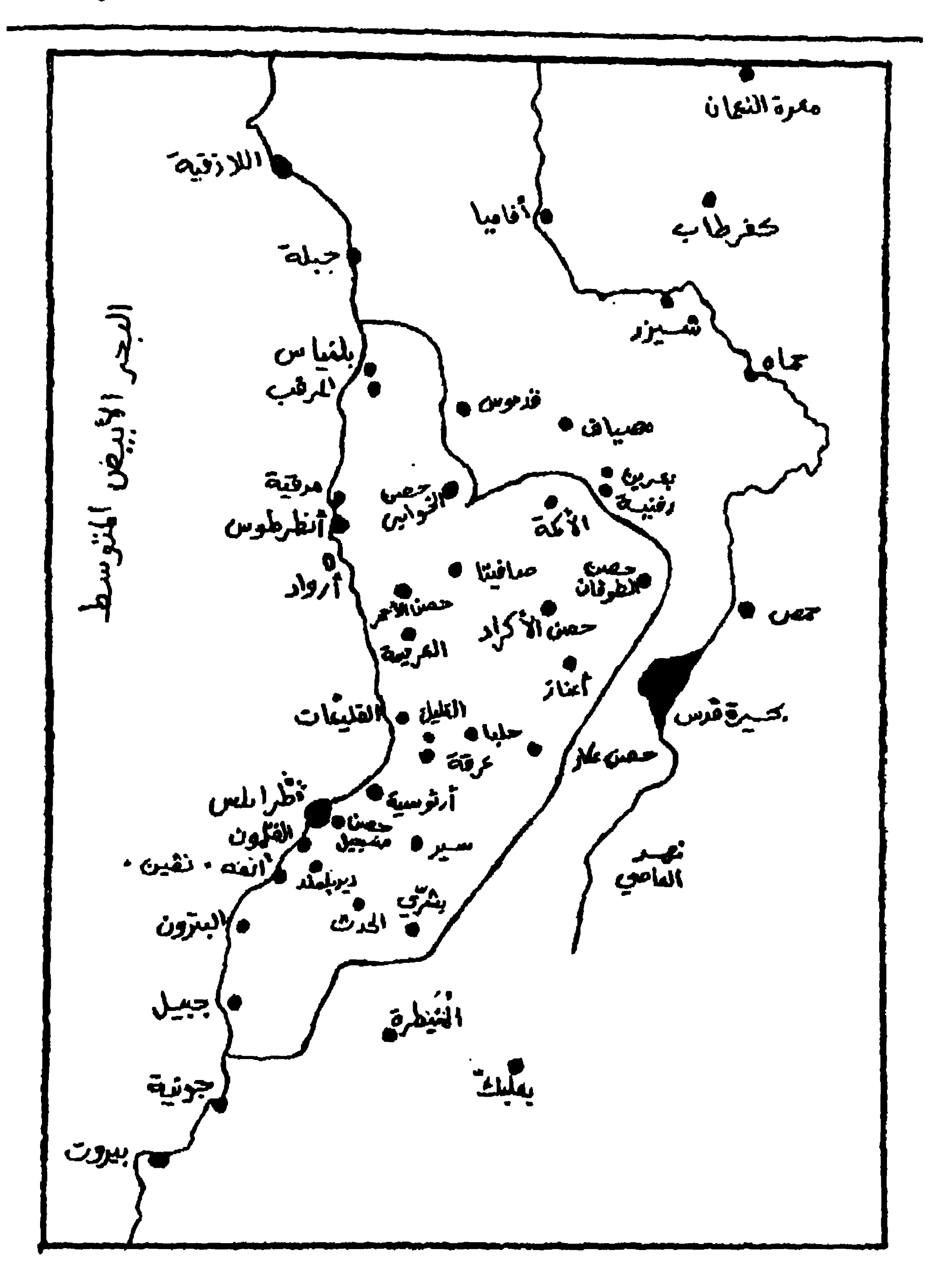
■ الخرائط والأشكال

ملحق الخرائط



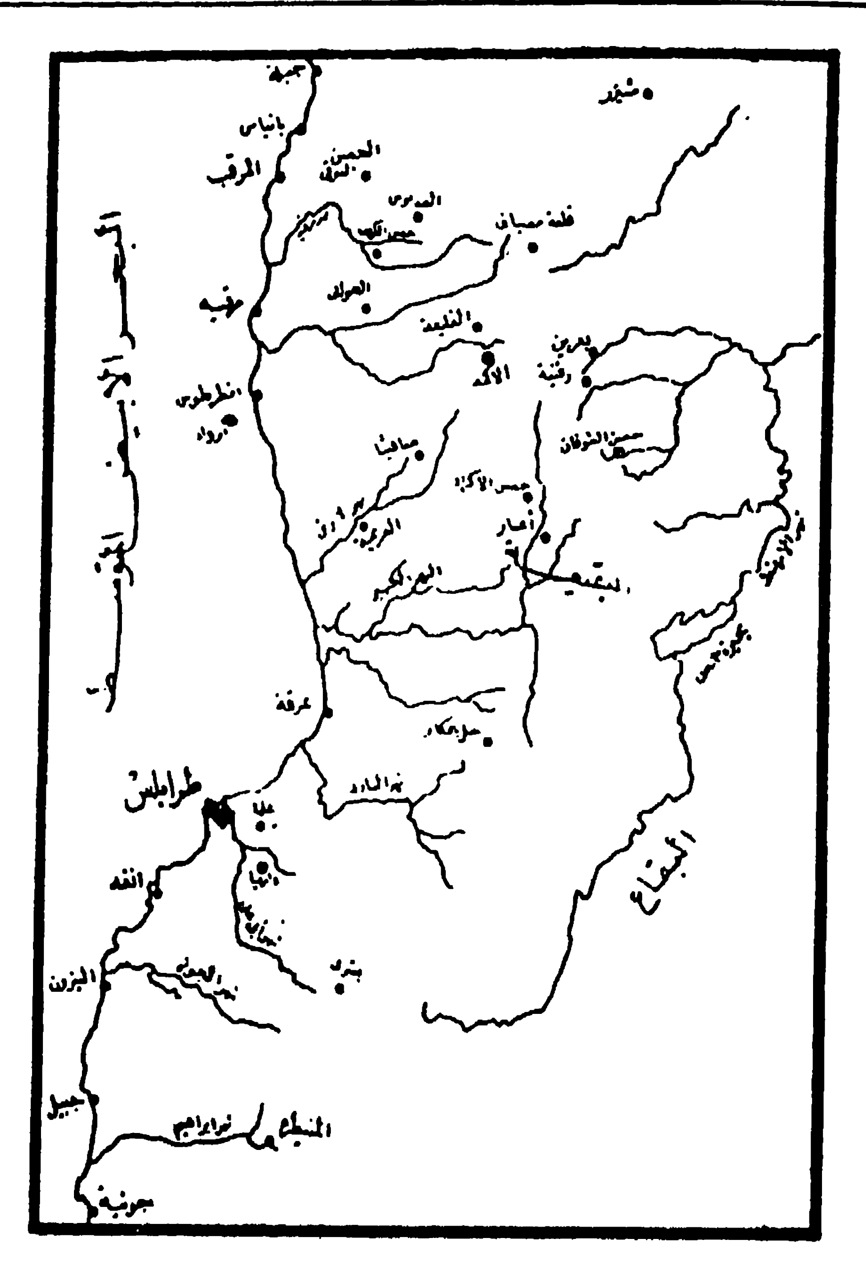
طبوغرافية طرابلس المثلثة

نقلاً عن: عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس السياسى، جـ1، ص39.



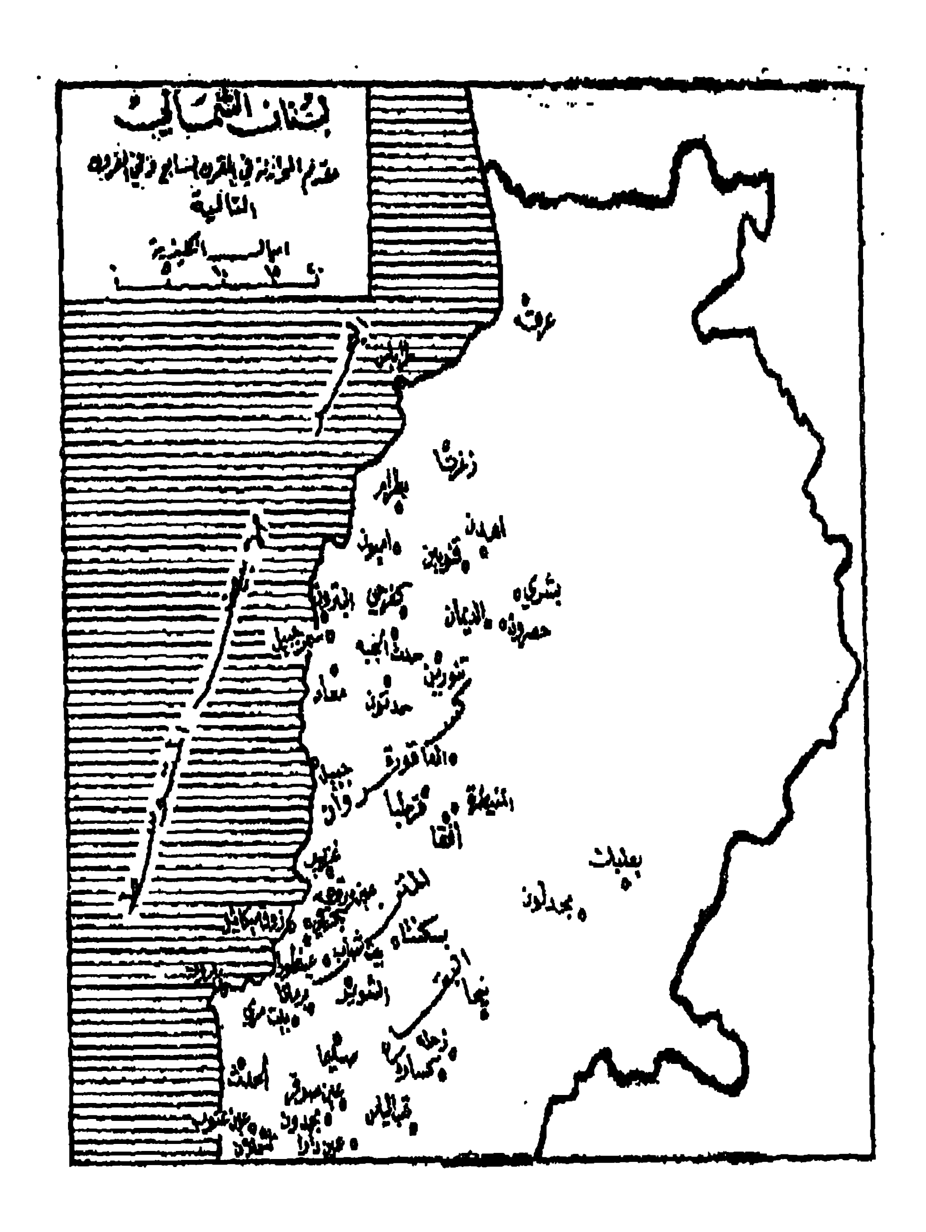
الإطار الجغرافى لإمارة طرابلس الصليبية مع بدايات القرن 13م/ 7هـ.

من عمل الباحثة

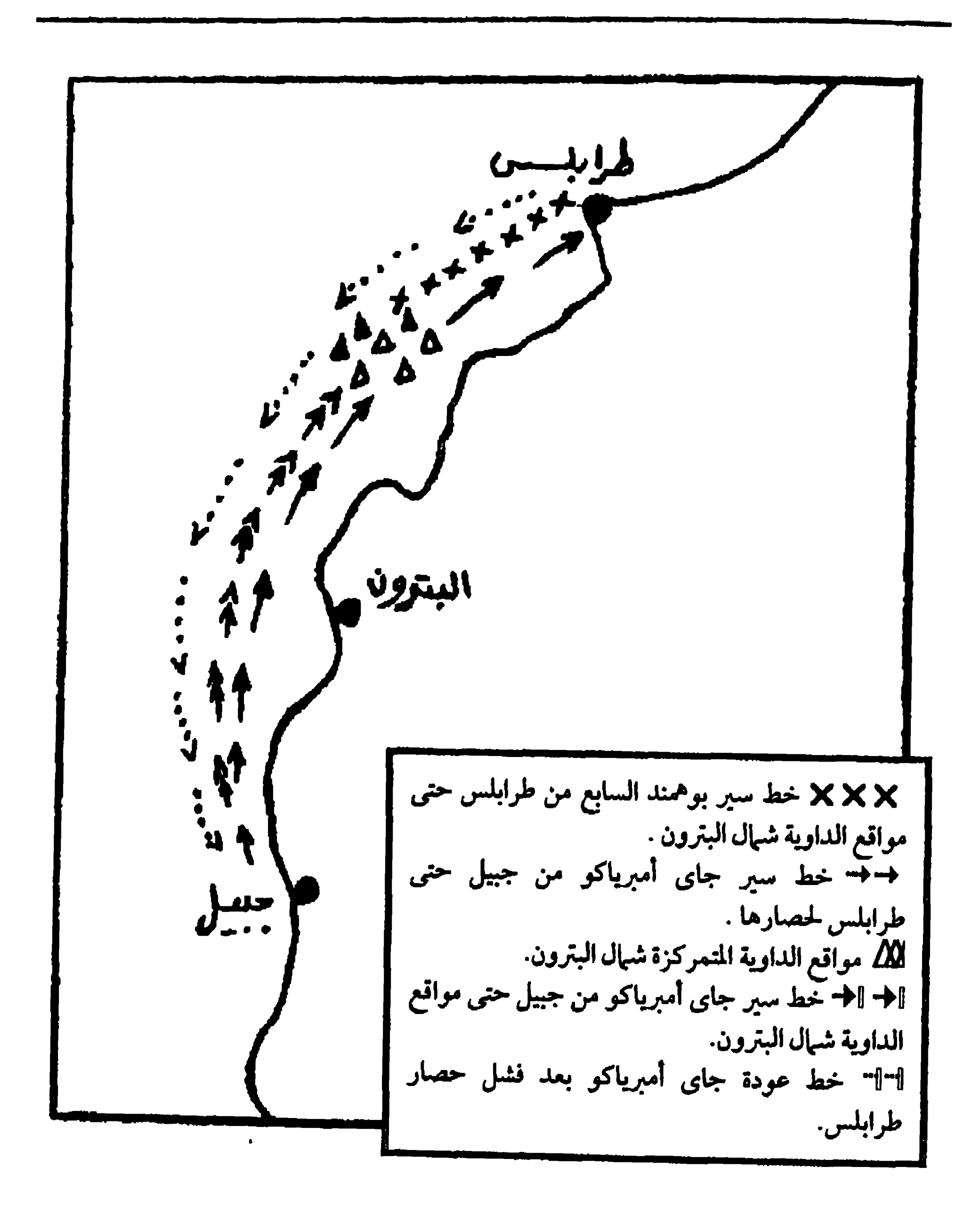


خريطة تعرض لأهم أنهار إمارة طرابلس

نقلا عن: السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام.

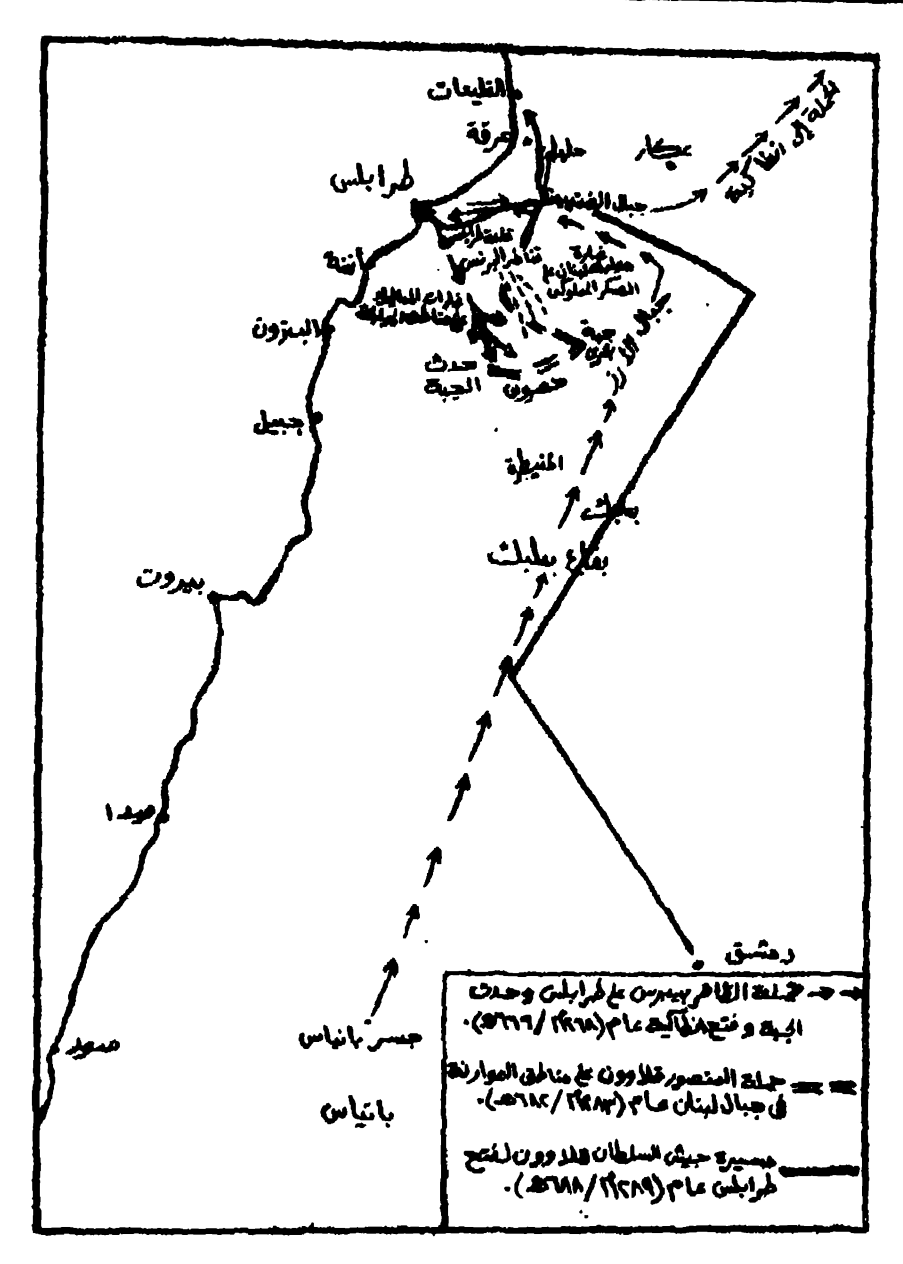


نقلاً عن: فيليب حتّى، لبنان فى التاريخ، ت: أنيس فريحة، ط. بيروت 1959م.



موقعة البترون بين بوهمند السابع كونت طرابلس وبين كلٍ من جاى الثانى أمبرياكو وهيئة الداوية.

نقلاً عن: سامية عامر، الصليبيون فى فلسطين، ص 178.



حملات الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون على طرابلس ومناطق الموارنة

نقلاً عن عمر عبد السلام تدمرى، موقف النصارى فى ساحل دمشق، ص532، 531.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المختصرات

List of Abbreviations

A.: Antiquity.

A.H.R.: American Historical Review.

E.H.R.: English Historical Review.

J.E.H. : The Journal of Economic History

J.R.A.S. : Journal of Royal Asiatic Society.

O.L.P.: Orientalia Lovaniennsia Periodica.

P.P.T.S.: Palestine Pilgrims Text Society.

R.H.C.: Recueil des Historiens des Croisades.

R.O.L.: Revue de L'Orient Latin.

S.: Speculum.

أولا : المصادر العربية المخطوطة

1) ابن بهادر (محمد بن محمد بن بهادر، عاش فى القرن 9هـ/ 15م)، فتوح النصر فى تاريخ مصر، مخطوطة بدار الكتب المصرية، تحت رقم72 تاريخ.

2) السلامى (شهاب الدين أحمد، غير معروف عام وفاته)، مختصر التواريخ، مخطوطة بدار الكتب المصرية، تحت رقم1435تاريخ.

3) الفيومى (أحمد بن محمد بن على، توفى تقريبا عام 770هـ/ 1368م)، نثر الجمان، م2، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم 1746تاريخ.

ثانيا : المصادر العربية

4) أبن أبى الفضائل (مفضل بن أبى الفضائل ت672هـ/ 1273م)، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ أبن العميد، تحقيق بلوشية Blochet، ط.باريس 1932م.

5) ابن أبى دينار (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم، عاش فى أواخر القرن 11هـ/ 17م)، المؤنس فى أخبار افريقية وتونس، ط . بيروت 1993م.

6) ابن الأثير (عز الدين محمد ت630هـ/ 1232م)، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طلمبات، ط.القاهرة 1963م.

7) ــــــــــ ، الكامل فى التاريخ، جـ10، ط . بيروت1967م.

8) ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت 729هـ/ 1328م)، معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق روبن ليوى، طزكمبردج1937م.

9) ابن إياس (أبو البركات محمد ابن أحمد ت 930هـ/ 1524م)، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ1، تحقيق محمد مصطفى، ط. القاهرة1982م.

10) ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله ت 732هـ/ 1331م)، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة 1961م.

11) ـــــــــــــ ،الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط0القاهرة 1972م.

12) ـــــــــــــ، الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق اولرخ هارمان، ط. القاهرة1971م.

13) ابن بسام (محمد بن أحمد المحتسب، عاش قبل سنة 844هـ)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، ط. بغداد1968م.

14) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ت779هـ/ 1377م)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط. القاهرة 1973م.

15) ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت871هـ/ 1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط. القاهرة1963م.

16) ـــــــــــــ، مورد اللطافة في من ولى السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد ،ط . القاهرة1997م.

17) ـــــــــــــ، الدليل الشافي على المنهل الصافي، جـ1، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط . القاهرة 1988م.

18) ـــــــــــــ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، جـ3، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، ط. القاهرة 1985م.

19) ابن تيمية (تقى الدين أحمد ت 728هـ/ 1327م)، الحسبة في الإسلام، ط. القاهرة 1980هـ.

20) ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني ت614هـ/ 1217م)، رحلة ابن جبير، ط.القاهرة 2000م.

21) ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن علي ت597هـ/ 1201م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جـ9، ط. حيدر أباد الدكن1940م.

22) ابن حبيب (الحسن بن عمر ت779هـ/ 1377م)، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، ط . القاهرة1976م.

23) ابن خلدون (عبد الله بن خلدون ت 808هـ/ 1405م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، م5، ط. بيروت1992م.

24) ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد ت809هـ/ 1406م)، النفحة المسكية فى الدولة التركية من كتاب الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمرى، ط. طرابلس1993م.

25) ابن سباط (حمزة بن احمد بن عمر المعروف بابن سباط ت926هـ/ 1520)، تاريخ ابن سباط، جـ1، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، ط. طرابلس 1993م.

26) أبن سعيد المغربى (أبى الحسن على بن موسى بن سعيد المغربى ت673هـ/ 1274م أو685هـ/ 1286م)، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربى، ط . بيروت1970م.

27) ابن شاهين (غرس الدين خليل ت 872هـ/ 1467م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، ط. باريس1894م.

28) ابن الشحنة (أبو الفضل محمد ت 815هـ/ 1412م)، تاريخ حلب، تحقيق كيكو أوتا، ط. طوكيو1990م.

29) ابن شداد (القاضى بهاء الدين ت 632هـ/ 1234م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط.القاهرة1964م.

30) ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله ت684هـ/ 1285م)، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق1962م.

31) ـــــــــــ ، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، ط. بيروت1981م.

32) ابن عبد الظاهر (محى الدين ت692هـ/ 1293م)، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط. القاهرة 1961م.

33) ـــــــــــ ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط. الرياض1976م.

34) ابن العبرى (غريغوريس ت685هـ/ 1256م)، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت 1958م.
35) ابن العديم الحلبى (كمال الدين أبو القاسم ت660هـ/ 1261م)، زبدة الحلب من التاريخ حلب، جـ2، ط0بيروت1966م.
36) ـــــــــــــــ، الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب، تحقيق سليمى محجوب ودرية الخطيب، ط. حلب1986م
37) ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى ت1089هـ/ 1679م)، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، جـ5، ط . القاهرة ب- ت.
38) ابن الفرات (ناصر الدين محمد ت807هـ/ 1404م)، تاريخ الدول والملوك، جـ 8، تحقيق نجلاء عز الدين وقسطنطين زريق، ط.بيروت 1939م.
39) ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى 701-749هـ/ 1301-1349م)، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" ممالك مصر والشام والحجاز واليمن"، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط. القاهرة1984م.
40) ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة ت 555هـ/ 1160م)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط.بيروت1908م.
41) ابن كثير (الحافظ عماد الدين إسماعيل ت 744هـ/ 1373م)، البداية والنهاية فى التاريخ ، جـ13، القاهرة1935م.
42) ابن واصل (جمال الدين محمد ت 691هـ/ 1291م)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ1، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط.القاهرة 1953م.
43) ابن الوردى (أبو حفص زين الدين ت 749هـ/ 1349م)، تاريخ ابن الوردى، جـ1، ط. النجف1969م.
44) أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ت 655هـ/ 1267م)، الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمى احمد، ط.القاهرة1956م.
45) أبو الـفداء (إسماعيل بن على ت 732هـ/ 1332م)، المختصر فى أخبار البشر، ط. القاهرة ب.ت.
46) ـــــــــــ، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس1840م.

47) أبو الفداء ، التبر المسبوك فى تواريخ الملوك، تحقيق محمد زينهم محمد، ط. القاهرة 1995م.
48) أبى بكر الزهرى (أبو عبد الله بن أبى بكر ت. ق 6هـ/ 12م)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، ط القاهرة ب ت.
49) الإدريسى (الشريف الإدريسى ت. ق6هـ/ 12م)، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جـ1، ط. القاهرة 1977م.
50) أسامة بن منقذ (مؤيد الدين أبو المظفر أسامة بن مرشد ت584هـ/ 1188م)، الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، ط.بيروت1981م.
51) البغدادى (صفى الدين عبد المؤمن، ت739هـ/ 1338م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق محمد على البجاوى، ط. القاهرة 1954م.
52) البكرى، كتاب المسالك والممالك، جـ1، تحقيق أدريان فان ليوفن واندرى فيرى، ط. تونس1992م.
53) بيبرس الدوادارى (ركن الدين ت725هـ/ 1325م)، التحفة المملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط . القاهرة1987م.
54) ـــــــــــ ، مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط.القاهرة 1993م.
55) ـــــــــــ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، جـ9، تحقيق زبيدة محمد عطا، ط.القاهرة 2001م.
56) الحريرى (أحمد بن على ت 956هـ/ 1549م)، الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، ط.دمشق1981م.
57) الحميرى (أبو عبد الله محمد ت 710هـ/ 1310م)، كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت1980م.
58) الحنبلى (أحمد بن إبراهيم ت 876هـ/ 1471م)، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوى، ط0القاهرة 1996م.
59) الدمشقى (أبى الفضل جعفر بن على، من علماء القرن السادس الهجرى)، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تحقيق محمود الأرناؤوط، ط. بيروت 1999م.

60) الدويهى، تاريخ الأزمنة، تحقيق بطرس فهد، ط.بيروت1983م.
61) الذهبى (الحافظ الذهبى ت748هـ/ 1348م)، العبر فى خبر من غبر، جـ5، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، ط.القاهرة1974م.
62) ــــــــ، دول الإسلام، جـ2، تحقيق شلتوت ومصطفى إبراهيم، ط.القاهرة 1974م،
63) ــــــــ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، جـ1، تحقيق بشار عواد وآخرون، ط . بيروت 1988م.
64) الرازى (فخر الدين ت 606هـ/ 1200م)، إعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق النشار، ط. بيروت 1982م.
65) سبط بن الجوزى (أبو المظفر يوسف ت654هـ/ 1256م)، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، جـ8، ط . حيدر آباد الدكن 1951م.
66) شافع بن على الكاتب (ناصر الدين شافع بن على بن عباس ت730هـ/ 1330 م)، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط. الرياض1976م
67) ــــــــ، كتاب الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، ط. بيروت1998م.
68) شيخ الربوة الدمشقى (شمس الدين أبى عبد الله محمد ت727هـ/ 1326م)، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، تحقيق مهرن، ط. بطرسبرج1935م.
69) الشيزرى (عبد الرحمن بن عبد الله الشافعى ت589هـ/ 1201م)، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العرينى، ط. القاهرة1990م.
70) الصالحى (شمس الدين محمد بن على بن طولون ت 953هـ/ 1546م)، أعلام الورى فيمن ولى نيابة دمشق الشام الكبرى ، تحقيق عبد العظيم خطاب، ط. طرابلس 1971م.
71) العماد الأصفهانى (محمد بن محمد ت597هـ/ 1201م)، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ط. القاهرة ب- ت.

72) عيسى بن كنان (محمد بن عيسى ت 1153هـ/ 1740م)، حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، ط. بيروت1991م.
73) العينى (بدر الدين محمود العينى ت 855هـ/ 1451م)، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، جـ1، تحقيق محمد محمد أمين، ط.القاهرة 1987م.
74) عبد الطيف البغدادى (عبد اللطيف بن محمد ت 629هـ/ 1231م)، كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ط.القاهرة 1986م.
75) القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود 682هـ/ 1283م)، أثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت1960م.
76) القلقشندى (أبو العباس أحمد 821هـ/ 1418م)، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ط. القاهرة2004م.
77) الكتاب المقدس، ط. القاهرة ب- ت.
78) الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى ت764هـ/ 1363م)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت1973م.
79) ــــــــــــ عيون التواريخ، جـ20، تحقيق فيصل السامر و نبيه عبد المنعم، ط. بغداد1980م.
80) المقدسى البشارى(شمس الدين ت375هـ/ 985م)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق دى جويه ، ط. ليدن1906م.
81) المقريزى (تقى الدين أحمد ت845هـ/ 1441م)،السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط. بيروت 1997م.
82) ــــــــــــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط.القاهرة ب- ت.
83) النويرى (شهاب الدين النورى ت 733هـ/ 1332م)، نهاية الأرب، جـ8، ط.القاهرة1931م؛ جـ27، تحقيق سعيد عاشور، ط.القاهرة 1985م؛ جـ 28، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمى محمد، ط. القاهرة1992م؛ جـ30، تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة، ط. القاهرة1990م؛ جـ31، تحقيق البار العرينى، ط.القاهرة1992م.

84) النويرى السكندرى (محمد بن قاسم القرن 8هـ/ 14م)، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، جـ1، حيدر آباد الدكن1968م.
85) الوهرانى (ركن الدين محمد ت 575هـ/ 1179م)، منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، ط.القاهرة 1998م.
86) اليافعى (أبو محمد عبد الله بن على ت 768هـ/ 1366م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، جـ4، ط. بيروت1997م.
87) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، نشر زترشتين Zettersten ، ط. ليدن 1919م.
88) ناصر خسرو ، سفر نامة، ترجمة يحى الخشاب، ط . القاهرة 1945م.
89) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى ت 676 هـ/ 1228م)، معجم البلدان، ط. بيروت1979م.
90) ـــــــــــــ ، المشترك وضعًا والمفترق صعقًا، تحقيق وستنفيلد، ط. بيروت 1986م.
91) اليونينى البعلبكى (قطب الدين موسى ت 726هـ/ 1326م)، ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ط. حيدر آباد الدكن1954م.

ثالثا: المصادر المعربة:

92) الجوينى (عطا ملك الجوينى ت 668هـ/ 1270م)، تاريخ جهانكشاى، جـ1، ت: محمد التونجى، ط.القاهرة1985م.
93) الهمذانى، جامع التواريخ ، م2، جـ1، ت: محمد صادق نشأت وآخرون، ط. القاهرة1960م.
94) بورشارد، وصف الأراضى المقدسة، ت: سعيد البيشاوى، ط.عمان 1995.
95) خواندمير، تاريخ روضة الصفا، ت: احمد عبد القادر الشاذلى، ط.القاهرة 1988م.
96) ريموند اجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ت: حسين محمد عطية، ط. القاهرة 1990م.

97) سمباط ، التاريخ المعزو إلى القائد سمباط المعروف بتاريخ سمباط، ضمن الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، جـ36، ت: سهيل زكار، ط. دمشق1995م.

98) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين فى استرجاع الأراضى المقدسة والحفاظ عليها، ت: الأب سليم رزق الله، ط. بيروت 1991م.

99) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت: حسن حبشى، ط. القاهرة 1958م.

100)مجهول، تتمة تاريخ وليم الصورى والمنسوب خطأ إلى روثلان (1229م– 1261 م)، ترجمة أسامة زكى زيد، ط.الإسكندرية 1989م.

رابعا: المصادر الأجنبية

101) Albert d'Alix, Histoiria Hierosolymitana, in R.H.C, vol.IV, Paris 1879.

102) Anonymous Pilgrims I –VIII, Trans. Aubrey Stewart, in P.P.T.S, vol. VI, London 1894.

103) Anonymous Syriac Chronicle, Trans. by Tritton, J.R.A.S., 1933.

104) Assises de J'erusalem, t.II, in R.H.C., Paris 1843.

105) Benjamin of Tudela, The Travels of Benjamin of Tudela, in Wright, Early Travels in Balestine, London 1848.

106) Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol.XII, London 1896.

107) Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy land, Trans. By. Wilson, in. P.P.T.S, vol .VI, London 1895.

108) Edward I, king of England, "Letter to Joseph de Cancy" (May.1283), in P.P.T.S, vol.V, London 1896.

109) Eracles, L'Estoire d'Eracles, Cmpereur et la conqueste de la terre d'outremer, in R.H.C, vol.I, Paris 1859.

110) Ernoul, Ernoul's Account of Palestine, Trans .C.R. Condor, P.P.T.S, vol. VI-2, London 1896.

111) Fetellus, Description of the holy land, Trans. by J. R. Macpherson, in P.P.T.S, vol.V, London 1896.

112) Fulcher of Chartres, A History of Expedition to Jerusalem, Trans by Rita Rian, Tennesse, U.S.A. 1969.
113) Geoffrey de Vinsauf, Richard of Holy Trinity (Itinerary of Richard I and other to the Holy land), Cambridge 2001.
114) Geoffrey of Donjon, Letter of Geoffrey of Donjon master of the Knights Hospitallers to King Sancho VII of Navarra, in Mayer, "Two unpublished letter about the earthquake of 1202 ", in Medieval and middle eastern studies, in Honor of Aziz surial Atia, ed by Sami Hanna, Leiden 1972.
115) Guide Book to Palestine, Trans. by J.H. Bernard, in. P.P.T.S, vol.V, London 1894.
116) Jacques de Vitry, History of Jerusalem, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S, vol.XI, London 1896.
117) ______________, Letters de Jacques de Vitry, ed. R.B.C. Huygens, Leiden 1960.
118) Jean de Joinville, The life of Saint Louis, Trans by Shaw, London 1976.
119) Joannes Phocas, Abrief Description of the holy land, Trans. By Aubrey Stewart, in P.P.T.S., vol.V, London 1896.
120) John de Villiers, A letter of John de Villiers Master of the Hospital describing the fall of Acre, in King, The Knights Hospitallers in the Holy land, London 1931.
121) John of Wurzburg, Description of the Holy land, Trans .by Aubrey Stewart, P.P.T.S, vol.V, London 1896.
122) Jone Polaner, Description of the Holy land, Trans. By Aubrey Stewart, in P.P.T.S., vol.XI, London 1894.
123) Joseph de Cancy, A Crusader's letter from the Holy land (May 1282), in .P.P.T.S, vol.V, London 1896.
124) Les Gestes des Chiprois, Ed, R.H.C.Doc Arm, t.II, Paris 1906.
125) Ludolph Von Suchems, Description of the Holy land, Trans. by Aubrey Stewart, in .P.P.T.S, vol.VII, London 1895.
126) Marco Polo, The travels, Trans by. Benedetto (L.E), London 1903.
127) Michael le Syrien, Chronique, ed. Par Chabot, Paris 1903.
128) Odo of deul, De Profectione Ludovici VII in Orienten, ed V.G. Berry, New York 1948.

129) Oliver of Paderborn, The Capture of Damietta, Trans by John. J. Gavigan, Philadelphia 1948.
130) Philip de Navarre, Livre de forme deplaiat, in R.H.C, vol.I, Paris 1859.
131) Philip de Plessis, Letter of Philip de Plessis master of the Knights Templars to the abbot of Citeaux (Arnold I), in Mayer, "Two unpublished letter about the earthquake of 1202", in Medieval and Middle Eastern studies, in Honor of Aziz surial Atia, ed by Sami Hanna, Leiden 1972.
132) Recueil des Historiens des Gaules et de la France, Tome Seizieme, Par Michel Jean Joseph Brial, Paris 1888.
133) Robban Sawma, The history of life and travels of Robban Sawma, Trans by E.A. Wallis Budge, Cambridge 2001.
134) Robert Monachi, Historia Iherusalemitane, R.H.C, t.III, Paris 1866.
135) Rohricht, ed., Regesta Regni Hirosolymitani, Innsbruck, 1893.
136) Saewulf, Pilgrimage of Saewulf, Trans by Bishop of Clifton, P.P.T.S, vol.IV, London 1896.
137) Sempad, La Connetable, Chroniqe, in R.H.C, vol.1, Paris 1859.
138) Theoderich, Description of the Holy land (1127 A.D), Trans by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol.V, London 1896.
139) William of Tyre, A History of deeds done beyond the sea, Trans. by Babcock and Krey, vol.2, New York 1943.

خامسا: المراجع العربية

140) إبراهيم خميس (د.)، "الأوبئة والأمراض التى تفشت بين الصليبيين فى الشرق الادنى الإسلامى وأثرها (1098– 1291م/ 491– 690هـ)"، ضمن كتاب بحوث فى تاريخ العصور الوسطى مهداة للأستاذ محمود سعيد عمران، ط. الإسكندرية 2004 م.
141) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ط . دمشق1960م.
142) أحمد حطيط (د.)، تاريخ لبنان الوسيط دراسة فى مرحلة الصراع المملوكي- الصليبى (658–690هـ/ 1260–1291م)، ط . بيروت1986م.
143) أحمد رمضان (د.)، الرحلة والرحالة المسلمون، ط. جدة ب.ت .

144) أحمد رمضان (د.)، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ط .القاهرة 1977م.

145) أحمد عودات وآخرون (د.)، تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجرى حتى القرن الثالث عشر الهجرى، ط. القاهرة، ب – ت.

146) أحمد يوسف الحسن(د.)، " التقانة فى فلسطين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد" ، ضمن كتاب الصراع الإسلامي- الفرنجى على فلسطين فى القرون الوسطى، ط. بيروت1994م.

147) أسامة زكي زيد(د.)،الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى)، ط.إسكندرية 1980م.

148) إسحق أرملة السريانى، الحروب الصليبية فى ألآثار السريانية، ط. بيروت 1929م.

149) إسحق عبيد (د.)، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، ط.القاهرة 1972م.

150) ــــــــــ الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس، ط. بنى غازى، ب– ت.

151) السيد البار العرينى(د.)، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ1، ط. القاهرة 1963م.

152) السيد عبد العزيز سالم(د.)،التاريخ والمؤرخون العرب، ط.بيروت 1981م.

153) ــــــــــ ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ط. الإسكندرية، ب.ت.

154) بطرس ضو(الأب)، تاريخ الموارنة، جـ3، ط. بيروت1970م.

155) تيسير بن موسى، غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، ط. بنى غازى1983م.

156) جمال الدين سرور (د.)، دولة بنى قلاوون فى مصر، ط. القاهرة 1947م.

157) جمعة مصطفى الجندى(د.)،" نظم الحكم والإدارة فى مملكة بيت المقدس"،

ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، كتاب تكريمى للأستاذ الدكتور اسحق عبيد، تحرير محمد مؤنس عوض، ط. القاهرة 2003م.

158) جوزيف نسيم يوسف(د.)، لويس التاسع فى الشرق الأوسط (1250-1254م)، ط.الإسكندرية 1959م.

159) ــــــــــــ، العدوان الصليبى على مصر وهزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور، ط. الإسكندرية 1967م.

160) ــــــــــــ العدوان الصليبى على بلاد الشام، ط. الأسكندرية 1984م .

161) جوزيف نسيم يوسف(د.)، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ط. القاهرة ب- ت.

162) حاتم الطحاوى(د.)، الاقتصاد الصليبى فى بلاد الشام، ط.القاهرة 1999م.

163) حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، جـ3، ط. القاهرة 1973م.

164) حسن سيد أحمد أبو العنين، دراسات فى جغرافية لبنان، ط.بيروت1968م.

165) حسن عبد الوهاب حسين(د.)، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة حوالى1190-1291م/ 586-690هـ، ط. الأسكندرية 1989م.

166) ــــــــــــ، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، ط.الإسكندرية 1990م.

167) ــــــــــــ " الهدن بين المنصور قلاوون والفرنج فى بلاد الشام فى ضوء رواية شافع بن على الكاتب" ، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامي- الفرنجى ، جـ1، كلية الآداب جامعة اليرموك، ط. أربد 2000م.

168) حسين عطية(د.)، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (1711-1268م/ 567-666هـ)، ط.الأسكندرية 1989م.

169) ــــــــــــ، " سفارات الأرمن إلى المغول وأثرها على العلاقات الأوربية المغولية"، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية، ط.أسكندرية 2000م،

170) حسين عطية(د.)، المسلمون فى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامي- الفرنجى، جـ1، كلية الآداب جامعة اليرموك، ط.اربد2000م.
171) خير المرر(د.)،" الفرنجة بين المغول والمماليك مواقف وعلاقات عشية معركة جالوت"، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامي- الفرنجى، جـ2، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ط.أربد2000م.
172) رأفت النبراوى(د.)، النقود الصليبية فى مصر والشام، ط.القاهرة 2001م.
173) زكى النقاش (د.)، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت1958م.
174) زكى محمد حسن(د.)، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ط. القاهرة 1945م.
175) زينب عبد المجيد(د.)، الإنجليز والحروب الصليبية فى الـفترة من (1189-1291م)، ط.القاهرة 1996م.
176) سامر مخيمر وخالد حجازى، أزمة المياه فى المنطقة العربية الحقائق والبدائل، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت1996م.
177) سامية عامر(د.)، الصليبيون فى شمال أفريقيا حملة لويس التاسع على تونس 1270م/ 668-669هـ، ط. القاهرة2002م.
178) ـــــــــــــ، الصليبيون فى فلسطين(جبيل- لبنان)، ط. القاهرة 2002م.
179) سعدون عباس نصر الدين، رحيل الصليبيين عن الشرق فى العصور الوسطى، ط . بيروت 1995م.
180) سعيد البيشاوى (د.)، الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1291م)، ط. الإسكندرية 1990م.
181) سعيد عبد الفتاح عاشور(د.)، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ط. بيروت 1977م.
182) ـــــــــــ، أوربا العصور الوسطى، ط. القاهرة 1981م.

183) سعيد عبد الفتاح عاشور(د.)، " الحرير وتجارته فى العصور الوسطي"، ضمن أبحاث الندوة العامية بالقاهرة (العلاقات الثقافية بين مصر وبلاد طرق الحرير)، كلية الآثار – جامعة القاهرة 1990م.

184) ــــــــــــ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى، ط. القاهرة1997م.

185) سعيد عبد الفتاح عاشور(د.)، الظاهر بيبرس، ط.القاهرة 2001م.

186) ــــــــــــ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت، ب.ت.

187) سليمان عبد الله الخرابشة(د.)، نيابة طرابلس فى العصر المملوكى، ط. عمان 1993م.

188) سميرة بن عمو، ال. موت أو إيديولوجيا الإرهاب الفدائى، ط.اللاذقية 1996م.

189) صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ط. بيروت 1978م.

190) طنوس يوسف الشدياق، أخبار الأعيان فى جبل لبنان، ط. بيروت 1954م.

191) عادل زيتون(د.)، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. دمشق 1980م.

192) عادل هلال (د.)، العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامى، ط. القاهرة1997م.

193) عبد العزيز بن عبد الله الخويطر(د.)، الملك الظاهر بيبرس، ط.الرياض 1989م.

194) عبد اللطيف عبد الهادى السيد (د.)، " دراسة نقدية لمنهج الكتابة التاريخية عند جاك دى فيترى" ، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، كتاب تكريمى للأستاذ الدكتور أسحق عبيد، تحرير محمد مؤنس عوض، سنة2003م.

195) عزتلو إبراهيم بك الأسود ، ذخائر لبنان ، ط. بعبدا 1896م.

196) عزمى عيد أبو عيان، مسيرة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى عهد المماليك، ط.عمان 1995م.
197) عفاف سيد صبره (د.)، العلاقات بين الشرق والغرب (علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من1100– 1400م)، القاهرة1983م.
198) علاء محمود خليل(د.)، " تحالف ملوك أرمينيا الصغرى وأنطاكية الصليبية مع المغول لاحتلال بلاد الشام وتصدى المماليك لهم"، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى الفرنجى، جـ2، كلية الآداب جامعة اليرموك، ط. أربيد2000م.
199) على السيد على (د.)، " الإسهام العسكرى المصرى فى موقعة عين جالوت"، ضمن كتاب أثر الإسلام فى مصر وأثر مصر فى الحضارة العربية الإسلامية، ط . القاهرة 1999م.
200) ـــــــــــ، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ط.القاهرة 1996م.
201) على بهجت، قاموس الأمكنة والبقاع التى يرد ذكرها فى كتب الفتوح، ط. القاهرة1906م.
202) على محمد على عودة الغامدى(د.)، "حصن بغراس ودوره الحربى فى عصر الحروب الصليبية"، ضمن ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية، حصاد (3)، ط.القاهرة1996م.
203) عمر عبد السلام تدمري(د.)، الحياة الثقافية فى طرابلس الشام خلال العصور الوسطى، ط. بيروت1972م.
204) ـــــــــــ، تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور، جـ1، ط. طرابلس1984م.
205) ـــــــــــ، " موقف النصارى فى ساحل دمشق من الصراع الإسلامي- الفرنجى" ، ضمن كتاب بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامي- الفرنجى (491 – 690هـ)، جـ2، ط . أربد2000م.

206) عمر كمال توفيق(د.)، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط.الإسكندرية 1958م.
207) فؤاد عبد المعطى الصياد (د.)، المغول فى التاريخ ، ط. القاهرة 1975م.
208) فايد حماد عاشور (د.)، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، ط. القاهرة 1976م.
209) فايد حماد عاشور (د.)، العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ط . الأسكندرية 1980م
210) فايز نجيب اسكندر(د.)، المقاومة الإسلامية فى مواجهة العدوان الصليبى على تونس سنة 668- 669هـ / 1270م ، ط . القاهرة 1987م.
211) كاظم ياسين العاملى، تاريخ علاقات الموارنة بجيرانهم من الفتح الإسلامى إلى الحرب الأهلية، ط . بيروت 1994م.
212) محمد جمال الدين سرور (د.)، دولة الظاهر بيبرس فى مصر، ط.القاهرة 1960م.
213) محمد حمزة الحداد (د.)، السلطان المنصور قلاوون، ط. القاهرة 1993م.
214) محمد عبد الغنى الأشقر(د.)، عصر السلطان قلاوون(موقف مصر من الأشقر سلطان الشام وزحف التتار على بلاد الشام 678-686هـ/ 1279-1287م)، ط. القاهرة 2006م.
215) محمد مؤنس عوض (د.)، الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187 ميلادية)، ط. القاهرة1992م.
216) ــــــــــ، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة1995م.
217) ــــــــــ، الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط.القاهرة 1996م.
218) ــــــــــ، فى الصراع الإسلامي- الصليبى السياسة الخارجية للدولة النورية 541-569هـ/ 1146-1174م ، ط. القاهرة 1998م.
219) ــــــــــ، العلاقات بين الشرق والغرب، ط.القاهرة 2000م.

220) محمد مؤنس عوض (د.)، الحروب الصليبية(قضايا السياسة،المياه، والعقيدة)، ط.القاهرة2001م.

221) ـــــــــ " أضواء على تاريخ موارنة لبنان" ، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، ط.القاهرة 2003م.

222) محمد مؤنس عوض (د.)، عالم الحروب الصليبية (بحوث ودراسات)، ط. القاهرة 2005م.

223) ـــــــــ"الاضطهادات الصليبية لليهود فى حوض الراين بألمانيا عام 1096م/ 490هـ"، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية(بحوث ودراسات)، ط.القاهرة 2005م.

224) ـــــــــ ، " الأسماك فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، عالم الحروب الصليبية (بحوث ودراسات)، ط . القاهرة 2005م.

225) محمد ماهر حماد(د.)، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الإسلامى، ط.بيروت1986م.

226) محمد مصطفى زيادة(د.)، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ط.القاهرة1961م.

227) محمود الحويرى (د.)، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنيين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، ط . القاهرة 1979م.

228) ـــــــــ، العادل الأيوبى صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة1980م.

229) محمود سعيد عمران (د.)، الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دى برين على مصر 1218-1221م/ 615-618هـ، ط.الأسكندرية 1978م

230) ـــــــــ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل كومنيين، ط. الأسكندرية1985م.

231) مصطفى الكنانى(د.)، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس668-669هـ/ 1270م، ط .الأسكندرية 1985م.

232) مصطفى طلاس ومحمد وليد الجلاد، قلعة الحصن" حصن الأكراد"، ط . دمشق1990م.

233) موضى عبد الله السرحان(د.)، بيروت تحت الحكم الصليبى وعلاقتها بالمسلمين (504–690هـ/ 1110–1291م)، ط0الرياض2001م.

234) نجيب العقيقى (د.)، المستشرقون، جـ1، ط. القاهرة1964م.

235) نعيم زكى فهمى (د.)، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ط. القاهرة1973م.

236) هنرى لامنس اليسوعى، تسريح الأبصار فى ما يحتويه لبنان من الآثار، ط . بيروت 1996م.

237) يسرى عبد الغنى عبد الله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثانى عشر الهجرى، ط .بيروت 1991م.

238) يوسف دريان، نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان، ط0القاهرة 1916م.

سادسا: المراجع الأوربية المترجمة

239) آ.أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ت: عبد الهادى عبلة، ط. دمشق 1985م.

240) أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط، ت:أحمد عيسى، ط.القاهرة 1960م.

241) إرنست باركر، الحروب الصليبية، ت :السيد الباز العرينى، ط.القاهرة 1960م.

242) آلان فورى، النظم الرهبانية العسكرية، ضمن كتاب تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ت: قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة 2007م.

243) أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ت: عفيف دمشقية، ط. بيروت 1993م.

244) برنارد لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديد، الحشيشية، ت: سهيل زكار، ط. بيروت 1971م.
245) بيرتولد شبولير، المغول فى التاريخ، ت:يوسف شلب الشام، ط.دمشق 1989م.
246) جان ريتشارد، تكوين مملكة القدس اللاتينية و بنيتها، ضمن كتاب الصراع الإسلامى الفر نجى على فلسطين فى القرون الوسطى، ط. بيروت1994م.
247) جوناثان رايلى سميث، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس وقبرص " 1050 – 1310م " ، ت : صبحى الجابى، ط . دمشق 1984م.
248) جوناثان فيليبس،" الشرق اللاتينى1098–1291م"، ضمن كتاب تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ت: قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة 2007م.
249) ر. سى. سميل، فن الحرب عند الصليبين فى القرن الثانى عشر(1097–1193 م)، ت. محمد وليد الجلاد ، ط. دمشق1982م.
250) ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية،ت:عبد العزيز جاويد، ط.القاهرة 1997م.
251) عزيز سوريال عطية (د.)، العلاقات بين الشرق والغرب ، ت : فليب صابر، ط.القاهرة 1972م.
252) على محمود فهمى، التنظيم البحرى الإسلامى فى شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادى، ت: قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة 1997م.
253) فيليب حتى(د.)، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ2، ت: جورج حداد وعبد الكريم رافق، ط . بيروت 1958م.
254) ــــــــــــــ، لبنان فى التاريخ، ت: أنيس فريحه، ط. بيروت 1959م.
255) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ت. أحمد الشيخ، ط. القاهرة 1995م.

256) كليفورد بوزورث، الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى دراسة فى التاريخ والأنساب، ت: حسين على اللبودى ، ط. القاهرة 1995م.
257) موريس لومبار، الإسلام فى مجده الأول، ت: إسماعيل العربى، ط. الدار البيضاء 1990م.
258) مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت: محمد وليد الجلاد، ط. دمشق 1984م.
259) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق ، ت: إلياس شاهين ، ط. موسكو 1986م.
260) ميشيل بالار، الجمهوريات البحرية الايطالية والتجارية فى الشام– فلسطين من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر الميلادى، ضمن كتاب الصراع الإسلامي– الفرنجى على فلسطين فى القرون الوسطى، ط0بيروت 1994م.
261) ــــــــــــ، الحملات الصليبية والشرق اللاتينى من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، ت. بشير السباعى، ط.القاهرة2003م.
262) هانس ابراهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ت: عماد الدين غانم، ط . طرابلس 1990م.
263) هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ت.احمد محمد رضا، جـ1، ط.القاهرة 1985م.
264) هنرى بيرين، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ت.عطية القوصى، ط . القاهرة 1996م.
265) وليم موير، تاريخ دولة المماليك فى مصر، ت: محمود عابدين سليم حسن، ط . القاهرة 1995م.
266) يوشع براور، عالم الصليبيين، ت. قاسم عبده قاسم وخليفه، ط.القاهرة 1999م.

سابعا: المراجع الأجنبية

267) Baldwin (M.W.), Raymond III of Tripolis and the fall of Jerusalem (1140-1187), Amsterdam 1969.

268) Benevinisti (M.), The Crusaders in the Holy land, Jerusalem 1970.

269) Berry (V.G.), "The Second Crusade ", in Setton, History of the Crusades, vol. I, Pennsylvania 1958.

270) Bouchier (M.A), A Short history of Antioch, Oxford 1921.

271) Brundage (J.), "Prostitution, Miscegenation and Sexual purity in The First Crusade", in Crusade and settlement, ed. By Peter Edbury, Cardiff 1985,

ترجمة حسن عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية 1997م.

272) Byren (E.), Genoese shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries, Cambridge 1930.

273) Cahen (C.), La Syrie du Nord a L'Epoque des Croisades, Paris 1940.

274) Caritidge (C.), The Crusades failed Holy wars, San Diego 2002.

275) Chabot (J.B.), (ed),"Notes sur les relations du roi argoun avec loccident", R.O.L, to me II, Paris 1892.

276) Chambers (J.), The Devils Horsemen: The Mongol Invasion of Europe, London 1979.

277) Citarello (A.O.),"Patterns in Medieval Trade the Commerce of Amalfi before the Crusades", J.E.H., vol.28, No.4 (Dec., 1968).

278) _______, "The Relations of Amalfi with the Arab world before the crusades", S, vol.42, No.2 (Apr., 1967).

279) Conder (G.R.), the Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897.

280) Constable (G.), A Note on the Route of the Anglo-Flemish Crusaders of 1147, S, vol.28, no.3 (Jul., 1953).

281) Constable (O.R), Fundug, Fondaco and khan in the wake of Christian commerce and Crusade, in laiou and Mottahedeh (eds.),

The Crusades from the prospective of Byzantium and Muslim word, Dumbarton Oaks 2001.

282) Dotson (J.E.), Fleet operations in the first Genoese- Venetian war 1264 - 1266, in Viator: Medieval and Renaissance studies, V.30, 1999. www. deremilitari.org.

283) Edbury (P.E), The kingdom of Cyprus and the crusades 1191 - 1374, Cambridge 1991.

284) Gabrieli (F.), Arab Historians of the Crusades, Trans by Costello, London 1969.

285) Guzman (G.), Simon of Saint Quentin and the Dominican Mission to the Mongol Baiju: A Reappraisal, S, vol. 46, No.2 (Apr 1971,).

286) Gibb (H.), The Ayubids, in Setton, A History of the Crusades, vol.II, Pennsylvania 1969.

287) Goitein (S.), From the Mediterranean to India: Documents on the Trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries, S, vol. 29, No.2, Part 1(Apr., 1954).

288) Grousset (R.), Histoire des Croisades et du Royame franc de Jerusalem, vol.3, Paris 1936.

289) Hamilton (B.), The Latin Church in the Crusader States, London 1980.

290) Hardwicke (M.N), "The Crusader States (1192-1143)" in Setton, A History of the Crusades, vol.II, Pennsylvania 1969.

291) Hilal (A.), Al Mansur Qalaun's policy towards Latin states in Syria, Master of Arts. A.U.C, 1993.

292) Hill (R.), Raymond of Saint Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Friendship, S, vol.26 No.2 (Apr., 1951).

293) Hitti (F.), "The Impact of the Crusades on eastern Christianity", in Medieval and near eastern studies in honor of Aziz surial Atiya, ed. Sami A. Hanna, Leiden 1972.

294) Holmes (T.U.), "Life among the Europeans in Palestine and Syria in the twelfth and thirteenth centuries", in Setton, A History of the Crusades, vol.IV, Wisconsin 1977.

295) Holt (P.N.), "Baybars's treaty with lady of Beirut in 667 / 1269" in Crusade and Settlements, ed by Peter W. Edbury, Cardiff 1985.

296) ______, Qalaun's Treaty with Acre in 1283, in E.H.R, vol. 91, No. 361(Oct., 1976).

297) Housely (N.), The later Crusades 1274- 1580, Oxford 1992.

298) Howerth (H.), History of the Mongols, vol.2, London 1975.

299) Irwin (R.), "Conquest of County of Tripoli ", in Crusade and Settlement, ed Peter Edbury, Cardiff 1982.

300) Jackson , The Crisis in the Holy Land in 1260, in H.E.R, vol.95, no.376 (Jul, 1980).

301) Jay (W.), Knights of the Crusades, New York 1962.

302) Kedar (B.), The Battle of Hattin: Revised", in The Horns of Hattin, ed. by B.Z. Mayer, The Crusades, Trans by. J.Gillingham, Oxford 1972.

303) Khowaiter (A.), Baibars the First, London 1978.

304) King (E.J.), The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931.

305) King (C.), "The Taking of Krak des Chevaliers in 1271", A., vol.XXIII, March 1949.

306) La Monte (J.), The Feudal Monarchy in the Latin kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932.

307) La Monte & Henery, The World of the middle Ages a reorientation of Medieval History, New York 1949.

308) Lane-Poole (S.), History of Egypt in Middle ages, London 1919.

309) Le Roulx (J .D.),Les Archives, La Bibliotheque et le Tresor de l'Ordre de Saint – Jean de Jerusalem a Malthe, Paris 1883.

310) Lewis (P.), The Assassins, A radical sect in Islam, London.

311) Little (D.)," The Fall of Akka in 690/1291: The Muslim version", in M.Sharon, ed. Studies in Islamic history and civilization in honor of Professor David Ayalon, Jerusalem, Leiden 1986.

312) McLean, An eastern embassy to Europe in the year 1287-8, E.H.R, vol. 14, No. 54 (APR, 1899).

313) Melville and Lyons, Saladin's Hattin letter", in The Horns of Hattin, ed. by B.Z. Kedar, Jerusalem 1992.

314) Morre.(W.G.), The Penguin Encyclopedia of places, London 1978.

315) Munro (P.C.), The Speech of Pope Urban II. At Clermont 1095, in AHR, vol.11, No.2 (Jan., 1906).

316) Nowell. (C.E.), The old man of mountain, S, vol. 22, no. 4 (Oct, 1947).

317) Ohler (N.), The Medieval traveler, Trans by Caroline Hillier, Freiburg 1986.

318) Powell (J.), The Role of Women in the Fifth Crusade, in the Horns of Hatin, Jerusalem 1992.

319) Prawer (J.), The Crusader's Kingdom; European Colonialism in middle Ages, New York 1972.

320) _____, The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973.

321) _____, Crusader Institutions, Oxford 1980.

322) _____, "The Burgesses ", in Setton, A History of the Crusades, vol.V. New York 1983.

323) Privat, Les Saint-Gilles et le Comte' de Tripoli, in Croisades et Etats Latins d'Orient, London 1992.

324) Prestwich (M.), Edward I, London 1997.

325) Rey (E.), Les Colonies Franques de Syrie aux XII et XIII siecles, Paris 1883.

326) Richard (J.), "An Account of the Battle of Hattin reefing to the Frankish Mercenaries in Oriental Moslem State", S, T.XXXII.

327) _________, "The Political and Ecclesiastical Organizations of the Crusades states", in Setton, History of the Crusades, vol. V, New York 1983.

328) _________, La Comte de Tripolis Sous la dynastie Toulousaine, Paris 1945.

329) _________," Feudal Regime", in Setton, History of the Crusades, vol.V, New York 1983.

330) Riley - Smith, Notes and Documents " The Templars and the castle of Tortosa in Syria: an unknown document concerning the

acquisition of the fortress ", E.H.R .vol.V.LXXXIV, No.331, (April. 1969).

331) __________, The Feudal Nobility and the kingdom of Jerusalem (1174 – 1277), London 1973.

332) Rowe (J.G.), Paschal II and the Relation between the Spiritual and Temporal Powers in the Kingdom of Jerusalem, S, vol.32, No. 3 (Jul, 1957).

333) Runciman (S.), A History of the Crusades, London 1978.

334) ____________, The Crusader States 1243 – 1291, in Setton, A History of the Crusades, vol II, Pennsylvania 1969.

335) Salibi (K.), "The Maronites of Lebanon under the Frankish and Mamluk rule", R.E.A, vol.IV, Ann'ee 1957.

336) Schein (S.), "Babylon and Jerusalem: The Fall of Acre", in Murray, From Clermont to Jerusalem (The crusades and Crusader societies 1095- 1500), Turnout 1998.

337) Schlumberger (G.), Numismatique De L'Orient, Paris 1878.

338) Sidelko, Muslim Taxation under Crusader rule, in Gervers. (M.).& Powell (P.), Tolerance and Intolerance, New York 2001.

339) Sternes (I.), Crime and Punishment among the Teutonic Knights, S, vol.57, No.1 (Jan., 1982).

340) _________, The Teutonic Knights in The Crusader states, in Setton, A History of the Crusades, vol.V, New York 1983.

341) Stevenson (W.B.), The Crusaders in the East, Beirut 1968.

342) Strayer (J.)," The Crusades of Louis" in, Setton, A History of the Crusades, vol.II, Madison 1969.

343) Thompson (J.W), Social and Economic of the Middle age (300-1300), vol.I, London 1959.

344) Thorau (P.), "The Battle of Ayn Jalut: a Re-Examination", in Crusade and Settlement, ed.by Peter W. Edbury, Cyrdiff 1985.

345) Vermeulen (U.), " Le Traite d'Armistice entre le Sultan Baybars ET les Hospitaliers de Hisn Al-Akrad et Al-Marqab (4 Ramadan 665 A.H. – 29 May 1297 ", in O.L.P., T.IXX, Ann'ee 1988.

346) Ziadeh (N.), Urban life in Syria under the Early Mamlukes, Beirut 1953.

ثامنا : الدوريات العربية

347) إبراهيم إبراهيم عنانى، البحرية الإسلامية فى مواجهة الصليبيين فى مصر والشام، ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية، حصاد(3)، ط.القاهرة 1995م.

348) أحمد توفيق الطيبى (د.)،" وقعتا حطين والأراك نصران متوازيان على الغزاة الصليبيين فى المشرق والمغرب"، مجلة البحوث التاريخية، السنة (10)، يناير 1988م.

349) جوزيف نسيم يوسف (د.)، "معركة حطين، خلفياتها ودلالاتها"، عالم الفكر، م(20)العدد الأول ابريل، مايو- يونيو1989م.

350) حاتم الطحاوى (د.)،"القانون البحرى لمملكة بيت المقدس الصليبية، قراءة فى مجموعة قوانين بيت المقدس"، مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة، مجلد (58) العدد 4، اكتوبر1998م.

351) رقيم من عهد الصليبيين، المشرق العدد (4) عام 1928م.

352) سعيد عبد الفتاح عاشور(د.)،"حطين وقائع وعبر" مجلة العربى، العدد (344)، يوليو 1987م.

353) ــــــــــــــــــ، ملامح على المجتمع الصليبى فى بلاد الشام، مجلة المستقبل العربى، عدد(8) عام1987م،

354) عبد الرحمن زكى(د.)، العمارة العسكرية فى العصور الوسطى، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، م(7) عام 1958م.

355) على أبو عساف (د.)، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة(12)، العددان(39)، (40)، كانون الأول 1991م.

356) على السيد على (د.)، "أضواء جديدة على العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية(بلاد المناصفات)"، الدارة، العدد(1)، السنة(18) شوال- ذو القعدة- ذو الحجة 1414هـ.

357) على السيد على (د.)، طريق القوافل القاهرة – دمشق فى عصر الحرب الصليبية، ندوات طرق التجارة العالمية عبر العالم العربى على مر عصور التاريخ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، حصاد (8)، ط.القاهرة 2000م.
358) ليلى عبد الجواد (د.)، علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية (659 – 784هـ/ 1261- 1382م)، مقال بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة العدد(47) عام 1988م.
359) محمد حسين ومحمد سالم الطراونة،" دور الظاهر بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة"، مجلة كلية الآداب، م 30، جامعة عين شمس، ابريل- يونيو2002م.
360) محمد مؤنس عوض(د.)، الأسواق التجارية فى عهد الدولة النورية (541- 569هـ)، الدارة ، العدد (3) السنة (16) ، سنة 1990م.
361) محمود سعيد عمران (د.)، "معركة حارم"، المؤرخ العربى، العدد(8) لعام 1977م.
362) ناجلا محمد عبد النبى (د.)، المسلمون فى مملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية، العدد (24) يناير1996م.

تاسعا الرسائل العلمية:

363) أحمد عبد الله أحمد، التجارة فى الساحل الشامى فى القرنين12-13م/ 6-7 هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة عين شمس 2006م.
364) أسامة سيد على أحمد (د.)، الظهير الشامى ودوره فى الصراع الإسلامى الصليبى فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس 1996م.
365) جلال حسنى عبد الحميد سلامة(د.)، الاستيطان الصليبى فى الأراضى المقدسة 1095-1187م/ 492-583هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس2004م.

366) سرور على عبد المنعم، الدور السياسى لحصن شقيف أرنون فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة طنطا1997م.

367) سهير محمد مليجى على (د.)، المرأة الصليبية فى بلاد الشام1098– 1268م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس 2002م.

368) عبد الحافظ عبد الخالق يوسف، الأسواق فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام فى الفترة من495/ 687هـ – 1099/ 1291 م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب– جامعة الزقازيق1989م.

369) عبد السلام محمد زيدان، الحملة الصليبية الثانية، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب– جامعة جنوب الوادى2000م.

370) عبد العزيز عبد الدايم (د.)، إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب – جامعة القاهرة 1971م.

371) على السيد على (د.)، المجتمع المسيحى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب– جامعة القاهرة 1969م.

372) محمد عبد الله محمد مهيوب المقدم، الاغتيالات فى بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة 2005م.

373) محمد مؤنس عوض(د.)، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب– جامعة عين شمس عام1984م.

374) محمد مجدى حسن (د.)، المغول وبلاد الإسلام فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الآداب– جامعة المنيا1991م.

375) منى فريد مصطفى، حماة فى العصر الأيوبى، رسالة ماجيستر غير منشورة فى الآداب، كلية البنات، جامعة عين شمس1995م.

376) مهجة السيد عبد العال محمود، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب المعاصرين للحركة الصليبية(487- 690هـ/ 1095- 1291)، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية1987م.

377) نبيلة مقامى (د.)، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر،رسالة ماجستير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة 1974م.

378) هنادى السيد محمود، مملكة بيت المقدس فى عهد بلدوين الأول (494-512/ 1110-1118م) ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب - جامعة عين شمس2006م.

عاشرا: الموسوعات

379) Encyclopedia Americana, U.S.A., 1970.

380) Encyclopedia Britannica, U.S.A., 1976.